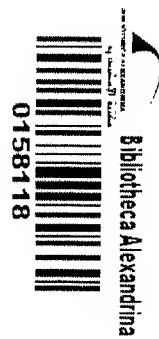


محمد علي الحوراني

# دين وتمدن

الجزء الأول











محمد علی الحومانی

# دین و تمہدین

۱۳۷۷  
۱۹۵۸



عَرَفَ اللهُ بِمُحَمَّدٍ وَعَرَفَ مُحَمَّدًا بِعَلِيٍّ



# اهـراء

أنفق على تخريج هذا الكتاب من ماله ، الوزير السعسودي  
السيد حسن الشربتلى ، وهو الشخصية البارزة فى أعمال السبر ،  
ولقد وقفت بنفسى على كثير من أعماله الجليلة فى منشآته الدينية  
والمدينة ، وعوله كثيراً من الأسر المغمورة بالبؤس ، ولعلنا نفرء  
له كتاباً خاصاً فى الكشف عن أعماله الصالحة ونقدمه نموذجاً حياً  
لأدعاء الإصلاح من رجالنا .

فالى هذه الشخصية النبيلة أقدم سفرى هذا راجياً من ورائه  
الثواب لى وله فى دار الخلود . . .



## تَفْهِيمٌ

ليس موضوع هذا الكتاب علماً يرسم حدوده ويبنى قواعده ويمعن في سرد حقائقه ثم يبعثه إلى العالم حلقة من سلسلة التجارب في الحياة .

ولا هو فن يقوم على العاطفة ، شعراً تتغنى به الأجيال أو لحناً توقعه الأناامل على المعازف والأوتار ، أو أدباً يضافى على الحياة لونها يستهوى القلوب .

أقول : ليس موضوع كتابى هذا علماً كما يفهم الناس العلم ، يرجعون إليه في تحقيق العناصر التى تتقوم بها الحياة ، ولا فناً كما يفهم الناس ، يفتشون إليه كالما حفزهم هم أو هزهم طرب .

ولكنه خليط ، كالإنسان ، من عواطف تتجاوب أصداؤها في مجاهل الحياة الخاصة بى ، ومن عقول تتبارى في مجال السبق إلى تهذيب هذه العواطف بين يدي تلك الحياة .

فلم أكن منذ فمته الحياة ، عالماً متخصصاً بمعن ، إذ يكتب ، في تحقيق ما يكتب وعلى عينيه منظار أحكم العقل العالم توجيهه إلى صميم الحياة في حدود المنطق والبرهان .

ولم أكن ، منذ تأدبت ، أديباً يعنى بتصوير الحياة حاوها ومرها كيف شاء وحيث شاء .

ولم أكن ، منذ شعرت بالحياة ، شاعراً يفكر قبل أن يشعر ثم يعمد إلى وزن القول وإعزابه وسجعه .

لم أكن شيئاً من ذلك ، ولكنى مجزوف حيناً في تيار الحياة وجارف حيناً آخر ، مجزوف حين يغمرنى نعيمها ، وجارف حين يجرفنى بؤسها ، فتمد أشعر وأنا أنظم ، وقد أنظم وأنا لا أشعر ، قد استلهم الشعر وقد يوحى الشعر إلى ، وقد أكتب وأنا متأثر ، كما قد أكتب ولا متأثر ، وقد أسجل الأحداث وأنا مفكر . وقد أفكر ثم لا أدون .

ليس لى نظام فيما أكتب أو أخطب وفيما أشعر وأدون ، أنا فوضوى في كل ما يحدث لى من حياة ، لم ألزم أو لا أستطيع أن ألزم نفسى بالجلوس إلى مكتبى لأدون أو أسجل ، ولا أطيق ارتياد الملاهى والحداث مكرهاً لأشعر

أو أستلهم ، ولا أقوى على إكراه نفسي بالوقوف على منبر أو في محفل أو تحت علم ، ولكنى حين أدعى لأقول أو أكتب أو أنظم ، أسأل نفسي : هل تستجيب لى فألبى الداعى أم تستعصى على فأرفض وقد لا أعتذر ؟؟

أحب أن أكون حراً فى كل ما أقول ، وأن أكون حراً فى كل ما أفعل ، فاذا شعرت بالضغط والإكراه قبل أن أقول صمت وارتج على ، وإذا شعرت بأنى مجبر على أن أفعل شيئاً خرجت من دينى قبل أن أفعل ذلك الشيء ، ففى صميم قولى وعملى يجب أن أكون حراً ، وأن أكون مؤمناً بضرورة ما أقول قبل أن أقول وضرورة ما أفعل قبل أن أفعل ، وفى صميم حريتى أن أفعل أو أترك وأن أقول أو أصمت ، وأنا مؤمن بضرورة ذلك الفعل وهذا القول .

دينى فى أن أومن بضرورة ما أقول أو أعمل وإن تركت قولى وعملى ، وحريرى فى أن أومن بذلك أو أكفر ، ثم قد أفعل أو أقول ما لا أومن به من وراء هذه الحرية ، وعلمى فى أن أبحث وأحلل من غير تعلم أو تقليد ، وأدبى فى أن أصور ما تراه عينى ويشعر به قلبى دونما تصور أو تحسس ، وفنى فى أن ألتقط خواطرى وأسجلها دون أن أفكر أو أشعر ، وقد أتعلم وأقلد ، وأنا أبحث وأحلل ، وقد أتصور وأتحسس ، وأنا أحبر وأصور ثم قد أفكر وأشعر وأنا ألتقط وأسجل .

أنا غبرى وأنا فى معاً ، أحب أن أتمتع بالحياة كيفما شئت وحيثما شئت ، وقد أراعى فى هذا الحب غبرى أو لا أراعيه ، وفى الوقت نفسه أحب لغبرى الخير وأعمل لهذا الخير ، وقد أؤثره على نفسى فى كثير مما أحب ، وأفرط فى أنانيتى حين يستهوينى جمال المرأة ، كما أفرط فى غيريتى عندما يتنافس لدى القريب والبعيد فى اقتضاء الحق .

أنا شجاع وجبان معاً ، أقدم على ما أعتقده حقاً ولا أفكر فى عاقبته أكانت حسنة أم سيئة ، ولشد ما عرضت نفسى من وراء هذا الإقدام لكثير من الأخطار مادية ومعنوية . وأنا جبان حين أؤخذ على غيرة بما يصدع روحى أو بدنى ، إذ لا مجال إذ ذاك لأن أفكر فى الرد على هذا الصدع بروحى أو بدنى ، ولذلك وقعت فى كثير من المشاكل التى نالنى منها ضرر كبير ثم لم أزل



أتحسر على أن نالني هذا الضرر وكنت أستطيع تلافيه لو دفعته عندما فوجئت به .  
أنا مريض وصحيح معاً ، حيث أشعر في كل يوم أو أقل أو أكثر بما يقعدني  
أو يلجئني إلى الفراش ولو بضع دقائق ريثما أستجم أو أعالج ما ينتابني من  
تخاذل في القوة ، أو توتر في الأعصاب ، يوماً أراي في أمس الحاجات إلى  
راحة البدن وإراحة الفكر ، ويوماً أشعر أني مدفوع بكل قوتي إلى الإجهاد  
بحركتي وتفكيري ، ويوماً آخر لا يفيدني شيء من الهدوء ولا الإجهاد ، إلا  
عطف محب أو حبيب يرفه عني .

الأحاض في معدتي ، والتضخم في الكبد والطحال ومسالك البول ، والملاريا  
والدوونتاريا المزمندان ، والزكام المتوالى يوماً بعد يوم ، كل ذلك يتضافر على  
إفلاق راحتي حتى لا أستقر ، وعلى إرهاق أعصابي حتى أكاد أنهار ، وحتى  
أصبحت أضعف وأتخاذل بين يدي قسوة البرد في الشتاء وسوم الحر في الصيف ،  
وبين يدي كل ما يسوؤني من ضغط على روحي وبدني ، لا يعصمني من هول  
ذلك كله إلا الرفاهة في العيش واستجابة الحياة لي بمتعتها المادية والأدبية ، وإلا  
الاعتدال في كل ما يحقد لي من حياة .

أنا رجعي ومجذد معاً ، أما رجعتي فتأتم على أني قديم بروحي وبدني ،  
والقديم بروحه وبدنه لا بد له من رجعي يحن بها إلى مصدره في حاضره ، ويبني  
عليها إنسانيته في مستقبله ، فأنا رجعي بلحمي ودمي وطعامي وشرابي وسماي  
وأرضي ، ومتى كانت هذه كلها قدمة فلا بد من القدم في تفكيري ، وأما  
تجددي أو تجديدي فتأتم على سنة التطور في جبلي ، فأنا بكنه جبلي قديم  
وبتطورها جديد ، فالكنه المعبر عنه « بالهام » في جبلي قديم والتطور المعبر  
عنه بالتلوين والتكوين فيما يعرض لجبلي هو جديد .

فالإنسان ليكون إنساناً ، إنما يقوم على قدمه فما يفكر ويحبر ، ثم يقوم  
على جديده فما يصور ويلون ، فليس لأي إنسان مفكر أن يكون قدماً محضاً  
فيكون نسخة ثانية عن أول حلقة في سلسلة كونه ، وليس له أن يكون جديداً  
محضاً فيسأخ عن جبلة ويكون الحلقة المفتردة في سلسلة وجوده .  
تلك هي شخصيتي التي تملى على القارئ ما أشعر به وأنا أنظم ، ثم تملى

عليه ما أعقل وأنا أكتب ، ففي هذا الكتاب الذى أقدم للقارئ بين يديه سطور هذه المتقدمة ، صورة عن شخصيتى هذه التى كشفت عنها باختلاص لمن شاء أن يقرأنى أو يتحسس من وجودى فى هذا العالم ، فلسفت فى كتابى هذا عالماً كل العالم فياً أخذنى قارئى بالتحقيق فيما أثبت أو أنفى من براهين وحجج ، فإنا أنا مسئول عن تفسير الآية الكريمة فى كتب غيرى ، وإنما أفسرها بما أفهم وأعقل من شخصيتى التى بسطتها أمام كتابى ، ولا أنا مسئول عن صحة أو عدم صحة الحديث الذى أسوقه مرفوعاً إلى الرسول الكريم ، وإنما أكتفى بكونه مرفوعاً إليه صلوات الله عليه من كتب قدر العلم والعلماء خدمة مؤلفيها للحق ثم أسوق الحديث بين يلى ما أفهم وأعقل من شخصيتى .

فأنا فى كتابى هذا مسلم ، ومسلم فقط لا أعرف قومية ولا عنصراً فيما أحبر وأحرر به عتميلتى ، فأنا عربى بلغى فقط ، وأما دعى فالله وحده يعلم من أين تحلر إلى ، ثم إلى أين ينحلر عنى ، وإذا قلت : إني مسلم فانما أعنى أنى إنسان لأنى أعتقد أن الإسلام يعودنى إلى إنسانيتى ، وإنسانيتى وقف على خدمة الحق أينما كنت ، وحيثما حللت ، فأنا إذن على مذهب محمد لا أذهب إلا مذهبه ولا أدين إلا بدينه ...

وكم يؤلمنى أن يذهب المسلمون بعد محمد مذاهب شتى ، فينسوا ، وهم يحكمون ثم يفصلون فى الحكم ، ذكر محمد حتى كأن هذا الدين صادر عن شافعى أو حنفى أو غيرهما ممن دان لله بدين محمد ولم يخطر لهم أن فقه ما درسوه عن محمد سيكون حاثلاً بينهم وبين محمد على السنة أناس أمعنوا فى العصبية والجهل حتى نسوا ربهم ونبيهم ، وحتى أوغلوا فى أشياء ليس فيها حكم للعقل ولا رضى عنها لله ورسوله ، فاذا بنا ، ونحن نرقب أن يسود الأسلام العالم بوحلته وعزته وكرامته ، إذا بنا ، فى عصر النور ، نستقبل الظلمة ، وفى عهد العلوم وازدهارها ، نغرق فى الجهالة حتى يبرأ منا الإسلام .

ففى كتابى هذا ، الذى أقدمه بين يلى آثامى وآلامى ، إلى الحق المهيمن على الكون ، فى هذا الكتاب قدیمی الذى فطرت عليه ، وجديدى الذى وسمنى به ما أصوره فى حاضرى ، وأما أتصوره فى مستقبلى ، ومن أمعن فيما نظمت من

شعر وبعثته للعالم في « حواء » و « فلان » و « النخيل » و « انت انت » ثم ما أخرجت من علم وأدب وقصص في « وحى الرافدين » و « بلاسم » و « ومن يسمع » و « سلوى » و « المأسى » أقول : من أمعن في دراسة هذه الكتب رآها خليطاً من قديم مذهب وجديد مستطرف في فكرة الأثر وديابجته .

ولا بد لي في هذه المقدمة من أن أشير إلى خبر ما أطمئن إليه في كتبي هذه من تجديد في الفكرة يكاد يكون قاصراً في تجالته وجلاله ، كما أعلم ، على موجتين من تفكيري ، إحداهما : وجودية ما يتصوره الفكر الإنساني وواقعيته وأن ليس في كون هذا الإنسان المفكر خيال نعهه نقيضاً للحقيقة وإنما هو حقيقة في عالم الإنسان لم يكشفها العلم ، وقد طغت هذه الموجة على كثير مما كتبت في « بلاسم » . وأما الموجة الثانية فهي ما عاجلت بها إرادة الإنسان وأنه تخلق بها طراز حياته الدنيا عن طريق غير مباشر ، ثم تخلق بهذه الإرادة طراز حياته الأخرى عن طريق مباشر ، والتبسط في هذه الفكرة رهن بدراسة الفصل الأخير من هذا الكتاب وهو « تربية الإرادة » .

فالذي أرجوه ممن يقرأ هذه المقدمة أن لا يقبل على قراءة الكتاب إلا وهو مطمئن إلى أنى وضعته مخلصاً لرسالتى ، ومقبلاً على حياتى الباقية التى أنشدتها في هذه الحياة الدنيا ، فليكن قارئ هذا الكتاب مخلصاً فيما ينشد من وراء ما يقرأ ، فكنتأى هذا هو أنا وأنا هو ، لم أحرر في تحبيره علماً ، ولم أحقق أدباً ، ولكنها شخصيتى على علاقتها فاضت بحياتى فأودعتها كتابى هذا .



... لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ...  
إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ ...  
شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ...

الله



كان القائل الأمريكي « بوليثار » بعد تحريره جنوب أمريكا من الاستعمار الاسباني يتألم لعدم استجابة الشعوب اللاتينية لدعوته في الوحدة كما استجابت شعوب أمريكا الشمالية لحررها. واشنطن ، أقول : كان هذا القائل يتألم أواخر أيامه ويتحسر على أن لم يثمر مسعاه في توحيد الجنوب كما أثمر مسعى زميله واشنطن في توحيد الشمال .

ولم يكن ذلك حذسه في أن الجنوب سيكون مستعمراً لغیره ضرورة خضوع الضعيف للقوى واستكانة الفقير للغنى ، فقد صدق هذا الحذر إذ تقطعت أسباب ذلك الشعب اللاتيني في مجاهله المترامية من وراء بحر الظلمات كما تقطعت أسباب الشعب العربي في الأندلس من قبله وأصبح دويلات فكان من البديهي أن نخضع لغیره وتذهب ريحه ، فالوحدة إذن هي مفزع العالم بأسره إلى الحياة الكريمة الحرة .

ولقد أدرك رسول الحق إلى الإنسانية محمد بن عبد الله سر هذه الوحدة وعظمتها في بناء الكون وتسلسل الوجود فيه فعمد إلى بنائها في نفوس الشعوب وهي شتى الأهواء والنوازع تنافس الحيوان في تنازع البقاء .

وكان الوحي القائم فيه أول موجه له إلى أن الدعوة إلى هذه الوحدة يجب أن تبدأ في العقيدة ثم تتعداها إلى اللغة والآداب ، وقد كان ذلك إذ صدع جبريل سمعه بالدعوة قبل كل شيء إلى توحيد الخالق الذي هو مصدر الفكر البشري في كونه .

والعقيدة أكبر مؤثر في تكوين العقل الإنساني رقياً وانحطاطاً ، فقد كان العربي في الجاهلية كغيره من أفراد الشعوب الوضيعة يشعر من طبعه بضرورة وجود إله يعبد فيتصوره في الإنسان أو الحيوان أو الجاد أو النبات فيتخذ منه وثناً يناجيه ويخضع له ، وقد كانت الآلهة تباع في المعارض وفي الشوارع ، وكان منها في البيت الواحد عدة آلهة لكل فرد من الأسرة إله ، وذلك ما يحز في صميم العقل الواعي ويحول بينه وبين التوجيه الإنساني إلى حياة كريمة تحت هيمنة إله كريم .

أقول : إن محمداً تنبه قبل ألف عام إلى أن الوحدة قوة ، سواء كانت في

الفرد كالاختصاص ، أو في الجماعة كالتضامن والتكاتف ، فها طوَّلاء السفهاء الذين يدعون أنهم أول من فكر في وحدة الفرد فشرعوا له الاختصاص في العلوم والآداب والفنون ، وفي وحدة الجماعة الإنسانية فشرعوا المؤتمرات للتفاهم العالمي ، ثم فكروا في لغة واحدة تهيم على الوجود الإنساني أسموها «الاسبرانتو» وتباروا في الدعوة إلى وحدة الثقافة والسياسة والاقتصاد في كل أمة ثم تجاوزوها إلى شعوب وأمم تتصافر وتتعاون باسم هذه الوحدة .

وإذا كان هدف الغربيين اليوم ، فيما أنشأوه من مؤتمرات وهيآت دولية ، وحدة أمة أو إقليم أو عنصر ، فإن محمداً كان يهدف بما يستوحيه من ربه ، إلى وحدة العالم تحت بنود إنسانية لا يتقوم بغيرها وجود إنساني ، تلك هي : وحدة العقيدة ، ووحدة اللغة ، ووحدة الآداب ، فعن الأولى ينشأ التضامن والتعاون والمحبة ، إذ يعتقدون أنهم أبناء لأب أزلي واحد ، وعن الثانية ينشأ التفاهم والتخاطب الضروريان في الأحياء لاستجابة الحياة ، وعن الثالث ينشأ التعاون والتعايش ، وفي ذلك كله ناموس أول لرقى الإنسان وانصرافه إلى وجهة واحدة في الحياة .

فالقوة إذن في مجموعة الإنسان قائمة على هذه الوحدة وأماننا الشواهد على ذلك من أن أقوى الأمم اليوم ما كانت أكثر وحدة إذ يفضي بها ذلك إلى القوة التي تهيم بها على من هو دونها وحدة في عالم الأرض شريطة أن يعصمها الدين بالعلم من الجهل المفضي بها إلى الفرقة المفضية بها إلى الانهيار .

أما لماذا تدعو الأديان في مطلع وحيا إلى وحدة الخالق فلأن المفروض في كل نوع من الخلق أن يتجه إلى واحد في تقرير حياته ، فنوع العلماء يتجهون ، وهم في دراستهم الأولى ، إلى معلم واحد ، ونوع الساسة القائمين على رعاية الأمة ، يتجهون ، وهم يحكمون الشعب ، إلى سلطان واحد ، ونوع القضاة القائمين على الفصل في الحكم ، يتجهون إلى قانون واحد ، وهكذا نجد الأمة في تعايشها وتبادلها حقوق الحياة تتجه إلى ملك واحد ، ونجد الجوارح في الجسم تتجه ، وهي تعمل ، إلى العقل الذي هو موجه واحد ، وحتى النمل والنحل في الحيوان نجده ، في استقبال الحياة ، يتجه إلى يعسوب واحد .



فالوحدة في الحياة ضرورة قائمة في صميم كل حي ، من أجل ذلك دعا إليها العقل والدين عن طريق الوحدة الأولى في الكون ألا وهي الاتجاه فيما يتقوم به ذلك الكون إلى مكون واحد ، وسمو الغاية في نفس كل حي منوط بالاتجاه إلى ما قر فيها منذ الأزل من تحرى الكمال فيما تعمل له ، ولذلك نرى التقليد ، منذ كان هذا الإنسان ، ماثلاً في الصغير تجاه الكبير وفي الجاهل تجاه العالم وفي القوى تجاه الضعيف إذ قر في النفس أن الكمال قائم في الحياة على القوة والعلم ، فاتجاه المخلوق إذن بالوحدة إلى خالقه محض اتجاه إلى الكمال المنشود له ، من وراء طبعه لا يصرفه عنه إلا الجهل ، من أجل ذلك كانت دعوة السماء إلى توحيد الخالق مشفوعة بالدعوة إلى العلم الذي يرفع العقل في فقه الحياة من وراء ذلك التوحيد .

ذلك هو السر في أن الله جعل الدعوة إلى توحيد مرحلة أولى في تهذيب عقيدة الإنسان الكريم على خالقه والذي هو خليفته في رعاية عوالمه الدنيا المسخرة له بفضل العقل ، ثم جعل الدعوة إلى العلم مرحلة ثانية في تعزيز تلك العقيدة وتقريرها ، أن الله تعالى يدعو إلى توحيد ليقرّب خلقه منه ، ويدعو إلى معرفته ليحييهم في عظمتهم المهيمنة على الكون ، ومثلاً على ذلك :

أن أقرب المتعلمين إلى معلمهم من آمن به وأخذ عنه وأحلّه من نفسه مكانة لا يحتلّها معلم غيره ، وإن أقرب البنين إلى أبيهم من آمن به وخضع له وتأدّب عليه ، وإن أقرب الرعية إلى الراعي من دان للسلطان وأخلص له ونزل على حكمه ، فالمعلم يحيل نفسه في تلميذه وهو يقبل عليه ويتقبل منه ، والأب يحيل ابنه في ذاته وهو يحترمه ويخضع له ، والحاكم يستخلف محكوم في رعيته وهو يخلص له ، ويأتمر بأمره ، سنة الله في خلقه أن يتجاوب القوى مع الضعيف والكبير مع الصغير والعالم مع الجاهل من وراء الوحدة في الكون الجامع بين الضعيف والقوى وبين الصغير والكبير ثم بين الجاهل والعالم في صميم الحياة الصادرة عن باري الكون .

والوحدانية صفة عريقة في نفوس الأحياء منذ كانت هذه النفوس ، فالمعلم يحب أن يكون فرداً واحداً في نفس من يتأدّب عليه ، ورب الأسرة يحب أن

يكون وحده محترماً في أسرته ، والمهيمن على الرعية ، زعيماً كان أو رئيساً أو ملكاً ، يحب أن يكون وحده معبود رعيته ، هكلنا نجد كل إنسان مفطوراً على هذه الأنانية لأنها صفة خالقه الذي هو مثل أعلى له ، فأكثر صفات الخالق قائمة بالطبع في نفوس مخلوقاته ، وليس الكرم والإحسان والقوة والمهيمنة والرحمة واللفظ والعلم والخبرة ، أقول : ليست هذه ونحوها من الصفات العليا إلا صادقة على الخالق والمخلوق معاً في أزليتها ، ولكنها تختلف شدة وضعفاً ، وبقاء وزوالاً ، باختلاف الأرباب والمربوبين ، فالصفات هذه في الرب هي عين ذاته وباقية ببقائه ، وهي في المربوب عارضة عليه زائلة بزواله .  
 فالله لا إله إلا هو ، لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ،  
 هذه الآيات الكريمة وأشباهاها هي مرحلة أولى للعقل البشري في اجتياز الحياة إلى الخلود .

## محمد لَا يَشْكُرُ اللَّهُ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ

يكتب إلى محرر صحيفة ما في لبنان ، وقد بعثت إليه بقصيدة أشربتها كثيراً من عواطفى تجاه منزل ألوحى في الحجاز ، وجعلتها صلة أولى بينى وبين الوزير السعودى الشيخ محمد سرور الصبان الذى كان صديقى ورفيقى أيام تقلى فى منازل الوحى ومصادر الإلهام .

يكتب إلى الصحفى فيقول : إن المجلة لا تنشر مدحاً لأحد ، ولكنها فتحت صدرها لهذه القصيدة عناية بالشاعرية الغذة التى تهب القصيدة قسطاً وافرأ من الفن الرائع والأدب الرفيع .

واقراً قصيدة لأحد شعراء سوريا ، مهاجم فيها الشاعر اللبناني بشارة الخورى المعروف بالأخطل الصغير لأنه مدح الملك السعودى بقصيدة فريدة من شعره عدد فيها مناقبه وأشاد فيها بفضله عليه خاصة وعلى أمته عامة ، يتهم هذا الشاعر الناشئ شاعرنا الفحل بأنه خرج على دولة الشعر العزيرة وتدنى بشعره إلى الحضيض بمدحه ساسة الأمة فى سبيل العيش التافه .

ولكن الشاعر الناشئ هذا وزملاءه من الشعراء المخنثين المائعين مملأون الصحف بمدح الزهرة أو المرأة أو الحمرة ثم يتبعجون بأن الشعر تصوير للحياة ، فكأن الحياة قاصرة على هذا الشكل المهين من النبات والحيوان ، وكأن الحياة بعيدة كل البعد عن الإنسان الكامل الذى يقطع ليله ساهراً على أمته ويقطع نهاره مكباً على مكتبته ، ثم نراه طائراً من بلد إلى بلد ومن أفق إلى أفق يجمع شتات الأمة ويؤلف بين قلوب الساسة من المسيطرين على البلاد .

فاذا شهد الشاعر من هؤلاء الجرابيع الذين ابتلينا بهم فى عصر يتطلب الفحول من شعرائه — إذا شهد أحدهم ملهى تتلوى على مسرحه الرواقص أمثال تحية كاريوكا وسامية جمال ، واستجاب لشهواته فى وصف الجسد العارى ، أو إذا شهد مقهى تدار فيه كوأس الخمر وتعزف القيان على المزاهر ، أقول :

إذا شهد أحد هؤلاء المائعين العضاريط من شعراء الشباب المتحرر بعض هذه المشاهد ثم أمعن في وصفه وأذاعه على الملأ ليعزز به شرود ناشئتنا وخروجها على الأخلاق ، فذلك هو الشاعر .

وأما الشاعر الذى يشعر بالحاجة الماسة فى الأمة إلى رجال يضحون بأنفسهم وأمواهم فى سبيل الحق وفى سبيل النهوض بالأمة إلى المستوى الذى يعصمها من الانهيار ، أما هذا الشاعر فهو الحرى بألقاب السوء ، على ألسنة هؤلاء وتعصدهم بذلك الصحافة المارقة ، فتسيع عليه لقب الرجعى تارة وألقاب السخف والتهافت والاستجداء تارة أخرى .

العجب كل العجب فى أن الرجل الغنى أميراً كان أو ملكاً أو رئيساً إذا أغدق المال على الصحافة والأندية ورجال السياسة الخرقاء ، حفلت به صدور الصحف تتبارى فى عرض صورته واختلاق أعماله ، أما إذا أغدق هذا الثرى على الشاعر والأديب فالويل كل الويل له ولها من الصحف وحتى من الأدباء والشعراء . لماذا ؟؟ أبحق للصحيفة أن تتعزز خلاعتها ودجلها ومجونها بمال الأثرياء ولا يحق للشاعر أو الأديب أن يعزز شعره وأدبه بأمواهم ؟؟ وإذا كانت المدرسة أو أى معهد للعلوم أو الفنون جديرة بمال الأغنياء لتعزيز العلوم والفنون فلماذا لا يكون الشاعر أو الأديب ، وهما المدرسة الخالدة على الدهر ، جديراً بهذا المال ؟؟

مسكين هذا الشاعر ، عليه أن يصور حياته حافلة بالمرأة ولو كانت فاجرة ، وبالخمرة ولو كانت حراماً ، وبالنقمة على قادة الأمة الجائرين ولو حطموا رأسه ، وبالجهد فى سبيل الحق ولو كان أعزل ، عليه أن يصور هذه الحياة ويدعو لها ويتفانى فيها ولو كان فى ذلك بوئسه وشقاؤه وعلته التى تخرم أجله ، وأما إذا صور حياته حافلة ، إلى ذلك كله ، بشكر ملك عزز أدبه ، وغذى فنه ، وأبقى على حياته ، أو بالنداء على أعمال رئيس أو وزير أو أمير ، أو ترى كائناً من كان ، ولو كانت هذه الأعمال ملء سمع الدهر وبصره ، أقول : أما إذا صور الشاعر حياته هذه فهو بعيد عن قيم الفن وقريب من لعنات الحق .

كبر على هؤلاء المجان المخانيث من أدعياء الشعر والأدب ، كبر عليهم

أن يروا زميلاً لهم سابغ العيش ، ندى الحياة ، وهذا هو منتهى اللوم في شركاء المهنة ، هل كان منذ الأزل مفروضاً على الشاعر أن يكون بائساً وعلى الأديب أن يكون شقيماً ؟؟ وإذا كانت الحياة الغنية تمتع العيش حراماً على الشاعر والأديب فلمن تحل ؟؟ أهؤلاء الفسقة المرققة من ساسة وصحفيين وجلاوزة يلهبون ظهور الأمة بسياط الجور والخسف ؟؟

وإذا كان الملك سعود الذي رصده من سلطانه مآت الملايين لتعزيز الحرمين وإغاثة فلسطين والجزائر وبور سعيد ، ثم لإيفاد البعثات العلمية إلى مصادر العلوم والفنون في العالم المتمدنين . وإشادة المعاهد العلمية والمصحات في بلاده الفقيرة من كل ذلك ، وإذا كان الوزير الصبان الذي لم تبق أسرة عاثلة في بلده وبلد غيره إلا أجرى عليها دخلاً مرتباً ، .. أقول : إذا لم يكن هذان أو مثلهما في الأمة جديريين بتخليد الشاعر فمن هو الجدير من الأمة بهذا التخليد . ليس الكريم بماله ونفسه على الخير رجلاً وإنما هو أمة أو عالم ، من أجل ذلك لم مدح الشاعر فرداً ولم تخلد بشعره شخصاً وإنما ألهمه الحق بذلك تسجيل النبوغ الإنساني على صفحات الخلود ، فكلم شاعر لولا مليكه الممدوح لما حملته التاريخ إلينا في إطار من نور ، وكلم مليك لولا شاعره لما تأثرت بأعماله الأجيال . وفي القرآن كثير من المدح والإطراء لأشخاص بأسمائهم كانوا ملوكاً وأنبياء وحكماء فليتنبه إلى ذلك كله من ران على قلبه اللوم والحسد والجهل من هذه الفئة التي يدعيها الأدب الفج والشعر الهزيل .

ولقد بلغ بسخف هؤلاء أن صارحوني بأنى كنت مجتهداً في ديوان « حواء » القاصر على وصف المرأة العابثة ، وأنى كنت رجعيّاً في ديوان « انت انت » القاصر على وصف محمد رسول الحق إلى العالم ، وهذا الناقد الذي صارحني بذلك بحبر الفصول في الصحف يبعث أبى نواس من خمارته وبعث بشار من ماخورة ، فهل كان محمد ، وهو صاحب الرسالة السماوية إلى الأرض ، غير جدير بالهام الشاعر ، وكان بشار وأبو نواس جديريين بعقرية هذا الإلهام ؟؟ من هم هؤلاء الناس الذين يجب شكرهم على شاكر الله في قول الرسول : لا يشكر الله من لم يشكر الناس ؟؟ هل هم إلا أمثلة الله وخليفته في أرضه ؟؟

إن العالم ، ليكون خالداً بنوعه البشرى ، يفتقر بعضه إلى بعض ، فالفقير الذى لا بد منه فى سلب الحياة ، يفتقر إلى الغنى الذى لا بد منه فى إيجابها ، وهكذا نجد الضعيف والجاهل مفتقرين إلى القوى والعالم ضرورة امتداد هذه الحياة إلى الأجل المحتوم لها فى عالم الغيب .

فلتقوم الحياة بالقوى والضعيف ، والغنى والفقير ، والعالم والجاهل ، يتنزل وحى السماء على الأرض بالدعوة إلى الحق فى فرض الشكر على كل من هو لاء لكل منهم ، ثم بفرض هذا الشكر عليهم جميعاً للمنع الأول وهو باعهم فى هذه الأرض ، والشكر ليس قاصراً على اللسان وإنما هو من قبيل العمل مثلاً هو من قبيل القول ، فشكر الفقير للغنى المحسن إليه ، بلسانه مضافاً إلى العمل على خدمته بجوارحه ، وشكر الغنى للفقير الخاضع له ، بلسانه ، أيضاً مضافاً إلى عونه بالإنفاق عليه ، وهكذا تعلق الصلة بين الجاهل والعالم وبين الضعيف والقوى ، بالشكر المتبادل فيهم .

وقد يكون الفقير بماله غنياً بمقاله كالأديب والشاعر ، وقد يكون الغنى بماله فقيراً بمقاله ، فيكون لكل منهما حق على الآخر وعلى كليهما واجب تجاه الآخر . فلم يكن المال الذى يجود به الغنى للجاهل على الفتير العالم بأبقى أثراً وأخلد أجلاً فى تقويم الحياة ، كما أن محبة الضعيف للقوى الخافى عليه ليست بأقل تقويماً للحياة من هذا الخنو ، وهكذا نجد أن تقدير الجاهل واحترامه للعالم الخفى به ، لا يقل قيمة فى الحياة عن رعاية العالم للجاهل والحرص عليه . إذن فالشاعر إذا مدح من هو أهل للمدح سواء أجزى على مدحه من ممدوحه أو من الحق المهيمن على هذا الممدوح ، فانما هو قائم بما يجب عليه من الشكر للناس مضافاً إلى شكره خالق الناس ، والملك أو الرئيس أو الأمير إذا رعى بماله أو سلطانه ، شاعراً أو أديباً فانما هو قائم كذلك بما يجب عليه من الشكر سواء أجزى من شاعره أو لم يجز ، فان الذى يجب أن نفهمه من فرض الشكر على الإنسان للإنسان ليس مجرد البذل من الغنى للفقير أو الرفق بالضعيف من القوى أو العطف على الجاهل من العالم ، وإنما هو آسمى من ذلك .. انه صلة الرحم الأولى بين الإنسان والإنسان منذ أزلية هذا الإنسان .

سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي ، فَأَنِّي بِطُرُقِ السَّمَاءِ  
أَذْرَى مِنِّي بِطُرُقِ الْأَرْضِ

هَلْج

يستكثر بعض الناس على الإمام على أن يقول ذلك لما فيه من الأنانية والدعوى ، وأن إنساناً على هذه الأرض الجامعة بين الخير والشر في بنينا منذ جبلتها الأولى ، لا يقدم على ما يشعر بعصمته وكماله .

ولكنهم إذا رجعوا إلى قول محمد معلم عليّ هذا حيث يقول : أنا مدينة العلم وعلى بابها ، وإذا رجعوا إلى قول هذا المعلم : من زهد في الدنيا علمه الله بغير تعلم ... ، ثم إذا وقفوا على قول الإمام في غير مكان من هذا الكتاب : إن في السماء مدناً كلدكنكم هذه تربط بينها أعمدة من نور ، أقول : لو رجع هذا المنكر إلى تلك الأقوال ، لأراح نفسه من عناء التفكير في انكار هذا القول على الإمام واستحالة صدوره من إنسان يبحث في السماء وهو على الأرض .

فهل حفظ التاريخ لنا أن سائلاً أفحم علياً بعد أن قال : سلوني قبل أن تفقدوني ؟؟ وعلى العكس يحفظ لنا التاريخ أن كثيراً من السائلين المتعنتين كانوا يتحدونه ، وهو على المنبر ، بأسئلة في العلوم والفنون التي لا تمت إلى الوعظ والإرشاد وأحكام الدين بسبب ، وكان على يجيبهم بما ينهلهم فيما وعوا ونخزهم فيما أسروا ، ومن شاء الكشف عن ذلك فليرجع إلى شرح العلامة ابن أبي الحديد لنهج الإمام منذ ألف عام .

ولقد نرى اليوم في الصحف أبواباً خاصة في العلوم والفنون ، ونرى فيها باباً للسؤال والجواب تختص به رجل كاحسان عبد القدوس في «روز اليوسف» ، وكأمينة السعيد في مجلة الهلال ، ونرى عنوان هذا الباب : «سألوني» فهل كان إحسان هذا وهو «صاحب البدائع» ... وأمينة هذه وهي «أم المؤمنين» هل كانا أحق بكلمة «سألوني» من علي بن أبي طالب وهو وزير محمد وعضده ووصيه من بعده ؟؟...

ويعن بعض العلماء في تأويل كلمة الإمام هذه على الشكل الذي يحفظ

تواضعه كإنسان ، وأن أى إنسان لا يجروء على الدعوى بأنه فى السماء أعلم منه فى الأرض يقول هذا البعض : إن الإمام مع افتراض سموه وعلوكعبه فى العاوم ، لم يخرج عن كونه إنساناً ، وإلا كنا مغالين فى تقديره ، والنبي كان قد تنبأ لذلك بقوله : يا على هلك فيك اثنان : عدو قال ومحج غال « وحمل الإمام على الحقيقة فى قوله : إني بطرق السماء أعلم منى بطرق الأرض » يدعونا لأن نكون مغالين فى تحديد شخصه .

أقول : بمعن هؤلاء بتأويل قول الإمام فى أنه إنما أطلق العام وأراد به الخاص . وهو من مجاز اللغة فى علم البيان ، فقد أراد بطرق السماء الخطط التى يضعها الله فى السماء لهدى عباده فى الأرض ، وهذه الخطط هى النواميس الدينية التى ينزل بها الروح الأمين على الأنبياء والرسل المصطفين لتبليغ الرسالة الإلهية فى الخلق ، ويريد الإمام ، وفقاً لذلك ، بقوله : سألوني قبل أن تفقدوني « أن يكون السؤال فى حدود هذه الخطط لا أهما فى شتى العلوم والفنون » ذلك ما أراده هؤلاء المتأولون ، وأرائى جريئاً على أن لا أحسب حساباً لهذا التأويل ، وإنما يصح التحمل فى ذلك حرصاً على تنزيه الرجل الناقص من أمثالنا ، فأما الرجل الكامل من أمثال على ، فلا يصح أن نتأول عليه ولا له . لأنه ثبت عن طريق النقل كونه معصوماً بقول معلمه محمد : على مع الحق « وعن طريق العقل من أن الرجل الكامل لا يتهافت فى تفكير ولا عمل ، وأن فى وجود الإنسان حقاً يهيم عليه فيعصمه من هذا التهافت .

ولقد جربت ذلك بنفسى إذ شئت انتقااص من هو فوق وعملت على كسره فحال بينى وبينه حاجز لم يكن فى طوق اجتيازه ، وأفضى بى ذلك إلى أن أتعظ وأعتبر فغفر لى الله ذلك ثم عصمتى ممن حاول انتقااصى وكسرى . وقد كنت أتعتمد الغيب فى دفع ذلك عنى فيؤاتينى بالمعجزات ، أذكر ، وأنا فى دمشق ، دعيت إلى مجلس ضم بعض الأعيان السوريين من رئيس جمهوريتها إلى وزرائها وأعيانها ، وقد كان فى المجلس وزير متقاعد ولكنه متفهم وأناى ومتعنت ، وقد تناول البحث هناك شيئاً من علوم اللغة ، وكنت أكثر أهل المجلس قولاً على البحث فى دقائقها ، ولحظت أن إكثارى لا يرضى



أنانية هذا الوزير فعمد إلى تنقيصى بالتدليل على جهلى فى اللغة فقال : ان الأستاذ الحومانى علم من أعلام اللغة . فلا تسأله عن شئ إلا وبجيبك عنه بدقة وإحكام . ثم حور الحديث إلى صيغة الجموع وتناول كلمات شاذة مثل «أضحى» فى عيبه الأضحى هل هى مفرد أم جمع ثم وصلها بالتدليل على عراقة فى علم اللغة بأن قال : إن الأضحى جمع أضحاة ، والتفت إلى يستشهدنى سائلا : هل فى اللغة العربية ما يشبه هذا الجمع : ؟؟ فقلت : نعم ان أرطاة تجمع على أرطى فقال : وما الأرطى ؟؟ فلحظت بلمح البصر محاولته إحراجى ، وكنت أجهل معنى الأرطى أو أنساه ، ولحظت مع ذلك عصمة الحق لى باعتمادى عليه وأجبتة بغير توقف : إنه شجر تأكله الإبل .

وصمت فلم أتكلم بعد ذلك سائلا رى أن أكون مصيباً فيما أجبت ، أو أن يصرفهم عن تحقيق معنى الأرطى فى قواميس اللغة إذا كنت غير مصيب ، وشد ما كان ذهولى بالغاً ويطيئى بالحق متيناً إذ عدت إلى منزلى وبحثت عن الأرطاة فإذا هى نبات تأكله الإبل ، فليعتبر من شاء بما أنقل عن تجربة وليعمد إلى نفسه فربها على خدمة الحق فانه يعصم من لاعصمة له .

ولقد سألتنى ، وأنا فى أمريكا ، بعض الطلبة العرب ، فى حفل جمع ثلة من ذوى الفضل وفهم كثير من المهاجرين ، سألتنى هذا الطالب : هل هناك دليل علمى على إمكان حساب الإنسان يوم القيمة فى كل ما فعله ودار فى خلقه منذ كان إنساناً حتى زال به الوجود ؟؟ فقلت نعم دون أن أفكر أو أتوقف لحظة واحدة معتمداً على الحق العاصم لى فيما أخدمه به على الأقل ، ثم تابعت البحث :

انكم تسمعون باسم رجل يدعى «أديسون» خالق الاسطوانة لتسجيل الصوت ، قالوا : أجل : فقلت أيقوى أديسون على تسجيل ما تنفوه به ولا يقوى رب أديسون على تسجيل ما يصدر عنك من قول أو عمل ؟؟ أفلا يمكن أن يكون هذا الأثر الذى يشتمل علينا ، اسطوانة ، تسجل كل ما يصدر عنا من حركة تبتى ببهاء القوة الصادرة عنها حتى يعود بنا الله فى نشأتنا الأخرى ؟؟ فان العلم الحديث يثبت الآن خلود الروح ، وكل قول أو عمل يصدر عنها هو خالد مخلودها .

ولنعد إلى الإمام على الذي كان أزهد الناس بدينياه والرسول يقول: من زهد في الدنيا علمه الله بلا تعلم ، من هنا نسمع له وعنه إخباره بالمغيبات كقوله ؛ لو شئت لجعلت لكم من الماء ناراً » وقوله : والذي بعث محمداً بالحق لولا خوفي من أن تكفروا بي فيه لأمليت عليكم علم ما كان وما يجيئ ، فوالله ما فارقتة حتى مر على سمعي بكل شيء ...

تلك هي آثار محمد وأهل بيته وأصحابه الذين اتبعوه باحسان ، ماثلة أمامنا في أقوالهم وأعمالهم تبعث فينا أقوى الإيمان بأن علمهم قائم على الحكمة الملهمه لأنه وحى يتنزل به الروح الأمين على نبيهم من لدن حكيم خبير .  
وللإمام على شخصيتان عبقريتان ، إحداهما إنسانية ترايبية تضعف حتى يستسلم لأوهن الأحداث كانهضباعه للتحكيم بالكراهة عنه يوم صفين ، وكانقياده موثوقاً يوم تهديد عمر داره بالإحراق ، وثانيهما جبروتية سماوية تقوى حتى لا يصمد أمامها جبروت كجندلته عمرو بن عبدود يوم الأحزاب ودكه حصن خيبر ثم اقتلاع باب الحصن وهو ما تطيقه قوة إنسان ، فشخصيته الأولى هي الصلة بينه وبين البشر وشخصيته الثانية هي الصلة بينه وبين الملكوت الأعلى .  
وللتدليل على هاتين الشخصيتين وأنهما ركبتا فيه ، قوله لسائل سأله حين رآه يعجز عن كسر قرص يابس من الشعر بيديه فاستعان على كسره بركبته قال له السائل : كيف تضعف عن كسر القرص وأنت داحي باب خيبر ؟؟  
فقال له الإمام : ثكلتك أمك تلك قوة الله وأما هذه فهي قوتي ...

خَلَقَ الْإِنْسَانَ ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ، عَلَّمَهُ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَهُ  
الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ، فَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ،  
إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ، وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ، شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ  
إِلَّا هُوَ ، وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ .

من جليل ما سمعت على ألسنة بعض الشيوخ البررة ، حديث في العلم  
مرفوع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، دون أن أثبت منه في كتاب قرأته ،  
ذلك هو : أنه سئل عليه السلام من بعض أصحابه الأذنين إذ بالغ في حثهم على  
العلم ، سئل : ما هو العلم يا رسول الله ؟؟ فقال : هو أن تسمعوا ، قالوا :  
ثم ماذا ؟؟ فقال : أن تعوا ما تسمعون ، قالوا : ثم ماذا يا رسول الله ؟؟ فقال :  
أن تحفظوا ما تعون ، قالوا : ثم ماذا ؟؟ فقال : أن تعملوا بما تحفظون ،  
قالوا : وهل وراء ذلك شيء ؟؟ قال : بلى : أن تخلصوا بما تعملون »

وسواء صح نقل هذه الكلمة عن رسول الله أم لم يصح ، فإنها تشير إلى  
عظمة العلم في نفسه وصدور مثل ذلك عنه جدير به كما سيحققه البحث بعد  
صفحات من هذا الكتاب ، ولست الآن بصدد إثبات هذه الرواية ولا نفيها ، ولكننا  
في سياق البحث عن عظمة العلم في الكتاب والسنة بين يدي العقل ، وإنما عرضنا  
لهذه الكلمة إعجاباً بأساوبها وأشمالها على أدق تحديد للمعرفة في بيان خليق أن  
يمثل حرص النبي وأصحابه على العلم وتحديدده ، إذ كانوا يمعنون في اكتناه  
بيانه ، وتحديد الهدف الذي يرمى إليه ، من أجل ذلك كانوا يكثرون في  
استفهامهم ، من قولهم : ثم ماذا يا رسول الله ؟؟

ولنعد إلى بحث العلم في ذات الله وذوات خلقه ، إذ يفرضه علينا مطلقاً  
دونما تقييد فنقول : ان علمه تعالى إشعاع من ذاته على الكون ، وهو علم كلي ،  
وأما علمنا فجزئي منبثق عنه ، من أجل ذلك ينهانا عن أن نخوض فيما لا طاقة لنا

في خوضه من علم أشياء فطرنا على الجهل بها ، كادراك الروح واكتناه غيبها  
إذ لم نؤت إلا قليلاً من العلم وهذا العلم القليل قاصر عن إدراك الغيب الخاضع  
لعلمه الكلى المحيط بالكون ونحن جزء منه .

وعلى اعتبار أن صفاته تعالى عين ذاته يصبح معنا أن نقول : إن الله علم  
محض ويقابل ذلك أنا جهل محض بالنسبة إليه ، تعالى عنا علواً كبيراً ، فالعلم  
المفروض علينا هو هذا الجزئ الذى ندرك به وجود خالقنا والفرق بيننا وبينه ،  
ثم ندرك به وسائل الحياة التى ترفعنا عن مستوى العوالم الدنيا التى نهيمن عليها ،  
وهذا العلم الجزئ بالنسبة إلى علمه الكلى يعد جهلاً .

فلا يصبح أن نغزو علم الخالق وعلم المخلوق إلى مصدر واحد ولا إلى كنه  
واحد كما لا يصبح أن نعتبر أية صفة يشارك المخلوق بها خالقه في اللفظ كالمصور  
والمبدع والكريم والمحسن والمهيمن والمؤمن وغير ذلك من الصفات التى نطلقها  
على أعياننا وعلى خالقنا ، أقول : لا يصبح اعتبار هذه الصفات فينا صادرة عن  
الكنه الذى صدرت عنه صفات الله العليا ، فعلمه إشعاع ذاتي ، وعلمنا قائم في  
انعكاس ذلك الإشعاع .

علم الله يتقوم به كيانه وكونه ، وأما علمنا فاقتباس روحى لمخلوق نقيين به  
ظاهراً من حياتنا القائمة فينا والمهيمنة علينا ، فاطلاقنا على خالقنا شيئاً من هذه  
الصفات محدود بعقولنا ، وعلى مقدار هذا العقل نتصور خالقنا ، فالعقل الأول  
أو عقل الإنسان البدائي كان يتصور خالقه إنساناً كاملاً الخلق أو جرمًا خليطاً  
من الإنسان وغيره لإشعاراً بكونه يغير خلقه .

ثم يتطور هذا العقل الإنسانى إلى حد ينكر معه بفضل العلم ، تحديد الخالق  
بشكله وعقله ، ثم يترقى هذا العقل ، وبفضل تعزيز العلوم أو الإيمان في  
تهذيب الروح أيضاً ، يترقى الإيمان بأن التفكير في كنه الخالق محال على المخلوق  
لأن الوسيلة التى يفكر أو يعقل بها المخلوق قاصرة بطبيعتها عن الخوض في هذا  
التفكير .

إن الهوة بين علم الخالق وعلم المخلوق حقيقة جداً لأن علمه عين ذاته وأما  
علمنا فعارض علينا ومحدود فينا يستحيل عليه أن يحيط بذات خالقه كما يستحيل

على أثر الإنسان أن يفكر في كنه الإنسان ، وإذا كانت الحكمة من الأثر الذى نخلقه كالطيارة والسيارة هى فى صميم حياتنا ولا يشعر هذا الأثر بالحكمة من وجوده ، كذلك نجد الحكمة ، لو كشف لنا الغيب ، فى صميم حياة خالقنا أو حياة من كنا له من عالم خفى عنا مهيمن علينا .

نستطيع أن نجد علم الإنسان لأنه فى حيزنا نحن عالم الإنسان ، نحده بأنه نفحة قدسية من عالم يفضلنا فى كنهه ، إتحدت مع نواة الحياة الأولى ، تنمو تلك النفحة مع هذه النواة بتنمية الحواس فىنا على شكل فى خاص بنا ، والعقل الذى يهيمن علينا هو الوسيلة التى يتدرج بها الإنسان إلى تنمية هذه الحواس . والتفاوت الطبيعى فى قوى الإنسان الفكرية والجسمية هو الذى يكشف للعقل أسرار العلوم والفنون الكامنة فى نواة الحياة الأولى بفضل تلك النفحة اللطيفة التى تتحد معها لتصل عالماً أسفل بعالم أعلى فى سلسلة هذا الكون الغامض ، فكما أن فىنا هذه النفحة تصلنا بمن فوقنا مما يهيمن علينا ، كذلك نجد فىمن هو دوننا ومسخر لنا نفحة قدسية تصله بنا ، وهكذا دواليك تترقى هذه العوالم بتلك الصلات .

العوالم حلقات تتألف منها سلسلة الوجود، ولكل حلقة كيان خاص بها يهيمن على وجودها الذاتى، ولها كيان عام يهيمن على وجودها الخارجى وهذا الوجود هو الصلة التى تنوطها بغيرها من الحلق ليتقوم بها اتحاد عام ، فهى بكيانها الخاص حلقة ، وبكيانها العام سلسلة ، على أنها إذا فرضنا التطور من أسفل إلى أعلى فى هذه الحلق ، يشكل علينا وصل الحلقة الأخيرة بالحلقة الأولى ليصبح معنا إطلاق لفظ السلسلة على مجموع الحلق ، لأن المفروض فى أول حلقة أن تنحدر فى جوهرها عما يليها من الحلق، إلا أن نعتبر هذه السلسلة ذات طرفين أحدهما بالغ الغموض فى الصغر وآخرها بالغ الغموض فى الكبر لا يحيط بكنه الحياة فى هذا الغموض إلا الحى الخالد الذى يقصر عن إدراكه كل ما تتألف به هذه الحلق فى طريقها إلى كيانها العام من روح تعى وعقل يفكر .

هذا التفاوت بين كائن وآخر فى كل نوع من الوجود كالتفاوت فى نوع الإنسان بين سمع وسمع وبين بصر وبصر ثم بين فكر وفكر ، أقول : ان

هذا التفاوت هو الباعث الأول للعقل على فتق العلوم والفنون في تقويم الحياة وتنمية كيانها الخاص حرصاً على الصلة التي تؤهلها للاشتراك مع غيرها من أنواع الحياة في تقويم كيانها العام .

إلى هنا نقف في تحديد العلم الذي يشارك به الإنسان غيره من العوالم التي يتألف منها هذا الكون الجبار الخاضع بنواميسه لقوة مبدعه الأول تعالت عظمتها عن أن يحيط بها جزئى لا يتناهى في صغره ، من كلى لا يتناهى في كبره ، نطلق عليه لفظ العقل تارة ، وألفاظ الفكر والروح والجوهر تارة أخرى ، وهو في حقيقته شئ واحد .

هذا العلم الذى ألعنا إليه بالتحديد الظنى ، وهو الشامل لكل ما يحق بالإنسان الحى من وسائل الحياة في طريق بقائه فرداً ونوعاً ، أقول : ان هذا العلم هو المفروض على الكائن الحى منا ، وهو المعنى بقوله عز من قائل : خلق الإنسان علمه البيان ، وقوله : الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ، وتقرير ذلك ثم تكريره في كثير من فرقانه الذى يفرض به علينا العلم لتدبر كونه القائم فينا فنتقوم به ، وتدرك من وراء عظمتها كمالنا المنشود .

وإذا تحرينا السر الذى من أجله فرض الله علينا العلم المطلق حتى علم السحر لصديق العلم عليه ، وقد أطلقه الله ورسوله إذ قال عز من قائل : أفلا يعلمون ؟؟ ، أفلا يتفكرون ؟؟ أفلا يفقهون ؟؟ وقال صلى الله عليه وسلم : اطلبوا العلم ولو في الصين ، اطلبوه من المهد إلى اللحد ، طلب العلم فريضة » من هذا وكثير أمثاله في الكتاب والسنة نفهم انا مأمورون ديناً وعقلاً بطلب العلم وأن العلم المفروض علينا مطلق لا حد له ما لم يفض بنا إلى فقد الكمال الذى ننشده بالعلم ، أقول :

إذا تحرينا هذا السر ، ورأينا من وراء هذا التحرى أن الله قوّم الكون بوحدانيته ، وأن إدراك هذه الوحدانية قائم على الثالوث المقدس : الله وملائكته وأولو العلم من خلقه ، حيث يقول : شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم . . . . إذا تحرينا هذا السر من وراء ذلك كله ، علمنا أن طلب

العلم ليس واجباً فحسب وإنما هو الواجب الأول فيما يتلقاه الإنسان من ربه على لسان رسوله والمقربين إليه من خلقه .

وفي قوله صلوات الله وسلامه عليه : النظر في العلم ساعة خير من عبادة ستين سنة ، وقوله : مجلس العالم خير من صلاة ألف ركعة وشهود ألف جنازة وعيادة ألف مريض ، وقوله تعالى : « إنما نخشى الله من عباده العلماء » والمفروض في الحشية أنها التقوى وإن أكرم الخلق على الله اتقاهم ، أقول : في هذا كله برهان على أن العلم ليس واجباً أول فحسب وإنما يتجاوز ذلك إلى كونه واجب عن لا واجب كفاية وأنه فريضة أولى في الفرائض العينية .

وأبعد من ذلك تعليلاً في أن ما مر من آيات وأحاديث تفضي بنا إلى اعتبار العلم واجباً عينياً أول ، أقول : إن ما هو أبعد في تعليل ذلك أن نلمس البرهان في بحرى العلوم وأثرها في تقويم العالم ، فلو فرضنا أنه واجب كفائي لنسقط وجوب طلبه عن المسلم بوجود عالم واحد في الأمة ، وهل يجزى في رقي الأمة ونهوضها ، وانسلاخ الظلمة عن آفاقها ، وانبعاث النور في هذه الآفاق ، هل يجزى في توفر ذلك كله على الأمة وجود عالم واحد ؟؟

اللهم لا ... إن مفهوم التخصص في قوله تعالى : إنما نخشى الله من عبادة العلماء ، ومفهوم التعميم في قول رسوله : طلب العلم فريضة على كل مسلم ، إن هذا المفهوم بعيد وبعيد جداً عن واجب الكفاية وأنه لفى صميم الواجب العيني ، ثم هو فوق ذلك كله واجب أول في ناموس الحق الأعلى المفروض على خلقه منذ الأزل .

فهل فكر فقهاء الأمة في المنزلة التي ينزلها هذا الواجب من أحكام الشرع الإسلامي ؟؟ وهل فقهوا أن الحياة ، في سموها ورقبها ، منوطة بالعلم ففقهوا آخر الأمر أن العلم واجب عيني ثم نهوا الأمة إلى أنه أول واجب يصدق به الشرع وأولى الفرائض التي يجب على الإنسان أن يلتزمها لتثقيف عقله ثم توجيه نفسه إلى معرفة الله الذي يعبد ؟؟

وبعد ذلك هل فقهت حكومات الإسلام أن العلم إجباري في الأمة ينال الفرد ذكراً وأنثى بنص الكتاب والسنة فعممته قبل كل شيء تأتيه في سبيل

حياة الأمة؟؟ وهل تربينا ثم ربينا أبناءنا ، على أن العلم أكبر وجوباً من الصلاة فعمدنا إلى محو الأمية للعمل على محو الجهل والفقر اللذين هما العنصر الأول في تردينا وانهيارنا ثم استعبادنا آخر الأمر؟؟

ان التعلم الإجبارى سهل على كل أمة مهما تغلغل الفقر في كيائها لأن بدء العلم هو محو الأمية ، وهذا تستطيعه الكتاتيب في القرى والساكنة دونما تكليف باهض يرهق الحكومات ثم يأتى دور الثقافة جزئياً ينتهى بعد إلى كلى يصبح العلم عنده سبباً في رفع مستوى الأمة سياسة واقتصاداً ، وذلك ما يضمن لها الثروة التى تؤمن العلوم العامة ، وعلى هذه العلوم تبنى المعاهد والمعابد التى تصل الإنسان بخالقه إيماناً وعزة وكرامة .

اللهم انا لم نكن ، ونحن بدائيون ، نفقه أن العلم واجب كفائى فضلاً عن كونه واجباً عينياً بل أول واجب على الإنسان ، من أجل ذلك لم نفق على الحياة إلا ونحن أضعف الناس إذ كنا أجهلهم والتبعة فى كل ذلك إنما تقع على عواتق ورثة الأنبياء وحملة الناموس الأعلى .

ففى صميم النص من الكتاب وصحيح السنة : أن طلب العلم على المسلم واجب وأنه واجب عيى يلزم كل فرد بعينه لأن بعضه لا يجزى عن كله ، وأنه واجب عيى أول يتقدم الصلاة لأنه عبادة وزيادة ، وأن تأخر المسلمين كان مسبباً عن إهمالهم هذا الواجب وجعله كفائياً لا عينياً .



إِذَا سَمِعْتُمُ الْحَدِيثَ عَنِّي تَعْرِفُهُ قُلُوبُكُمْ وَتَلِينُ لَهُ  
أَشْعَارُكُمْ وَأَبْشَارُكُمْ وَتَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْكُمْ قَرِيبٌ  
فَإِنَّا أَوْلَاكُمْ بِهِ ، وَإِذَا سَمِعْتُمُ الْحَدِيثَ عَنِّي تُنْكِرُهُ قُلُوبُكُمْ وَتَنْفِرُ عَنْهُ  
أَشْعَارُكُمْ وَأَبْشَارُكُمْ وَتَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْكُمْ بَعِيدٌ فَإِنَّا أَبْعَدُكُمْ مِنْهُ .

محمد

لم يتسرب إلى النفوس مريضها وصحيحها ريب في أن القرآن الذي نزل على محمد هو هذا الذي بين أيدينا نتلوه صباح مساء لم يتغير ولم يتبدل منذ ألف وأربعمائة عام ، من أجل ذلك لم نحتاج إلى برهان يثبت للقارئ صحة النص في بدء هذا السفر العابر .

وأما الحديث الذي نتخير طرفاً منه للبحث فقد بدأناه بالحديث السابق لنبدل بمعناه على أن رسول الله تنبأ قبل تدوين الحديث عنه بأن الأهواء ستمعن في الكذب عليه بعد موته ، وأن اختلاف العقول سيتصرف بالمصحيح من سنته خطأ وإصابة ، فعمد صلى الله عليه وسلم ، إلى تنبيهنا في قوله هذا بأن مرد الصحيح مما يروى عنه إلى القلب .

على أن الغاية من هذا الكتاب ليست وفقاً على صحة السند وإنما هي ناظرة إلى توجيه النشء الصالح وتقرير الحق في نفوس الأمة من وراء العقل واتزان الفكر ، مضافاً إلى استنباط ما لم يدر في خلد أسلافنا الذين خلفوا لنا من جهادهم الفكري ، تراثاً صالحاً يبقى على الدهر .

فلست أعني في كتابي هذا بصحة السند المسلسل ، ولا تنفيذ الآراء في دحض ما يضعف سنده ولو كان معقولاً ، وقبول ما صح سنده ولو كان غريباً ، أو غير مألوف ، ولكنني أعني بالمعقول مشيراً في أول الكتاب إلى مجمل ما صدرت عنه من كتب الحديث ، وأعني إلى ذلك بالبيان والمنطق والتطبيق والتجديد . فالحديث الأول واضح في تقرير هذه المقدمة بصحة ما نظمنا إليه وفساد

ما يشق علينا تخرجه أو يستعصى علينا فهمه ، أو يثقل على قلوبنا الميل إليه والتصديق به ، على أن في مفهوم الحديث وفي صميم الأخذ منه ، أن يكون القلب ، الذى هو ميزان قبول الحديث ورفضه ، على قسط وافر من الثقافة والعلوم التى تبنى فيه ملكة الفقه فى الحياة وتطبيقها على الدين ، فالحديث إنما مخاطب الرسول به الثقات من أئمة الفقه وقادة الفكر فى العالم ، فليس فى صدور العامة من أمته قلوب تزن القول فتحكم وزنه ، وتدرك صحته من سقمه ، فتحسن الميل إلى الصرف والإعراض عن الزائف منه ، وإنما يضطلع بعبء هذا التمييز قلوب الخاصة من الأمة فقط .

ويجب أن يكون هذا القلب الواعى فى مأمن من هوى النفس ونزعات الشيطان ، ليكون مخلصاً فى تطبيق الدين على الحياة أو الحياة على الدين بوفائه وهو ينقل الأمانة عن هادى الأمة ، وبصدقه وهو يمعن فى تخرجها وتطبيقها على الحياة ، فإن كثيراً من القلوب الكبيرة الواعية يرين عليها هوى النفس الأماراة بالسوء ، تؤثر الدنيا على الدين فتزور الباطل فى صورة الحق ، وتعتمد الخطأ فى شفاء ما منيت به من مرض خلقي ، سعيًا وراء الشهوات بين يدي حياتها الدنيا .

فالرسول إنما مخاطب بحديثه ذاك فئة من الناس أخلصوا البحث للحق وأمعنوا فى الحيلة والحذر من طغيان الهوى ، وأسلموا قلوبهم ، وهم يتفقهون فى الدين ، إلى التقوى بن يدى رسالة الحق إليهم على لسان أشرف الخلق صدقاً فى القول وإخلاصاً فى العمل .

وانه لغنى عن البيان فى المنطق الحق أن الحديث السابق يرشدنا إلى أن رسول الله كان يتنبأ فى الأجيال بعده أن الحديث عنه سيخرج عن كونه تشريعاً حقاً بالكذب عليه ، وأن صدق الحديث عنه مشروط بعرفان من القلب أنه حق ، وأن هذا القلب الذى يقرره يجب أن يكون مشبعاً بروح الإخلاص للحق

أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَةُ اللَّهِ ، وَكَمَالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصَدِيقُ  
بِهِ ، وَكَمَالُ التَّصَدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ ، وَكَمَالُ  
تَوْحِيدِهِ الْإِخْلَاصُ لَهُ . وَكَمَالُ الْإِخْلَاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ .

على

معرفة الله أول حجر يرسو عليه بناء الدين ، وهذا يشير إلى أن العلم واجب أول في الدين كما أشرنا سابقاً ، وعلى هذه المعرفة يبني المتدين إيمانه الذي هو التصديق بوجوب وجود خالقه الأول ، ثم إذا كمل إيمان الرجل كان موحداً ، إذ لا يمكن للإيمان أن يتجزأ بتجزأ المعبود لأن مصدره القلب وهذا القلب واحد ، فاذا رسخ هذا التوحيد في قلبه كان مخلصاً لربه ، وهذا الإخلاص ينفي عنه الصفات التي تغاير الموصوف ، ويؤمن بأن صفاته عين ذاته .

هذا موجز ما أفهم لهذه الجملة العريقة فيما يكشف للعقل من العلوم ، وبتسلسل هذا الفكر في فقه البيان ، يعطينا أمام البلاغة مثلاً أعلى في ترتيب المقدمات للإحاطة بالنتائج من أوجز طريق يصل إليه الحاذق في فهم ربه والإيمان به والتعبد له ، ولو شاء الفقيه المدرك أن يعطى هذه الجملة حقها من البحث والتعليل لخير كتاباً سهلاً فيما تكشف عنه أو ترمز إليه من علم اللاهوت . على أني لست ، في القول على هذه الجملة ، متحرياً ذلك التعليل ولا صدق نسبتها إلى خليفة رسول الله وأخيه الإمام علي بن أبي طالب ، كما لا أشك في أن الإمام كالرسول يكونه عرضة للافتراء عليه كرهاً له أو غلواً فيه ، ولكني أقدم على التصديق بما رواه عنه الشريف الرضي الموسوي لأن بين يدي من آثار الشريف وشهادة معاصريه له ، ما يرفعه في نظري إلى المستوى الذي يحول بينه وبين الافتراء على الله في تعمد الكذب على وصي رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه الذين اتبعوه باحسان .

أقول : لست في سبيل إثبات ما أنقل عن الإمام لأن الراوى عنه ثقة ، ولكني ، وأنا أعرض هذه الجملة على الأحفياء بما أكتب ، أحاول تقرير

الحديث القائل : « أنا مدينة العلم وعلى بابها » تقريراً حقاً في نفوس أولئك الأحفياء الذين اتخذوا الصدق في القول والإخلاص في العمل منهاجاً لهم يسرون على هديه ليكونوا شهداء على الناس ، وإذا لم يكن للإمام على مثل هذا القول ، ولم يثبت عند المارقة من الحق نسبته إليه ، فماذا يتحقق لدينا صدق رسول الله في قوله : « أنا مدينة العلم وعلى بابها ؟؟ » بينما لم يقل مثل ذلك في غيره ؟  
فإن السبب الأول الذي يكشف عن صدق رسول الله فيما يتنبأ لعلى من الحكمة والعلم ، هو هذا القول الذي جمعه الشريف الموسوي وصحح إثبات صلوره عن الإمام ثم أطلق عليه أروع اسم عرف به ألا وهو « نهج البلاغة » بينما نزه الشريف جده عن كثير مما نسب إليه ، كما فعل الثقات من رواة الحديث عن رسول الله بنفى قول وإثبات آخر .

والعجب في أن هؤلاء المنافقين بكرههم علياً ، ينكرون على الشريف صحة ما نسبته إلى الإمام بأمرين ، أولهما خطبته المسماة بالشقشقية التي يغض فيها من ورع الصحابة في تقرير الخلافة بعد رسول الله دون استشارته ، وهو أولى بهم من أنفسهم لأنه مولاهم بشهادة رسول الله إذ قال : من كنت مولاه فعلي مولاه ، وثانيهما : ورود بعض الجمل في « النهج » حافلة بصفات بعيدة في أسلوبها عن عهد الإمام وخليفته بما تلاه من عهد ، كوصف الطاووس والحفاش بما اشتملا عليه من جدلة في المعنى وبدعة في اللفظ .

والجواب عن تسفيه المنكر للشريف بثقته في نسبة هذين إلى الإمام ، أولاً : غاية ما في هذه الخطبة قسوة في التقريع واللوم على الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما لأنهما غمطا حقه في المبادرة لعقد البيعة دون استدعائه ومشورته ، وقبل أن يواروا جسد المنقذ الأول لهم وللإنسانية صلى الله عليه وسلم . أقول : إن عملهما هذا لا يخضع لبرهان من يحتج بأن الأنصار بادروا لانتخاب رئيس منهم فأعجلاهم عن ذلك خشية إفلات الخلافة من قريش ، فمن هم هؤلاء الأنصار الذين يجتمعون دون المهاجرين وقبل تجهيز رسولهم ودفنهم ليستأثروا بالخلافة ؟؟ وهل كان المسلمون جميعاً في ذلك الوقت غافلين عن مكانة إخوانهم المهاجرين ليبرموا عملاً هو في صميم الرسالة النبوية وهو في عهدتهم

جميعاً ، وفي الأنصار أنفسهم من يخضع للرأى الإسلامى العام فوق خضوع المهاجرين له ؟؟

لقد توسع المعتزرون من المؤرخين في هذه الحجة وهى ضيقة العطن لا تقوم برهاناً على مؤاخذه الإمام بقوله في الخطبة مقررماً وموئناً ، أفما كان بوسع الشيخين ، ساعهما الله وقد أقنعا الملاء من الأنصار بأولوية قريش في الخلافة ، أن يقنعاهم بضرورة الأناة والتريث ريثما ينتهون من مواراة نبيهم ، ويشهد الانتخاب من ليس دونهم في الرأى والسابقة كعلى والعباس وغيرهما من أجله الصحابة الذين تخلفوا عن البيعة للقيام بتجهيز الرسول الأعظم ، فيشهدوا تقرير الخلافة وتحريرها من العبث الذى جراً الأمويين فيما بعد على الاستئثار بها دونما حق إلا المبادرة والغيلة والتهالك على السلطان ؟؟

ان هذا العمل قد ترك على مر القرون وصمة في جبين الفترة الأولى لزوج الإسلام يدركها كل من فقه التاريخ ، ان علياً كان حاقداً على استنبارهم جنازة رسولهم ليستقبلوا أمراً لا يفوتهم لو صبروا فاستمروا محمدقن بجثمان نبيهم حتى يواروه ثم ينصرفوا إلى العمل على الصدد برسالة محمد مؤززين بالحق ولنا أن نتساءل ، كما تساءل على ونفسه ، إذ بلغه أن أبا بكر احتج على الأنصار بأن الخلافة في قريش ، لنا أن نتساءل : لماذا يجب أن تكون الخلافة في قريش ؟؟ أكانوا أشد إيماناً من غيرهم يومئذ برسالة محمد ؟؟ ثم ألا يكون على محققاً بالرد عليهم في قوله : إذا كانت قريش أولى الناس بعهد محمد فلم لم يكن أهل بيته أولى من قريش بهذا العهد ؟؟ لم تكون قريش أولى الناس بخلافة محمد في الناس ؟؟ أفما قال محمد : ان الناس سواسية كأسنان المشط ، ولا فضل لأبيض على أسود ولا لعربى على عجمى إلا بالتقوى ؟؟ ألم يقل الله عز من قائل : إن أكرمكم عند الله أتقاكم ؟؟؟

أفما رجعوها عصبية قبيل أن يفارقهم نبيهم وقد قطع حياته فهم وهو ينهى عن العصبية الجاهلية ؟؟ وهل كان للأمويين أن يستأثروا بها دون حق ، وللعباسيين فيما بعد أن يغلبوهم عليها ويعبثوا عبثهم في الإسلام ، لولا أن سبقت تلك المبادرة من أعيان المهاجرين والأنصار .

لقد برم على يومذاك بهذا العمل السريع المزرى الكاشف عن بادرة قلبت وجه الإسلام الحق إذ ، أفضت بهم آخر الأمر إلى ما رأينا من التهاك على السلطان دون التزام العهد الالهى المفروض عليهم فى كتاب الله حيث يقول : « ولا ينال عهدى الظالمين »

إنا ، ونحن فى عصر التحرر الفكرى ، لانزال نخضع للبدعة السيئة التى سنها السلف المدفوع بهواه من سابقينا فى تدوين التاريخ ، تلك البدعة التى يتجاوز مبدعها عن تمحيص الحق ، والحكم بالصلاح على من عبث برسالة محمد ، والرضى عنهم حتى معاوية بن أبى سفيان ومن سار على نهجه ممن صحب محمداً ثم زاغ عن الحق فاتخذ رسالته القدسية غرضاً يشبع به جشعه من حطام الدنيا .

ان علياً يوم أنكر على صاحبيه عملها ذاك كان يعلم بعلم محمد أن هذا العمل سيفضى بالمسلمين إلى مالا محمد الإسلام عقباه ، وأن علياً يوم قال خطبته الشقشقية وهو يعانى من معاوية فوق ما عاناه من عثمان ، كان مدفوعاً بذكرياته يوم أنكر على صاحبيه فعلها الذى أفضى بالإسلام والمسلمين إلى الخضوع لعبث الأمويين واتخاذهم دين محمد ألعبوبة يتلقفها آخرهم عن أولهم إبقاء على الشرك العريق فى نفوسهم والذى حملهم على هتك الدين وإخضاعه لشهواتهم وأهوائهم .

أفلا يحمل بشيوخ المسلمين ، إذ طوعوا المهاجرين والأنصار يوم السقيفة بالتنازل عن الخلافة لقريش ، أن يطوعوهم بالتريث فى أمر الخلافة لاستكمال الجمع بعد الفراغ من واجب القيام بوداع رسولهم إلى مقره الأخير ، ثم يستأنفون النظر فى أمور المسلمين وهم جميعاً شهداء الانتخاب ؟ ان هذا التطويق أسهل بكثير من التطويق الأول ، وأكثر إشعاراً بالخلوص من الريب والإخلاص فى العمل والابراه لما يليهم من الأجيال عن إخلاصهم لمحمد ولرسالة محمد .

أما الأمر الثانى الذى يرتاب المؤرخ القاصر فى صحة نقله عن على وآتهام الشريف الموسوى بالتزوير والافتراء على الإمام فيما ينقله عنه ، وهو الإبداع فى الفكرة والأسلوب السائدين كثيراً من عناصر « النهج » كالأسلوب الفلسفى

وكوصف الطاووس والخفاش ونحوهما مما لم يعهد البيان العربي به للجاهلية ولا لصدر الإسلام ، أما هذا فنحجب عنه بما يلي :

إذا كان مقياس كل أدب عصره بحيث لا يتجاوز الأديب بما ينتج ، نواحي الحياة التي تحدى به ، فمن أين يجيء التطور في الأمة ، وكيف يكون الإبداع في الحياة ؟؟ ألم نطلق على امرئ القيس في الجاهلية أنه كان مجدداً إذ جاء في شعره بما لا عهد للجاهليين به من تشابه واستعارات جدد بها تفكير الشعراء وأخرج الفكر من طور إلى طور ؟؟

ألم نجد القرآن ، من الآداب والعلوم ، بما لا عهد لمعاصريه به من فكرة وأسلوب ؟؟ ثم ألم يأت في العهدين الأموي والعباسي شعراء وأدباء بما لا عهد لأهلها به من طرائف وبدع في الشعر والنثر ؟؟ وقد أجمع المؤرخون على أن عمر بن أبي ربيعة كان مجدداً في العصر الأموي ، أي أنه جاء بما لا عهد لمعاصريه به في شعره ، وعلى أن أبا نواس كان مجدداً في العهد العباسي إذ جاء بما لا عهد به لمن سبقه أو عاصره في شعره .

وهكذا نستطيع القول في إبداع مسلم بن الوليد الملقب بصريع الغواني ، وفي عبد الحميد وابن العميد وابن المقفع ، ثم في أبي تمام والمتنبي والبحتري وابن الرومي ، نستطيع أن نقول : إن في أثر كل من هؤلاء بدعة لم تكن في آثار من سبقوه أو عاصروه من شعراء وأدباء وكتاب وخطباء ، فلماذا ننكر إذن على باب علم رسول الله وأقضى الناس في عهده وإمام البلغاء أن يكون في أثره الفنى أو العلمى مجاز للعلوم والفنون من عهد إلى عهد ؟؟

أنطلق على الشاعر الملهم والأديب العبقري لقب المبدع والمجدد ، ونحكم على أن القرآن الذي هو مصدر الإبداع والتجديد قد خرج بالعرب من طور إلى طور ، ثم نسلب هذه الصفات عن أفقه الناس بالكتاب والسنة بعد رسول الله ، وننكر عليه ما جاء في نهجه من إبداع ما لم يكن في عهده بين أسلوب طريف وفكرة جديدة ؟؟ إذن فكيف يكون التطور والتجديد ، ومن يحمل عبء التحول بدولة البيان من عهد سام إلى عهد أسمر غير الملهمين من الأمة ، ومن هو هذا الملهم بعد رسول الله غير على ؟؟؟

انا لنذكر قس بن ساعدة في الجاهلية فنقول : انه أول من قال : باسمك اللهم أو قال : أما بعد ، ونذكر امرأ القيس فنقول : انه أول من شبه قلوب الطير الرطبة بالعناب ، وأول من أبدع تشبيه البنان بالأساريع ، ثم نذكر بعد الإسلام فلاناً وفلاناً وفلاناً بأنهم أول من ابتكر كذا وأبدع في كذا حتى إذا قرأنا نهج البلاغة أكرنا وأنكرنا على على أن يبدع في خطبه وأماله ما لم يكن يعهده عصره من فكرة وأسلوب ، ذلك لنحط من قيمة البلاغة في على ، ونصم الشريف الموسوى بالكذب والبهتان ، سبحانه اللهم هذا هو البهتان



يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ  
وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا .

الله

في هذه الآية حكم عام من أحكام الشرع الإسلامي ، وفيها تمهيد لحكم آخر ، أما الحكم العام فهو تحريم ما يزيد ضرره على نفعه من أفعال الإنسان فكل عمل نأتيه لابد أن يتصف بأحد أحوال خمس : إما أن يكون كله نفعاً ، أو كله ضرراً ، وإما أن لا يكون فيه نفع ولا ضرر ، وإما أن يكون متصفاً بكليهما ، وهذا يكون ذا شقين : إما أن يكون ضرره أكثر من نفعه أو بالعكس . يستطيع الفقيه أن يطبق على هذه الصفات أحكامه الخمس التي هي الواجب والمحرم والمستحب والمكروه ثم المباح ، ولسنا بصدد التطبيق هنا وإنما نريد أن نشير إلى أن هذه الآية تعطينا حكماً بالتحريم على كل عمل ضرره أكبر من نفعه إذا لحظنا معها آية أخرى نزلت بعدها ، هي : إنما الخمر والميسر رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه »

ففي الآية الأولى تحريم للخمر وفيها تعليل للتحريم وهو كون ضررها أكبر من نفعها ، وهذا رد على من لا يجزئ تعليل الأحكام ويدعي كونها تعبدية ، وفيها حكم عام وهو تحريم كل ما زاد ضرره على نفعه من أعمال الإنسان إذا أجزنا القياس وهو هنا ضروري كما سنبين .

وأما التمهيد بها ، وهي حكم عام ، للحكم الخاص في الآية الثانية ، فهو ضرورة السير في التشريع العام عن طريق الحكمة ليصل إلى الإقناع بغير عنف ، إذ كانت الخمرة عندهم كاليسر من صميم الحياة كما كان الرق فلم يشأ الإسلام أن يفجأهم بمنعه ولكنه اتخذ الأسلوب الحكيم في بيان علة المنع أولاً ، والإقرار لهم بمنافع هذه الصفات اللاحقة بهم ثم بيان الأضرار التي تلحقهم منها والامعان في تجسيم هذه الأضرار ليصل بهم إلى المنع آخر الأمر .

وهكذا استدرجهم الشارع الحكيم بسن الصلاة جزئية في إبان الدعوة واستقبل بهم القبلة الأولى ولم يزل ويبدأ حكماً في تشريعه منسوخاً ثم ناسخاً حتى كانت الخاتمة

يوم حجة الوداع بقوله : اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً .

لقد ضرب لنا الذكر الحكيم في هذه الآية عدة أمثال في الحكمة والأناة. إذ جاء باثبات أن الخمر والميسر رجس من عمل الشيطان بعد أن مهد لهذا الحكم بالتصديق على أنهم إنما يتوخون المنافع منهما وهذه المنافع ضئيلة بجنب ما ينتج عنهما من أضرار ، ثم سن لنا في عرض ذلك حكماً عاماً هو تعليق الحرمة في الحكم على أكثرية ما ينشأ عنه .

من هذا نصل إلى أن الفقه في الدين يجب أن ينتج الاجتهاد ويحد من التقليد في كل عصر لأن التجديد وارد في الدعوة إلى الدين بقوله : يبعث الله على رأس كل قرن من يجدد أمراً متي في دينها ، وغنى عن البرهان أن مفهوم هذه الكلمة الجامعة ضرورة التطور في الدين بما لا يمس جوهره ، وضرورة الجمود في العقل من وراء التقليد وإقفال باب الاجتهاد .

وعلى ذلك يجب أن نتصرف بين يدي فقهاء الدين على ضوء الحياة ، أو فقهاء الحياة على ضوء الدين ، والآية التي هي قيد بحثنا الآن تعطينا فكرة هذا التصرف ومدى التجديد فيما ندين به لخالفنا من وراء العلم ، فلو لم يعمل حرمة الخمر والميسر برجحان الضرر فيهما على النفع ، لما وصلنا إلى الفقه الشرعي فيما يجد بين أيدينا من حياة .

فلنضع أمامنا الآن بدعة جديدة لم تكن على عهد رسول الله ثم كانت في عهدنا أو فيما سبقنا من عهود وتقدمها عهد التشريع ، فبعض هذه البدع التدخين الذي جاءنا من أمريكا إبان فتحها ، فانه بدعة لم تكن ، وخاض الفقهاء في الحكم عليها فذهب البعض إلى تحريمها قياساً على الخمر والميسر . لأن علة التحريم ، التي هي رجحان الضرر على النفع ، واردة في الدخان وذهب البعض الآخر إلى الإباحة تمشياً مع السنة : كل شيء لك مباح ما لم يرد يرد نص في تحريمه ، ثم هؤلاء ينكرون أن الإثم في الدخان أكبر من النفع ، فالخمرمون هم الوهابيون من أهل السنة والاختاريون من الشيعة ، وأما المحللون فالعامة من الفريقين ما عدا هؤلاء .

فالاِجتهاد اِذن هو مناط الحل والحرمة في البدخان وغيره من البدع الحديثة ، كالكهرباء والواحي وتسجيل الصوت والتلفنة والتلفزه والسيارة والطيارة وغير ذلك ، وإذا كان لنا حق البحث في فقه الدين الخاص بفئة أفنوا أعمارهم في دراسة الكتاب والسنة ، وتطبيق الأحكام على الحياة بعد تخريجها من أدلتها التفصيلية ، والإخلاص في هذا التخريج ، أقول : إذا جاز لنا القول في ذلك على اعتبار فقهاء الحياة من ناحية العلوم والفنون ، قلنا :

ان ميزان التحريم والتحليل في هذه البدع وما يتلوها من نتاج العقول في بحث الحياة وتسخير قواها لصالح الإنسان ، هو العقل الفقيه لا دراسة الفقه وأصوله ، هذا العقل الناضج إذا أمعن في فهم الكتاب والسنة دونما إيغال فيهما واستخفاف بهما ، أمكنه الحكم على هذه البدع واستطاع باخلاصه من وراء نضجه أن يميز بين الحسن منها فيجيزه ، وبين القبيح منها فيحكم باجتنابه .

فالآية الكريمة الجامعة في صدر هذا البحث إذن تفرض حكماً عاماً بأن ما زاد ضرره من أعمال الإنسان على نفعه هو حرام ، والآية تمهد لتحريم الخمر مباشرة في آية أخرى بعد أن أشارت إلى التحريم ضمناً في نفسها ، والآية تعلمنا أن الحكم بالخطر على أى أمر عريق في الإنسان يجب أن يكون في حيز الإقناع والتدرج في تشريعه من وراء الحكمة ، والآية بعد ذلك كله تشير إلى أن التعليل في التحريم والتحليل جائز .

لَا تَعْلَمُوا الْعِلْمَ لِيُبَاهُوا بِهِ الْعُلَمَاءُ وَلَا لِيَتَمَارُوا بِهِ  
السُّفَهَاءُ ، وَلَا لِيَتَخَيَّرُوا بِهِ الْمَجَالِسَ . فَنَفَعَلْ ذَلِكَ  
فَالنَّارَ النَّارَ .

مَحْذَرٌ

ينهى صلى الله عليه وسلم أن يطلب أحدنا العلم ليفاخر به العلماء ويتعالى به على السفهاء ، أو يتحرقى به المكانة السامية في المجتمع ، ثم يحذر من يفعل ذلك عذاب النار ، فإذا يرى القارئ بعد هذا مما يستهدف له العلم وطالب العلم ؟؟ ان أكثر طلاب العلم ينشدون من ورائه مباهاة زملائهم والخيلاء في مجتمعهم ، والتغلب على من هو دونهم ، ثم الطموح إلى المنزلة التي تسمو بهم في مناصبهم أو مجالسهم .

فإذا وراء العلم بعد هذا ؟؟ هنالك فئتان من رواد الحياة في الأدب ، إحداهما تذهب إلى أن الغاية من طلب العلم أو الفن ذاتية ، بمعنى أن العلم أو الفن نفسه يجب أن يكون غاية العالم أو الفنان ، والفئة الثانية تذهب إلى أن الغاية من طلبهما خارجية بمعنى أن العلم أو الفن يجب أن يكون كغيره مما يحى به الإنسان ، أى وسيلة لا غاية ، فما من عمل يأتيه أحدنا إلا وهو مقدمة لنتيجة واحدة هي نفع الإنسان .

ويكاد يرجع هذا الخلاف بين المذهبيين ، في جوهره ، إلى النظرية الفلسفية التي شغلت حيزاً من نزاع الحكماء قديماً ، في أن الجمال والقببح ذاتيان أم عرضيان في الجميل والقببح ؟؟ بمعنى أن مصدر الجمال هل هو ذات الجميل ، ومصدر القبح هل هو ذات القبيح ؟ أم أن الجمال والقببح فيهما نسيبان يتصل بهما من ذات أخرى خارجة عنهما ؟؟

وحجة القائلين بالذاتية أن في كل جميل أو قبيح ، وفي كل طيب أو خبيث سرّاً يتقوم به تركيبه هو مصدر الجمال والقببح والطيبة والخبث ، بينما يحتاج القائلون بالعرضية أن الحسن والقببح واللذة والألم والطيبة والخبث ، كل ذلك

وأشباهه وليد اصطلاح المجتمع الإنساني الأول واستمراره في كيان الإنسان المتطور حتى يصبح غريزة متأصلة في النفس .

ويدعم الأول حجته في أن الجمال المطلق يستهوى الإنسان المطلق ، والقبح المطلق كذلك فلو كان الجمال أو القبح وليد الاصطلاح لما ساد الأذواق كلياً ، لإجماعها على أن هذا جميل وذلك قبيح ، بينما يدعم الثاني حجته بأن مقياس الجمال المطلق أو القبح المطلق عند الإنسان الكلي يختلف باختلاف أنواعه ، فجمال المرأة الزنجية عند الزنوج قائم على شكل لا يتذوقه الإنسان الأبيض ما لم يقرب في شكله من شكل الأبيض الجميل والعكس بالعكس .

فلنعد بعد هذه المقدمة إلى صلب الموضوع القائم على توجيه بغاة العلوم والفنون إلى أن يطلبوها لذاتها أم لغيرها ؟؟ فتساءل : كيف يكون العمل نفسه علة لفعله ؟؟ أيكون حرثك الأرض وإفراغ جهلك في تربية البذر وحصاده ، من أجل الحرث والبذر والحصاد فقط ؟؟ وهل العامل يتقن عمله لسيدته إذا كان سيده يستغل هذا العمل أم يكون مكرهاً على ذلك ؟؟

أي عمل يأتيه الإنسان جاهداً مخلصاً دونما غاية من هذا العمل إلا العمل نفسه ؟؟ فإذا كان العمل من ذاته ينتج ما ينفع العامل كانت الغاية غيره ولو لم يقصد العامل تلك النتيجة ؟؟ فكل عامل يتجه بعمله إلى الغاية التي تستهدف عمله ، ومن العبث أن نفرض على العامل فناً أو علماً أو صناعاً ، أي فن أو علم أو صناعة ، وهو يجهل الغاية من عمله إلا أنها العمل نفسه ، وإذا كانت غاية كل عالم أو فنان عبقرى هي ذات عمله فلماذا يبتئس ويتألم ويشقى وينقم على الإنسانية التي لم تقم لعلمه أو فنه وزناً ؟؟

ولماذا نرى العامل يجيد ويزداد إجادة وإحكاماً كلما رأى عمله مرموقاً من مجتمعه باعجاب ، ثم نرى على العكس كل عامل لا يلقي التقدير والمكافأة من أبناء جلدته على عمله ، ثم لا يتبلغ العيش من وراء ذلك العمل ، نراه عيا في قوله إذ يقول ، وكلاً في عمله إذ يعمل ، حتى يحول جريضه دون قريضه ، وحتى يزهد في مهنته فيرى الاحتطاب خيراً من الأدب ، ويرى الشبع في

مسح الأحذية خيراً من الجوع بين يدي علمه أو فنه ؟؟؟

كيف أقدم على حرث الأرض إذا لم تكن غايى الخبز وهو غير الأرض ؟؟ وكيف أزرع القطن إذا لم أهدف من ورائه إلى اللباس ؟؟ ثم كيف أبني البيت ولم أرم به إلى أن يؤبنى ويعصمنى من آفات الزمان والمكان ؟؟ انى إذن لأحمق إذا فعلت ذلك أو إذا أقدمت عليه دون أن أفكر فى الغاية منه ولو كانت الغاية قائمة فيه .

فالعامل يتقوم بغايته ، أى أن حاجتى إلى الخبز هى التى خلقت فى نفسى فنون الحرث والزرع والغرس ، وأن حاجتى إلى السكن والدفء هى التى خلقت فى نفسى إحكام فنون البناء والنجارة والحدادة والنسج والتفصيل ؟؟ ثم ان حاجتى الملحة فى التغلب على القناء بانجاب الولد ليخلفنى فى الحياة هى التى خلقت فى نفسى الحب والجمال والخير .

إذن ليس العمل إلا وليد الحاجة إليه ، وباعث هذه الحاجة فى نفس العامل هى الغاية التى تستهدف ذلك العمل ، من أجل ذلك نخطئ من يقول : اطلب العلم للعلم وامتهن الفن من أجل الفن ، لأن الله ، وهو خالق العلوم والفنون ، يعمل العلم والفكر والذكر والنظر والبصر بضرورة البحث عن ذاته ليصل بنا من وراء العلم والفكر إلى معرفته ، وبهذه المعرفة نقوى على الحياة التى تؤهلنا للبقاء فى صميم الخلود .

فالرسول إذ ينهانا عن أن نطلب العلم للمباهاة أو الخيلاء أو الطموح إلى المناصب ، لم يقصد نفى الغاية من طلب العلم ، ولم يرد لنا أن نطلب هذا العلم لمجرد العلم ، وإنما يريد لنا غاية أسمى من هذه الغايات كالوصول إلى معرفة الحق التى تقضى بنا إلى تنزيه حياتنا عن العبث ، وتطهيرها مما يتحدر بنا عن إنسانيتنا إلى السهيمية التى أوتينا العقل والعلم لنخلص منها إلى اكتناه الحياة .

لذلك قيل : العلم بلا عمل كالشجر بلا ثمر ، يرى قائل هذا إلى أن مجرد العلم الذى لا غاية منه كالجهل ، وماذا أفيد من علوم اللسان إذا لم أفصح به ؟؟ وماذا يفيدنى علم المنطق إذا لم يعصم فكرى عن الخطل فى الرأى ؟؟ ثم ماذا

— ٤٥ —

ينفعنى علم الزراعة والصناعة إذا أتقنته ثم لم أزرع ولم أصنع ؟؟  
فالغاية التى يرمى إليها الرسول الأعظم من تحذيره إيانا فى كلمته الجامعة  
التي هى عنوان هذا البحث ، إذ يندرننا بالنار فى عقبي العلوم التي تستهدف  
المباهاة والممارسة والكبرياء ، أقول : ان الغاية التي يدعوننا لأن ننشدها بالعلم  
هى العمل القائم على معرفة الحق والتماس الخير والجمال فى الحياة من وراء  
ذلك العرفان .

## حَلَجْ لَقَلَّمَا أَذْبَرَ شَيْءٌ فَأَقْبَلَ .

تستلزم هذه الكلمة القيمة أن نقول قبلها أو بعدها كلمة تنشق عنها وهي : لطالما أقبل شيء فأدبر ولقلما أدبر شيء فأقبل » قال الإمام هذه الكلمة في معرض تنبؤه عن أحداث تصدر بعد مقتل عثمان ، قالها إذ بويح بالخلافة في كلام بدأه بقوله :

« ذمتي بما أقول رهينة وأنا به زعيم ، إن من صرحت له العبر عما بين يديه من المثالات ، حجزته التقوى عن تقحم الشبهات ، ألا وإن بليتكم قد عادت كهيأتها يوم بعث الله نبيكم ، والذي بعثه بالحق لنسلبلسن بلبلة ولنغربلسن غربة ، ولتساطن سوط القدر ، حتى يعود أسفلكم أعلاكم وأعلاكم أسفلكم ، وليسبقن سابقون كانوا قصروا ، وليقصرن سابقون كانوا سبقوا ، والله ما كتمت وشمة ، ولا كذبت كذبة ، ولقد نبئت بهذا المقام وهذا اليوم» .. إلى أن ختمها بقوله : لقلما أدبر شيء فأقبل ..

ان ما حدا بعلي لأن يقول هذا فيبلغ فيه سمو لهجة وصدق فراسة ، هو ما محدودني ومحدو كل قارئ لأن يتألم تألمه ويأسف أسفه ، ان هذه الكلمات وما يليها من قوله عليه السلام : ألا وإن الخطايا خيل شمس ، حمل عليها أهلها وخلعت لجمها فتقحمت بهم في النار ، وان التقوى مطايا ذلل حمل عليها أهلها وأعطوا أزمها فأوردتهم الجنة .

أقول : إن هذه الكلمات لأرحب أفقاً من أن يحقد بها وصف ، وأعلى شأناً من أن ينالها إطرء ، وان على كل قارئ أن يقف موقفى أمام جدث الشريف الموسوى في مدينة الكاظمية ثم ينحنى على ضريحه لإجلالا لتسميته ما جمعه من كلام إمام البلاء بنهج البلاغة ..

لقد بليت أنا نفسى بصدق هذه الكلمة على إذ طالما كنت أستقبل أشياء ولم أحتفظ بها فسرعان ما تدبر عنى ثم لم تقبل على بعد لإدبارها ، إذ لم تتوفر



لدى وسيلة لإقبالها على مرة أخرى ، ولا أزال حتى ساعتي هذه والتي أحبر  
فها سفرى هذا بين يدي الفجر ، وأما عظمة مصر ونيلها يجري من تحتي ،  
لا أزال أعاني صدق هذه العظة في حياتي ، أتمثل بقول ملهمي أبي الحسن :  
لقلما أدبر شيئاً فأقبل ، ثم أردفه بلازمه فأقول : ولطالما أقبل شيئاً فأدبر .

ان حسرة الإمام في كلمته هذه حسرة رجل أدرك عهد الإسلام الأول بين  
يدي رسول الله ، فتطوع مع من تطوع من السابقين الأولين لتذليل الشمس  
من جفاة العرب وطبع نفوسها العاتية بطابع الإنسانية ، والعمل على نزع الأنانية  
الآخذة فيهم بأسباب الفرقة والتنازع والأثرة والجشع وحب الدنيا والتهالك على  
حطامها ، كل ذلك كان من صفات العرب الذين طوعهم رسول الله بمن شد  
أزره من أصحابه وذوي قرباه ، وكان على هذا أمضاهم عزمًا في الدفاع المر  
عن ناموس محمد ، وأشدهم بأسًا في مقاومة الشرك وطغيان أهله .

تلك كانت صفات قريش وهذه صفات علي ، فلا عجب إذا تنبأ في  
كلمته هذه بعود تلك الصفات إلى قريش ، وأرجف بمصير الإسلام على  
أيديهم ، إذ كان ما مر به عبرة له ، وما رآه أيام عثمان كان نذيرًا بشوئهم يبعث  
الذعر في صدر كل مسلم مؤمن يحرص على الدين ، من أن يعود غريبًا كما  
بدى غريبًا .

فليمن قارئ ، وهو منصف مخلص ، في هذه الجمل كلمة وكلمة وفقرة  
فقرة ، ثم ليعمد إلى ضميره فيسأله : هل كان علي بن أبي طالب ، وهو يقول  
ذلك ، عالمًا بما يقول واثقًا مما يتنبأ ، وبصبرًا بما يحكم ؟؟ نعم .. ان الأحداث  
التي بدأت على عهد عثمان ثم انتهت إلى عهد معاوية ومن خلفه من آل أمية ،  
تشير إلى أن عليًا كان واثقًا مما يقول وصادقًا فيما يتنبأ .

ألم ينل أمة محمد ، ولما يزل غضبا في قبره ، أعظم حدث شهده التاريخ  
الإنساني منذ كان الإنسان ؟؟ لقد ثبت أن رسول الله قال : علي مني وأنا من  
علي ، وأنه قال : حسين مني وأنا من حسين ، فانتهاك معاوية حرمة الحق بالبغي  
على علي ، وانتهاك سبيله يزيد حرمة بالبغي على الحسين ، ثم اجتراح معاوية  
قتل حجر بن عدى وزملائه من أصحاب رسول الله غدراً ، وتقتيل ابنه يزيد

خبرة أصحاب رسول الله يوم الحرة وهتك المدينة وإباحتها مالا ودماً وعرضاً لعتاة الشام ، ثم اجترأ معاوية على لعن على وأهل بيته وإحالة الخلافة ملكاً عضوضاً من بعده ، واستباحة أبنائه وذوى قرباه حرّات الدين بالفسق والفجور بعد أن خلفوه في سلطانه الجائر ، أقول :

ان هذا كله قد حدث بعد رسول الله وكان شاهداً على تنبؤ على بعده حتى كانت البلبلة والغربة تسوط المسلمين فتجعل أعلامهم أسفلهم بتعالى الطلقاء على المهاجرين والأنصار ، واتخاذ الطواغيت من آل أمية عباد الله خولا ومال الله دولا ، يعبثون بناموس محمد ، وهتكون حرمة محمد ، ويفتثون على فرقان محمد ، حتى لفظ الشاعر المسلم تكبده وهو يرى على منابر الإسلام أعقاب تلك الطغمة الدارجين على سنتهم في البغي ، فلا يملك أن يقول :

بكت المنابر إذ تنزت فوقها تلك القسود وناحت الأعواد

انظر إلى الإعجاز كيف تصدرت وعمائم السادات كيف تساد

أفما صدق محمد بقوله لعلى يوم الحديبية : لتحملن على مثلها وأنت مظلوم ، أو ما صدق الصادق الأمين بقوله لعمار : تقتلك الفئة الباغية ؟؟ أفما تحققت هذه النبوات لمحمد ؟؟ فإذا فعل المسلمون يومذاك ؟؟ ولماذا خنسوا ؟؟ وعلى أى عذر أقاموا أنفسهم في سكوتهم وعدم القيام بنصرة أميرهم وخليفة رسولهم ، وفهم أعيان الصحابة وكلهم يرى بان علياً على حق وأن معاوية على باطل ؟؟ وعلى أى عذر نقيمهم نحن اليوم في تقاعسهم يومذاك عن نصره الحق والجهاد في سبيله ؟؟ ثم على أى عذر نقيم أنفسنا نحن أبناء العصور النيرة المتحررة من كل ضغط على الفكر وحمل على الخضوع والاستسلام لسلطان البغي الجائر ؟؟

على أى عذر نقيم أنفسنا ونحن نجار عند ذكر معاوية بالرضى عنه واستنزال رضوان الله عليه ، كما نفعل لدى ذكر من سبقه من خلفاء رسول الله ، ثم لا نخجل من أنفسنا إذ نعده من كتاب الوحي وأصحاب الرسول المجتبيين ، ونغتفر له كل ما اقترف من نقض بزيان الإسلام والعمل على تقويضه ، بأنه مجتهد يخطئ فيوثر مرة ويصيب فيوثر مرتين ، فيلزمنا آخر الأمر عرض البسفه على أنفسنا بالحكم على أن معاوية مأجور في تقتيل مئات الآلاف من

المسلمين وتعتمد البغى على الحق وقتل نفر من الصحابة صبراً ، ولا كراه المسلمين على استخلاف ولده يزيد ثم لعن الإمام وأهل بيته وفرض هذا اللعن على الأمة بعد صلاة الجمعة طوال مائة عام .

هذه نفثة ... فهل كنت على حق في بثها وأنا أقدر علياً وأرضى عن أئى بكر وعمر وألوم عثمان ثم ألعن معاوية ، وأصب أضعاف هذا اللعن على من رضى عنه وحيد عمله واستغفر له ؟؟ قد يتشدد بعض المتنافقين الذين لم يؤثروا حظاً من الحكمة في عرض التاريخ واستعراضه فيقولون : مالنا ولنبدش الماضى ، نشر الضغائن ونستخرج الدفائن ونحن في أمس الحاجات إلى التناسى والتسامح . وألخص على العمل صفناً واحداً لتوحيد المسلمين وتعزيز الدين في وجه ما يندرن بالخطر من أعداء الإسلام وطغيان الإلحاد وسيل المادة الجارف ؟؟

نعم قد يتشدد بعض هؤلاء ليحولوا بين الأفكار الحرة وبين تحرير الحق على ضوء التاريخ الذى هو جزء من حياتنا لانستطيع الانسلاخ عنه ، والذى تمسنا في صميم هذه الحياة لتتحرى بتحريره السبب الذى من أجله دهمنا ذلك الخطر ، وطغى علينا هذا الإلحاد ، وجرفنا سيل هذه المادة التى أفسدت علينا تطهير نفوسنا وإنقاذ أبنائنا من التردى فيها والانهيار بها إلى حضيم من الهون ليس تحته تحت .

فلنعمد إلى صلب التاريخ ونمحص فيه الحق على ضوء القرآن الذى هو وحده تاموس الله في خلقه ، والذى هو وحده الأثر الخالد في نفوسنا ، والذى هو وحده الكتاب المبرأ من عبث الغواة ، وبغى الطغاة الثائرين في كل عهد منذ صدر الإسلام حتى اليوم ، على تاموس الأخلاق الحائل بينهم وبين الساطان القائم على الفسق والفجور والاسترسال في الشهوات .

أقول : لنعمد إلى صلب التاريخ ونحرر أمجادنا ومصدر عزنا وكرامتنا على ضوء القرآن . فنقر من السنة الصحيحة ما لا يعترض سبيل الحق الجلى الواضح في صميم الإسلام ، ونمحو منها ما يعترض هذه السبيل من أقاويل دسها وافترى بها على الله ورسوله ، أناس صحبوا رسول الله على دخل في نفوسهم ، ومرض في قلوبهم حال دون تسرب الدين إلى صدورهم واستقراره في كيانهم ، حتى

إذا آنسوا فرصة من الزمن تخوّلهم لإظهار ما دفنوه ودفن ما أظهره ، عمدوا إلى الحق الذي غل أيديهم فزقوه ، وإلى الباطل الذي فطروا عليه فعزّزوه ونصروه . لنضع بن أيدينا كتاب الله ونقرأ قوله عز من قائل : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تنفي إلى أمر الله » ونضع إلى جنب هذه الآية قوله صلى الله عليه وسلم لعمار بن ياسر رضى الله عنه : يا عمار تقتلك الفئة الباغية » ثم نحكم على ضوء هذا التخرّيج ، فيما كان من أمر على ومعاوية ، أيهما الباغى ؟؟ وأيها المبغي عليه ؟؟

ولنعتمد بعد هذا كله إلى السبب في تقاعس المسلمين عن إجماعهم على نصرة على وخذلانهم معاوية ، ثم التفافهم حول معاوية وتحليلهم عن على ؟؟ فلا نجد سبباً غير أمرين أولهما : أن الصحابة كانوا بعد رسول الله فئات ، منهم المنافق الذي أسلم كرهاً ، ومنهم الضعيف الذي يؤثر السلامة في سبيل دنياه على التضحية في سبيل آخرته ، ومنهم القوى في إيمانه الذي ثبت على عهد رسول الله واستمر ثابتاً بعده ، أما الأول فقد فتح له عهد عثمان باباً إلى فطرته الأولى ففر من الإسلام والتحق بمعاوية ، وأما الثاني فقد جلس في بيته وأغلق بابه زاعماً أن بغى معاوية على على فتنة فعليه أن يفر منها ، وأما الثالث فقد ثبت على إيمانه والتحق بعلى .

والأمر الثاني أن علياً قبض يده على الدين فلم يفرط بشئ منه في تأليف القلوب النافرة بعد أن مضى عهد التآلف بانتهاء التشريع ، فانفض أقوى المنافقين شكيمة عنه وناصبوه العداء وظاهروا عليه أعداءه ، وأما معاوية فقد فتح بيت المال على مصراعيه ، وراح يغدقه على المنافقين ليلتفوا حوله ، وعلى الضعفاء ليستمروا مع القواعد لا إليه ولا إلى مناجزة .

هذا هو أس البلاء الأول الذي ممكن الذل من رقاب المسلمين وسن لهم ، إلى يوم القيمة ، الجبن عن نصرة الحق والتضحية في سبيله ، والاستخذاء لدعاة الباطل والتقهقر بن يديه عن تأثر نبيهم ، والاعتصام بكتابتهم ، والثبات على دينهم ، تلك هي ثمرة الشجرة الملعونة التي غرسها أبوسفیان في صدر الإسلام ،

وغذاها عثمان بتسامحه وضعفه واستخذائه لعشيرته ، ثم استغلها معاوية طواه ، وساعده على ذلك الاستغلال نفاق فريق وضعف فريق آخر ، وسن هذا المروق لمن بعده من دعاة الفرقة وعبدة الهوى ، حتى أصبح فعل معاوية نظاماً يعتصم به ، في اقتناص الحكم وانتهاك حرمة العدالة فيه ، كل من لم تؤهله للسلطان الحق ذرة من كرامة أو مسكة من دين .

ان أحط ما بلغ بالمسلمين من درك الجبن والانزمام والضعف ، أن معاوية أثبت في نفوسهم يوم خالـج الريب قلوبهم من قتل عمار ، أن الذي قتله هو من جاء به للقتال ، لهذا قال الإمام على عندما بلغه ذلك : إذن فالله هو الذي قتل رسله وهو يوالى بعثهم إلى بنى إسرائيل وطغمة إسرائيل تسفك دماءهم ، يالخدلان الحق في نفوس المسلمين يومذاك ، ويا لموت العزة والكرامة اللتين ضحى في سبيلهما محمد وخلفاؤه من بعده ، يقضى عليهما الجبن والخزى بين يدي حطام الدنيا في عهد معاوية ، ثم لم يزل يقضى عليهما الجبن والخزى في كل عهد مشى حماته على نهج معاوية ، يستبيحون في سبيل أهوائهم حرمة الدين ، ثم يزعمون أن السياسة شئ والدين شئ آخر ، وأن الوحدة بينهما مستحيلة الوجود ، لما يلزم السياسة من تسامح وتحرر وما يلزم الدين من ورع واستسلام ، حتى كأن محمداً وأبا بكر وعمر وعلياً يجهلون السياسة التي نقيم آل أبي سفيان على حق في انتهاجها .

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ .

الله

القرى هنا أعم من المدن والدساكر ، ولعل القرى تعنى الحواضر عند العرب وتقابلها البوادي ، ولذلك أطلق الله على مكة والطائف لفظ القريتين ، وإيثار أهل القرى بالذكر على البداة لإشعار بأن فقه الحياة فى العقل المتحضر أسمى منه فى العقل البادى ، لأن مجال الفكر ونمو الروح بين ازدحام الأيدى على الصناعات ، وتنافس العقول فى ميدان العلوم والفنون ، كل ذلك يجعل اهتمام الخالق بالمتحضر من مخلوقاته ، فوق اهتمامه بالبادى منهم ، من أجل ذلك لم تكن الرسل لتبعث إلا فى صميم القبائل المتحضرة لأنها قدوة البادين من بنى الإنسان .

ولنفسك بالهدف من تخير هذه الآية الكريمة للبحث وهو كلمة « بركات » ماذا تعنى بها اللغة العربية ؟؟ هل هى نمو الرزق وتضاعفه ؟ أم بقاؤه وإطراده ؟ أم هى نفخ الطيبة والنعمة فى الرزق المبارك ؟؟ ولعلها سر اقتناع المرزوق بما أنعم الرازق عليه به قل أو أكثر . ولعل هذا المعنى هو السعادة التى يفتش عنها الإنسان فى كل شئ فلم يجدها فى شئ ، إذ لا ينشدها إلا بالزيادة فى الرزق والنمو فى النعم والاطراد فى توالها بمتع الحياة ، فقد تكون السعادة فى شئ من هذا وقد تكون بعيدة عنه ، كما قد تكون فى شئ من الفقر والعوز وقد تكون بعيدة عنه ، فالميزان الحق للسعادة هو فى ذات المرزوق لا فى الرزق ، والقناعة هى عنوان السعادة تلك إذا رافقها شئ من التفكير الصحيح فى تصريف الأمور وتدبير الحياة .

تلك إذن هى البركات التى تنزل على الإنسان من سماء الله بأن يعمل باخلاص وتقوى ثم يكسب فيحسن التصرف بكسبه ويقنع بما يناله من رزق ، وهذه هى الحياة الطيبة التى وعد الله بها المتقين فى قوله : من عمل صالحاً من ذكر و أنثى وهو مؤمن فلنجيئنه حياة طيبة » ان هذه الحياة لا تعدو هبة الله للإنسان

في حدود العلم والعمل ثم الرضى عما يناله من ثمرة علمه وعمله ، ولهذا قيل في  
الكلم المأثور : ذكاء المرء محسوب عليه « لأن الذكاء من أشرف أنواع الرزق ،  
والبرهان على أن البركات معنى بها ذلك هو أننا كثيراً ما نرى الإيمان يرافقه  
الفقر من قلة المال وسوء الحال ، فلو كانت البركة قاصرة على معنى السعة في  
الرزق والجلدة في المال ، للزم أن يكون الفقير المؤمن محروماً من بركات الله ،  
وهذا غير جائز على الله وهو الرؤوف الرحيم العادل .  
إذن يتحقق معنا في تدبر هذه الآية أن نقول : لو أن أهل القرى آمنوا  
بربهم واتقوه لأنزل عليهم الفقه في الحياة والصبر على بلائها والرضى بما قسم  
لهم منها ، ولكفاهم النصب في كسب الرزق والحرص على المال والتنافس في  
التهالك على حطام الدنيا المفضى بهم إلى الحسد والبغضاء ثم الخصام والنزاع آخر  
الأمر ، ولعمري ان هذا هو غاية الشقاء في حياة الإنسان ، كما أن ذلك هو  
منتهى سعادته في أولاه وآخرته .

بُدِىَ الدِّينُ غَرِيبًا ، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بُدِىَ ،  
فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ ، قِيلَ : وَمَنْ هُمُ الْغُرَبَاءُ يَا رَسُولَ  
اللَّهِ ؟ قَالَ : هُمُ الَّذِينَ يَصْلَحُونَ عِنْدَ فَسَادِ النَّاسِ .

مَحْمَدٌ

من القول المأثور عن الإمام على قال : الفقر في الوطن غربة ، والغنى في الغربة وطن « من هذه الكلمة القيمة نفهم معنى « الغريب » وانه : صفة للمنبوذ من محيط يعيش فيه ، فالفقير غريب في أهله ، وإن كان عريقاً في موطنه لهم ، ويقول الشريف الرضى :

ليس الغريب الذى تنأى الديار به ان الغريب قريب غير مودود  
يتجاوز كالأول في معنى الغريب ، ويريد به القريب المكروه . أما الحقيقة اللغوية لهذا اللفظ فهي أن لفظ الغريب يصدق على النازل في قوم لا عهد لهم به ينكرهم وينكرونه ، حتى إذا تعارفوا زالت الغربة عنه وأصبح فيهم معروفاً ، فالغريب إذن معنيان أحدهما لغوى وهو هذا ، والثانى مجازى وهو ذاك .  
أذكر ، وأنا في لندن أيام دراستى هناك ، زرت الشاعر الهندى محمد إقبال ، وكان يقدم رسالته للدكتوراه ، في فلسفة الإسلام ، فسألنى عن معنى غريب في قوله صلى الله عليه وسلم : بدى الدين غريباً وسيعود غريباً « ثم عقب السؤال بسؤال آخر هو : هل يصدق لفظ « فقير » على معنى غريب ؟ وكأنه يريد تخريج كلمة « فقير » المطلقة في الهند على الرجل المستوحش من الناس والمنكش على نفسه والرجل الشاذ الغريب في أطواره وأعماله ، كالخروج على النواميس الاجتماعية بخوارق غير مألوفة عادة في مجتمعه تشبه السحر أو الشعوذة ، فقلت :

أرى أن لاصلة بين اللفظين في لغة العرب إلا بالتجاوز كما سبق في قوله :  
الفقر في الوطن غربة « كأنه ضمن الفقر الذى هو طريد المجتمع المادى ، معنى الغربة التى هى استيحاش الغريب في قوم يستوحشون منه لأنه بعيد عنهم بشكله



وعقله ، ويوضح ذلك قول أبي الطيب في خراسان عندما زارها فأنسته طبيعتها وأوحشه مجتمعتها فقال :

ولكن الفتى العربى فيها غريب الوجهه واليد واللسان  
يشير إل أن الغربة تتناول اختلاف المغرب عمن توطن فيهم بشكله ولونه ثم  
بلغته وعمله .

فاذا رأينا كلمة « فقير » في الهند تطلق على من يخالف القائم فيهم بزي  
خاص ولغة خاصة ثم عمل خاص به صدق لفظ الغريب عليه ، لأن عمله الخارج  
به على عاداتهم وتقاليدهم يكفى صدقاً فيه على غربته . أما إذا رجعنا إلى معنى  
الفقير في لغة العرب فلا نجد يتعدى ذا الفاقة والعوز إلى أى شئ من  
ضروريات الحياة وهذا لا يصدق على شئ من معنى الغريب .

والحديث الشريف يصدق على غربة الدين فيه كلا المعنيين للغريب ، الحقيقى  
والمجازى ، فيصح معنا أن نفس غربة الدين في أوله : بأنه جاء في الناس  
بعيداً عنهم في العادة واللغة والمعتقد ، فاستوحشوا منه ، وهذا هو المعنى  
اللغوى ، ويصح معنا أن نفسرها بأنها صفة للدين أوجبت تنكر القوم للموصوف  
بها فيما يأتية مخالفاً لهم ولو كان معتنقه من صميمهم ، وهذا هو المعنى المجازى ،  
فالغريب في قول المتنبي حقيقى ، وفي قول الإمام وقول الشريف الرضى مجازى  
ليس هذا التفسير هو المقصود هنا ، ولكنها نظرة عابرة في لغة العرب ، وأما  
لغة الوحى التى تنزلت على محمد وهو يقول : طوبى للغرباء « فهو المقصود من  
أبحاث هذا السفر ، فمن هم الغرباء الذين مدحهم الرسول بقوله : طوبى للغرباء ؟؟  
أنه فسرهم بعد أن سأله عما يقصد بالغرباء إذ قال : هم الذين يصلحون عند  
فساد الناس ، فكشف بذلك عن أنه يريد بمعناه المجاز لا الحقيقة ، إذ لو أراد  
معناه الحقيقى لنال المدح كل معانى الغريب وهذا يأباه المنطق .

ويقصد هنا بالغرباء معتنقى الدين الذين يصبحون قلة في مجتمع يتنكر لهم  
في عاداتهم وآدابهم ومعتقداتهم ، فيصممهم بالرجعية حيناً وبالجمود والركود  
حيناً آخر ، ويصوب إليهم نقده في كل ما يأتونه . ، ويتخذ ما يعتصمون به من  
قول أو عمل هزأً وسخرية ، ثم يحمل عليهم حملاته الإلحادية ويحذر منهم

النشء في تعليمه وتوجيهه ، فيتنكر لهم ويتنكرون له ، فيصبحون ، وهم من صميم ذلك المجتمع ، غرباء عنه بعيدين منه ، تعرفهم بألسنتهم الصادقة فيما تقول ، وأيديهم الخلسة فيما تعمل ، بين أناس مرقوا من الدين ومردوا على النفاق لا تری فی أعمالهم إلا الغش ولا تعی من أقوالهم غير الكذب والزور والبهتان .

ولنضرب الأمثال فيما بين أيدينا من حياة ، على الصالحين عند فساد الناس الذين عبر النبي بهم عن الغرباء ، ثم لنبدأ هذه الأمثال معكوسة لندل بما تتمثل على صحة الأطراد في التشبيه ، وليكن هذا المثل المبدوء به هو الذين يفسدون عند صلاح الناس ، لأن الصالح بين الفاسدين كالفاسد بين الصالحين من حيث غربته فهم وبعده عنهم وهو في صميمهم يحيا بحياتهم ويموت بموتهم . يتحدث إلى أبي أن الصلاح قبل ثمانين عاماً كان شاملاً في البقعة التي نحن فيها وهي المسماة « بجال عاملة » نسبة إلى عاملة بن سبأ الذي هاجر قبل الإسلام من اليمن جنوب الجزيرة العربية إلى الشام فراراً من القحط على أثر انهيار سد مأرب . يقول أبي : كان في النبطية وهي حاضرة جبل عامل ، وتكاد تكون عاصمة الجنوب من جبل لبنان وتفصل بينه وبين فلسطين ، يقول : كان في هذه البلدة فقيه مطاع محبوب محترم يدعى السيد حسن مكى ، وقد بلغ من طاعته في مجتمعه ذاك أن رجلاً سب الدين في سوق المدينة وعلى مسمع من النظارة فأحرق به الناس وترعزعت أركان المدينة من شيوخ هذا الحدث وأثره السيئ في سمعتها لدى القرى المجاورة .

ولما خشى الرجل على نفسه لجأ إلى الحكومة بدعوى أن الخير مكذوب عليه ، ثم شكاه سامعوه إلى الفقيه وشهد منهم من هو ثقة في القول ، فأصدر السيد الفقيه فتوى بتحريم معاملته ومخالطته والسلام عليه ، ونهى عن أن يتعمد أحد إنزال السوء به ، وشاع ذلك بين الناس فاجتنبوه حتى لا ينظر إليه أحد ، وبلغ ذلك أهل القرى فاجتنبوا معاملته والسلام عليه ، وأنكره حتى أهله ، فكان يفتح متجره من الصباح إلى المساء لا يدخل عليه أحد ، ولا يكلمه أحد ولا يبيعه أحد ثم لا يشترى منه أحد ، حتى ضاق به العيش ووجد أن لاهية له

إلا أن مهاجر أو يلود بفقيره البلدة ، وكان الرأى الثانى أقرب إليه فجاء الفقيه وقبل يديه ثم خضع أمامه منيباً مستغفراً فاستتابه ثم أحل للناس معاملته .  
أما أنا فقد أدركت قبل أربعين عاماً أن امرأة فى قريتي ثبت عليها الزنا شرعاً ولم تقم الحكومة عليها الحد ، فاجتمع أهل البلدة وأقروا تعزيرها ، فسخطوا وجهها بالسواد ثم حملوها على ظهر حمار وأداروا وجهها إلى دبره ، وطافوا بها البلدة والصبية وراءها يهتفون بما تقشعر له الأبدان من بدئ اللفظ الذى يسبغونه عليها ، وبقيت بعد ذلك طول حياتها منبوذة ، واستمر ذكرها ، حتى ماتت ، مضرب المثل السوء فى أهل البلدة .

وأذكر أن أحد شيوخ قريتي الطاعنين فى السن كان يتحدث إلينا عن صلاح الناس قبل مائة عام ، وأن أثرياء الزراع كانوا إذا بلغ عندهم نصاب الزكاة فى الحبوب ، يضعون حق الله فى المساجد ، وترك أبواها مفتحة ليأتى فقراء القرية فى غيابة الليل ويأخذوا حاجاتهم من الطعام حرصاً على شعورهم أن يسرقه ضوء النهار ، قال : وكان الفقير لا يأخذ إلا حاجته ، ويفيض الطعام حتى يزيد على ذوى الفاقة إليه ، ويبقى فضل البر فى المساجد إلى الشتاء فيدركه العفن ثم يتصرف به فقيه البلدة فى وجوه أخرى من الإحسان .

وكان الفقيه فى قرية إذا زار قرية أخرى ليس فيها فقيه ليرشد أهلها بضعة أيام ، كان لا يشرف على البلدة إلا ويحتشد أهلها جميعاً على مشارفها للترحيب به والسلام عليه ، ثم تستمر أيامه أعياداً فى البلدة ويقم هذه الأيام مختلف الأتزال ، كل وجبة فى نزل إلى أن يغادرها فيودعه أهلها بمثل ما استقبلوه به يوم ورد عليها ، وكان منزل المختار هو دار القضاء بين المتخاصمين عند الفقيه ، وكان للفقيه الحق فى أن يحكم ويؤدب من لم ينزل على حكمه ثم يفصل فى الحكم دون رجوع إلى الحاكم المدينى ، حتى كان الراغب عن الحكم الشرعى إلى الحكم المدينى منبوذاً فى قومه ومشاراً إليه بالبنان فى معرض النقد والتسفيه كلما غدا على المحكمة أو راح منها .

هكذا كان الفاسد بين الصالحين ، حتى إذا دار الزمن نصف قرن أو يزيد فاذا بالملاحد يغزو المؤمن ثقافة وسياسة واقتصاداً ، فيقلب الحياة رأساً على

عقب وإذا بالفقيه يدخل البلدة فلا يشعر به أحد ، ثم يدخل المسجد فيصل إلى وحده ، وقد يطرق أكثر من باب فلا يجد من يؤويه ، وإذا بالسوق بين سمع الناس وبصرهم ، يجلس إلى مائدة الخمر في مقهى الشارع وفي رمضان فلا ينكر عليه أحد ما يصنع ، وإذا بالشاب المتعلم يكتب وخطب ساخرًا من الدين وهازئًا بتعاليمه فلا يجره أحد ، وإذا بالمصالح الملهم يؤلف أو يكتب أو خطب أمرًا بالمعروف أو ناهيًا عن المنكر فلا يصغى إليه أحد ، ولا يأبه به أحد ، ثم لا يزن عمله أحد ، وقد يرمى بالسفاهة والرجعية والجمود .

أعرف رجلا كان وهو يدرس العلم في بلده العربي مأبونا فأصبح رئيس وزراء في بلد عربي آخر ولا يزال كذلك إلى الآن ، وأعرف آخر كان وهو يدرس في باريس يسرق الأخذية في الليل عن أبواب غرف الفندق الذي يسكنه فأصبح بعد عوده إلى وطنه العربي رئيس مجلس للتشريع « برلمان » ولا يزال يتنقل من نائب إلى رئيس ووزير حتى الآن ، وأعرف رجلا قطع الشطر الأول من حياته خائناً لبلاده وأمه يترامى على أقدام الفرنسي تارة وعلى أقدام السكسوني تارة أخرى حتى وصل إلى النيابة ثم الوزارة ثم الرئاسة ولا يزال يتقلب كذلك حتى الآن . وأعرف رجلا ألف عصبة من اللصوص وقطاع الطرق وشذاذ الآفاق فتحكم بها في رقاب الأمة وهدد ذوي الحكم ، ثم اعتلى مناصب النيابة والقضاء والوزارات بفضل أولئك اللصوص المارقة واستباحتهم حرمة الدين والشرف والإنسانية ، ولا يزال محترماً في الأمة مطاعاً فيها إلى الآن ، وأعرف امرأة في بلد عربي تهتف على « التلفون » المتعدد حولها ، مهيمية بنواب الأمة ووزرائها تأمر وتنهى فتطاع في أمرها ونهيا كما تشاء ويشاء لها عملها الشائن الذي يصل بينها وبين كل نائب ووزير ، وقد بحثت عنها فإذا هي « واسطة خير » ولا تزال كذلك حتى اليوم .

أستطيع أن أعرف وأعرف ثم يعرف معي كل قارئ أو سامع أن هذا الطراز من حكمانا ورؤسانا وأعياننا يكاد يكون الطليعة في كل مجلس من مجالس أمتنا وغيرها ، إلا ما ندر ، يكاد يكون طليعة كل مجلس يسن القوانين ويشرع النواميس وينفذ الأحكام ، بينما نرى المخلص المتحرر من هواه ونفسه ،

العامل لدينه وقوميته ، المضحى فى سبيل مثله العليا فى الحياة ، نراه مزوياً فى غيابة بيته إن كان له بيت ، أو مشرداً فى مجاهل الأرض بائساً مضطهداً ، لا ينظر إليه أحد إلا ازدراه ، ولا يسمع به أحد إلا سلقه بلسان أحد من الفولاذ زاعماً أنه خرج على مجتمعه وتقاليده أمته .

بهذا نفهم ويفهم كل من أوتى مسكة من الفهم اليوم ، أن رسول الله قد صدق فيما قال ، إذ حكم على أن هذا الدين جاء أول ما نبع غريباً فتمكن من نفوس الناس باخلاص معتنقيه وتضحية المؤمنين به حتى أصبح أهلاً وأصبح الكفر به والزهد فيه غريباً عنهم ، واستمر كذلك حتى إذا ضعفت نفوس حامليه ، وفترت همة الخفى به ، وخبث شعلة القائلين عليه ، أحرق به الكفر ، وطمغى عليه الإلحاد ، وجرفه تيار الظلم والبغى والعدوان ، إذا به يصبح غريباً فى وطنه وشريداً بين أهله ، هكذا نفهم قوله صلى الله عليه وسلم ، بدأ الدين غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء ، وهكذا نفهم قوله بعد ذلك : الغرباء هم الذين يصلحون عند فساد الناس ..

## عَلَى إِنَّ وَرَاءَكُمْ السَّاعَةَ تَحْدُوكُمْ فَتَخَفُّوْا تَلْحَقُوا .

يقصد بالساعة : نهاية العالم في دنياه وبعثه في أخراه ، وتحذوكم : تدفعكم للخروج من دار إلى دار ، وتخففوا : تزودوا أخف ما تحملون من عمل تخف بكم ولا يهبطكم ثم لا يحول بينكم وبين سابقكم إلى الجنة ، ذلك هو العمل الصالح ، وأما من تزود من السيئات فيثقله وزره ويقعد به عن اللحاق كمن قعد به حملة الثقل دون أن يبلغ الغاية وهو أشبه « بالراكب المنبت لأرضاً قطع ولا ظهراً أبقي » .

في كلمة « تخففوا تلحقوا » إشارة إلى أن من لا يتخفف لا يلحق وإذا لم يلحق أدركه العجز فرسب في مكانه ، فهل هذا العجز هو الجحيم المعبر عنه بالعقاب ؟؟ وهل ذلك اللحاق هو النعم المعبر عنه بالثواب ؟؟ إذن فالنفاذ من هذه الحياة هو الفوز والبقاء فيها هو الخسران ، ويشير هذا أيضاً إلى أن السر في الحياة له نظام كنظام الدراسة ، فالتلميذ الذي يفلح في أداء فرضه يجتاز صفه إلى أعلى منه وهو نعيم له ، والذي يخفق في أداء ذلك الفرض يرسب في صفه وقد يهبط إلى ما دونه ، وذلك هو الجحيم المطبق عليه الذي لا يترشحزح عنه كابوسه إلا بأن يجتازه من قابل أو يبقى معذباً طوال حياته .

وهذا الاجتياز بعد الرسوب يشير إلى تعدد الحياة الدنيا وأن الحى إنساناً وغير إنسان ، يتقلب فيها مختلف الأطوار حتى يخرج منها مصفى يؤهله تطوره من حسن إلى أحسن ، لحياة أخرى هي أسمى من حياته الأولى ، فان لم يتوفر على هذا التطور خلد في جحيمه الذي هو وجود وانحلال ثم بعث وانحلال إلى ما شاء له باعث الكون الأول ، فهل في ذلك مسخ أو حلول كما يذهب إليه بعض من الناس ؟؟

إن السباك وهو يعالج عجينة الحديد أو النحاس أو الرصاص أو الذهب أو الفضة أو غير ذلك مما يصهر ليصنع تماثيل أو حلياً أو آلات ، ثم يفرغ عليها فنه

فتستقيم كما شاء فتبقى خالدة في نعيم الفن ، وإن لم تستقم وفق رسالة الفن أعادها إلى البوتقة للصهر جزاء عصيانها ثم عرض عليها ناموس الفن مرة أخرى ، وهكذا هي بين حل وسبك حتى تستقيم آخر الأمر ، أقول :

أن هذا السباك يشير بعمله ذاك من قريب أو بعيد إلى فكرة انحلال الكائن الحى ثم سبكه ابتغاء استقامته في سبيل تطوره القائم على حكمة المبدع الأول حيث يشاء من حيث نخضع لحكمته ثم لانسأله العلة في فرض هذا النظام علينا وهو القاضى بأن نستقيم لنخلد في نعيمه ، وإلا بقينا نتقلب من حياة دنيا لأخرى في جحيمه ، تلك هي فكرة مبدعى هذا المذهب من قبل يطلقون عليه التناسخ طوراً والحلول أو الرجعية أو المسخ تارة أخرى .

وعلى ضوء هذا البحث نستطيع أن نعتصم بقول الإمام : تخففوا تلحقوا « في إثبات ذلك المذهب إلا أن نتأول له غير ما يدل عليه من تجوز في لفظه أو معناه ، ولا يلجئنا إلى هذا إلا أن يعارض فحواه نص من كتاب أو حديث صح سنده واتضح مدلوله .

والتجوز إما أن يلحق « تخففوا » على اعتبار أن العمل الصالح خفيف لإفضائه بالروح إلى الخفة والمرح وإن أجهد الجسم ، وأن العمل السيئ ثقيل لإفضائه بالروح آخر الأمر إلى الهم والندم وإن رفه عن النفس الامارة بالسوء ، وإما أن يلحق التجوز « تلحقوا » على اعتبار أنه سلام الله عليه ، أراد اللحاق بالصالحين لا مطلق اللحاق ، وهنالك وجوه أخرى صحة اعتبار اللفظ على مجازه لا حقيقته وقد تركنا الخوض فيها للتفكير القارئ واجتزأنا بما هو أقرب إلى البيان في كيان التجوز .

ولا بد ، قبل ختام هذه الكلمة ، من أن نتبسط في بحث التناسخ المشار إليه في توجيهي جمليتي « تخففوا تلحقوا » إلى الدلالة عليه دلالة لزومية لا ذاتية ، فنقول : ان الدين لا يحول دون العقل أن يجز تطور الحى جزئياً لا كلياً قبل انتهائه إلى الغاية التي من أجلها كان حياً ، ومثال ذلك واضح في العجينة التي ضربناها مثلاً لتأهيل الإنسان بالنسخ والبعث مراراً في سبيل خضوعه لقبول الكمال ما دامت المادة الأولى ، المعبر عنها لدى الحكماء الأقدمين بالهيولى ،

ثابتة لا تتغير وإنما التغير ينال الصورة التي تعرض لها في طريقها إلى الهدف القائم على حكمة الخلاق الأول .

فالأخبار الماثورة عن سلفنا الصالح مرفوعة إلى الكتاب والسنة أو غير مرفوعة ، تشير إلى هذا المذهب ، إذ جعلنا الله خليفة لخلق سابق في الأرض من سنخنا ، وهددنا بأن يستخلف غيرنا فيها إذا لم نستقم له ونخضع لإرادته ، وفي الكلام الماثور أن الله خلق أكثر من آدم قبلنا ، في هذا وما سبق شيء من برهان على صحة هذا التطور المعبر عنه بالتناسخ أو الحلول قبل انتهائنا من هذه الحياة الدنيا لنخرج منها في كمال يتقوم به عالم هو فوقنا نطلق عليه عالم الخلود ، ويكون النسخ أو المسخ ثم البعث في الحياة الأولى هو العذاب المعبر عنه بالجحيم . ولعلنا نعود إلى بحث مشكلتنا هذه مرة أخرى في سبيل الإيضاح خشية أن يتأول قولنا جاهل في أننا نريد من الحلول أو التناسخ إلحاداً أو عبثاً ، فإن توجيه الرأي الذي يراه غيرنا نحو الحق شيء ، واعتناقه أو توجيهه نحو الباطل شيء آخر ، إذ لم نرد بنسخ الجزئ وبعثه ، محوه وإبداع غيره ، وإنما نريد محو صورته العارضة على نواته وإثبات صورة أقرب إلى الخلود منها في سبيل الكمال المنشود من وراء الحكمة الأولى ، كما تصهر الحلية فتعيدها إلى الذهب الخام لتعيدها حلية ألصق بالفن من سلفها المنسوخ فلا يلزم من نسخها نسخ المادة التي تكونت منها ، وإنما نسخت الصورة ثم أعدتها جزئياً إلى كيانها الأول بشكل أكمل وأجمل ، فالكمال هذا هو نعم الجزئ المبعوث بالنسخ ، وصهره مرة بعد أخرى هو جحيمه ، والنسخ الذي يتناول الجزئ دون كليته أمر مفروغ منه في صدق الدين عليه لقوله عليه السلام : لم تكن نبوة إلا بتناسخ ، أى أن النبوات تناسخ لكمال الحياة كتناسخ الإنسان في سبيل كما له ، تلك هى لحة من بحث هذا الموضوع الشاق أثرتها بما أعلم وفوق كل ذى علم عليم .



قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ : أَنَا آتِيكَ بِهِ  
قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ

الله

أى كتاب يعنى الله عز ما يكتب وعلا ؟؟ وما هو الكتاب ، هل يعنى به الوحي المنزل على رسله ؟؟ أم يعنى به الكتابة التى هى لإحدى وسائل العلم ؟؟ كل ذلك قد يعنيه وكل من الوحي والكتابة يفتقر معه الكاتب والموحى إليه ، فى سبيل الكشف عن أسرار الوجود والعزم فى اكتناؤه تلك الأسرار ، يفتقر إلى علم بالوحي والكتابة ، فقد يوحى إلى الإنسان فلا يحتمل الوحي ولا يستطيع الاضطلاع بعينه ، فلا يخرج عن كونه مفكراً أو شاعراً يقف عند تلقى الوحي ونشره دون العمل به ، وقد يكتب الإنسان عن علم فلا يخرج بعلمه ذاك عن أن ممسك القلم ويكتب حكماً فقهياً ثم يقف عند ذلك دون أن يتعدى الفقه والكتابة إلى اكتناؤه السر الذى من أجله كانت الكتابة وعليه قام فقه الحياة .

إلى المعنى الأول يشير تعالى بقوله : يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا . وإلى المعنى الثانى يشير بقوله عز من قائل : قال الذى عنده علم الكتاب أنا آتيتك به « أى عرش ملكة سبأ » قبل أن يرتد إليك طرفك ، لأن علم الأول نظرى سطحى وعلم الثانى واقعى عملى ، والإشارة بهذا إلى مبلغ العلم العملى من التحكم بالمادة والهيمنة على طبيعتها ، بقيت ضميراً فى سر الغيب منذ سليمان حتى عصر الذرة اليوم ، يمر بها الإنسان فلا يدرك أكثر من أن هذا العمل ، الذى هو نقل العرش بشكل عاصف إلهى لا يقوى على الإتيان بمثله بشر إلا باذنه .

وها نحن اليوم نصل إلى أن فى مقدور العلم الواقعى المشار إليه فى القول الإلهى السابق ، أن يقتلع العرش من أقصى ملك سبأ ثم يهوى به فى الأثير إلى بيت المقدس بلمح البصر ، لأن علم الذرة يقر الآن أن قذف الجرم يمكن أن يشاكره قذف الصوت الذى لا يحتمل بضع ثوان فى اختراقه الكرة الأرضية تحت دفع التيار الكهربى المهيمن على الأرض ، إلا أن العلم القائم على تمكين الإنسان من ذلك ، لا يزال يعمل لحفظ الجرم المقذوف بسرعة الصوت من

احتراقه وهو يحترق الأثير ، وقد وصل العلماء اليوم إلى أن أصبح ممكناً قذف الصواريخ بسرعة الصوت في الهواء لا في التيار الكهربائي دون أن تحترق ، ووصلوا إلى إمكان قذف الإنسان في منطاده ثلاثة آلاف ميل في الساعة وقد أذاعوا أن في الإمكان قريباً قطع الجرم الطائر أو المقذوف على جناح الأثير ، ستة آلاف ميل في الساعة .

فاذا قدرنا أن ابن الحرم القدسي حيث كان سليمان وبين اليمن حيث كانت ملكة سبأ مسافة لا تزيد على ألف ميل ونيف ، علمنا أن في طوق العلم اليوم أن يقذف الجرم بفعل الأثير فيقطع هذه المسافة خلال عشر دقائق وأمكننا بفضل قوله تعالى : «وقل رب زدني علماً» تعزيز التحكم بالطبيعة إلى حد السرعة التي تنهاه عند قذف الجرم خلال ثوان مسافة ما بين المشرق والمغرب ، وذلك تحقيق ما كان يعده الإنسان خيالا أو خرقاً للطبيعة قاصراً على رب الإنسان . لقد حقق العقل بالعلم خيالا كان مستحيلا وأصبح ممكناً ، وأثبت هذا العلم أن البصر والسمع والفكر ليس لها حد تقف عنده ، وأن الصعود في السماء والمشي على الماء ممكن أو سيكون ممكناً بفضل العلم ، وأن خرق الطبيعة لا يتحقق فيما ندرك وإنما هذا الذي نتمكن منه خرق للعادة لا للطبيعة ، فليس خرق الطبيعة أن يترقى الإنسان أو أن يتقهقر وهو إنسان ، وإنما خرقها أن يتحول الجماد إلى حيوان أو أن يتحول الحيوان إلى جباد تطورا لا خلقاً ، من هنا ندرك أن الإنسان لا يتحول ملاكاً ، وأن الملاك لا يتحول إنساناً ، إلا أن يصبح الإنسان ملاكاً بطبعه ويصبح الملاك بطبعه إنساناً .

أما بروز الفكر من حيز القوة في عالمه الباطن إلى حيز الفعل في عالمه الظاهر ، ف يرجع إلى الأجل الذي قدر له وهو جنين في قلب الطبيعة ، فقد يستمر كنز الحياة مخبواً في ضمير الغيب سنين أو قروناً أو أقل أو أكثر تتمخض به الطبيعة ثم تلده بفضل العلم ، فعلى مقدار بلوغ العقل ذروات العلوم والفنون يتضاعف خروج الخبآت من أجنة الحياة ، وعلى مقدار تقهقر العقل بالجهل تستمر كنوز الحياة مخبوءة في ضمير الأزل .

فلكل فكرة في ضمير الغيب أجل ثم تبرز ، ولكل فكرة بعد أن تولد أجل

في استمرارها حياة ثم تهلك فتتوارى في ضمير غيب آخر وتستمر فيه حتى تصبح كنزاً مرة أخرى فتولد في عهد آخر للإنسان غضة جديدة ، وهكذا دواليك في الإنسان وصور حياته جدة وقدماً ، وقدماً وجدة يتعاوره بينهما نسيان يحيل قديمها جديداً ، وملل من الجديد يحيله قديماً ، فالجاهل الغر يحسب أن الحياة دول بين قديم وجديد ولكن البصير الحى يفهم أن الحياة قدمة بقدم الإنسان وصورها تتداوله بين ظهور وخفاء ، كالشمس التي تهب الحياة شروقاً وغروباً ، وهو ، في كلتا حالتها ، يكتنه سر ما تشرق له وتغيب عنه ثم يقول :  
لا جديد تحت الشمس .

مكتبة

إِذَا وُضِعَ الْعَبْدُ فِي قَبْرِهِ وَانْصَرَفَ أَصْحَابُهُ حَتَّى  
لَيْسَمَعُ خَفَقَ نِعالِهِمْ ، أَتَاهُ مَلَكَانِ يُحَاسِبَانِهِ ، فَإِنْ  
كَانَ مُؤْمِنًا أَرِيَاهُ مَكَانَهُ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَإِنْ كَانَ كَافِرًا ضَرَبَاهُ بِمِطْرَقَةٍ  
مِنْ حَدِيدٍ بَيْنَ أُذُنَيْهِ فَيَصْبِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ

كيف يسمع ولا يتكلم ؟؟ وكيف يريانه مكانه من الجنة ؟؟ ثم كيف  
يسمع الصيحة من يليه إلا الثقلين أى الإنس والجن ؟؟  
هنالك فى علم التشريح شئٌ أصبح جلياً بين يدي الطب ، هو : أن لكل  
حاسة فى الإنسان شعباً تتظافر على تركيب خاص تتقوم به الحاسة فى أداء رسالتها ،  
وهذه الشعب هى الأعصاب الدقيقة المتصلة بمركزها الرئيسى فى الدماغ ،  
وعليها يتركز إنتاج الحواس فى تقويم الكيان الإنسانى ، ففى هذا الدماغ  
مصدر أول « سنترال » هو الإرادة تتصل به تلك الشعب ، وهذه الإرادة  
خاضعة لموجه خاص كمدير السنترال فى اللاسلكيات والسلكيات ، ذلك الموجه  
هو المسيطر الأول على مملكة الجسم فى بعث الإرادة التى تهيم على الأعصاب  
الخاضعة للملكة الاختيار فى الإنسان ، ولعل أصبح ما نطلقه على ذلك المسيطر  
هو لفظ الروح وقد أطلق بعض الحكماء عليه اسم العقل ، على أننا نرى الحيوان  
يشارك الإنسان فى توجيه إرادته عصب الإحساس وليس فيه ما نسميه عقلاً ،  
فما هو باعث الإرادة فى الحيوان إذن غير الروح ؟؟ أهو غريزة النباهة كما  
يزعمون أم هو شئ آخر لا نفقهه ؟؟

إذا صح معنا هذا التفكير علمنا أن لكل حاسة ، ظاهرة أو باطنة ، مركزاً  
خاصاً فى ذلك المصدر الذى تطلق عليه لفظ « سنترال » ففى طوق المهيمن الأول  
على الوجود الإنسانى أن يلهم الروح المسيطرة على الإرادة أمراً يحول بين  
الإرادة وبين تأثيرها على سلك ما من أسلاك الحواس فيفقد ذلك السلك تأثيره

على الحاسة فتخفت ويفقد الإنسان أثرها في الخارج ، فكم أناس فقدوا حاسة البصر أو السمع أو الشم أو الذوق من الحواس الظاهرة ، وآخرين فقدوا الذاكرة ، أو الحافظة ، أو الفاهمة ، أو العاقلة من الحواس الباطنة ، وأثبت الطب الجراحى أن فقدان ذلك إنما هو اختلال سلك عصبى أو أكثر من الأعصاب التى تتصل بتلك الحاسة المعطلة .

لذلك يفكرون ، وتفكيرهم قاصر جداً ، فى الوصول إلى كنه تلك الأعصاب ومدى اتصالها بالروح وتأثير الإرادة عليها حيناً ثم فقد الإرادة ذلك التأثير حيناً آخر ، على أن لديهم من البهيميات فقد الإنسان حاسة دون أخرى لمعارض فهموه واعراض أخرى كثيرة لم يصلوا بعد إلى كنهها ، فقد يعللون العمى أو الصمم أو البكم بأمور يصدقون معها ، وقد نخطئ معهم التشخيص فلا ينفعهم معه تحليل ولا تشريح ، ويبقى الأعمى أعمى والأصم أصم والأبكم أبكم ، دونما علة تظهر للطبيب فى جوهر العين أو اللسان أو الأذن ، ذلك ما ثبت لنا أن وراء تعليلهم الخاطئ عللاً أبعد فى علم الحياة الإنسانية من أن يصل إليها علمهم وتفكيرهم .

من هذا كله نصل إلى صحة الحديث الشريف بأن الميت فى القبر يسمع ولا يتكلم أو يبصر ولا يسمع أو يشعر ولا يطيق الاعراب عن شعوره ، وقد تقف الإرادة عن توجيه الحواس بأمر الروح فتتعطل الحواس ، وقد تقف بذلك الأمر عن توجيه بعض الحواس دون الحواس الأخرى فتؤدى هذه وظيفتها وتعجز تلك عن هذا الأداء ، كل ذلك مشاهد محسوس فى حياتنا ومألوف تصديقه وبديهى وجوده ، والأمثلة على ذلك كثيرة بين سمعنا وبصرنا .

كنت فى جنوب أمريكا سنة ١٩٣٩ أيام الحرب العالمية الثانية ، وزرت جمهورية تشيلي فى أقصى الجنوب ودعيت إلى مدينة « طلكا » ثم مدينة تقرب منها وكنت ضيف عربى مهاجر من مدينة النبطية فى جبل عامل أحد مقاطعات لبنان ، ولعل هذا المهاجر من أسرة حيدر أو جابر لا أذكر جيداً ، ورأيت اهتزازاً غريباً فى عيني زوجته الأجنبية ، وسألته عن سببه فقال : لقد أصيب

كثير من أهل هذه المدينة قبل سنوات بالعمى المفاجئ دونما سبب يدركه الطب ، ثم قال :

اضطربت الحكومة لذلك فاستحضرت لجنة أطباء من أوروبا وشمال أمريكا فوصلوا في تشخيصهم إلى أن حيوانات دقيقة جداً لا ترى إلا بالمجهر تلتصق في مؤخر الحديقة من الداخل وتتكاثر على منفذ النور إلى الخارج فتحول دون البصر ، وقد أجروا عمليات لتطهير المنفذ من تلك الجراثيم فعاد البعض إلى الإبصار واستمر البعض الآخر ضعيف البصر مهتز الحدق كما ترى ، ثم يقول مضيفي : وقد أثبت الأطباء أن السبب الباعث لتلك الجراثيم هو الإكثار من أكل هذه المدينة لنوع من الخنازير يتولد منه بطبيعة المحيط ذلك الحيوان المتكاثر على منفذ النور من الدماغ إلى خارج العين ، واحتجب ذلك العمى عن تلك المدينة لمجرد امتناع أهلها عن أكل الخنازير .

إذن ليس فقد البصر قاصراً على اختلال جوهر العين من خارج أو داخل مادياً فحسب كما يعمله الطب ، وإنما يتجاوز ذلك إلى أسباب أخرى مادية لا عهد بها للطب في مثل هذا الحادث ، وغير مادية ما زال الطب عاجزاً عن إدراك العلل المسببة عنها كالذي نعلل به عمى الميت واستمرار سماعه ، أو صممه واستمرار بصره ، أو بكمه واستمرار بصره وسمعه ، فالعلم له أول وليس له آخر فلنتبصر ولنعتبر .

أما كيف يرى الجنة التي عرضها السموات والأرض وهو في قبره المطبق عليه والذي لا يزيد في طوله وعرضه على بضعة عشر شهراً ، أما هذا فيستدعي أن نمهد له كما مهدنا لسابقه من بحث علمي هو بين أيدينا وليس غريباً عنا . كنت ، وأنا في ولايات أمريكا المتحدة ، أجلس مع أصدقائي في بيت السيد عبد الله برى بمدينة دربن من ولاية مشكن ، وذلك لبضع سنوات خلت ، كنا نجلس إلى مرآة المذياع لدى انعقاد جمعية الأمم المتحدة في نيويورك التي تبعد عنا ما يقرب من المسافة بين مصر حيث أكتب هذه الفصول ، وبين العراق ، أقول : كنا نجلس في دربن إلى ذلك الواحي وبين أيدينا مرآته « التلفزيون » ترينا أشخاص المتكلمين في نيويورك من ممثلي دول العالم عرباً وعجماء ، ترينا تلك الأشخاص

بعضهم جلوس يستمعون والبعض الآخر وقوف يتكلمون في حل المشاكل العالمية . قلت في نفسي : أيربى لإنسان مثلى ، بفضل العلم ، مقر الأمم المتحدة ويسمعى أصوات ممثلها وهى بعيدة عنى بعد السماء الدنيا عن الأرض ، وأنا في حجرة مطبقة على من جميع جهاتها كالقبر ، ثم لا يستطيع ملاك السماء المهيمن على إنسان الأرض أن يربنى بقعة في الوجود حافلة بنور الحق ، وأنا في قبرى ؟؟ أفليس في هذا المثل المحسوس لنا برهان على صدق رسول الله وأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ، علمه شديد القوى ؟؟

إذا أنكرنا ذلك ونحن في عصر الواحى سمعاً وبصراً ، فإذا يكون شأن من سبقنا بأجيال يوم كان العالم في ظلمة دامسة من الجهل وكانت كلمات محمد هذه تحل منه محل الروح من الجسد وهو مؤمن بها ومصديق لها ؟؟ هل كان أولئك إذ يؤمنون بصدق نبهم في إثبات رؤية الميت للجنة، وهو في قبره ، دونما شعور بحس أو إدراك بعقل ، هل كانوا إذ ذاك أنضج منا عقولا وأوفر علوماً في طريقهم إلى الإيمان ؟؟ وهل يعوزنا لتأثرهم بآمانهم أكثر من أن العلم الحديث حريض على إقرار ما جاء به الكتاب ، وأقرته السنة الصحيحة ، وسار على نهجهم في تصديقه كل عقل فرض الإيمان بالدين قبل أن يشير إلى الاعتصام به من وراء العلوم والفنون ؟؟

فالإيمان إذن هو السر في أن يرى الإنسان ويسمع مالا يراه ولا يسمعه غيره ، والإيمان هو الباعث من اتصف به على أن يخرق بقوله وفعله طبيعته ، بله عاداته ، إلى عالم الروح مخلفاً وراءه غير المؤمن ترسف قدماه في قيود المادة ، مقيداً في حواسه بأن يسمع قليلا ويبصر قليلا ويفكر قليلا ثم يناله من الخير ما لا يوصف بحسبان ، ذلك الإيمان هو مصدر العلم الإلهامى الذى يعنيه باعث الكون بقوله : ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » وذلك الإيمان هو الحكمة المعنية بقوله عز من قائل : ومن يئث الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً » وهو النور المعنى بقول رسوله : اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله »

يقول الرئيس ابن سينا في مقدمة بعض أسفاره ما مضمونه : كنت إذا

استعصى على اكتنائه كثير من المشاكل العلمية أعمد إلى الصوم والاعتكاف والتجهد أياماً فإذا بالمشاكل تنحل بين يدي ذلك وإذا بالعلم الذي أنشده يستجيب لتفكيرى » ويقول لى الدكتور تحى الهاشمى الحلبي وهو أحد أعلام الحكمة ممن تخرجوا فى جامعة برلين ، يقول لى ونحن جلوس فى أحد مقاهى دمشق : ان العلماء فى جامعات ألمانيا بدأوا يفكرون بأن العلم قد يصدر فى جرهوه عن الإلهامات إذ حداهم إلى ذلك تفكيرهم فى العلامة جابر بن حيان صاحب المعجزات فى علم الجبر الذى يرجع فى حل مشكلاته الرياضية الكبرى إلى أستاذه الإمام جعفر بن محمد الصادق لإمام الشيعة الجعفرية ، وأنهم لم يقفوا لجعفر هذا على دراسة غير ما ينقله عن أبيه وآباء أبيه الأئمة ثم يصعد به إلى جده الأعلى محمد صلى الله عليه وسلم .

وهكذا نستطيع أن نفسر وقر السمع وصممه فى الأنس والجن عن صيحة الكافر فى قبره عندما يهوى الملكان بمطرقتهما على أم رأسه ، فيسمعه من يليه من عالم شاء الله أن يسمع تلك الصيحة ، ويصم عنها من شاء من عالمنا القائم على تركيز خاص به فى وعيه ، ومن هذا نفهم بأن الفضاء محشود بالعوالم الخفية عنا عدا عالمنا الظاهر ، كل له وعيه المركز فى حواسه على قواعد ونظم خفية لا يعلمها إلا مبدعها وإلا من شاء ممن آمن به ، وعلى ذلك بنى الحكيم العلامة « انشتاين » نظريته فى أن الأثير الذى نعبر عنه بالفضاء أو الهواء أو الخلاء ، هو مادة صلبة بما يتكاثف من عوالم »



إِنْدَجَجْتُ عَلَى مَسْكُونٍ عِلْمٍ لَوْ بُحْتُ بِهِ  
لَا ضَطْرَبْتُكُمْ اضْطِرَابَ الْأَرَشِيَّةِ فِي الطَّوِيِّ الْبَعِيدَةِ

على

اندججت : جبلت وفطرت وطبعت على علم مخزون في كياني لو أبوح به كله لاضطربتم من الدهشة والريب اضطراب الحبال المتدلية في البئر العميقة ، ذلك هو مضمون المعنى الذي انطوت عليه تلك الجملة البالغ أثرها في نفس من أوتى حظاً من العلم وقسطاً من البيان .

ففي كلمة اندججت على علم برهان على أن علمه رباني دونما تعلم أو دراسة وإنما هو علم رسول الله صلى الله عليه وسلم فطر عليه منذ الأزل حتى اختلط بلحمه ودمه ، أى أن تركيبه عليه السلام منذ فطرته الأولى في عالم الغيب أو عالم الرحم لم يكن مجرد لحم ودم وعظم وعصب وروح يتغلغل فيها وتتقوم هي به وفي ذلك الروح نواة تنفعل بالعلم لأنها مطبوعة على العلم ، وتعالى أجرواً على تفسير قول الإمام بأنه يريد أن يقول : ان علمه ذاتي لا عارض كعلم رسول الله الذي يشارك به ربه تعالى عنه علواً كبيراً ، على أن هذه الشركة محدودة بكونها جزئياً في مخلوق من كلي في خالق .

وليس في حكمنا هذا مظنة ريب لأن خالق كل شيء لا بد من صلة تربط مخلوقه به جزئياً من كلي لا جزءاً من كل فان باري الكون كلي يهيمن على كونه الجزئي منه كالإنسانية المهيمنة على وعلى من يقرؤني ، وفي صميم الفرقان الأعظم ، وما أثر عن تنزل عليه ، كثير من التذليل على أن الله نور السموات والأرض وأن محمداً من نوره وعلى باب الحكمة التي يشع منها ذلك النور ، أقول ذلك ولو على جهة المجاز لأن المجاز حقيقة مستورة تبدأ خيالاً فيما نظن ثم تنتهي بعد ذلك إلى حق .

وهكذا يسند التاريخ بيتاً من الشعر إلى حفيد الإمام وهو السجاد زين العابدين علي بن الحسين بن فاطمة سلام الله عليهم ، يكشف لنا ذلك البيت عما يشير إليه قول الإمام الذي هو بين أيدينا ، أما البيت فنصه :

يا رب جوهر علم لو أبوح به لقليل لي أنت ممن يعبد الوثنا  
وليسست هذه الدعوى غريبة عن أهل بيت الرسول ، فقد جاء في الأخبار  
الصحيحة أن يزيد بن معاوية قال عندما وقف زين العابدين هذا بين يديه  
وهو غلام حدث بعد فاجعة الطف وبعد أسره وسبي نسائه ، قال يزيد عندما  
استأذنه السجاد في أن يعلو المنبر ويتكلم فحجر عليه الكلام ، وأنكر ذلك على  
يزيد من شهد مجلسه من خلصائه قائلاً ما عسى أن يبلغ هذا الغلام في القول  
فدعه يتكلم ، قال يزيد إذ ذاك : ان هؤلاء أهل بيت زُقوا العلم زُقا . . . »  
ولقد جاء في غير نهج البلاغة من كلمات نسبت للإمام على كلمة تقول :  
لو شئت لأخرجت لكم من الماء نوراً يكشف عنكم الظلمات » إن صح ذلك  
فهو يشير إلى الكهرباء ، وقوله في كتاب مجمع البحرين المطبوع في إيران  
والمؤلف قبل قرون ، مضمون كلمة قرأتها بنفسى : ان في هذه الأجرام  
السموية مدناً كمدنكم يربط بينها دعائم من نور » وقوله من نهج البلاغة عند  
ذكر الأرض : وأسكنها ، على حركتها ، من أن تميد بأهلها » ثبت في هذا  
حركة الأرض وثبت فيما سبقها وجود الجاذبية بين الشمس والكواكب الدائرة  
في محورها . كما ثبت أن الجاذبية هي النور ، وهو رأى بعض العلماء المحدثين  
في بحث الضوء ، وسيأتى شئ من هذا في الفصول الآتية إنشاء الله .  
أما كلمة « مكنون » المقحمة بين شقى الجملة الأولى من كلمة الإمام ،  
فتنطوى على معنى كبير هو أن هذا العلم الذى طبع شخص الإمام به هو  
مخزون لا ينفق منه إلا بقدر ما تحتمله العقول إذ هو نسخة مصغرة عن القرآن  
الذى هو مرآة للحياه منذ كانت حتى تزول ، فكلام الله تعالى جده وكلام  
رسله عليهم السلام ثم كلام أوليائه وورثة أنبيائه من معدن واحد ، يختلف  
 باختلاف المصادر كالنور بعضه يكشف جزئيات الحياه والبعض الآخر يتقوم  
به الكلى المهيمن على تلك الجزئيات ، بعضه تحتمله العيون والبعض الآخر تنحسر  
به ، بعضه يمد الحياه بنظامه ما دامت الحياه ، والبعض الآخر يمد بها الهيمنة  
على نظامها ما دام على قيد الحياه .  
ففى التنزيل غذاء للعقول القائمة على تقويم الحياه متطورة من عصر فقه

الحياة إلى عصر اكتشاف أسرارها ثم إلى عصر العمل على شخوصها بالإنسان من عالم التردى إلى عالم الخلود ، فالتنزيل كله محكم ومفصل على قدر ما مر وما يستقبل الإنسانية من حياة ، ولكن ما نراه متشاهاً فيه هو المخلوق لغبرنا وهو الذى لم نطق فقه الحكمة منه ، لذلك رأيناه متشاهاً وهو المحكم فى أمة كان لها وعالم سيكون له ، وهكذا نصل إلى جزئيات النور المنبثقة عن ذلك الكلى والى نعيم عنها بحكمة المخلوق ، كما نرى ونسمع من مأثور من تأله من حجة الحق والدعاة إلى الاعتصام به كالأنبياء والأولياء ، فانهم طبعوا على نور العلم الإلهى ليغذوا به عقل الإنسان العام المتقلب فى عهود الإنسانية .  
وكما أن الطفل يفتقر إلى مراحل فى تربيته يضطلع بها عقل القائم على تكوينه وتلوينه ، وكما أن هذا الطفل إنما يفقه الصالح لحياته فى كل مرحلة ويجهل الصالح لتربيته فى المرحلة التى تليها ، كذلك نرى الإنسان الكلى فى تربيته نخضع للعقل المربى فى نظامه مرحلة مرحلة حتى ينتهى به خضوعه إلى عالم الكمال .

فكان من الطبيعى إذن أن يضطرب الإنسان إذ يفرض عليه العقل البشرى الجبار فى فقه الحياة ، مالا يطيق احتماله من نظام الكون القائم على صهره وتصفيته ، كما يضطرب الإنسان ، وهو طفل ، إذا تعهده المربى بما لا يصلح لحياته ألا وهو صبي أو مراهق ، وكان من البديهي آخر الأمر أن نصل إلى فقه المتشابه من قول الإمام على فى أنه لو باح لنا بمكنون علمه لاضطربنا إذ لم تحتمله عقولنا بعد لأنه خلق لمرحلة تليها من مراحل العقل الإنسان القائم على تربية الحياة .  
وبعد فليس معنى اضطراب الإنسان إذا وعى شيئاً من علم لم يخلق له ، هو عين اضطراب الحبل المتدلى فى البئر ، ولكن الإمام يشبه اضطراب حالة الإنسان النفسية والعقلية والروحية إذا سمع ممن يهيم عليه بناموسه الأعلى ما لم يطق فهمه من بدع الحياة ، أقول : ان الإمام يشبه تلك الحالة فى الإنسان وهى معنوية محسوسة بالعقل ، يشبهها بحالة الحبل المضطرب ، وهى مادية محسوسة بالنظر ، وهو من تشبيه المعقول بالمحسوس المحدود لدى البلغاء من أروع صنوف البيان .

نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا  
مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا  
كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ... نُورٌ عَلَى نُورٍ...

الله

على أى وجه نحمل قوله عز من قائل : الله نور ؟؟ هل هو نور حقيقة ؟؟ أم هو منير أم ذو نور على حد تعبيرهم الله عدل أى عادل أو ذو عدالة ؟؟ فما هو النور حقيقة ؟؟ وهل هو صالح لأن نصف به خالق النور ، ونجعل النور عين ذاته كما نطلق عليه لفظ الكريم أو العليم ونعتبر الصفة عين الموصوف ؟؟ ثم هل يريد الله بنور السموات والأرض نور الكون كله على اعتبار أن الكون قاصر عليهما ؟؟ أم أن الكون سموات وأرض وما يحقق بهما من خلق آخر فيكون إطلاق نورهما عليه تعالى لإطلاق بعض على كل كما نطلق لفظ العين التي هي بعض الإنسان على كله فيكون الله الذي هو كون مطلق ، صادقاً عليه أنه نور السموات والأرض التي هي كون محدود ؟؟..

فالنور ، سواء كان هو العنصر الأول الذي يتقوم به الوجود ، كما جاء تقرير ذلك في كتابنا « بلاسم » من أن النور أو النظام أو الروح هو قوام الوجود على اختلاف النظريات في العلم الحديث ، أقول : سواء كان هذا النور قوام الكون أو كان متغلغلا فيه تغلغل الروح في الجسم والقوة في المادة والنظام في الحكم ، لا يصبح أن نحمله على خالق الكون وأنه هو ذاته ، لئلا يلزم كوننا بعضاً منه أو كونه حائلا فينا وذلك يتنافى مع تنزيهنا له والإيمان بتعاليه علينا وانحدارنا عنه .

إذن فماذا نعلل حمله النور على ذاته واتصافه به ثم الإمعان في تشبيه ذلك النور بالمشكاة فيها مصباح كأنه كوكب دري ؟؟ أرى أن ليس في هذا التشبيه شئ من حقيقة لأن الله الذي خلق العوالم في الكون متغيرة مختلفة كلياً وجزئياً ، هو أبعد من أن يشبه شيئاً منها ، ولكنه يتشبه بالمثل الأعلى في كل عالم ليقرب

من نفوسه فيهمين على أعماله بين يدي هديه وإرشاده وبالتالي توجيهه إلى الحكمة القائمة على بعثه وإيجاده .

فنسبتنا إليه العطف والكرم والعفو والإحسان والجبروت وغير هذه من الصفات الحسنة ، كنسبتنا إليه تعالى سمو المكانة وعلوها ، وهكذا نجد أن اختصاصه في كتبه المنزلة وعلى السنة رسله وأنبيائه بتلك الصفات إنما مجرى على مفهوم عالمنا القائم في تفكيره وتصويره وتمثله وتخيله ، على سنن قومنا بها وأقرنا عليها ، وجعل فيها لنا مقاييس وموازين ، ثم أقام على العمل بها والإمعان في تقويمها ، عقلا أنار به البصائر وثبت القلوب وعصم النفوس من أن تتردى في السر بهذه المقاييس على هاتيك السنن .

ولما كان في مفهومنا أن النور أشرف من الظلمة ، وأن الجمال أفضل من القبح ، وأن الكبر خير من الصغر ، وأن العلو أعز من الانحدار ، أطلقنا عليه تعالى أو أطلق هو على نفسه لفظ المنير والجميل والكبير والمتعال ونحوها مما قر في نفوسنا أنه شريف ، ولو أمعنا في اكتناه الحقائق ، لوجدنا أن العلة التي يتقوم بها الظلام والقبح والصغر والانحدار هي عين العلة التي يقوم عليها النور والجمال والكبر والعلو ، أفما تساوى لدينا في العظمة نظام الذرة التي تصغر عما ترى العين ثلاثة ملايين ضعف ، ونظام الأجرام السماوية التي تكبر عما يحده الفكر مثل تلك الملايين ؟؟

أو لم نوقن بأن في الظلمة الدامسة أشعة مجهولة لم تكن عين الإنسان المركزة في عالمها على أشعة شمسها الخاصة بها ، لم تكن لنقوى على إبصارها ؟؟ أو لم نصل بالبحث العلمي الصحيح إلى أن الحسن والقبح نسبيان يتقومان بالأسباب التي من أجلها كان الحسن حسناً والقبح قبيحاً ؟؟ أو لم نعلم علم اليقين أن السموات أو الانحدار وسائر جهاتنا الست قائمة على مفهومنا لا على الواقع الذي يثبت أنا مخلوقون من جرم يتقلب في سيره ، ويختلف نظامه القائم على الحركة باختلاف القوة التي يعتصم بها من الفوضى في الحياة ؟؟

وللا فكيف نصفه بالجميل وهو الذي أبدع القبح وهل لمخلق الجمال قبيحاً ؟؟ وكيف نصفه بالكبر وقد أثبت العلم أن تفجير الذرة هو العلة الأولى في تلاشي

الجرم القائم في عظمته على تلك الذرة ؟؟ ثم كيف نختار له أعلى مكان يستوى فيه على العرش وهو في كل مكان ؟؟ أم كيف نشبه نوره بمصباح يوقد من شجرة زيتونة وقد أثبت لنا العلم ضالة هذا المصباح بين يدي مصباح الكهرباء فضلاً عن كواكب السماء ؟؟ على أن العلم الصحيح ، قدمه وحديثه ، يثبت لنا أن كل مخلوق ضمن عالم خاص به في تديره وتفكيره ، لأن التدبير مركز على التفكير والتفكير قائم في صميم العالم الذي يشعر به ويتحسس منه .

فالعقل الكلي الخاص بعالمنا يرسم خطط الحياة لنا من واقع ما نقوم به . مادة وأدباً ، ويفرض علينا العجز في تلمس ما يغير هذا الواقع الذي يهيمن بوجوده علينا ، ثم هو يصلنا من حيث لا نشعر ، بغيرنا من عوالم يقوم بها الكون ، ومن هذه الصلة الضئيلة بيننا وبين غرنا من عمرة الوجود ، تثبت هذه الأشعة التي نمشي على ضوئها في طريقنا إلى الخلود ، وعلى هذه الأشعة نطلق حيناً لفظ العلم وأحياناً لفظ الفن القائم على الوحي والإلهام ، فالتفكير فيما يغيرنا جزئياً كغيرنا من العوالم الكونية ، رهن بمقدار النضج في العلوم التي من الله علينا بها في سابق علمه ، وأما التفكير فيما يغيرنا كلياً كعالم اللاهوت ، فذلك أبعد من أن يناله عقل أو يحيط بكنهه تفكير ، وإنما نحاول الصلة به عن طريق مثلنا العليا التي يلهمنا خالقنا أنها مثل العليا في حياتنا ، وعلى هذا الأساس يجب أن يقوم بناء العلم الذي نتخاطب به في تفكيرنا ونخاطبنا به من يهيمن بعظمته علينا .

والبرهان على ذلك أنه نخاطبنا باللغة التي نفهمها في حيز عالمنا ، فلم يشبه نوره بالأشعة التي هي أقوى من أشعة المصابيح الموقدة من زيت الزيتون لأننا لانفهم تلك الأشعة يوم أنزل علينا القرآن ، ولكنه طوى تلك الأشعة العليا في قوله : الله نور السموات والأرض ، ثم قرب لنا هذا النور ليكون مرمي إحساسنا بأن شبهه بأقصى ما نتأثر به من الضوء الملابس لحياتنا وهو ضوء المصباح ، ولهذا قال عز من قائل : مثل نوره كمشكاة ، ولم يقل أن نوره مشكاة كما قال : انه نور السموات والأرض ، والتمثيل في علم البيان لا تجب فيه المطابقة كلياً وإنما تجب فيه جزئياً ، لأن تشبيه المرأة الجميلة بالقمر أو الغزالة أو الزهرة

لا يعنى أنها هي كلياً ولكنها تعنيها في جزء منها كالبهاء في القمر والعينين والعنق في الغزالة وكالعطير واللون في الزهرة ، وهكذا إذ نشبه الرجل الجريء بالأسد فانما نلاحظ الشجاعة التي هي أبرز صفات الأسد ، وجه الشبه بينهما ثم نطلق أحدهما على الآخر .

من هنا نصل إلى أن لغة الوحي الذي ينزل على رسول ما ، يجب أن تخاطب عقول من أرسله الله إليهم لئلا تكون رسالته عبثاً في قومه ، فعوالم الكون كله بالنسبة إلى مبدع الكون ، هي كالأطفال بالنسبة إلى الآباء ، فاللغة التي نخاطب بها أطفالنا بين يدي توجيههم وتثقيفهم في سبيل الكمال ، هي عن اللغة التي نخاطب رب العباد بها عبادة بين يدي توجيههم وتثقيفهم في سبيل كمالهم الإنساني ، وكما أن لغة الآباء للأبناء وهم أطفال ، تختلف عن لغتهم لأبنائهم وهم شبان ، كذلك تختلف لغة الوحي للعالم وهي في طبقاتها الدنيا ، عن لغته لها وهي في المستوى الرفيع من سمو الفكر ونضج العقل .

فالقرآن ، كما يقرر الحكم الأرنلدي برناردشو ، يصلح للإنسان حتى نهاية الإنسان « لأن وحي القرآن مخاطب بلغاته مجموع طبقات الإنسان ، فايس لواعظ بالوحي أن يعد أمثال برناردشو في أخراة مجنات تجري فيها أنهار من لبن وخمر وعسل ، وليس لواعظ بهذا الوحي أن مخاطب الطبقات المستفة بادراكها من بنى الإنسان بقوله تعالى : ولو أنزلناه ملكاً لجعلناه رجلاً » فان الذي يفهم أن الملاك لا يكون رسولا حتى يكون رجلاً إنما هو أمثال برناردشو ، وأما الذي لا يفهم من الجنة إلا أنها ثين وزيتون وعنب وقضب ، ولحم طير ، وأكواب من فضة ، وثياب من سندس ، إلى غير ذلك من لغة الوحي القاصر على تربية الدنيا من هذه الطبقات ، أقول : أما الذي لا يفقه من القرآن إلا هذا فهم هؤلاء الذين لا يفهمون الحياة إلا أنها طعام وشراب ولباس وسكن .

أما أن نفهم أن الملائكة عالم والاناسى عالم آخر ، وليس في طوق الإنسان أن يكون ملكاً حتى يتقوم بعناصر الملائكة فيتحول من عالمه إلى عالمهم ، كما أنه ليس في طوق الملاك أن يكون إنساناً حتى يتقوم بعنصرية الإنسان فيتحول من عالمه إلى عالم الاناسى ، فلو شاء الله أن يرسل إلى البشر نبياً رسولا من ملائكته

لكان عليه أن يحول الملاك إلى رجل في شكله وعقله لبروه ويسمعه ويعقلوه ،  
أقول : أما أن نفهم هذا من وحى الله فنحتاج معه إلى العلم الذى يكشف لنا  
عن أن الحياة التى نحيها إنما هى وسيلة لحياة أسمى لا أنها غاية نقف عندها  
ثم نتلاشى فى عدم لا نعود بعده إلى وجود .

وهكذا نستطيع أن نقيس على ما مر من تحليل هذه الظاهرة فى لغة الوحى ،  
ما ورد فى القرآن من قصص على ألسنة قوم ومن قصص آخر يحكى تفكيرهم  
وتمثل صور هذا الفكر فى سبيل الخروج بهم من عالم البداية إلى استقبال ما يمتازون  
به عما ينحدر عنهم من عوالم ، كما نفعل فى تربيته الطفل بلغة يفهمها حاكية  
عن خياله وتفكيره فى سبيل الخروج به تدريجاً من عالم الطفولة القاصر على  
الأوهام ، إلى عالم الرجولة القائم على الحقائق فى تحليل وجود الإنسان .



## مَحَرَّجٌ أَخْرَجَ مَتَاعَكَ إِلَى الطَّرِيقِ :

قالها صلى الله عليه وسلم لرجل شكاه إليه أذية جاره، ولما ائتمر بقول الرسول وأخرج متاعه إلى الطريق ، اجتمع الناس عليه يلعنون مؤذيه ويخزونونه حتى جاءه جاره ورجاه العود وأقسم أن لا يؤذيه بعد ، فعاد .

هذه من أصول التربية الاجتماعية التي درج عليها نبي الرحمة ، فقد دعا لهذه التربية بصلة الرحم أولاً ، لأن الأسرة أس المجتمع ، والرحم في صميم الأسرة ، ثم يليه الجار ، وقد عززه بكثير من أقواله حتى قال أصحابه : ما زال يوصينا بالجار حتى ظننا أنه سيورثه ، ثم يلي تعزيزه الجار تربية المجتمع ، وقد أفرغها من بيانه في قوالب تستعصى على الحصر كقوله : المسلم من سلم الناس من يده ولسانه ، وكقوله : لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وكقوله : ليس منا من غش ، وكقوله : الدين بالمعاملة ...

ولست الآن بصدد هذا الاستطراد ، ولكنني أمسك بالحديث مع الشاكي للنبي من أذية جاره إذ قال له : أخرج متاعك إلى الطريق ، وهذه كلمة مقتضبة من حديث مسهب فانها عارية من لفظ الجار ، ومن سبب إخراج المتاع إلى الطريق ، ثم من علم الناس بهذا السبب علماً يحملهم على اللعن ، كل ذلك مفقود من الجملة ، ولكن رواية الحديث ينقوتها وما لا يسها كجزء من سرته صلوات الله عليه . أقول : لقد أحببت أن أمسك بهذه الجملة من الحديث لأدل على كونها من جوامع الكلم مع كونها براء لا يفهم السامع ما تنطوى عليه من جلائل المعاني حتى يعلم الغاية التي تستهدف له .

ولنضرب لذلك مثلاً محسوساً مما نعيه في كل عصر لنلدل على عظمة الفكر الاجتماعي القائم في نفس محمد وهو يلقن أمته دروس الحياة ، هذه الدروس التي لا يزال العلم في كل عصر يفتق منها أصولاً وقواعد لنواميس الحياة ، فاسمع وفكر واعتبر :

أملى علينا بعض الشيوخ الذين سبقونا في السن : أنه كان يحكم قضاء «صيداء» في جنوب لبنان حاكم تركي أمعن في العسف والجور على بلدة في ذلك القضاء تدعى «جبع» وهي المصيف الأول لساحل «صيداء» قال المملى على : ولعل السبب في هذا العسف يعود إلى أن جبع هذه كانت مقراً أول لفقهاء الشيعة الجعفرين ، وقد كان التعصب المذهبي آنذاك ، آخذاً بخناق الأمة الإسلامية ، وقد كانت بطانة الحاكم نفراً من غلاة هذا التعصب الذميمة ضد الشيعة الذين يجاورونهم وكانت حكومة الترك تدين لله على مذهب أبي حنيفة ، بهذا التعصب أوغرت بطانة الحاكم صدره وأحفظته على أولئك المستضعفين ممن يدينون لله بمذهب جعفر بن محمد الصادق، أمعن هذا الحاكم في ظلم رعيته القاطنين ببلدة جبع ، وكانوا مع جيرانهم الذين طغى الظلم عليهم يعدون آلافاً من البائسين . «ولما أوغل بهم عسف الحاكم تحت وطء الضرائب ، وضاقوا ذرعاً به ، ولم يطيقوا صبراً عليه ، فزع الخاصة منهم إلى فقيه «جبع» الأول يسترشدونه في الخلاص من بنى ذلك الحاكم ، فسألهم : أتأتمرون بما أمركم به على أن لا أحملكم على غير ما حمل رسول الله المبعي عليه من أصحابه ؟؟ قالوا : اللهم نعم ، قال : على أن لا تسألوني السبب فيما أمركم به حتى تصلوا إلى النتيجة التي أسأل الله لكم فيها النجاة ؟؟ قالوا : نسمع لك ونطيع أمرك ، فقال : إذا كان صباح يوم الجمعة فأتوا ساحة البلدة جميعاً نساء ورجالا وأطفالا ودواب محمولاً عليها كل ما تملكون من أثاث وسأكون بينكم أفعل فعلكم هذا » ويتنادى أهل البلدة والقرى المحذقة بها ، ليوم الجمعة بأمر العالم الفقيه المطاع ، على الشكل الذي رسم ، وكان يوم الجمعة مهبط القرى جميعها مع ما يملكون حتى ضاقت السوق وغصت شوارع البلدة والحقول المحيطة بها ، وإذا بالشيخ الأمر الجليل يحمل أمتعته وحرمة وأطفاله على دوابه ، يشير إليهم أن يتبعوه ثم لا يسألوه أين يتوجه ، ولا يجيبوا أحداً يسألهم في طريقهم إلا بأنهم تبع للشيخ ، ثم يجعل القوم وجهتهم إلى صيداء .

وكان لابد من أن يتصل بالحاكم الأعلى «القائمقام» التركي في مركز القضاء صيداء ، نبأ هذا الحادث الخيف وهو هجرة آلاف من رعيته رجالاً ونساء

وأطفالاً بقضيتهم وقضيتهم إلى حيث لا يعلم ، فراح يتساءل ونفسه عن سبب ذلك ، وإلى أين يغادر هؤلاء وطنهم ؟؟ وما الذي حملهم على الهجرة ؟؟ وقد عز على مضجعه القرار ساعتئذ ثم لم يملك نفسه من القلق واستدعاء خاصته من المجلس البلدى إلى رجال الإدارة ، واستفهامهم عن هذا الحدث الغريب ؟؟ وقر قرارهم على أن يبعث الحاكم بنفر من الخاصة مصحوب بفصيحة من الجنود إلى قائدهم الشيخ قبل أن يصلوا إلى صيداء فتحدث هجرتهم هذه ضجة . قد تتصل بالوالى فى بيروت ويضطره إلى البحث والاستقصاء عن أسباب هذا العمل الشاذ المفاجئ ، ولقد فعل ذلك فلم يفلح فى إرجاع تلك الجموع التى ملأت سهول صيداء فى طريقها إلى بيروت ، ولم يزد الشيخ فى الجواب على « أنهم شعب مظلوم فى وطنه خرج يلتمس وطناً آخر لا عهد لأهله بالظلم وهو لا يرجع مع من معه إلا مستشهدين جميعاً أو يبلغوا فى هجرتهم عاصمة المملكة استامبول » .

ونزل هذا الخبر على حاكم القضاء نزول الصاعقة ، إذ عاد وفده مخففاً ، وأن الجماهير قد اجتازت صيداء فى طريقها إلى بيروت ، ومنها إلى الآستانة ، وعزز الحاکم وفده بوفود تتلو الوفود إلى قائد المهاجرين يرجونه ويتهاونون على قدميه فى سبيل إقناعه وأنهم يضمنون له رد الظلمات فلم يفلحوا ، ولا أبه القوم بهم ، وكانت صيداء بأسرها تتجمهر خارج المدينة لتشهد أمة بأسرها قد غادرت أوطانها نساء ورجالا وأطفالا وأموالا ، فرتاعون لمنظرهم الرهيب تحت صراخ الصبية وعجيج الأباعير ونهاق الحمر وثرغاء الشاء ومواء العز وجلبة الخيول ، فتنضاعف الحسرات فى نفوس النظارة ويكثر التساؤل عن أسباب هذه الفاجعة .

وينزل الدعر فى قلب الحاكم وحاشيته فلا يرى ، قبل أن يستفحل الأمر ، إلا أن يتأثر بنفسه وخاصته ، أولئك القوم فيلحقوا بقائدهم ويبسطوا له النزول على حكمه فى كل ما يقترح مختاراً غير مكره ، وقد فعلوا ذلك ولحقوا بالجماعات حتى وقفوا بين يدى الفقيه واسترحموا فأكب الحاكم على يديه معتبراً نادماً ، مبدعاً لتنفيذ ما يأمره به ولو كان فى ذلك استقالته من منصبه ، على أن يعود

الشيخ وجماعته موفوري الكرامة مطمئنين إلى الرفق بهم والعطف عليهم والعدالة في رعايتهم ، فقال له الشيخ :

« نحن مسلمون لا نبیت علی ضیم ، ونحن مؤمنون والمؤمن عزيز لا يذل ولا يستضعف ، وأرض الله واسعة لا تضيق بمن آمن وعقل واتقى ، ولقد بسطت يدك إلينا بالظلم فوق ما بسطنا لك أيدينا بالطاعة ، فما لمسنا منك عدلاً ولا رحمة ، وإنك راع وكل راع مسئول عن رعيته ، ونحن الآن إنما نترك أوطاننا فراراً من جور سلطانك إلى سلطان من هو فوقك من رعاتنا ، لنعلم أنك نخلنا منه أم خارجاً عليه في هضمنا والجور علينا ، فأما وقد جئت إلينا معترفاً بذنبك معتذراً عما فرط منك ، فلا نجد غضاضة في العود إلى سلطانك والنزول على حكمك ، شريطة أن تفي بوعده ولا تنقض عهده »

ويأمر الشيخ أهله وقومه بالرجوع إلى مواطنهم ، واستئناف العمل تحت سماءهم ، والجهاد في سبيل حياتهم آمنين مطمئنين ، ولقد وفي لهم الحاكم بما وعد ، وأصبح أنحاً صادقاً للشيخ ، مخلصاً في رعايتهم بفضل الحكمة التي كانت رائد الشيخ أولاً ، ثم كانت هدف الحاكم أخيراً ، ولم يكن ذلك كله من هذا وذاك لو لم يعتصم الأول بدينه ، ويتأثر بدينه في هديه ، ولو لم يثب الآخر إلى عقله ويفزع إلى الإخلاص في عمله .

يَا أَيُّهَا الْأَغْنِيَاءُ اكْثُرُوا مِنَ الْحَسَنَاتِ . فَإِنَّ  
سَيِّئَاتِكُمْ كَثِيرَةٌ ، وَيَا أَيُّهَا الْفُقَرَاءُ اقْلُؤْا مِنْ  
السَّيِّئَاتِ فَإِنَّ حَسَنَاتِكُمْ قَلِيلَةٌ .

على

من مزايا اللغة العربية ، وسجاياها العريقة في صميم الفن الخالد ، هذا البيان  
البيان في تركيب جملها ، وكما أن الشاعر يخطئ الجمال إذا حاول تحديد الجمال  
فيما يرى ، هكذا نجد الكاتب يخطئ البيان إذا حاول تحديد البيان فيما يسمع ..  
لقد أمعنا في دراسة اللغات الأعجمية شرقية وغربية فلم نجد في لفظها  
ولا في معناها شيئاً ولو يسيراً من هذه المزايا القائمة في لغة العرب من حيث  
روعة الفن في موسيقى اللفظ وبدعة الأسلوب وسحر البيان ، فليتأمل قارئ كل  
ذلك في هذه الجمل التي تحتل صدر البحث ثم ليعذرني إذا لم أفرض في القول  
على الإشارة إلى ما اندمجت عليه من إعجاز .  
تخاطب هذا السيد الملهم ذوى اليسار بأن يكثرُوا من الحسنات لقدرتهم  
عليها بالمال ، فان المال أكبر عامل في صنع الحسن ، وتخاطب ذوى العدم  
والفاقة بأن يقللُوا من السيئات لعجزهم عنها بالفقر الذى هو أكبر عامل في  
تحامى السوء .

ثم يجعل ببلاغته البالغة حد الإعجاز ، علة أمره للأغنياء بالإكثار من  
الحسنات ، يجعل علة ذلك كثرة ما يقترفونه من الإثم ، ويجعل علة أمره  
للفقراء بالإقلال من الإثم ، قلة ما يحسنونه من عمل ، ففي مقابلة الكثرة هناك  
بالكثرة ، والقلة هنا بالقلة ، ومقابلة السيئات هنا بالحسنات ، ومقابلة الحسنات  
بالسيئات مع بلوغ المعنى وجلال التركيب ، أقول : ان في ذلك مالا أطيع  
التعبير عن روعته في نفسى .

ذكرتني هذه الحكمة لطيفة مرت بي وأنا أستمع إلى وصايا أبى لى وإلى  
عظاته البالغة في نفسى إذ كنا نستعرض الفقر والغنى ، وأن الفقير مغبون في

الحياة بينما نرى الغنى طائل اليد فيها ثم هما سيان يوم يردان على ربهما ويحاسبان سواء كانا في الجنة أو في النار ، لغموض الحكمة في الكلمة المأثورة : الغنى الشاكر والفقر الصابر في الجنة .

قال أنى : لقد سئل أحد الفقهاء الأعلام من جلسائه عن السر في كون الغنى الشاكر والفقر الصابر في الجنة على السواء ، بينما هما في دنياهما مختلفان سعادة وشقاء ؟ فأجاب الفقيه سائليه : بأن الكشف عن هذا السر يقتضى صبركم على الإجابة أياماً ، ثم التفت إلى الغنى منهم وقال : أحب أن تولم لنا غداً وليلة عشاء ، فلبى الغنى وكانت وليمة للفقيه وجلسائه على قسط وافر من أطائب الطعام وتعدد ألوانه ،

ثم طلب الفقيه ممن يلي صاحب الوليمة في الغنى أن يفعل فعل زميله ، فلبى هذا طلبه وأولم لهم عشاء الغد بما يقرب من وليمة الأول ، وهكذا يستمر الفقيه في طلبه إلى جلسائه بأن يتوالوا على نصب الموائد واحداً بعد واحد حتى انتهى إلى الخادم ، فطلب إليه مثل الذى طلب من أولئك فأمر الخادم إلى سيده الفقيه بأنه لا طاقة له على الإيلاء لفقره ، فقال السيد : ألا تستطيع إقامة مأدبة من الخبز والبصل ؟؟ فأجابه أن ذلك سهل ويستطيعه ، فقال : إذن نتعشى جميعاً غداً في منزلك ، وقد كان ذلك فلم ينكروا عليه لعلمهم بفقره ، ثم دعاهم الفقيه من غده إلى الحمام على حسابه ، وماذا كان في الحمام ؟؟

لقد أسر الشيخ إلى الحمامي أن يزيد في حرارة المغطس ، وهو الحوض الذى يفرغ المستحم إليه بعد إزالة الوضوء عن جسمه بالصابون ليزيده به نزاهة ونقاء ، ثم أمر الشيخ جلساؤه أن لا يمس المغطس أحداً منهم بعد فراغهم من الاستحمام حتى يكونوا جميعاً محلّقين به وهو معهم ، فلبوا أمره وأحلقوا بالمغطس بعد الانتهاء من التذليل ، فعمد الشيخ إلى أول رجل طعموا عنده وأمسكه من كتفيه ثم أنزله بالمغطس وسأله تعدد الألوان على مائدته يوم استضافوه فلم يطق تحت وطء الماء الشديد الحرارة أن يعدد بعض الألوان .

وهكذا أعاد الشيخ الكرة مع زملائه وهو يضغطهم في الماء الحار ثم يسألهم تعدد الألوان على مآذهم فلا يطيقون ويستغيثونه ليخرجهم ، حتى إذا انتهوا

جميعاً وجاء دور الخادم فغطسه وسأله فكان جوابه « بالخبز والبصل » مكرراً قبل أن تلذعه حرارة الماء ، فالتفت إليهم الشيخ إذ ذاك قائلاً : هذا جوابكم عن سؤال مر في شأن الغنى الشاكر والفقر الصابر، وإن الله لم ينصف الفقير في دنياه إذ جعل نصيبه من الآخرة كنصيب الغنى ، قال الشيخ :

ان هول الحساب وطول أمدته يقاسيه الغنى وإن كان شاكراً حتى ليضحج الناس من سكرة الموقف ورعبه ويقولون : أنقذنا يا رب من موقفنا هذا إما إلى جنة أو إلى نار ، بينما يكون فقير الدنيا الصابر في الجنة لم ينله من هول الحساب ما نال زميله ، وذلك مقابل ما شقى به في دنياه من البؤس والشقاء الزائل .

يعجبني في هذا الجواب كونه عملياً ، والجواب العملي أو الواقعي كما يعبر عنه بعض المعاصرين ، هو خير ما يتعظ به الإنسان لقربه من واقعه ، ويكاد الدين كله يكون واقعياً لا مثالية فيه حتى المغيبات إذا لحظنا عجز الإنسان عن إدراكها وكونه غير مكلف بها ، على أن شيئاً واحداً في جواب الفقيه الجليل لا يتلاءم مع الأخبار المتواترة في أن المؤمن غنياً كان أو فقيراً مشمول بعد موته برحمة الله حتى يدخل الجنة ، فكيف يناله هول الحساب ؟؟ والجواب عن ذلك سهل إذا لحظنا أن الجواب تقريبي لا قطعي وأن المقصود منه الإقناع لترك الخوض فيما يقصر فهمنا عن إدراكه .

وقد يقال في دفع هذا أن الذي يقف للحساب وإن كان مطمئناً إلى رضى المحاسب عنه وإلى أن عمله قائم على الحق ، ولكن هيبة الحساب وعظمة الهول فيه تستلزمان رهبة المنتظر وهو إنسان مفلتور على الخوف ، على أننا نستطيع القول : إن موقف الحساب الطويل مهما سادته طمأنينة الموقوف من وراء إيمانه ، فانه ليس كالمكوث في الجنة فان الموقف على الصراط للحساب عار عن ثواب المؤمن وعن عقابه ، ولكن سكنت الجنة خلاف ذلك ، وهذا الجواب أصح من ذاك ، نسأل الله العصمة في الفكر والقول .

وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا ، وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ

الله

كان الرسول قد استجاب لبعض أصحابه بالصلاة على ميت لهم ، فنجذباً الخليفة عمر من ردائه منكراً عليه صلاته فنزلت هذه الآية تأييداً لعمر وتأنيبه لرسول الله إذ كان الميت من المنافقين ، ففي ذمة الله عبده ورسوله محمد ، وفي ذمة التاريخ أنت يا عمر .

أنساءل ونفسي عندما قرأت هذا الخبر في كتب السير وقد تناولته الصحاح منها ، أنساءل ونفسي عن مبلغ ما تؤيد هذه الكتب حديث جبريل وهو يهبط من السماء ومعه ميكائيل يحملان طستاً من ذهب الجنة وماء من كوثرها ليشقا صدر محمد وهو صبي تحتضنه حليلة ثم وهو غلام ثم وهو شاب ، على روايات مختلفة ، بعضها يقصر الشق عن قلبه في طفولته ، وبعضها يتجاوزها إلى أكثر من شق واحد في أوقات مختلفة ، أقول : أنساءل ونفسي إذ وقفت على روايات الشق وإخراج قلب الرسول ، ثم غسله بذلك الماء في ذلك الطست ليظهره من نزع الشيطان ووسوسته بين يدي تأهيله للعصمة فيما يقول ويفعل ؟؟

أنساءل وهذه النفس إذ ذاك عن أثر هذا الشق وذلك الغسل بيد جبريل ، وكيف لم يعصم النبي وهو يخطئ في قوله أو عمله فيرده عن خطئه بعض أصحابه الذين لم يهبط عليهم جبريل ولا شق صدورهم عن قلوبهم ليظهرها من الزينج ، ثم يهبط جبريل الذي شق صدره بالأمس ، يهبط عليه اليوم ليخطئ محمداً ويصوب عمر ، ولا أرى في أمهات كتب السير والأخبار ما ينكر هذا الحدث الهام الذي يحبه مقترفوه فرقان محمد إذ يقول : وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ... لم يكف المفترون على محمد وصاحبه عمر بأن هذا خالف ذاك حتى يتعدوا في فريتهم إلى أن الوحي نزل مصوباً عمر ومخطئاً محمداً ، ضاربين بالعصمة التي فرضها الدين والعقل على رسولها إلى الإنسانية لينقلها من الضلال ، وأعجب من ذلك أني فزعت إلى من اتق من نصيح العقل فيهم ما أطمئن معه إلى انصافهم



فى الحكم على التاريخ ، سألت هذا الذى فزعت إليه عن مبلغ رأيه فى أن عمر خالف نبيه ثلاث مرات وقيل سبعاً وكان الوحى فى أعقاب كل خلاف بينهما ينزل مؤيداً رأى عمر ومفنداً رأى محمد ، فأجابنى صاحبى بأن ذلك حق لإثبات إنسانية محمد وكونه بشراً نخطئ ويصيب .

الغريب فى أمر هؤلاء الناس أنهم يقرون أن لا يوكل أى عمل لأى إنسان ما لم يؤهله لذلك العمل مقدرة فنية وموهبة شخصية تتفقان وإصدار هذا العمل عنه محكماً متقناً ، وإلا ساد المجتمع فساد تتلاشى معه الإنسانية آخر الأمر ، أن هؤلاء يعترفون بأن من الإنسانية أن يعالج المرضى طبيب مخلوق لمعالجتهم ، وأن يثقف النشء معلم يؤهله فن التربية للتثقيف ، وأن يفصل فى الحكم بين المتخاصمين قاض يحمل فى دماغه عقل الحاكم وفى صدره ضمير العادل ، وأن يبنى القصور مهندس قام على فكره فن البناء ، وقامت على يديه زاوية إحكامه ، وهكذا يستمر إقرار هؤلاء الناس منطق العلم والفن فى بناء حياتهم دون أن يفكروا فى أن هذا النفر القائم على بناء حياتهم بشر أو بقرة .

ولكنهم إذ يصعدون إلى قمة الحكم على بانى الإنسانية التى هى مصدر الحياة يخرسون فلا يحددون وظيفة هذا البانى ، ولا يشيرون إلى ما يجب أن يتصف به فى عقله وقلبه أمام هذه الرسالة العليا التى يضطلع بعثها فى بناء الإنسانية ورسم الخطط التى يقوم عليها ناموس الكون ألا وهو الدين ، إنهم يجهلون وظيفة النبي ويتناسون ما يجب أن يتخلق به وهو معلم يثقف عقولهم ، وطبيب يعالج نفوسهم ، وقاض يفصل فى الحكم بينهم ، وبان يرسم خطط الحياة لهم ، إنهم يتناسون كل ذلك فيه ثم لا يذكرون إلا أنه بشر نخطئ ويصيب .

نعرف جيداً أن محمداً رسول الله ، وأن رسالته مأخوذ فى مفهومها ، المثل الأعلى لتوجيه الإنسانية ، وأن صاحب هذه الرسالة يجب أن يكون معصوماً عن الخطأ والسهو والنسيان بشهادة العقل والدين ليكون الرجل الكامل فى إنسانيته ، فيكون الصادق إذ يقول ، والمخلص إذ يعمل ، والعبقري إذ يسن الأنظمة ويشرع التواميس ، فيرسخ من هذا كله فى نفوسنا أننا إنما نتأثر فيما نعمل رجلاً هو منا فى طبيعته وفوقنا فى عقله وروحه .

فمن هو هذا الذى يريد أن يفرض علينا ديناً بعث الله به على لسانه وألهمه قلبه وقوم به عقله ، ثم نراه دون بعض منا فى بعض ما يرى ، ويهبط عليه الوحي مصوباً رأينا ومسفهاً رأيه ، من هو هذا الرسول الذى يأتمنه الله على رسالته ثم يؤنبه على أداؤها ويأمره باتباع غيره فى إحكام هذا الأداء ؟؟ أهو رسول حق ؟؟ يتنزل عليه الروح الأمين قبل بعثه فيشق صدره ويظهر قلبه ليستل منه العقدة التى تفسح للشيطان أن يوسوس فيها ؟؟ إذن لم شق جبريل صدره وغسل قلبه إذا لم نؤمن بأنه معصوم عن الخطأ فيما يقول ويفعل ؟؟ أكان جبريل عابثاً أم كان مأموراً من ربه بأن يحول محمداً بفعله هذا من إنسان نخطئ ويصيب إلى إنسان يصيب ولا نخطئ ؟؟ وإذا كان لا بد من الخطأ فى الإنسان ليكون إنساناً فما معنى أمر الله إياه بأن لا نخطئ ؟؟

إن العصمة ممكنة فى الإنسان لأنه مأمور بها ولكنها فى الإنسان مراتب أسماها عصمة الأنبياء ، كما أن الخطيئة مراتب أحطها الشرك بالله تعالى فمنا الموحد المؤمن الذى اعتصم بتوحيده وإيمانه عن الكبائر دون الصغائر ، ومنا الموحد المسلم الذى سما بتوحيده عن الشرك ولم يعصمه لإسلامه عن الآثام ، ففى صميم الدين والعقل أن نعتقد بعصمة الرسل ثم نعتقد بأن عصمتهم هذه فوق عصمة غيرهم وأنهم أفضل الخلق فى كل ما يشركهم به الخلق من طبع فطروا عليه وكسب هلدوا إليه .

معقول أن يرى النبى رأياً لا يقره الله عليه ويثنيه عنه بوحى وإلهام ، ومعقول أن يرى المؤمنون من أصحابه رأياً يقرهم عليه الله بوحى ينزل على رسوله ، أما أن يرى النبى رأياً ويرى أصحابه خلافاً وينزل الوحي مؤيداً لهم دونه فهذا مالا يجوز تصوره ، لأن كرامة النبى ومكانته من نفوس أصحابه تنزع ولو لحظة ما ، إذ يلحظ مخالفه ، عندما يتأيد عليه بالوحي ، نقصاً فيه أو كمالاً عليه ، ولو جرى هذا مرة واحدة لا سبع مرات لرأينا المنافقين الذين يتوقعون منه صلى الله عليه وسلم أقل بادرة تشعر بخسته أو نقصه ، لرأيناهم يرفعون العقائر عما يشفى نفوسهم المرضى ، ولسمعنا عجيج اليهود والمجوس ممن عاصروهم ومن قفى على أثرهم من أعداء الإسلام فيملأون الطوامير بمثل هذه الأكاذيب .

ولكن هؤلاء يعلمون جيداً أن المسلمين لا يؤخذون بذلك فيعمدون إلى دس آخر هو الإشادة بفضل من دس على الإسلام وانتقم منه وافتري عليه ، أمثال مروان بن الحكم ومعاوية بن أبي سفيان ومن نهج نهجها ممن زوروا على محمد وعمر وعلى غيرهما من أصحاب رسول الله الأبرار هذه الأكاذيب ليبرروا مروقهم من الإسلام تخروجهم على نواميسه وانتهاكهم حرمانه ، ومشى على الضعفاء منا ما زوروه فخصعنا لسلطانهم باسم الدين ، ولم نزل حتى اليوم نؤخذ بمثل هذه الرزايا على أيدي وألسنة خلفائهم من حكامنا الذين تأثروهم بالجور في الحكم ، والتهالك على المناصب ، واستحلال الدماء البريئة في سبيل الشهوات ، مدعين أن محمداً ظهر العدالة ونصير الحق يقول : أطع الحاكم ولو كان جائراً ...

أى محمد هذا الذى يأمرنى بطاعة السلطان الجائر؟؟ وأى عمر هذا الذى يقبل نسبة الصواب إليه والخطأ لنييه؟؟ وأى أبى ذر هذا الذى ينتقص من زميله بين يدي رسول الله؟؟ وأى عمار هذا الذى تدفعه دله الكبر إلى أن يقول غير صادق ويفعل غير مخلص؟؟ أمحمد يأمرنى بطاعة الحاكم ولو جار وهو القائل : لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها؟؟ أو عمر يرضى عن نسبة الظهور على محمد إليه في حصفافة الرأى وتأبيد الوحى له وهو القائل : أصابت امرأة وأخطأ عمر؟؟ أو يصم أبو ذر أخاه الأسود في الإسلام بقوله : يا ابن السوداء ، بين يدي خليله محمد الذى يقول فيه : ما أقلت الغراء أصدق لهجة من أبى ذر؟؟ أو نخى الكبر على عمار فيخرف والله تعالى يقول في الإنسان : ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا؟؟

إن عهد الأموى المارق من الإسلام يفترى على محمد بأنه يرضى عن الحاكم الجائر ليبرر خروج معاوية الأموى على محمد ودين محمد بنخرقه اجراع المسلمين في حرب على ، حتى ذهب ضحية هذا الخرق عشرات الآلاف من المسلمين ، ونخرقه الدين في قتل حجر بن عدى وأصحابه من خيرة الصحابة صبراً لأنهم وألوا عليه دونه ، ونخرقه نظام الخلافة في أخذ البيعة لنغله يزيد الفاسق ، ثم ليبرر بالكذب على محمد فعل نغله هذا بأهل بيت رسول الله في سبيل ملكه العضوض .

وان العهد الأموى المارق هو الذى دس على محمد وخليفته عمر خلافهما فى رأى ليصل إلى رفع العصمة عن هادى الأمة وجعله فى مصاف الناس نخطئ ويصيب ليحط من قيمة قوله صلى الله عليه وسلم : على مع الحق والحق مع على ، وقوله : ويح عمار تقتله الفئة الباغية ، وقوله : أصدق الناس لهجة أبو ذر ، أقول : أن العهد الأموى الذى أسسه مروان وعززه معاوية هو الذى دس على محمد وأصحابه تلك المفتريات ليهون من عمل عثمان فى أبى ذر وعمل معاوية ويزيد وأعقابهما فى حرب على وسبه وقتل حجر وأصحابه ثم قتل الحسين بن على وأهل بيته ووقعة الحرة وهتك حرمت الإسلام بالفسق والفجور اللذين سادا ذلك العهد المظلم مائة عام كانت ولا تزال ، وسوف تبقى وصمة فى جبين الإنسانية إلى نهاية العالم .

فمحمد سيد العالم لا يدانيه فى منزلته من الحق فى العالم إنسان ، هذه حقيقة لا تختلف عاقلان فى إثباتها ما لم يكونا فى حدود الجمود أو الجحود ، فليس لمسلم وهو يدعى الإسلام أن يقف على خبر يثبت زعزعة هذه العقيدة فى صدر المسلم حتى يمسك القلم ويثبت على ذلك الخبر خطأ عريضاً يعفى معاملة ، أو أن يضع فى الهامش تعليلاً على الخبر لا يتعدى حرفين فقط هما : « كذب الراوى » فإن الذين تبوأوا مقاعدهم من النار فى الكذب والافتراء على سيد العالم أكثر من أن يحصر أو أن يميزهم تمحيص ، ألا وإن فى الكتب الصحيحة التى لا يرتاب أكثر أعيان الفقه فى صحة أسانيدها ، إن فيها كثيراً من هذه الافتراءات قد صدق بها جامعوها وأثبتوها على أنها صحيحة من وراء عقل لم يعن إلا يصححة السند دون أن يجعل للعقل سبيلاً فى تمحيص المسند وعرضه على جوهر ما أوحى الله به إلى محمد ، ودون إمعان فى السر الذى من أجله قال محمد : « إذا سمعتم الحديث عنى تعرفه قلوبكم ... فأنا أولاكم به ، وإذا سمعتموه عنى تنكره قلوبكم ... فأنا أبعدكم منه » كما مر فى أول الكتاب ..

شَرُّ الطَّعَامِ الْوَلِيمَةُ ، يُدْعَى إِلَيْهَا الْأَغْنِيَاءُ وَيُتْرَكُ  
الْمَسَاكِينُ

محدث

حدثني في مصر كثير من الناس : أن الأمير يوسف كمال ، وهو من الأسرة المالكة ، كان ينفق على مائتته من ماء « الفيحة » عين في فرنسا ، بين خمسين وثمانين جنياً كل شهر ، فكم كان ينفق على ألوان الطعام والفاكهة والحلوى من مصر وغير مصر لإذن ؟؟

وحدثني الكثير أن سباطه كان يمد كل يوم ويحمل على خوانه ما يقرى مأقاً لإنسان ولكن من يأكل عليه لا يتجاوز بضعة عشر شخصاً ثم تدعى كلاب صيده فتطعم منه وبعد ذلك يكفأ الطعام في حديقته ويخلط بالتراب لئلا يطعم الخدم والحرس منه ، وليستحيل بعد ذلك سهاداً للشجر .

يقول محدثي ، ولعله السيد حسني تلو الذي كان يستضيفه من الشام على رأس كل عام ليتمتع بفكاهاته بضعة أسابيع ، يقول لي هذا : كنت أرى الخدم والحشم وحراس القصر ، ويبلغون العشرات من المساكين الذين لا يبلغ أجر أعزهم على الأمير فوق ثلاثة دنانير كل شهر ، كنت أراهم يدفنون الطعام بأيديهم ويتحسرون على لقمة منه ولكنة محجور عليهم ، فسألت الأمير يوماً ما : لم لم تأذن للخدم بأكل ما يفضل من الولايم ؟؟ فضحك وقال : هؤلاء قد اعتادوا على القول فاذا تجاوزوه إلى ما هو خير منه فسدوا ... »

فليتأمل من له فكر ، وليسمع من كان ذا أذنين : إن الكلاب والهررة أجبر بموائد الملوك والأمراء من بني الإنسان ، ثم لا ترى مندوحة عن أن نخضع للممثل القائل : الناس على دين ملوكهم « ونرى القادة منا والسادة فينا يقرضون علينا الطاعة للملوك والأمراء في سبيل الزلفى إليهم والأثرة عندهم ليكنوهم من رقابنا فيكونوا أقسى علينا منهم ، وهكذا تسوء الأمراء بالخواشي ، وتفسد الملوك بالبطائن ، ثم يتلاشى الحكم بين يدي ذلك ويعصف التاريخ بالأمم .

لقد زال سلطان الفراعنة عن مصر ، ودالت دول الأكاسرة في الفرس ،

وتقلص ظل القياصرة عن الروس ، بتعالى السادة على العبيد ، وتجنأ الملوك عن الصعاليك ، وامتنياز الخاصة من العامة ، واستبداد القوى بالضعيف ، من وراء هذه الأثرة بحطام الدنيا .

فليس من السهل أن يتصور القارئ والسامع ، موائد تبسط ومآدب تقام وأسمطة تمتد كل يوم وكل ساعة في كل بلد من كل قطر ، ولا ينال منها إلا المتهاك في ترفه من نعم الحياة ، وإلا المتخوم بما يتخبر من أطائب العيش ، وإلا الكافر بنعم ربه ، بينما نرى على بعد أمتار من هذه المآدب سواد الشعب يتضور جوعاً ثم يحال بينه وبين ما يباح منها للهرة والكلاب ، وفي سواد هذا الشعب القاتم عرق ودموع تتحجر لآلئ تزدان بها تيجان أولئك الملوك ، وتندى بها مباسم الحور العين في قصورهم ، ثم لا يجد الشاعر متنفساً مما يحز في نفسه مما يرى ويسمع إلا قوله :

يا لهدى التيجان فوق رؤوس	دوّختها فظائع الإجرام
تنبئ أحجارها قطرات	حضنتها محاجر الأيتام
ملك أو محكم أو زعيم	أو رئيس ، خلط من الأقسام
ينشدون الحياة مجلوة	الأفق بعيني غلامه أو غلام
ما عليهم ، وهم نيام عن الأمة ،	إن هومت مع الذمام
فاستعاضت عن سادة الحكم في	الأنباء بالسيدات في الأفلام

عَلَى  
إِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ أَنَّهُمْ مَنَعُوا النَّاسَ  
الْحَقَّ فَاشْتَرَوْهُ وَأَخَذُوهُمْ بِالْبَاطِلِ فَاقْتَدَوْهُ

يشير بهذا إلى تفشي الرشوة بين الحاكم والمحكوم ، واقتداء المحكوم بالحاكم في نصرة الباطل وخذلان الحق .

نشرت جريدة التيمس الأمريكية الكبرى لمراسلها في الشرق العربي قبل عامين كلمة جاء في مضمونها : ان إدارة الحكم في هذا البلد - يعنى بلداً عربياً ما ، أسوأ إدارة في العالم » ولقد صدق هذا إذ نقل لي أحد المحامين : أن زبانية بعض الزعماء في البلد المذكور قتلوا رجلين من أتباع زعيم آخر مناوئ له فلم يستجوب القاتل لشدة نفوذ هذا الزعيم لدى المسيطر الأول على الحكم في بلد الاشعاع . ان في هذا القطر العربي ما يزيد على سبعين من كل مائة إنسان من يحمل شهادة في الثقافة من بدائيين إلى جامعيين ، ومع ذلك يسيطر عليهم في مجلس التشريع أناس يكاد يكون أكثرهم قاصراً في ثقافته على القراءة والكتابة فقط ، ويكاد يكون معدوماً فيهم من أوتي حظاً من ثقة الشعب الذي يمثله ، إذ عودهم المستعمر طوال ثلاثين عاماً كل ما يصم العرض ويشل الضمير ويسف بالكرامة ، ثم لا يزال كل قائم على الحكم في هذا القطر وقد مر على جلاء المستعمر عنه عشرة أعوام عبداً لشهواته ذليلاً بين يدي هواه ، لا يعرف وجهاً للحياه إلا حيث يتبوأ منصبه ويضفى على أهله من عرق الشعب ودموعه كل ما يروق العين من متع الحياة .

وفي قطر عربي آخر ، يقول لي بعض أهله : من العبث أن تصل إلى حقلك في دوائر الحكم إلا بواسطة ، وهذه الوسطة لا تعدو أحد أمرين : كبير في الحكم يوصى بك ، أو حفنة من مال تضعها في جيب من يتولى قضاء حاجتك ، أما الدوائر التي تدخلها على الرأس موفور الكرامة ، والموظف الذي تقف بين يديه وأنت مطمئن إلى حقلك ، أما هذا وتلك فلا وجود لها في بلد ساده العلم وانهارت فيه الأخلاق .

ويقول لى رجل فى بلد عربى آخر : إن المستعمر الافرنسى لم يترك موظفاً إلا وأفسده بتنمية الرشوة فى نفسه واعتبارها عنصراً هاماً فى تقويم حياته ، لأنهم رفعوا مستوى الحياة وجمدوا الرواتب ، فكان من البديهى لمن راتبه عشرة دنانير وأجر سكنه عشرة ، أن يسرق الشعب ثم كان من الضرورى لمن يبذل خمسة آلاف دينار ليشترى بها منصباً فى مجلس التشريع ويصبح ممثلاً للأمة ، أن يبيع الأمة للمستعمر سياسياً واقتصادياً وثقافياً ليتقاضى مااستدان فى سبيل منصبه ، لأن راتبه البالغ خمسين ديناراً لايفى مجموعه فى سنه الأربع ثمن الدعاية بين الجدران وفى أثمار الصحف وعلى ألسنة الدجالين من خطباء ومهوشين .. ويقول لى زعيم عربى كان يصطاف عندنا فى لبنان ، إذ قلت له : أأرشدك فى صحيفتى للنيابة ؟ فضحك وقال : ثمن النيابة عندنا خمسة آلاف دينار يتقاسمها المتصرف ووزير الداخلية ومديرها ، وقد ينال مدير الشرطة شيئاً منها ، وانك لتعلم أن فى طوقى أن أفعل هذا وأدخل البرلمان ثم أخرج منه ساعة أشياء ، كما أدخل مسرح التمثيل فأرى بهلواناً يتنزى وأسمع أساطير تردد ، ثم أحرم نفسى من مصيف لبنان وأرى أن يوماً واحداً أخلد فيه إلى السكينة والهدوء خبر لى ألف مرة من جحيم الصحراء ، أفلا أوفر على نفسى خمسة آلاف دينار تكفينى لمصيف خمسة أعوام ؟؟

وينقل لى شخص عربى فى قطر عربى آخر : أن الشرطى خارج العاصمة قد يبذل لمديره العام ألف دينار فى سبيل نقله إلى العاصمة ، لأن مورد الرشى من العاصمة أضعاف موردها من الألوية والأرياف ، فاذا رشا الشرطى أمره بألف دينار فكم يكون دخله فى العام من وظيفته التى يتقاضى راتبه عنها عشرة دنانير فى الشهر ؟؟ إنها لمأساة إنسانية كبرى هذه الأحداث التى تقع بين سمعنا وبصرنا ثم لا نتساءل وأنفسنا : كيف يعيش الفلاح والعامل والصانع والتاجر فى بلد يسيطر عليه مثل هؤلاء ؟؟ وكيف يتبلغون العيش سائغاً فى ظل حكم لايقوم على أساس من الرحمة والعدل ؟؟

ويقول لى عربى مهاجر أثناء وجودى فى ولايات أمريكا المتحدة ، وهى أرقى بلاد العالم ، واسم هذا العربى محمد برجى ، يقول : لقد كفرت بالعدالة



في العالم وأن لها وجوداً ، إذ عملت في دوائر الأمن العام عشرين سنة أخلص ما أكون لبلاد أوتني واحتضنتني بعد تشردي وفقرى حتى إذا كانت سنة إحدى وثلاثين وصدر الأمر بتحريم البغاء والحمور كنت أشد زملائي قسوة في تنفيذ هذا الأمر لأني مسلم أغار على ديني ولأني أمريكي أحب وطني .

ويدهمني في إحدى ليالي الساهرة على الحكم أمر خطير إذ عثرت في إحدى الأدغال على رجل ثري يعبث بفتاة في سيارة مملوءة خمرآ ، فاحتفظت بهما في الجرم المشهود وتوسل إلى بالتخلي عنه لقاء خمسين ألف دولار كيلا تفتضح الفتاة وهي من أسرة نبيلة فأنكرت عليه الرشوة وهددته . فقال : انك لا تستطيع إلحاق أى ضرر بي ولكنني إشفافاً عليك وعلى هذه الفتاة أن تنشر الصحف صورتها وهي مجرمة ، أنذرك بأن تتخلي عنا وتقبل هذه الهدية لقاء تخليك هذا » فلم أسمع له ولم أستجب لقوله حرصاً على واجبي واحتفاظاً بجرمة القانون الذي أوثمنت عليه ، ثم لم تصدر صحف ذلك الصباح إلا وصورة المجرمين تحتل صدورها ، وقد لقيت من أمرى كل تشجيع ومن الصحف كل إكبار .

ومر بي بضعة أشهر وأنا على الرأس بما أتيت وإذا بي أفاجأ بطلب من المحكمة لدعوى جنائية أقيمت على من رجل نجھول لم أره ولم أسمع به ، وتستمر محاكمتي عاماً كاملاً أفرغت جهدي بموازرة من وثق بزاهتي من زملائي ورؤسائي ، أقول : لقد أفرغت كل ما استطعت لإعداده من قوى لدفع التهم عني فلم أفلح ، وكانت العاقبة أن جردت من وظيفتي ولبثت بضعة أشهر في السجن ثم خرجت منه كيوم ولدتني أمي لا مال ولا جاه ، فكفرت بالإنسانية والعدالة والرحمة ، بعد عشرين عاماً أضعتها من حياتي لإنساناً مخلصاً فلم أفد من إنساني ولا لإخلاصي . . . »

وهكذا أستطيع التدليل على عظمة محمد سيد العالم في قوله : إنما هلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الوضيع أدانوه وإن سرق فيهم الرفيع تجاوزوا عنه ، وقول خليفته الإمام علي : إنما أهلك من كان قبلكم أنهم منعوا الناس الحق فاشتروه ، وأخذوهم بالباطل فاقتدوه ... ذلك ما أحببت أن أعلق به على الشق الأول من كلمة الإمام وهو ما يختص بالرشى ، وأما الشق الثاني وهو

قتداء المحكوم بالحاكم فيما يأتيه فيكفي أن أسوق للقارئ مادار في مجلس ضمني وثلة من أعيان العرب في ردهة فندق قصر الكندرة بمدينة جدة أيام زيارتي للأماكن المقدسة في شهر رجب من هذا العام ١٣٧٥

كان المجلس خليطاً من العرب سوريين ومصريين ولبنانيين وحجازيين ، وكان الحديث الذي دار النقاش حوله هو حديث العروبة والإسلام ، وقد كنت البادئ فيه بأن اختلاف مبادئنا وأهوائنا يعود إلى اختلاف مذاهبنا في تقرير ماضينا وتنشئة أبنائنا على هذا التقرير ، فما لم نتفق على تحرير الماضي لا يمكن لنا تحرير الحاضر لأن الإنسان وليد ماضيه قبل أن يكون وليد حاضره أو مستقبله ، وعلى الماضي نبني المستقبل والحاضر ، فالتراث في الدم قبل أن يكون في الأثر ، وأن خبر كلمة يتداولها التاريخ عن ماضينا هي القول المأثور : « لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما أصلح به أولها »

وليس التراث الذي ينبغي لنا أن نبني عليه حاضرننا هو مسجداً في دمشق أو منارة في بغداد ، ولا هو قصرّاً في الأندلس أو برجاً في سامراء ، ولكنه كما يعني الإمام مالك ، هو روح هذبا دين محمد وعقل صقله ناموسه الأكبر فجاء بما فتح على أيدينا الأمصار ونشر العلوم وبث العدالة ونصر الحق وخذل الباطل ، وشئ من هذا لم يكن في غير عهد الخلفاء الراشدين ثم بدأ ينحل ببدء العهد الأموي ، ولكن سيادة العرب في ذلك العصر كانت مدفوعة بقوة الاستمرار من العهد الإسلامي الأول على أيدي أعدائه من أمويين وعباسيين .

فعلينا أن نربي ناشئتنا بالرجوع إلى ناموس محمد فنغذيها بالقرآن وحده وبالسنة الصحيحة التي يختارها نفر صالح منا يدرس أسانيد الرواة ويعرضها على القرآن ثم يخرجها ناموساً نربي عليه أبنائنا دونما تأثر بالهالة القدسية التي نحيط بها كل من صاحب محمداً أو تبع أصحابه من بعده ، فأعجاذ محمد وعمر وأبي بكر وعلى لا تزال قائمة في صميم الحق لا غبار عليها ، وهكذا نستطيع أن نلحق بهم أمثال أبي ذر وعبد الله بن العباس وعمار بن ياسر وسلمان الفارسي من أصحاب رسول الله الذين حفظوا عهده وساروا على نهجه ، فعلى هذا فقط ينبغي أن نقر أعجاذنا في عروبتنا وإسلامنا .

فاذا تعدينا ذلك في بعث أمجادنا ، إلى معاوية وعبد الملك والوليد والمأمون والرشيد والسفاح والمنصور وغيرهم ممن أسسوا الملك العضوض أو ورثوه على غير نهج الخلفاء الراشدين ، كئنا مخالفين بذلك أمجادنا القائمة على ناموس محمد الذي شرع لنا هذه الأمجاد . ثم كئنا بعد ذلك مسيئين إلى أنفسنا باسائتنا إلى أعقابنا في التربية والتوجيه .

فتناول الحديث بعدى النائب السورى أكرم الحوراني فقال : ان مما لاشك فيه أن استقنا عزة الأمجاد والبطولة فينا من غير الخلفاء الراشدين بعد رسول الله هو خطأ محض ، وأن من الثابت لدى فيما أفقه من التاريخ أن معاوية قد انحرف عن الإسلام بما أتاه من أحداث ، فعلياً أن لا تتأثر به وأن لانسمم أفكار الناشئة بالتوجيه إليه والتربية على نهجه ، ويصادق على قوله جميع من حضر إلا القائم بأعمال السفارة السورية وهو شاب حدث يدعى عبد الهادي إذ عارضه بقوله : ان سيدنا معاوية رضى الله عنه كان مثلاً أعلى في أمجاده لعروبتنا وإسلامنا ، ألم يكن من كتاب الوحي ومن العشرة المبشرين بالجنة ؟؟ « فساد الضحك أفواه المجلس حتى القهقهة ، وعجب هو فليحظ النائب مصطفى الزرقاء ، وكان إلى جنبه . انه يعجب من ضحكهم فقال له : ليس معاوية من العشرة المبشرة » أما أنا فقد ضحكت بعد أن هداؤا وقلت ليس عجب القوم من نسبة السيد عبد الهادي معاوية إلى كتاب الوحي والعشرة المبشرين بالجنة فحسب ، وإنما ضحكهم على أن دعاية معاوية منذ أكثر من ألف عام لا تزال تضلل المسلمين حتى عهدنا الذي هو عهد تحرر وتفكير ، فليس من السهل أن نبقي على دعاية كاذبة لا تزال ألفاً وثلاثمائة عام تستخر أفكارنا وشبابنا المثقف وتتخذ مطية يركبها إبليس للحط من ناموس محمد والافتئات على أمجاده والكيد لسلطانه . وماذا يقول القائل في شاب بلغ رتبة وزير وهو مجهل تاريخه إلى حد اليقين بأن معاوية من كتاب الوحي ومن المبشرين بالجنة على لسان محمد ؟؟ ثم ماذا نقول نحن السوريين في عبوديتنا لمعاوية الذي جعلنا في حديثه مع العراقي صاحب البعير في سيرته المشهورة ، جعلنا لا نفرق بين الجمل والناقة ، ولا يزال حتى اليوم يسود ألسنتنا المثل القائل : أعطه جَمَـسَـه ، والذي جند منا مائة ألف لحرب

على على تركه للصلاة وقتله لعثمان ، والذي أثبت في نفوسنا ونفوس أبنائنا إلى يوم القيمة أن قاتل عمار بن ياسر إنما هو على الذي جاء به للقتال ، وأن يزيد خليفته من بعده تجب على المسلمين طاعته ، وأن أباه كان مأجوراً على عمله هذا مما فيه إعلان السب لخليفة رسول الله على المنابر بعد صلاة الجمعة إذ كان مجتهداً مخطئاً في رأيه فله أجر واحد .

على أن السيد الزرقاء أحب أن يكون الحكم بين المتناظرين فقال : أما معاوية فقد أخطأ وعلى هذا الحكم يجب أن نربي أبنائنا وأما على فليس من الحق أن ننسب إليه الاشتراك في قتل عثمان ولا أن نجعله في مصاف معاوية ، وفي يقيني أن طي هذه النوازع خير من نشرها لأن في بسطها للبحث إثارة كوامن ونوازع في الصدور نحن في أمس الحاجات إلى كتبها والعمل معاً على الوحدة والتكاتف في وجه ما يدهمنا من بلاء »

أما أنا فقد ختمت الحديث بأنا نخطئ كثيراً إذا لم نحرر ماضينا على ضوء التفكير الحديث فتحرر ونحرر أبنائنا من بعدنا ، وإلا بقينا شيعاً تنجاذبنا سيئات الأجداد التي عملت في نفوسنا أكثر من حسناتهم ، والتي لا تزال إلى الآن تدفعنا إلى السلطان على نهج معاوية وأخلاقه دون أن نتأثر بعمر أو على فيما نقول ونفعل ، هذه سيرتي ، وهكذا سأربي أولادي وأقرر في نفوسهم أن كل سيئة من حاكم تخضع له رقابنا اليوم إنما هي وليدة تأثرنا بسياسة معاوية ومن نهج نهجه ، وأن الأرزاء التي تحدد بنا ، والحن التي تتوالى علينا ، والعبودية التي تملك نفوسنا إنما هي وليدة السياسة التي قامت على الكذب والخداع والتضليل وهي السياسة التي سار عليها معاوية وأعقابها من بعده ، وهذا هو مصداق قول الإمام في كلمته هذه :

إنما أهلك من كان قبلكم أنهم منعوا الناس من الحق فاشتروه ، وأخذوهم بالباطل فاقتدوه » لقد تفشت الرشى في المحاكم إذ منعونا من الحق ، واقتدينا بالحكام حين أخذونا بالباطل ، وقد يماً قيل وما زال يقال : الناس على دين ملوكهم . . .

لَقَدْ تَمَثَّلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَأَنَا مَرْتَاةٌ إِذْ مَرَّتْ بِي عِبْرٌ وَعِظَاتٌ مِمَّا أَقْرَأُ وَأَسْمَعُ ،  
لَقَدْ تَمَثَّلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ إِذْ قَرَأْتُ فِي نَهْجِ الْبَلَاغَةِ لِلْإِمَامِ عَلَى قَوْلِهِ لِنَحَاطِبِ عَامِلِهِ .  
عَلَى الْمَدِينَةِ سَهْلُ بْنُ حَنِيفٍ ، وَقَدْ بَلَغَهُ تَسَلُّلُ أَهْلِهَا إِلَى مَعَاوِيَةَ ، قَالَ :  
« أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلًا مِّنْ قَبْلِكَ يَتَسَلَّلُونَ إِلَى مَعَاوِيَةَ ، فَلَا تَأْسَفُ .  
عَلَى مَا يَفُوتُكَ مِنْ عِدْدِهِمْ وَيَذْهَبُ عَنْكَ مِنْ مَدَدِهِمْ ، فَكُنْ لَّهُمْ غِيًّا وَلَكَ مِنْهُمْ  
شَافِيًّا ، فِرَارُهُمْ مِنَ الْهَدْيِ وَالْحَقِّ وَإِضَاعُهُمْ إِلَى الْعَمَى وَالْجَهْلِ ، وَإِنَّمَا هُمْ أَهْلُ  
دُنْيَا مَقْبُولُونَ عَلَيْهَا وَمَهْطَعُونَ إِلَيْهَا ، وَقَدْ عَرَفُوا الْعَدْلَ وَرَأَوْهُ ، وَسَمِعُوهُ وَوَعَوْهُ ،  
وَعَلِمُوا أَنَّ النَّاسَ عِنْدَنَا فِي آخِذِ أَسْوَةٍ ، فَهَرَبُوا إِلَى الْأَثَرَةِ ، فَبَعْدًا لَهُمْ وَسَخْفًا .  
قُلْتُ وَنَفْسِي ، : لِمَ يَتَسَلَّلُ أَهْلُ الْمَدِينَةِ ؟؟ وَهُمْ دَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ وَحَصْنُهُ ،  
إِلَى عَدُوِّ رَسُولِ اللَّهِ مَعَاوِيَةَ ، وَيَتْرَكُونَ صُنُوفَ رَسُولِ اللَّهِ وَخَلِيفَتَهُ عَلَى بَنِي أَبِي  
طَالِبٍ ؟؟ لِمَ يَتَقَاعَسُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ ،  
وغيرهم من أقطاب الإسلام في مكة والمدينة ؟؟ أقول : لِمَ يَتَقَاعَسُ هَؤُلَاءِ عَنْ  
نَصْرَةِ عَلَى فَيَسْتَغْلِ سِوَاهُمْ التَّقَاعَسُ عَنْ نَصْرَةِ الْخَلِيفَةِ ، وَيَتَخَذُونَ سَكُوتَهُمْ عَنْ  
مَعَاوِيَةَ وَسَبِيلَهُ لِلتَّسَلُّلِ إِلَيْهِ ؟؟

أَكَانَ عَلَى أَقْلٍ بَلَاءٌ فِي الْإِسْلَامِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ مِنْ صَاحِبِيهِ أَيْ بِكَرٍ  
وَعُمُرٍ حَتَّى اجْتَمَعُوا عَلَيْهِمَا وَتَفَرَّقُوا عَنْهُ ؟؟ أَمْ كَانَ أَقْلٌ عَدَلًا مِنْهُمَا فِي الْحُكْمِ ،  
وَبَعْدًا عَنِ الظُّلْمِ فِي عَهْدِهِ حَتَّى خَذَلُوهُ وَنَصَرُوا مَعَاوِيَةَ بَنَ هِنْدَ آكَلَةَ الْأَكْبَادِ  
يَوْمَ أَحُدَ ، وَابْنُ أَبِي سَفْيَانَ الدَّخَلُ فِي الْإِسْلَامِ وَشَبَحَ الْمَوْتَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ يَوْمَ  
الْفَتْحِ الْأَكْبَرِ ؟؟

قُلْتُ لِنَفْسِي : لِمَاذَا تَقَاعَسَ هَؤُلَاءِ عَنْ نَصْرَةِ عَلَى يَوْمَ حَرْبِ الْجَمَلِ وَحَرْبِ  
صِفِّينَ ، ثُمَّ لِمَ يَتَقَاعَسُوا فَحَسِبَ وَإِنَّمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ حَرْبًا عَلَى عَلَى وَإِعْرَاضًا عَنْهُ .  
وَتَنَكَّرًا لَهُ ؟؟ أَفَلَمْ يَكُنْ كِتَابُ اللَّهِ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَهُوَ يَمْلِكُ عَلَيْهِمْ قَوْلُهُ عِزٌّ مِنْ قَاتِلٍ .:

وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تفنى إلى أمر الله »  
 فمن هي الطائفة الباغية يوم الجمل ، أطايفة الزبير وطلحة بعد أن نكثا بيعتهما أم طائفة على أول من أسلم لله مع رسوله وصدق رسالته ؟؟ ثم من هي الطائفة الباغية يوم صفين أطايفة معاوية الفاجر المارق أم طائفة على المحتسب الصابر . وفي صميم كل منهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : ويح عمار تقتله الفئة الباغية « فأية فئة قتلت عماراً ؟ أكانوا عمياً عن عمار وهو يكر على جيش معاوية ويقول :

نحن ضربناكم على تنزيله      واليوم نضربكم على تأويله  
 ضرباً يزيل الهام عن مقيله      أو يرجع الحق إلى سبيله

فأية فئة باغية قتلت عماراً فيقاتلونها حتى تفنى إلى أمر الله ؟؟

أحسبوا تلك فتنة ففعلوا عن معالجتها ؟؟ إذن من يعالج الفتن إذا طغت في الأمة غير أعيانها ؟؟ وإذن من مخاطبه الله تعالى بقوله : فقاتلوا التي تبغى حتى تفنى إلى أمر الله ؟؟ وإذن لم يبيعوا علياً ثم يزعمون أنه الخليفة الرابع ؟؟ أفحصحص لنا الحق بعد ألف وثلاثمائة عام بأن معاوية كان مخطئاً في حرب على وأن علياً كان على حق في مناهضة معاوية ، ولم يحصحص لهم ذلك الحق ولما يزل جسد محمد غضباً فيهم ، ولما تزل كلماته ترن في آذانهم ، ولما يزل شخصه ماثلاً لأعينهم وقائماً في نفوسهم ؟؟

لقد كنت جد حاقداً على أصحاب محمد وأنصاره في الحرمين إذ قرأت في السبر أنهم لم يتقاعسوا عن نصره على فحسب وإنما تجاوزوا هذا التقاعس إلى التشكر لله ولرسوله بذكرهم لخليفة رسول الله وتسليمهم إلى معاوية الباغى ومروان الوزغ بن الوزغ ، استجابة لنفوسهم الصغيرة وتهالكاً على حطام الدنيا . وهكذا استمر حقدى على الصحابة والتابعين الذين تخلفوا عن نصره على ، يتعزز حتى كان شخوص الحسين بن على إلى مناهضة يزيد بن معاوية في سبيل الرسالة التي أخذ الله على كل مسلم بعد رسول الله أن يحتفظ بها ويحرص عليها ، ألا وهي الإسلام ، هنالك شخص الحسين للدفاع المرعن تلك الرسالة فلم يستجب

له من الحرمين إلا أهله وأبناء عمومته وقليل من الأنصار لا يزيدون على عشرين، شخصاً ، ثم ينهج نهج أهل المدينة في خذلان الحسن أهل العراق الذين دعوه لينصروه فخذلوه ، والذين أذاقوا أباه الأمرين في تخاذلهم عنه وتنازعهم فيه حتى فضل عليهم ، وهم حماة الحق ، أهل الشام وهم حماة الباطل ، أقول : . . لقد استمر حقدى يتعزز على الصحابة والتابعين في الحجاز والعراق. والشام بتسكهم عن طريق الحق وشخوصهم إلى الباطل في خذلهم علياً وابنه حسيناً ، ونصرهم معاوية وابنه يزيد ، حتى جاءت وقعة الحرة على المدينة أيام يزيد ، ونكبة عبد الملك على مكة أيام ابن الزبير ثم نكبة الحجاج على العراق. أيام عبد الملك بن مروان ، فكانت هذه النبكات أقسى ما ينزله القضاء العادل. في أمة تنكرت لثرائها الحى الخالد واعتصمت بالكفر بعد الإيمان فألقى الله بأسها؛ بينها على أيدي شرار خلقه من أمويين وعباسيين وعلويين ، حتى كانت الفاجعة الذين لا يزالون يهدمون صرح الإسلام بأيدي مروان ومعاوية وابن العاص الذين فتحوا الباب الأول للفرقة في الدين ، والشقاق بين المسلمين والعصبية للعنصر سم للقبيلة ثم للأسرة .

وهكذا سيقى المسلمون والعرب نهب التنازع والشقاق ، وعرضة للحيث والجور ، ومطمعاً للعدو الغاشم ، ما داموا ينهجون في سلطانهم نهج مروان ومعاوية ، وما داموا يتحدثون عن رسالة محمد وعدل عمر وورع علي ثم لا نجد في أعمالهم شيئاً من حكمة محمد ولا عدالة عمر ولا ورع علي أبي تراب ، وإنما ينهجون نهج معاوية ومن خلف من أعقابه ، يتأثرونهم بالجور عن الحق والانغماس في الباطل ، ثم نزع أنا أتباع محمد وحفظة كتابه ، وسدنة رسالته ، فلا تأس أيها القارئ إذا وقفت معي تبجيل الفكر في مصدر هذه الفواجع وتمثلت بقوله عز من قائل : إن ربك لبالمرصاد » نعم انه عز وعلا ، يعرف كيف يعاقب ويعرف كيف يثيب في الدنيا والآخرة .

لَيْسَ مِنْهُ مَنْ غَشَّ .

الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ يَدِهِ وَلِسَانِهِ .

محمّد

هذان حديثان خليقان بصدورهما عن سيد الخلق محمد ، على الوجه الذى أعرضه للقارئ فى صدر هذا البحث ، وقد روي بلفظ آخر هو : من غشنا فليس منا ، والمسلم من سلم المسلم من يده ولسانه « ولم أجد فى هاتين الروایتين كرامة رسول الله إلى خلق الله ، إذ يلزم من صحة قوله : من غشنا فليس منا ، أن من غش سوانا قد يكون منا ، وهذا لا يليق بمحمد المبعوث للناس كافة ، أن يقبل فى شيعته من يتعمد الغش لشيعته غيره .

ألم يقل دم الذى وعرضه وماله حرام على المسلم بغير حق ؟؟ إذن فكيف يجوز للمسلم أن يكون مسلماً وهو يغش الكتانى الذى هو غير مسلم ؟؟ ويلزم أيضاً من صحة قوله : المسلم من سلم المسلم من يده ولسانه ، أن يدخل فى عداد المسلمين من آذى غير المسلم بيده أو لسانه وهو مسلم ، وهذا لا يليق بمحمد أيضاً وقد حجر على المسلم إيذاء غير المسلم إلا بحق ، على أن سمت المسلم وسلوكه فى الناس واستقامته وتخلقه بأخلاق الإسلام التى هى المثل الأعلى للحى الكامل ، أقول : إن هذا السمت هو مفروض على المسلم ليكون بكل ما يصدر عنه وما يتحلى به داعية كبرى لدينه واعتناق رسالته .

يقول لى أحد المسلمين الهنود أيام زيارتى للهند فى طريقى إلى جنوب أمريكا ، يقول لى ونحن نستعرض طغيان الكثرة الساحقة من الوثنيين على المسلمين ، وإقبال الهنود جميعاً على لغة السكسون بعد أن كادت لغاتها تنضوى تحت لغات الإسلام من تركية وعربية وفارسية . قال : ان المسلمين قديماً وردوا بلادنا فاتحين لا مبشرين بدين وقد كان لهم الفتح الأعظم إذ سيطروا على العالم ، فلم يكونوا مبشرين بدينهم ولا دعاة لرسالتهم السماوية ، ولكنهم كانوا أكبر من ذلك ، إذ دعوا الهند لهذا الدين ولاعتناق رسالته بالزوايا التى أدب محمد بها نفوسهم ، فكانوا مثلاً علينا تحت سماننا بحسن المعاملة فى صدق الحديث ، وأداء الأمانة ،



ووفاء الوعد ، فى نشر العلم ، وتوجيه الفكر ، ونظافة البزة ، وطيب الأحادوثة من أجل ذلك دخل الناس فى دينهم أفواجا .

أما اليوم ، وقد دالت دولة الأخلاق فيهم ، ونسوا ما ذكروا به فى كتاب ربهم وعلى لسان نبهم فأصبحوا شيعاً متنازين ، وأذلاء صاغرين ، وجهلاء مستعبدين ، وعاد الغربى النابه يغزونا بمثل ما كانوا يغزونا به ، من عقول نيرة ، وأفكار حية ، وقوة لا قبل للشرق بها ، فغمر الآفاق بروائع ما يبدع من مكتشفاته فى علومه وفنونه ، وأمدنا بمحضارته ، فكان من البديهي أن يحل فى نفوسنا محل المسلم الأول ، وأن يتضاءل فيها شبح المسلم الأخير .

لقد أقبل الهندى آنذاك على دين العرب ، ولغة العرب ، وأخلاق العرب ، حتى كاد هذا السواد الأعظم يستحيل بلونه وطعمه إلى عروبة وإلى إسلام ، حيث كان المسلم التاجر لا يغش تجارته ، وحيث كان المسلم الصانع لا يغش صناعته ، وحيث كان المسلم الزارع لا يغش زراعته ، وحيث كان المسلم أياً كان عمله ، مخلص فى عمله .

أما اليوم فقد تحو لت هذه الميزات من المسلم العريق فينا إلى الكافر المسيطر علينا فانقادت له الأمور ، واستجابت له النفوس ، وبث فينا رسالة التبشير بدينه فصداقناه وآمنا به ، وأصبحنا نرى الحياة السامية لوناً من ألوانه ، وشكلاً من أشكاله ، ورحنا تتسابق فى اعتناق دينه ، ودرس لغته ، وتقليده فى حركاته وسكناته . وينقل لى أحد الفلسطينيين قبل أن يحتل اليهود وطنهم قال : لقد صممنا ، عندما شعرنا بأن اليهود سيملكون أمراً ، على أن نقاطعهم اقتصادياً ، وكان كل ما يغمر أسواقنا هو من صنائعهم فى اللباس والأثاث ، وما تقوم عليه الحياة من مصانع ومن مناسج ومزارع . فعمدنا أول الأمر إلى الاتصال باخواننا من تجار سوريا للأقمشة . وفاوضناهم على أن نستمد حاجاتنا من نسيجهم وفاكهتهم ، وألبانهم وأجبانهم ، وزبدتهم وسمنهم ، على أن يكون إخلاص المسلم العربى رائد البائع منا والشارى .

وشد ما خاب الأمل ، وأخفق السعى إذ كان السوق الأول يغمر أسواقنا من البز الواهن الواهى ، لا يثبت لونه حتى فى الظل ، ولا يستقيم نسجه حتى

على المشاجب ، وأما الأسبان والأجبان والألبان فكانت فضيحة المسلم عند اليهودى والسكسونى ، بينما ذكرت الصحف منذ قريب : أن بضاعة ألمانية وردت إلى بيروت زائفة اللون فأقام المستورد على المورد دعوى الغش فكان جزاء المدير الأول للمصنع الإعدام ، أما المصدرون لنا من دمشق قلب العروبة والإسلام فلم يجيبوا بأكثر من أن التجارة حرب قائمة على الخديعة والمكر »

ويقول لى شاب مغربى ، كان رفيقاً لى وأنا أجتاز بلاده الجزائر فى طريقى إلى جنوب أمريكا ، قال لى وقد سألته عن دينه فأجاب : نصرانى والحمد لله ، ثم سألته عن اسمه فقال : أبو الحسن ، فأظهرت عجبى وقلت له : ان اسمك يشير إلى إسلامك فقال نعم ان أبى كان مسلماً ولكن الله أنقذنى من هذا العنصر القدر المنحط ، فقلت له : وكيف ؟ قال : ان المسلمين فى الجزائر لا يختلفون عن الوحوش يأكل بعضهم بعضاً ، وأما لباسهم فغاية فى القذارة وحياتهم كلها قائمة على الدس والغش والتضليل بخلاف النصارى ، فان النظافة والرق والصدق والأمانة تكاد تكون وفقاً على حياتهم » ثم قال :

على أنى سمعت أن فى تونس قوماً عرباً تسود حياتهم النظافة فى المأكل والملبس ، ويشيع فيهم الإخلاص إذ يقولون أو يفعلون ، كالنصارى عندنا فى الجزائر ، وقد عرفت فيما بعد أن هؤلاء العرب هم مسلمون فعجبت لذلك ، وقلت : لعل المسلمين أجناس ، وأشياء كالنصارى عندنا منهم الأرثوذكس ومنهم الكاثوليك ومنهم البروتستانت ، بعضهم راق وبعضهم منحط ، وأحمد الله أن النصارى كلهم نظيفون على وجه الإجمال ، ولكن المسلمين عندنا . . . . .

ثم قطب حاجبيه ومط شففيه واستدبرنى مودعاً وهو يقول : إلى اللقاء .

هكذا نستطيع أن نصل من هذه الأحداث إلى العلل والأسباب فى تفهقر المسلمين أخيراً بعد تقدمهم أولاً ، وأن هذه العلل وتلك الأسباب فى التأخر والتقدم عائدة للاعتصام بالجواهر من الدين فى الأولين ، وإلى التمسك بالزائف منه فى الآخرين ، إذ ساد فيهم الجهل فحولهم عن فقه الحقيقة ، وقصرهم على الجدل والنقاش الآخذ بهم إلى النزاع والتناوب ، وحال بينهم وبين الوصول إلى الحق ، إمعان فى اتباع الهوى ، وتضليل ممن دخل الإسلام ليفسد فيه ،

بينما كان عدو الإسلام يعمد في جوهر الإسلام درساً وبحناً ليأخذ منه ما يصلح لحياته ويتخذ سلاحاً يقيمنا به ،

فعزز فينا هذا العدو عمى الفقيه الجاهل ، وهوى الفقيه الملحد ، وأسس فينا معاهد للتبشير تعمل على إفساد العقائد في النشء منا حتى عاد الإسلام غريباً كما بدئ غريباً ، وأصبح في قرارة الضمائر من نفوسنا أن التجارة حرب وأن الصناعة حرب ، وأن الزراعة حرب ، يسوغ للتاجر والصانع والزارع فيها ما يسوغ للمحارب في التغلب على خصمه ، من خدعة وتضليل وغش وكيد . ولقد نشطت بنفسى وأنا في بغداد ، أقطع شارع الرشيد الذي يخترق المدينة أنشد كوباً من اللبن الخالص لم يشبه ماء فكان كل لبان يصارحني بأن لبنه مغشوش ، وأن اللبن الخالص لا يوجد إلا في ضرع اللبون ، يقول لي ذلك دون أن يحذر جزاء من قانون ولا وازعاً من دين .

وفي مصر ، وقفت على بائع بطيخ يضمن للشارى حمرة جوفه وحلاوته ، فساوته على ثلاث وحدات شريطة أن يشقها وأرى بنفسى حمرتها ، وكان الأمر كذلك ، فاذا بجوفها أحمر كالدم وأنفت أن أذوقها معتمداً على اللون الذي قلما نخطئ الحلاء إذا كان أحمر ، ولما حاولت إخراج لها ووضعها على المائدة إذاً ترى أوجاف الوحدات كلها بيضا إلا موضع سكين البائع الذي صبيغ السكين قبل أن يشق الوحدات لي بأسلوب فني لم أصل إلى فقهه بعد . ويقول لي صديق سورى : إنه اشترى تفاحاً من بائع ونقاه بنفسه كيلا يمتنى بالغش ثم وزنه ونقده الثمن ، وكان قد وضع البائع هذا التفاح في كيس من الورق ، فاستلمه الشارى وودع ، ولما أفرغه على المائدة إذا هو يرتقال .

وفي بلدى الذى أعيش فيه ، بائع لبن مسلم وامرأته مسلمة صحيحا الإسلام يبيعان اللبن من مواشهما ، ويعشانه بالماء ثم لا ينكران ذلك مدعين أنهما يبيعان الشارى رأى عينه دون أن يضمنا له خلوص الحليب ، زاعمن أن الصراحة في الغش ليست غشاً ، وهكذا لو شئت أن اعدد ما آل إليه المسلمون في انهيارهم وترديهم من وراء امتنهم لرسالة نبيهم ، وتهاونهم بتطبيق هذه الرسالة على حياتهم ، لأعوزنى طوبامير مما أحبر وأحرر .

لَا تُحَدِّثُ النَّاسَ بِكُلِّ مَا سَمِعْتَ بِهِ ، فَكَفَى  
بِذَلِكَ كَذِبًا ، وَلَا تَرُدُّ عَلَى النَّاسِ كُلِّ مَا حَدَّثُوكَ  
بِهِ ، فَكَفَى بِذَلِكَ جَهْلًا .

في كلام الناس حق وباطل ، وفيه صدق وكذب ، لأن العصمة تكاد تكون مفقودة في الناس من أجل ذلك كان كل من الحق والباطل والصدق والكذب والعلم والجهل والخير والشر ، جائزاً على الإنسان فيما يقول ويفعل . فما هو ميزان ذلك لديك وأنت مدني بطبعك ، أى مفروض عليك صحة الناس ، ومشاركتهم في الحياة ؟؟

الميزان هو العقل الذى تسمع به قول أخيك الإنسان ، والذى تقول به ليسمعتك هو ، فعلى مقدار النضج في هذا العقل يكون صدقتك وأنت تقول وتصديقتك وأنت تسمع ، لهذا وذاك يجب عليك أن تعقل ما تسمع أو تقول فراراً من الكذب فيما تتحدث به عن الناس ، ومن الجهل فيما ترد عليهم ما يتحدثون به إليك .

ذلك ما أردت أن أشير إليه في سياق هذه الكلمة الحكيمة من كلام إمام البلغاء، فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم حين يقول : إذا سمعتم الحديث عنى تعرفه قلوبكم ورأيتم أنه قريب منكم فأنأوا أولى منكم به ، وإذا سمعتم الحديث عنى تنكره قلوبكم ورأيتم أنه بعيد عنكم فأنأوا أبعد منكم عنه « كما مر معنا في مطلع هذا السفر ، أقول : إن النبي إذ يقول ذلك فأنما يعنى تحكيم العقل فيما تسمع الأذن من قبول أو رد .

على أن شيئاً ينبغى أن يقال في توجيه الكذب الذى يحذر منه الإمام بكلمته تلك من يتحدث بكل ما يسمع ، وتوجيه الجهل الذى يحذر منه الراى على كل متحدث ، ذلك الشئ الذى أحب أن أقوله هو أن الإمام لا يعنى الإطلاق في

حكمه بالكذب والجهل على المتحدث والمنكر ، وإنما يعنى الغلبة فى حدود المنطق ، مثلاً :

قد تحدث الناس بكل ما سمعت لتصوير من تتحدث عنه إلى الناس تصويراً صحيحاً بين يدي الحكم عليه أوله ، كما يصور القرآن لنا حياة الأجيال وعقولها فى تاريخها السحيق لا لمجرد التصوير أو القصص ولكن للبرة والعظة مما يعرض للحى من تطور نعقل منه ما أمكن عقله ونترك ما لا يمكن للأجيال المقبلة لأن القرآن لم ينزل لجيلنا وحده وإنما هو ناموس إنسانى ما بقى الإنسان . وقد ترد على المتحدث كل ما تسمع منه لا لأنك تجهل ما يقول كله أو بعضه ، وإنما ترد عليه ذلك لتشعره أو تشعر من يستمع إلى حديثه معك أنه ليس بأهل لأن يتحدث ولو صدق فيما يتحدث به ، وأن كثيراً من المنافقين يتعمدون صدق الحديث ليسترعوا انتباه السامع فيدسوا خلال الحديث الصادق أو بعده ما يضلونه به .

فليس حديث من تحدث بكل ما سمع معرضاً للكذب على إطلاقه ، ولا رد من أنكر على المتحدث كل ما قال معرضاً للجهل على إطلاقه كما نفهم من قول الإمام ، وإنما يتوجه ذلك إلى من يتحدث بكل ما سمع أو يرد على مخاطبه كل حديث فيما إذا لم يكن هدف المتحدث والرد مطويّاً على سر من أسرار البلاغة فى البيان .

فقد قيل : إن العلامة المجلسى صاحب الموسوعة العظمى « البحار » قد سجل فيها أحداث العالم على السنة المؤرخين منذ آدم حتى عصر المؤلف ، ولم يكن صاحب « البحار » هذا ليتحاشى فى نقله كل ما سمع أو قرأ ، أى حدث جاوز العقل فى إمكانه ، واستعصى على الفكر تعليقه وتحليله ، وشق على القلب تصديقه والإيمان به ، وقد قيل فى الاعتذار عنه : إنه يسوق الأحداث العالمية كما سمعها أو نقلها ويترك الحكم على إمكانها أو استحالتها للأجيال ، وأن تطور العقل الإنسانى زعيم بتمحيص الحقائق على التاريخ ، وأن لكل جيل عقلاً يفكر ويبدع ، فقد يكون ما أراه مستحيلاً فى جيلى ، ممكناً فى الجيل الذى يلى . ولعل الإمام ، إذ قال ذلك ، يلحظ قول سيده محمد : خاطبوا الناس على

قدر عقولهم « وعلى هذا بنى البلغاء قولهم في تعريف البلاغة وأنها : مطابقة الكلام لمقتضى الحال » فقد يكون كاذباً من نقل مالا يحتمله عقل من ينقل له ، وإن كان في الواقع محتمل الوقوع ، لأن الصدق هو مطابقة القول للواقع الراهن. لا للواقع المرجو أو المتخيل أو الممكن الوقوع ولكنه لم يقع .

فمن تحدث للسامع قبل مائة عام بكل ما سمع حتى خيالات « ألف ليلة وليلة » كان في الواقع كاذباً حتماً لأن العقل السامع آنذاك لا يصدق إمكان الطيران للإنسان ، ثم تمكنه من السحر واستحضار الجان واستخدام الروح ونحو ذلك ، ولكن هذا المتحدث غير كاذب فيما يتوقع هو أو سامعه لو فكرا في تطور الفكر وإمكان ما يستحيل عليه في مستقبله قريباً كان أو بعيداً .

وهكذا نستطيع القول : إن الجهل كائن في من يرد كل حديث يعيه من يتحدث إليه به ، لأن عدم قبول كل حديث يشعر بأن السامع قاصر الفهم ضعيف التفكير ، فليس معقول أن يتحدث إليه الناس جميعاً بما لا يحتمل الصدق. ولو على جهة المجاز ، وليس بعيداً على بعض الناس أن يكون مصداق ما يقوله الإمام تعنتاً لا جهلاً ، فقد رأينا كثيراً من الناس الذين دأبوا على رد كل حديث لا لأنهم يجهلون ما يقال ولكن ليصدق عليهم المثل القائل : خالف تعرف » وذلك ما أسماه المتكلمون بالجدل العقيم ...

يريد الإمام ممن يتحدث عن الناس أن يعقل فيما يرويه ويلحظ قبل نقله عنهم إمكان صدوره أو استحالة ، فإن الناس أخلاط فيما يقولون ، منهم الصادق الأمين ومنهم الكاذب الخائن ولذلك جاء الكتاب الكريم مشحوناً بالنكير واللعن على كل كاذب ، وبالوعيد والتهديد لكل أفاك .

كما يريد الإمام من السامع أن يخلص في رد المتحدث إليه قبل الحكم عليه ، فإن الناس إنما وهبوا نعمة الكلام ليتفاهموا ، فإذا ساد الكذب من يتحدث ، وساد السامع تكذيب مطلق أو تصديق مطلق ، فقد الإنسان حكمة القول وساد الفساد في الناس .

لقد صدق الإمام حيث قال : لاتتحدث إلى الناس بكل ما سمعت فإن في ذلك كذباً ، ولا ترد كل ما تحدثوا به إليك فإن في ذلك جهلاً .

وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، فَلَا  
يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا .

الله

يجب أن يدفع العامل إلى عمله ليستقيم ، أمران : العقيدة في أن ما يأتيه من عمل هو حق يجب عليه اتيانه ، والإخلاص في إتيان ذلك العمل على أتم وجه يستطيع القيام به ، ذلك هو الإيمان ، عقيدة وإخلاص ، فقد يصدر العمل عن غير إيمان ، ثم يكون عملاً صالحاً ولكنه لا يستقيم لأن اليد التي بعثته غير مختارة في بعثته ، وإنما هي مسيرة به ومكرهة عليه ، لا تلبث أن تسيء إليه عندما يتزحزح عنها كابوس الضغط الجاثم على مصدر الإيحاء به ألا وهو القلب .

كلنا يزهد في عمل العامل إذا لم يكن مدفوعاً إلى عمله بإخلاصه لمن يعمل له ، فالسيد لا يطمئن إلى عمل العبد وهو مكره مهما صلح عمله ، لأنه يخشى أن يفسد عمله إذا تحرر فيعود عليه بالظلم والهضم الناشئين عن فساد العمل ، والله تعالى ، إنما وهب العبد صفة الاختيار فيما يفعل ليصدر عمله عن إيمان بأنه حق يلزمه عمله ، فيطمئن إلى الحكمة من ورائه وسمو الغاية فيه ، وإلا كان كالحيوان المسير في عمله لا عقل وراءه إلا فيمن يسيره ، فاذا شذ ألب السوط ظهره فكأن عرصة للظلم والهضم .

ففي هذه الآية الكريمة وما يتبعها من آيات الحث على العمل الصالح مقرون بالآيمان ، أو الخض على الأمان مقرونًا بالعمل الصالح ، حتى لا يكاد يرد أحدهما إلا مشفوعاً بالآخر ، أقول : في هذه الآيات أصل قيم من أصول التربية الإنسانية في هذا المخلوق القائم على ملكة الفكر فيما يختار ، لا على الجبر والإكراه فيما يعمل .

من أجل هذا كانت العقيدة والإخلاص سبباً أول في استقامة العمل الصالح ما قامت في العامل حياة ، ومن أجل هذا كانت ملكة الإقناع في الداعي والموجه سبباً أول في حمل المدعو على إحكام عمله وإتقانه واستقامته متقناً محكماً ، فالأب

لا يفلح في تربية أولاده على الفضيلة ما لم يحرز ملكة الإقناع في التوجيه ليطمئن الولد إلى صحة ما يدعوه إليه مربيه ، والأستاذ لا يفلح في تثقيف تلاميذه ما لم يتوفر على إقناعهم بصلاح ما يغذى أفكارهم به من علوم وفنون ، وهكذا نستطيع القول في أن كل راع مسئول عن رعيته بالإقناع من وراء ذلك التوجيه .

فما أشق وأقسى على الولد أو التلميذ أو العبد أن يخضع لأمر أبيه أو معلمه أو سيده ، وهو غير مقتنع بصحة أو صلاح ما يأتيه من عمل دعوه إليه أو حملوه عليه ، إني وأنا الآن في العقد السادس من حياتي لا أزال أنفر من كلمة « تعبد » التي يسود التعليل بها كثيراً من أحكام الفقه ، أنا لأفهم الخضوع حتى لخالقي تعبداً وهو القائل : لا تكره في الدين ، إنه جلت عظمتة جعلنا مختارين فكيف يكرهنا على إتيان عمل لا نفقه الحكمة من إتيانه ؟؟

ولا أزال أنفر من كلمة « اعتباط » التي كان يصدع سمعي بها أستاذي في علم النحو وهو يشرح لنا القواعد ويعلل بعض نواميس اللغة فإذا أعوزته العلة في بعض أحكامها قال : إنما كان ذلك اعتباطاً » ولا أزال إلى اليوم أمقت هذه الكلمة لأن معناها بلا معنى ، وهكذا كنت ولا أزال أحمل كل حقد وأصر كل إساءة لكل من يكرهني على عمل لم يقنعني بصلاحيته حتى يصدر عني وأنا مؤمن به ومطمئن إليه .

فالإيمان بغير عمل صالح أو العمل الصالح بلا إيمان هو عبث أو يؤل إلى عبث ، فليس لي أن أعمل بغير إيمان في صلاح ما أعمل إلا أن أكون سفهاً أو عابثاً ، وليس لي أن أومن ثم لا أعمل صالحاً ، إلا أن يكون إيماني إيمان العجائز ، ومن هنا نشأ فضل المجتهد على المقلد وأنه مأجور فيما يعمل ولو أخطأ ، لأن عمل المجتهد قائم على العقيدة والرأي ثم الإخلاص فيما يرى ويعتقد والإخلاص فيما يعمل من وراء ذلك الرأي .

كم نالني ظلم وأنا أعمل طائشاً دونما عقيدة تدفعني إلى العمل ، وكم عصفت بي هضم وأنا أومن ثم أتواكل أو أعمل دون أن أجعل إيماني رائد عملي ، إن المؤمن بما يقول أو يعقل هو الإنسان سواء أخطأ أو أصاب ، أما إذا أصاب ولم يخطئ



فهو ملاك هبط لتوجيه الإنسان إلى الحق ثم الصعود به من حضيض المادة إلى سماء العقل .

على أن الاجتهاد في الرأي إنما يوجب عليه العالم إذا أخطأ ، فشرط بأن لا يخالف الحق الصراح في إجماع أهل الرأي ، ولهذا أثبت الفقهاء أن الاجتهاد في مورد النص « أى أن ما ثبت في الكتاب أو السنة الصحيحة أو إجماع أهل العلم لا يتأثر باجتهاد ، فالفقيه إنما يتوفر على اجتهاده فيما يعمل إذا اعترضته الشبهة وأخطأه الدليل فاعتصم بالعقل ، فليس المأجور من اجتهاد فيما يخالف النص أو الإجماع ، ولكنه من اجتهاد فيما لم يرد فيه إجماع ولا نص ، من أجل ذلك حكم أئمة الفقه الأعلون أن معاوية في اجتهاده بالثورة على إمام زمانه لم يكن مخطئاً ولكنه كان كافراً لأنه خالف نص الكتاب والسنة وإجماع أهل الرأي من أئمة الإسلام لذلك كان على مصيباً في محاربته ولعنه وكان هو مجرمًا في لعن على وحر به .

إِنَّكَ لَا يَجْتَمِعَانِ : الْغَنَى وَالزَّانَا  
بَشَرِ الزَّانِي بِالْفَقْرِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ

محمّد

أحسب أن المفترى على رسول الله في هذه الكلمة، هو من المتصوفة الذين لا يرون في الحياة إلا الزهد والورع والعزوف عن الدنيا، أو أنه من الاشتراكيين الذين لا يرون الحياة إلا شركة بين أهلها، لا غنى ولا فقر ثم لا سيد ولا مسود، وكلا هذين ينكر الغنى أو يتنكر له فيدعو ضده حتى بالفرية على الدين. كان أنى يتحدث إلى أيضاً مثل هذا مما يفترى الجهلة أو المارقة على رسول الله ثم يبعثونها في صلب التاريخ سنة يشيب عليها الكبير ويهرم الصغير فروى لى قول القائل مرفوعاً إلى الرسول الأعظم : بشر القاتل بالقتل والزاني بالفقر ولو بعد حين « ما هذا ؟؟ ومن يروى هذا ؟؟ وأى عقل يقبل هذا ؟؟

لقد زرت أمريكا وأوروبا وأفريقيا وآسيا وتغلغت في الجماعات من هؤلاء، ثم أمنت في التعرف إلى الوجوه والألوان في شعوب تلك الأصقاع ثم شاركهم في كثير من حياتهم، فوجدت أن تسعين في المئة من أغنيائهم ويكاد بعض هذه الشعوب يستحيل غناء، كالأوروبيين والأمريكيين، لقد وجدت الأكثرية الساحقة من هؤلاء الأغنياء يحبون زناة وهم أغنياء، ويموتون أغنياء وهم زناة، فكيف لا يجتمع الغنى والزنا ؟؟

ولقد تغلغت في الشعوب الأفريقية والآسيوية وثنين وغير وثنين فوجدت سوادهم الأعظم يحبون فقراء وهم زناة، ويموتون زناة وهم فقراء، فلم يكن الزنا في أولئك ليحبب إليهم الفقر، ثم لم يكن الفقر في هؤلاء ليمنعهم من الزنا. فليس الغنى أو الفقر مصدراً لفساد الإنسان أو صلاحه، ولا الزنا أو العفاف مصدراً للفقر أو الغنى.

على أن الغنى وحده أو الفقر وحده، قد يكون مدعاة للفساد، أما الأول فلأن النعمة تبتر وتستجيب للشهوات إذا لم يعصم الدين أو القانون ذوى النعمة من البغى والاسترسال في العبث واللهو، وأما الثاني فلأن الفاقة والعوز يضغطان

النفس حتى تظلم فيكفهر وجه الحياة ويستولى القنوط عليها حتى تشد وتثور إذا لم يعصم الدين أو القانون ذوى الفاقة من اليأس والقنوط ثم الكفر . فالزنى ليس وقفاً على الغنى ومجلبة للفقر ، كما أن الغفاف ليس وقفاً على الفقر ومجلبة للغنى .

والدين من حيث هو دين لا يختص بغنى ولا فقر ، كما أن الكفر ليس مصدرأ لو احد منهما ، ولكن الدين يضمن لأهله العزة في الحياة ، وهذه العزة ليست وقفاً على المال ، فكم رأينا فقيراً يعتز بفقره حتى تضرب به الأمثال ، وكم رأينا غنياً يتهالك بغناه حتى تسلبه الذلة معنى الإنسانية ، فالعزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وأين الإيمان منا ؟؟ أهو في أوساط الناس أم في ذوى القناطر المقنطرة من الذهب والفضة ؟؟

فالدين ليس وقفاً على فقر ولا غنى ، كما أن الكفر ليس مسبباً عن غنى ولا فقر ، ولكن الدين جوهر في النفس يعصمها إذا أثرت من التهافت ، ويصونها إذا افتقرت من الجزع ثم يحملها على الصبر ، لذلك كان الإيمان الذى هو جوهر الدين ، شكراً في الغنى وصبراً على الفقر ، فعلى مقدار ما تبلغ رضى الله بغناك وأنت شاكر ، تبلغ رضاه بفقرك وأنت صابر ، والشكر في الغنى هو رعاية المال بالكسب والانفاق ، والصبر على الفقر هو القناعة بما في اليد والورع عما في غيرها ، فلا فقر في زنا ، ولا عفة في غنى ، كما أنه لا عز في مال ولا ذل في عوز .

وما أحب إليّ هنا أن استطرد من الزنا والغنى إلى العز والذل إذ تتداول الألسنة كلمة تقول : لا عز في فقر ولا ذل في غنى ، يحسبونها حديثاً مأثوراً أو شبه حديث ، وهى أبعد ما تكون عن حكمة محمد .

فلقد قرأت في سر الأبطال : أن أبا ذر كان يواخى زميلاً له في صحبة رسول الله ، فكانا مشركين في حياة قوامها التقوى والفقر والورع ، ولما انتقل خليهما رسول الله إلى الرفيق الأعلى افترقا حتى إذا كان عهد عمر أو عثمان إذا بأبي ذر ينحدر في حياته إلى التراب ، وإذا بصاحبه يصعد إلى تولى الحكم في البصرة ، ويشاء الله أن ينفى عثمان أبا ذر إلى الشام فلا يزيده التشريد إلا

إيماناً بنقمته على الخليفة الأموي ثم لم يزد إغراء معاوية بالمال إلا زهداً فيه . وعزوفاً عنه .

ويشاء الله مرة أخرى أن يمر بأبي ذر وهو في منفاه مسافراً إلى البصرة يستوصيه . فقال له أبو ذر : قل لفلان ، يعني أليفه أيام البؤس والذي ولي الحكم لعثمان فيما بعد ، قال قل له : أنت في سلطانك ونحن لا نزال نأكل الشعر ونفترش الأرض ثم نعيش كما تعيش ، قيل : عندما بلغه الرسول ذلك خر مغشياً عليه ، ولقد فارق أبو ذر حياته في منفاه خميص البطن عارى الجسد تصهره الشمس . وتلفحه الرمضاء ، وهو أعز على الله والناس من خليفة زمانه ، بينما روح معاوية الذي آذى أبا ذر لا تزال ذليلة في قبره حتى اليوم .

والعجب من هؤلاء الحمقى الذين يحسبون عزة الإنسان بماله أو سلطانه . للذين نخولانه تعالى على غره ، بينما نراه عبداً قناً لهما ، فليس العزيز في الناس من يتعالى على غره بغير حق . ولا الدليل في الناس من يخضع لغيره بحق ، وإنما العزيز من لا يذل إلا بين يدي الحق ، وأما الدليل فهو من صغرت نفسه فاسترقت بين يدي شهواته حتى أصبح ذليلاً في سره وإن كان عزيزاً في علنه .

يقول الله تعالى في وصف الصالحين من عباده : أعزة على الكفار أذلة على المؤمنين « وفي وصف غيرهم : أعزة على المؤمنين أذلة على الكافرين » ويقول الإمام علي : عبد الشهوة أذل من عبد الرق « فليس الذل أن أتواضع لك أو أن تتواضع لي ، ولا العز أن تتعالى علي أو أتعالى عليك ، وإنما هما وصف نسبي في الإنسان يدور مدار الهدف الذي يعمل له والغاية التي من أجلها كان ، فرب ذليل عزيز ، وكم من عزيز أذل في نظر الحق من الذل .

أعرف أناساً على عهد الافرنسيين في سوريا ولبنان كانوا إذا دخلوا على الأجنبي المستعمر يقبلون يده ويقدمون له من أطباقهم من بنات وأزواج ثم هم يطلبون مثل ذلك ممن يحكمونه في الشعب ، وليس ذلك قاصراً على هؤلاء ، فإن النفوس الخسيسة والأرواح الواطئة ليست وفقاً على العهد الافرنسي ، وإنما هي قائمة في نفوس حكامنا وزعمائنا منذ صدر الإسلام حتى اليوم ، وإنما سن فيهم هذه السنة الحكم بن العاص وابنه مروان اللذان أطلق عليهما رسول الله .

لقب : الوزغ بن الوزغ ، ثم أبو سفيان وأبناؤه من بعده الذين خاطبهم رسول الله .  
يوم الفتح إذ دخلوا في الإسلام كرهاً وجاؤه أذلاء يستشفعون له بعمه العباس .  
فقال لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء »

فالعاص وأبوسفيان وأبناؤهما الذين تحكموا في رقاب الأمة العربية والشعوب .  
الاسلامية باسم الدين كانوا عبيداً لشهواتهم ومتعاليين على الناس ، ثم سنوا للعالم  
كافة هذه السنة اللعينة حتى أصبح النفاق والخداع والكذب والرياء من مقومات  
السياسة في العالم كله بله المسلمين الذين هيمنوا على العالم باسم محمد وأبي بكر  
وعمر وعلي ، واسم هؤلاء أسمى وأرفع من أن يدنسه رياء أو كذب أو تضليل ..  
فليس الزنا سبباً للفقر أولاً ، كما أنه ليس مدعاة للذل أخيراً ، وليس  
الغنى مصدراً للغر أولاً كما أنه ليس وقفاً على الفساد أخيراً ، فقد يكون الفقر  
ذلاً كما قد يكون الغنى عزاً ، وقد نرى العز قائماً على الفقر كما نرى الذل في  
صميم الغنى ، كل هذا شيء ، والدين شيء آخر ، فما هو الدين إذن ؟؟ ان  
الدين روح نسمو به عن مستوى الحيوانات الدنيا ويدنو بنا من الملكوت الأعلى ..

مَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى أَهْلِ الْجَهْلِ أَنْ يَتَعَلَّمُوا حَتَّى أَخَذَ  
عَلَى أَهْلِ الْعِلْمِ أَنْ يُعَلَّمُوا

على

كنت ، وأنا صبي في الثامنة من سني حياتي ، أزور مع زملائي في الدراسة الأولى ، قرية مجاورة لقربتنا ، يقطنها نصارى تدعى « تُول » فيحتفي بنا الصبية من أبنائها ، وكنا نسألهم عن دراستهم بماذا ، إذ كنا نبدأ دراستنا بالقرآن ونمكث في الكتاب سنين ريثما ننهي قراءة القرآن ثم لائحسن قراءة غيره حتى نستأنف الدراسة من جديد .

كنا نحسب أنهم يبدأون دراستهم الأولى بالإنجيل فإذا بهم يبدأونها بكراس لا يزيد على بضع صحائف يكتبها لهم قسيس البلدة ، ويفرغون منها بأقل من شهر فإذا بهم يقرأون ويكتبون في أى كتاب أو صحيفة ، فكنت شديد العجب من أمرين : سرعة تعلمهم القراءة والكتابة ، وكون معلمهم قسيس القرية الذى هو بمنزلة فقيه البلدة عندنا ، وهو في نظرنا أجل وأعظم من أن يتنازل لتعليم الصبية أو تثقيفهم ، وإنما يوكل أمر تدريسنا القرآن والكتابة لمعلم لا يتجاوز في مؤهلاته للتدريس أكثر من أنه يقرأ ويكتب ، ثم يضع فوق رأسه عمة بيضاء تشير إلى مهنته .

فأستأهل ونفسي : لم يقوم قسيس البلدة عند النصارى على تثقيف الصبية نهاره وعلى تبصير آبائهم بدينهم ليلة ، ثم لا يتنازل فقيه القرية عندنا لتثقيفنا مع إرشاد آبائنا ، ويكل أمرنا إلى نصف جاهل نقطع تحت سياطه السنين في سبيل القراءة والكتابة ، بينما هؤلاء الصبية من أبناء النصارى يقطعون شوطنا خلال شهر أو أشهر ؟؟

كنت حقاً أتمنى لو أدرس دراستهم فأسرع في تعلمي ، كما كنت أستصغر القسس في امتحانهم تعليم الصبية لما قر في نفسى من حقارة هذه المهنة ، وكان الأولى بي أن أعجب من تعالى فقهائنا على تعليمنا ، وهم أرنى هبة في صدورنا وقولهم أعمق أثراً في نفوسنا ، إذن لكنا بذلك أسرع من زملائنا النصارى في

إتقان القراءة والكتابة وإعداد أنفسنا خلال أشهر للمدارس النظامية في «البسطة»  
حاضرة القرى من وطني الأول جبل عامل في جنوب لبنان .

لقد حز في نفسي منذئذ ، أن أولئك الفقهاء الذين يهيمون على القرى  
بروحانياتهم ، كانوا لا يعبأون بالكتاتيب ، ولا يعبرون أبناءهم أى اهتمام ،  
وحتى يومنا هذا ، وقد تعززت معاهد الثقافة الأولية في القرى والدساكر بفضل  
التقدم في العلوم والفنون ، وتنبيه الحكومات لضرورة نشر العلم والقضاء على  
الجهل ، أقول : لا يزال شيوخنا الفقهاء إلى اليوم بعيدين عن السهر على النشر  
الحديث والعناية بتربيته ، كأن لم يكن أبناءهم رجال المستقبل ، وكأن الدين  
وقف على العجزة والموتى من آباؤنا فقط .

ولقد زادت هذه الحزاة في نفسي أنى ، وأنا طالب في مدرسة البسطة  
الإعدادية ، كنت لا أرى تلميذاً واحداً فيها من أبناء المسيحيين القاطنين في  
هذه المدينة ، فسألت زملائي بذلك فقالوا : أن لهم مدرسة خاصة بجوار كنيسهم ،  
ومعلمهم قسيسهم القائم على الشؤون الدينية فيهم ، ولقد زرت هذه المدرسة  
لأنى فضولى منذ نشأتى ، فرأيت الكاهن بنفسه يعلمهم ، ورأيت بنفسه يسبح  
النظام عليهم في الدخول والخروج ، ثم رأيت الدرس الذى يلزمهم أداؤه يومياً  
أضعاف حصتنا اليومية في مدارسنا النظامية .

أقول : لقد حز هذا في نفسي أيضاً إذ رأيت ذلك الكاهن بهيبته ووقاره  
ولحيته المائلة صدره ، يقف بنفسه على نظام التدريس والتهديب ، ويقوم بنفسه  
على التثقيف والتربية ، بينما أرى كهنتنا الذين يقطعون عشرات السنين في التفقه  
بالدين ، يستكفون عن تفقه ناشئهم في المدارس الأولية التى تجاورهم في القرى ،  
ويرون أن من الحطة إشرافهم هذا على النشر وتعهدهم ما يدرسون على أيدي  
معلمين لا يعرفون من هم ولا يدرون شيئاً مما يثقفونهم به .

ثم حز في نفسي بعد ذلك أن هؤلاء المسيحيين ، وهم مواطنونا وشركاؤنا  
في حياتنا على أرض واحدة وتحت سماء واحدة ، لا يزالون منذ مائة عام حتى  
اليوم ، ينفرون من تعليم أبنائهم في مدارسنا بينما يجدون مدارسهم الخاصة تغص  
بأبنائنا ، وحتى المدارس النظامية التى تعينهم أكثر مما تعيننا لا تزال خالية أو

شبه خالية من أبنائهم ، فلا يجدون ثقافة لهم ولنشئهم إلا في مدارس الإرساليات التبشيرية القائمة على الدس والتعسس وبذر الشقاق بين أبناء الوطن الواحد باسم الدين مما لم يعد يخفى على أحد منا ومنهم .

ولنعد إلى فحوى كلمة الإمام على التي هي عنوان بحثنا هذا ، فإذا كان الله قد أخذ على العالم أن يؤدي رسالته بالتعليم قبل أن يأخذ على الجاهل أن يتعلم ، كان المسئول الأول في الأمة عن تغلغل الجهل وتضاؤل العلم هم العلماء ، وقد كان حتى الأمس ، لفظ العلماء في المسلمين لا يطلق إلا على المتفقيين في الدين ، وينقل لي أبي : أن هؤلاء يفسرون العلم المفروض على الأمة في قول رسول الله : طلب العلم فريضة على كل مسلم « يفسرونه بعلم الفقه ، أما الطب والهندسة والحقوق والتربية والكيمياء والكهرباء والرياضة والتاريخ والتفريع ، وغير ذلك من علوم الحياة فهذا لا شأن لرسول الله به في حثه على العلم .

لقد رأيت مرة أحد الفقهاء الأعلام من آل كاشف الغطاء يستشفى من مرضه في مصحح «نخس» من لبنان، وهو مؤسس بمال الإرساليات التبشيرية ، زرت هذا المريض في ذلك المصحح فرأيت في حجرة خاصة والصليب فوق رأسه ، فقلت له : حدثني أبي أنكم تفسرون العلم الذي دعا إليه رسول الله بعلم الفقه ، فهل أنتم في غنى عن هذا العلم الذي من أجله تركتم العراق للاستشفاء بمصحات قامت على التبشير بدين عيسى ؟؟ أفلا تعلمون أبناءكم الطب لتنشئوا ولو مستشفى واحداً باسم الطبيب الأول محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ؟؟

لا أدري كيف انهارت هذه الأمة ؟؟ ولا أدري كيف لا تزال تنهار حتى اليوم ، وقد بهرت عيونهم مصابيح الكهرباء ، وصبكت أسماعهم قذائف الرعب ، وملأت قلوبهم روائع ما يمزج الماء ويشق الهواء ، وما يمجج به الأثير وتزخر به الأدمغة ، وتتكشف عنه خزائن الأرض من نتائج العلوم والفنون ، لا أدري كيف لا يتحسس هؤلاء الذين يحسبون أن العلم وقف على فهم الكتاب والسنة ، وليس في الكتاب والسنة حكم شرعي أو قصص أخلاقي يحتاج إلى معاهد علمية يقطع المسلم فيها عشرات السنين ليفقه ذلك الحكم أو يفهم هذا القصص .

ان المسلم في عهد محمد كان يفهم الدين لساعته أو يومه أو بضعة مجالس



يجتمع فيها إلى رسول الله فيرى نوره ويسمع حديثه، ولم يكن الدين في عهد الخلفاء الراشدين أكثر من بضع جمل يلقيها الفقيه من يتفقه والداعي إلى الله من يستجيب له ، ولم يزل يرن في آذاننا قول شيوخنا الأبرار ، ونحن نتفقه عليهم ، : الفقه نقطة وسعها الجاهلون « يشيرون بذلك إلى التوسع في الفقه حتى أصبح بعيداً عن الفقه .

لقد رأيت بعض هؤلاء المتفهمين في الفقه يؤلفون فيه الطوامير دون أن يصلوا إلى جوهره ، ولقد وقفت على كتاب القوانين لبعض علماء الفرس في أصول الفقه فأعجزني أن أخوض فيه من رموزه ومعنياته ، فندمرت منه بين زملائي وإذا بأحدهم يقول : ان مؤلف هذا الكتاب قد وضع مثله ضخامة في تعريف الفقه فقط ، وتعريف الفقه لا يتعدى قولهم : انه استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية « فإذا يشرح الشارح ويفصل المفصل في هذه الجملة مهما بلغ من فقه الدين ليضع مؤلفاً ضخماً في تحليلها ؟؟

لقد حملوا القرآن ، وهو من آثار الله في كونه ، وهو لفظ عربي لا عجمة فيه ، ثم هو فصيح مبين لا غموض فيه ولا إبهام ، وإلا لما صلح للأمة التي من أجلها نزل ، أقول : لقد حملوا القرآن بتحدلقهم وتنطعهم وادعائهم علم الباطن ، غير ما يحمل ، ولا أقول فوق ما يحمل ، إذ هو من آيات الله وآيات الله ليس لها حد في استهلاك العقول بين يدي ما تحمل ، ولكننا لم نكلف باكتناه ما تنطوى عليه مما لا شأن لنا به ولم نخلق له ، فقد سئل بعض الحكماء الموحدين عن مبلغ ما يقلر الله عليه فأجاب بقوله : لا حد لقدرة كما أنه لا حد لعظمته ، فسئل : هل يقدر أن يضع الأرض في بيضة دجاجة على كبر الأرض وصغر البيضة ؟؟ فأجاب : لا ، ثم عقب على ذلك بقوله : ان استحالة وضع الأرض في بيضة ناشئ عن عجز في المقدور لا في القادر ، ففي طوق الله تقليص الأرض وتمديد البيضة بحيث يضع تلك في هذه .

والقرآن لم ينزل لغير هدى الإنسان وتعزيزه في حدود إنسانيته ، فليس من وظيفة القرآن أن نسأله غير ذلك ، وأما قوله تعالى ، ما فرطنا في الكتاب من شيء ، وقوله : فيه تبيان كل شيء ، فيعني به الشيء الذي هو في صميم حياتنا

وحدود إنسانيتنا مما نحفظنا كأنا ، فبعض هذا الشيء ضرورى لمعرفة الإنسان خالقه وعرفانه نفسه ، وإدراك الصلة بينه وبين ربه ثم بينه وبين أخيه الإنسان ، هذا الضرورى واضح جلى فى القرآن نستطيع أن ننشده فنجد فيه .  
 والبعض الآخر كمالى ككثير من العلوم والفنون التى لم ينزل القرآن ليفصلها لنا ولكن ليجمعها ويشير لإشارة ما إليها من وراء التنبيه لها والتحذير عليها ، القرآن مسئول عن هذه الأشياء ، وهل هذه كل أشياء الكون حتى نجعل القرآن وعاء له ثم نحمل أنفسنا على التحمل فى تأويله لاستخراج ما كان وما لم يكن له ؟  
 ان فى الكون آيات وعبراً كآيات القرآن وعبره ، يتصل بنا منها اليسير النزر ويغيب عنا ما لم يحط به إلا عالم الغيب .

## الدين

### فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ

ينقل لى بعض من تأدبت عليه من شيوخنا الأعلام : أن الشاعر العلامة السيد محمد سعيد الحبوبي النجفي وقع ، وهو يتفقه ، في شبهة من دينه ، فسأل أستاذه الشيخ محمد طه ، وكان مرجع الفقهاء في القرن الماضي ، سألته فيما اشتبه عليه فلم يزد في إجابته على قوله : لا تق الله ، فتركه وعاد إليه من غده بعد أن فكر في حل الشبهة فلم تزد إلا قلقاً ، وكان جوابه عين جوابه الأول إذ قال له : اتق الله وأمعن .

يقول مؤدبي : ان السيد الحبوبي إذ تحدث بهذا لزملائه بعد وفاة أستاذه : لقد عملت بأمر سيدي وأمعنت في التقوى لا أفتر عن ذكر الله ساعة ساعة ، ولحظة لحظة ، حتى زالت الشبهة من نفسي وأصبحت أرى أن ما أقلقني تحول إلى طمأنينة واستقرار ثم إلى إيمان ويقين بأن ما اشتبه على كان باطلاً وأن ما وصلت إليه بفضل التقوى كان حقاً .

بقيت هذه الذكرى تجول في روعي وأتساءل بها ونفسي ، : كيف تحول ذكر الله والتقوى دون الشبه ؟؟ وكيف وصل السيد الحبوبي من وراء تقواه وذكره إلى منصب سام في الفقه وأصوله بعد أن لم يكن غير شاعر ؟؟ ثم كيف كان ذكره ؟ وكيف كانت تقواه ؟؟ أقول : بقيت هذه الذكرى تداعب نفسي أهي حق أم دعاية من شيوخنا للتقوى والذكر للإبقاء عليهما وتثبيتهما في صدور المؤمنين منا ليستقيم لنا هذا الدين الذي هو كل تراثنا ؟؟

حتى إذا وردت أمريكاً وعلمت من أحد العاملين في علم الذرة أن بعض الآلات التي تتركب منها القنبلة الذرية يستمر العامل في صقلها بأدق مواد الصقل أياماً قد تطول وقد تقصر حتى لا يثبت البصر عليها من شدة لمعانها ، ويقول مهندسو الكهرباء : كلما دق صنع الآلات كانت أقوى على تأدية رسالتها الفنية « وهكذا كل آلة منوطة ، في أداء ما كانت له ، بأحكامها ودقة صنعها ،

ودقة الإحكام قائمة على التجربة والتعزيز وصدق المران وإتقان الصنع .  
 وحتى قصص على أبي : أن بعض الأعلام من فقهاءنا لبث سنين طويلة  
 يطلب العلم فلم يفد منه ما يرجوه وبقي في المستوى الأدنى من زملائه حتى  
 يئس وترك الدراسة ، فر بنسوة على بئر ماء يستقن بالدلاء ، ورأى أثر الحبال  
 قد حز في الصخر المستديم على فم البئر فوقف مبهوتاً مخاطب نفسه بقول الشاعر :  
 انظر إلى الحبل وتكراره في الصخرة الصماء قد أثرا  
 فرجع إلى نفسه يتلاوم على يأسه من درسه ، واتهمها بضيق العطن ، والجزع  
 في مواطن الصبر « ورأى في طريقه نملة تحمل حبة من البر أكبر منها وتريد أن  
 تعلوها صخرة فلا تستطيع ، وكلما صعدت بها فتراً أو شبراً حال الأعباء وزلق  
 الصخر دون استمرارها فأهوت إلى حيث بدأت ، واستمرت مثابرة على الصعود  
 رغم الانحدار حتى عد اليائس لها ستاً وثلاثين مرة ، وفي كل مرة تقطع مسافة  
 من الصخرة إلى أن غلب الرجاء على اليأس واستظهرتها إلى حيث تقطن .  
 عندئذ صمم الرجل على العود والثبات في جهاده حتى بلغ القمة في علم  
 الفقه وأصبح علماً فيه ، وكان يطوف على طلبة العلم الراسخين ويقص عليهم  
 عبرته فيقول : لا عذر لأحدكم في أن يتخلف وهو يعتقد أن الحياة فوز وإخفاق  
 من وراء الخطوط « ويقول لهم : ليس في الحياة إلا علم وعمل يصعدان بالمرء  
 أو يسفان به على مقدار ما يطلب الصعود ويتفادى الأسفاف ، ولقد كان  
 الرسوب والجمود أقسى على منكم حتى لفظت الجهاد ويئست من الفوز ولكن .. »  
 لكنني إذ رأيت النملة تعيد الكرة في أداء رسالتها ستاً وثلاثين مرة حتى  
 ظفرت بالفوز ، هكذا علمتني الثبات والمثابرة في دراستي فعددت لها ستاً  
 وثلاثين سنة وإذا بي على القمة ينحدر عني كل عالم ، ذلك بفضل النملة وهي  
 تتوكل الصخر وبفضل الحبل وهو يؤثر فيه ، فتعلموا يا أبنائي من الحيوان  
 والجماد ما ينهض بكم من عالمها إلى عالم ترحمون فيه الملائكة بين يدي باري  
 الكون ، وهل هذا كله إلا وليد العلم والعمل ؟؟ » أقول ؛ بقيت هذه الذكرى  
 تجول في نفسي شكوكاً وريبة حتى مر بي هذا فأدركت السر في رياضة اللسان  
 على الذكر والامعان فيه .

إنما سمي كتاب الله قرآنًا وذكرًا لنكثر من قراءته ونكثر من ذكر الله به ، لنقرأ كثيراً فننسجم به ، ولنذكر الله به كثيراً فنطبع قلوبنا بطابعه ، فاذكروا الله ذكراً كثيراً ، واذكروه مع الذاكرين ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، كل ذلك يدعوننا لأن نقف ألسنتنا على ذكر الله ، ونطبع قلوبنا باسمه ، ونشرب أنفسنا اللجوء إليه والخشية منه ، ونصقل أرواحنا بالبحث عنه والتفكير فيه ، حتى تكون الصلة بيننا وبينه وثيقة العرى كالصلة بين الصانع وأطوع آلات صنعه له ، إذ يعن في صقلها وشحذها وإعدادها لما خلقت من أجله ، فاذا هي تستجيب له وإذا به يؤدى رسالته التي كانت به ماضية ، وكانت يده بها صناعاً .

لم تكن لتعلو المنبر وأنت خطيب مصقع ، ولم تكن لتفصل في الحكم وأنت قاض مبدع ، ولم تكن لتمسك القلم وترسم مائة كلمة في الدقيقة ، ثم لم تكن لتقبض بيمينك حفنة من الدنانير ثم تصبها في يسراك فتتقصد الزائف وتميز عنه الصبر لمجرد صبها ، أقول : لم تكن تفعل ذلك كذلك لولا المران والرياضة والتكرير ساعة فساعة ، ويوماً فيوماً ، وشهراً فشهرًا ثم عاماً فعاماً .  
ان تمرين أعضائك على عمل أى شئ ، وتمرين فكرك على بحث أى شئ ، ثم تمرين قلبك على استلهام أى شئ ، ان هذا التمرين بالغ بك الهدف الذي تنشده ولو كان معجزاً ، فانا نسمع عن فقراء الهنود معاجز في أعمال الجسد ، ونسمع عن الغرب معاجز في أعمال الفكر ، ثم نسمع ونلمس عن شرقنا الأدنى هذا معاجز في أعمال القلب ، فهل يكون غريباً على الإنسان ، ان يعمل فكره ولسانه بذكر الله ، أن يستحيل في الله ويتصل به فيؤدى بذلك رسالته الإنسانية على أتم وجه ؟؟

ان هذا كائن ، وهو بن سمعنا وبضرنا ، نرى المشعوذ يروض جوارحه على الخفة وسحر الأعين ، فيصبح أعجوبة في مآتيه ، ونرى اللص يروض جوارحه على النشل والاختلاس فيأتى بالعجائب ، ونرى الدجال يروض جوارحه على الكذب والتضليل فيأتى بالمعجزات ، وهكذا نرى الزاهد الناسك المتصوف يروض جوارحه على العبادة والتهجد فيصوم الدهر ويصلى ألف ركعة في الليلة

الواحدة ، ويحتم القرآن كل يوم ويصبر على شظف العيش فيأكل ويلبس ما خشب وخشن، فليس الذكر إلا رياضة يمعن بها الإنسان في تطويع ما استعصى أو تثقيف ما اعوج ، وتقريب ما بعد أو تبعيد ما قرب ، وقديماً قال الشاعر :

أذكرونا مثل ذكرانا لكم رب ذكرى قربت من نزحا  
أذكروا صباً إذا غنى بكم شرب الدمع وعاف القلحا

فليس الذكر الذى يعلى كتاب الله من شأنه ومحضنا عليه ، إلا هذه الرياضة ، ولكتها رياضة خاصة بالله الذى قر في نفوسنا أنه الحق ، وأنه الصديق ، وأنه الأمانة ، وأنه الوفاء ، وأنه كل خلق يسمو به الإنسان ويعتز ، ثم أنه العالم الذى يبصرنا بالحياة ، ويكشف لنا عن مخزونها الخافل بالحياة ، ويصلنا من خلال كنوزها بخالق الحياة ، هذا هو الله الذى يدعونا الله إلى أن نروض أنفسنا على ذكره ، وهذا هو الله الذى يحيلنا إليه فيما نجهل ، إذ يقول : فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون »

ان الغربى اليوم كالشرق بالأمس ، إذا لاح له بصيص من نور العلم ، تعهده بالذكر والفكر حتى يلم به ، ثم أمعن في هذا التعهد حتى يحيط به ، ثم زاد إمعاناً في البحث عنه والتفكير به حتى يوغل فيه ويكتنه السر الذى كان من أجله ، فاذا بهذا الإمعان في تعهد ذلك البصيص من النور بذكره وفكره ، يكشف له عن مشكاة فيها مصباح ، والمصباح في الزجاج ، والزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة ، لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور ، يهدى الله لنوره من يشاء .

أى بنى : رض نفسك ما استطعت ، أو فوق ما تستطيع ، على ذكر الله ليلك ونهارك ، واقرأ كتاب الله الذى يبين لك من هو الله الذى تروض لسانك وفكرك على ذكره ، اقرأ كتابه ما استطعت ، والهيج بذكره حيث لا تستطيع قراءة وكتابة ، أيا ن تقوم وتقع ، وتذهب أو تجئ ، وتقول أو تفعل ، رض نفسك ما استطعت وفوق ما تستطيع على ذكر الله الذى ألهمك أن تقول ، والذى أقدرك على أن تفعل ، والذى دعاك لأن تفكر ، الله الذى لم يهلكك إذ سواك ،

فرحمك بالعين لتبصر ، وبالأذن لتسمع ، وبالعقل لتفكر ، وباليدين لتعمل ،  
ثم رحمك بالهدى إلى العلم لتمييز الحق من الباطل ، وتنشد الكمال الذى من أجله  
خلقك فسواك فعدلك .

أذكر ربك يا بنى ، ربك العالم حين تجهل ، ليهبك نعمة العلم ، والقوى  
حين تضعف ليسبغ عليك القوة ، والقادر حين تعجز ليجبرك من التهلك ،  
والغنى حين تفتقر ليغنيك عن سواه ، أذكر ربك الغفور وأنت تقترف الإثم  
ليسعلك برحمته ، وأذكر ربك الحلم ليتجاوزك بغضبه ، وأذكر ربك اللطيف  
ليرفق بك إذا خشنت ، ويقيلك إذا عثرت ، ويأخذ بيدك حين تقع ثم لا تجد  
تأصراً غيره .

إنك إذ تمنع فى ذكر الله الذى هو هذا المقرر فى نفسك أنه مهيم علىك  
ولطيف بك ومسؤول عنك ، إنك إذ تمنع فى ذكره ، وهو قائم فى نفسك حقاً  
يعصمك من الباطل ، ونوراً يكشف عنك ظلمة الغنى ، وكرماً يضمف علىك  
نعمة الحياة ، وقائداً يرشدك إلى الطريق السوى ، أقول : إنك إذ تمنع فى  
ذكر ربك الذى هو هدفك إذ تنشد الكمال ، وغايتك إذ تبحث فى نفسك عن  
سر الوجود ، إنك إذ تمنع فى ذكر هذا تستحيل فيه حباً وتقديساً ويستحيل  
فيك هدياً وإرشاداً ، فإذا بك هذا الإنسان الكامل الذى لم يكن إلا ليكون  
كاملاً ، والذى لم يفرض عليه الكمال إلا ليدل بكماله على عظمة خالقه ، والا  
ليدرك بكماله الحكمة التى كانت علة خلقه .

## سحر لَوْ تَعَلَّقَتْ هِمَّةُ أَحَدِكُمْ بِالْثَرِيَّا لَنَالَهَا

يعلمنا المعلم الأول بهذه الكلمة الجامعة كيف نربي الهمم على الطموح إلى معالي الأمور ؟؟

من الذكريات التي بعثتها في نفسي هذه الحكمة ، حديث رواه لي أحد مواطني العرب في مدينة بونس ايرس عاصمة الأرجنتين في جنوب أمريكا أيام زيارتي الثانية لها عام ١٩٣٩ ، وقد كان السيد روزفلت يومئذ رئيس الولايات المتحدة في شمال أمريكا كان عاملاً أول للصهيونية في بلاد العرب ، حتى بلغ من حرصه على إنشاء دولة إسرائيل وتثبيت الصهيونية في أرضنا أن عرض على الملك عبد العزيز بن سعود عشرين مليوناً من الدنانير الذهب ثمن ممر لليهود من خليج العقبة إلى خيبر في أرض الحجاز ، وقد كانت مهد صهيون في صدر الإسلام ، فأبى الملك السعودي ذلك وأنكر عليه مثل هذا العرض ، قال مواطني : ان بعض العلماء في هذا البلد ألف كتاباً يثبت فيه أن روزفلت من أصل يهودي هو وزوجته ، فأقبلت عليه بكل جوارحي لأعني ما يقول ، وظل يقص على فحوى هذا الكتاب ساعات ، فمن مضامينه :

إن من أسرار الصهيونية التي تعمل في كل مؤسسة غامضة كالماسون والروتاري وغيرهما من المنشآت السرية ، من أسرار هذه المؤسسات تعزيز الصهيونية بما يفرض على العالم سيطرتها والهيبة منها ، والاستخذاء لها ، من هذه الأسرار إشراك اليهود في سيادة العالم ديناً ومدنية ، ومنها توجيه العالم إلى أهدافهم ، ومنها إخضاع العالم لسيطرتهم وسلطانهم ، حتى يكون لهم القوة في التصرف بالعالم حرباً وسلاماً ، وبقاء وفناء وتأيداً لهذا : أما أولاً ، وهو سيادة اليهود في العالم ديناً ومدنية فقد دخل بعضهم قبل مائة عام في الإسلام والنصرانية وأوغلوا في هذا الدخول حتى أبرهوا في إسلامهم وتنصرهم عن إخلاص وتфан بين يدي ما يعتقونه من دين جديد ، فظل الأب بغذى الابن ، والجد يغذى الحفيد



بإدنى الدين الأول ، حتى جاءت الأحفاد والأسباط مكيئة في دينها الأخير ،  
ولما تزل مصر على دينها الأول فنشأ عن ذلك ما يأتي :

ينقل لنا الأستاذ محمد على علوبة في كلمة ألقاها على ندوة « الاصفياء »  
في مصر الجديدة ، وعلى مسمع الزعيم الفلسطيني الحاج أمين الحسيني ، قوله :  
لقد ظهر بعد حرب اليهود مع العرب في فلسطين أن شيخاً فقيهاً مسلماً رأس  
دائرة الوعظ والدرس الإسلاميين في المسجد الأقصى ، وآخر مثله في خان  
يونس ، عشرين عاماً وهما يحملان شهادة عالمية من الأزهر ، حتى إذا نشأت  
إسرائيل اختفيا ثم ظهر فيما بعد أنهما من اليهود ، وقد كانا في مهنتهما ، الفقه  
الإسلامي ، يعملان على النيل من الإسلام والمسلمين تمهيداً لتأسيس إسرائيل .

من هذا نفهم السر في أن خمسة آلاف قسيس بروستنتي من قسس أمريكا  
الشمالية أجمعوا على مطالبة رئيس الولايات المتحدة السيد ترومان بمساعدة اليهود  
على تأسيس دولتهم إسرائيل ، ومن هذا نفهم السر أيضاً في تهالك بعض مطارنة  
وكهنة لبنان على مساعدة اليهود في إنشاء دولتهم حتى حمل هذا التهالك المطران  
اغناطيوس مبارك على تأليف كتاب رفعه إلى هيئة الأمم المتحدة يقول فيه بالنص  
الصريح : إذا لم تنشأ دولة يهودية في فلسطين فلا نستطيع الحياة ، نحن اللبنانيين  
على أبواب الشرق » وحتى أعلن في حفل يهودي ديني بمدينة بيروت ، وكان  
يرافق البطريرك عريضة إليه ، أعلن قوله : أنا مطران اليهود وهذا بطريركهم »

وهكذا نفهم السر في صموت الفاتيكان وسكوت رعاية الكنيسة  
« كانتر باري » في انكلترا ثم تجاوزهم هذا السكوت إلى مساعدة اليهود بطلب  
تدويل القدس من هيئة الأمم ، والعالم كله يعلم أن القدس عربية منذ فجر  
التاريخ العربي ، وهكذا نفهم السر أيضاً في أن آلاف القسس كانوا يطوفون  
أقطار أمريكا المتحدة لجمع التبرعات في سبيل إنشاء إسرائيل وهم يسمعون ملء  
الأذان بالفظائع التي يرتكبها اليهود في مدن وقرى فلسطين العربية ، من ذبح  
الأطفال وبقر بطون النساء الحوامل باسم المدنية والسلاح الذي تمدهم به رعاية  
المدنية من أوروبا وأمريكا ، يفعلون ذلك كله دينيين ومدنيين وهم يقرأون

صباح مساء في كتبهم المقدسة أن اليهود هم الذين صلبوا ربهم وأنزلوا بمسيحهم العذاب والهون .

هذا ما أعدده اليهود تمهيداً لإعلاء كلمتهم وإنشاء دولتهم من ناحية الدين باعتناقهم شريعة محمد ودين عيسى اليوم كما فعلوا قبل ألف عام في صدر الإسلام حتى ضلّلوا المسلمين يومذاك ولم يزل تضليلهم هذا قائماً في صميم الدين الإسلامي حتى يومه هذا .

وليس سريرة يوسف بن يعقوب بن كلس اليهودى العراقى الأصل الذى أسلمت أسرته وأنحدر منها، غريبة على التاريخ ، فقد هاجر وطنه إلى مصر وحظى عند الدولة الإخشيدية ، ثم لدى المعز الفاطمى حتى أصبح مدرساً للفقهاء ، واتضح بعد ذلك على عهد الحاكم بأمر الله الفاطمى أنه كان يتآمر مع الروم على انتزاع فلسطين وسلمهم أسرار الحامية الفاطمية المربطة بها وأغراهم بالهجوم عليها ليتسنى له بعد ذلك رفع راية إسرائيل بمساعدتهم عليها<sup>(١)</sup> .

وأما ما أعدوه لتعزيز دينهم ودولتهم من ناحية المدنية فهو ما تضمنه كتاب ذلك العالم الأسباني في الأرجنتين يثبت فيه أن روزفلت وزوجته من أصل يهودى فاسمع ما يقول في فحواه : إن اليهود قبل مائة عام أمعنوا في حمل بعضهم على اعتناق النصرانية البروتستانتية تمهيداً لدخولهم السلطان الأول في حكم الولايات المتحدة التى ضمنّت دستورها آنذاك ضرورة كون الرئيس الأول فيها نصرانياً بروتستانتياً ، أقول : كان ذلك منهم تمهيداً لتعزيز اليهودية في أمريكا ثم تعزيز العوامل التى يحققون بها أحلامهم في أرض الميعاد فلسطين » .

وقد كان لهم ذلك ، إذ ظهر كثير من البراهين على أن كثيراً من حكام الولايات المتحدة منحدرين من أصل يهودى حتى قال لى بعض الأمريكين أيام وجودى في نويرك : أن كل اسم يقترن بلفظ « مان » هو يهودى أو منحدر من أصل يهودى ، كوايزمان وترومان » ثم أمعنوا في تطويع الأمريكين بالحكم حتى لم يقتصروا أخيراً على إخضاعهم بحكام انحدروا من اليهودية ، وإنما تجاوزوا

(١) من مقال للعلامة الزعبي في مجلة العرفان الجزء السادس ١٩٥٦

ذلك إلى أن حكمهم باليهودية السافرة عندما استفحل سلطانهم من وراء السيطرة المالية وتعزيز حب المادة في نفوس الأمريكيين حتى أصبح الدولار معبوداً لديهم . نقل لى بعض المهاجرين العرب تحت سماء أمريكا الشمالية : أن مدينة « انديانا هاربر » التى تضم نصف مليون من العالم هى المدينة الوحيدة التى خلت من اليهود إلا يهودياً واحداً هو حاكمها الأعلى ، ومن رأى عظمة المنشآت الماسونية فى الولايات المتحدة وأوروبا علم مبلغ تأثير هذه المؤسسات على الشعب المسيحى البروتستانتى خاصة فى نزع التعصب الدينى من نفوس أبنائه ليتسنى لهم حكم البلاد مادة وسياسة دون أن يثيروا أية ضغينة فى نفوس الأمريكيين الأول فى بلادهم .

فقد نقل لى كثير من رجال الماسون أن المجلس الأعلى لكل محفل ماسونى مكتوم عن جميع رجال ذلك المحفل بجميع درجاتهم ، لا يعلمون شيئاً عما يجرى فى ذلك المجلس من أسرار ثم لا يعلمون أسماء أعيان ذلك المجلس ، ثم يقول لى هؤلاء : ان من أهم مواد الماسونية رفع التعصب الدينى بينهم والمواخاة باسم المحفل مهما امتاز بعضهم عن البعض الآخر بالجنس أو اللون حتى قال بعضهم من ماسونى العرب :

تركت تعصباً فى الدين حتى أرى الوثنى كالخلل الحميم وأعجب ما يدهش الإنسان أنه لم يبق من شك فى أن الماسونية يهودية وبرهان ذلك ما فعله هتلر فى الماسون أيام الحرب العالمية الأولى على اعتبارهم يهوداً ، ونرى أهم بنود الماسونية رفع التعصب الدينى من صدور أبنائها ثم نرى اليهود الذين أسسوا الماسونية هم أشد الناس جهراً وإسراراً فى التعصب لدينهم . ذلك ما يدلنا على أنهم إنما أسسوا الماسونية لمحوها العصبية الدينية من العالم فيتسنى لهم بذلك الإبقاء على أنفسهم فى العالم إذ كانوا أذلاء منبوذين من جميع العالم ، ثم ليتسنى لهم أخيراً تحقيق ما يرمون إليه من حكم العالم والسيطرة عايه مادة وسياسة ، ليصلوا آخر الأمر إلى هدفهم الأسمى وهو تحطيم شعوب العالم ليقوم على أنقاضه إنشاء دولة لإسرائيل التى يأملون بها السيادة على العالم . هكذا ملكوا أمر الناس فى العالم المتمدين ثم انقلبوا إلى ملك هذا الأمر فى

العالم المتأخر ، فكان هدفهم الأول تركيا التي بدأت تنحدر منذ مائة عام بفعل اليهود الذين اعتنقوا الإسلام في « سالونيك » ويعبر عنهم بالدونمة فكان من أبنائهم مصطفى كمال وكثير من هؤلاء الذين يحكمون تركيا اليوم من بعده ، وفيهم حسين يالشتين الصحفي المنحدر من أصل يهودي ، فقد فعلوا في تركيا ما فعلوه في الولايات المتحدة فأخرجوها عن إسلامها باسم القومية الطورانية ليصرفوا عنها احتفاظ العالم الإسلامي بخلافته فيها كما أخرجوا أمريكا عن نصرانياتها ، بقصر العصية فيها على أمريكيتها لا مسيحيتها حتى كانت ولا تزال الكلمة السائدة على ألسنة السياسيين الأمريكيين قولهم « أمريكا للأمريكيين » وحتى نقل لى بعض المهاجرين العرب في الولايات المتحدة : انك لاتجد أمريكياً يتعصب لدين المسيح إلا الكاثوليك وأما ما عداهم فهم يهود » .

والكاثوليك في الولايات المتحدة لا يشكلون عشرة في المائة من أهلها ، وأما في بريطانيا فتكاد تحصر الكاثوليك في زاوية واحدة من كل بلد ، ولهذا نرى السيطرة الأولى على مجلس العموم البريطاني لليهود ، فقد سمعت من أقطاب السياسة المعاصرين أن سبعين عضواً في مجلس التشريع البريطاني من أصل يهودي وأن وزيراً أو وزيرين يهوديين كائنان حتماً في كل حكومة يشكلها بريطاني ، واليهود في بريطانيا لا ينهضون إلى مليون في تعدادهم ، بينما نجد مئات الملايين من رعايا بريطانيا المسلمين ليس لهم واحد يمثلهم في مجلس العموم البريطاني فضلاً عن حكوماته ، فلينظر القارئ وليتأمل مبلغ ما وصل إليه عنصر الصهيونية من سيطرة على العالم ، وإلى أين وصلوا من طموحهم ، وهم قلة لا يزيدون على بضعة عشر مليوناً ، في تحديدهم ألفى مليون من مجموعة الإنسان على وجه الأرض . وهكذا نصل إلى مبلغ ما سيطروا به على العالم من وسائل الحضارة في العلم والمال ، فقد رأوا ، بعد إمعانهم في إشراب العالم حب المادة من وراء بث الشهوات في النفوس ، وإيقاد نيران الحروب والمجازر في العالم بالمدس وتغذية الأثرة العنصرية بين الأمم ، رأوا أن مصدر ذلك كله العلم ، فأمعنوا في طلبه حتى كان منهم أمثال انشتاين ووايز من ولينين وماركس وسبينوزا وأوسكار لينى وغيرهم من أقطاب العالم صريحين ومتسترين ، وحتى

كان منهم أقطاب المال العالمى فى « وول ستريت » من قلب نيويورك ، وأقطاب التجارة والصحافة والدعاية ، فلن تجد تحت سماء أمريكا أم العالم المتخضر أو المتمدين على الأقل ، لن تجد تجارة أو صحافة أو إذاعة أو صرافة ، إلا لليهود عليها السيطرة الأولى ، وهل العالم كله إلا علوم تخلق المادة وإلا مال يملك النفوس ، وهل شئ من هذا يخضع لغير هذه الحفنة من العالم ؟؟

هكذا نستطيع أن نفسر قول محمد بأن هذا الشعب الجبار من يهود العالم هم الذين وحدهم تعلقت همهم بالكواكب فصعدوا إليها وتبوأوا نواصيها ، وأما أمة محمد فقد كانت نجوم السماء مواطئ أقدامهم إذ كانوا يحفون برسول الله ويتلقون رسالته بأيديهم ثم يضعونها على صدورهم ، ليغذوا بها قلوباً تتسع للحق فيضيئ بها العالم ، ويضعونها على عيونهم ليبصروا بها مواقع أقدامهم فى مجاهل العالم ، حتى إذا نبذوا تلك الرسالة ، وخضعوا للباطل بين يدي شهواتهم غاصت همهم فى تخوم الأرض حتى لا نقوى على أن نرى اليوم مسلماً إلا إذا تطامنا وطأطأنا رؤسنا نفتش عنه فى الخضيض من العالم .

## عَلَى مَنْ وَثِقَ بِالْمَاءِ لَمْ يَظْمَأْ

كان بلال الحبشي مؤذن رسول الله من المعذبين على يد مولاه المشرك أياه نبوغ الإسلام واستجابته لداعى الله ، فكان سيده يخرج به من مكة إلى الرمضاء اللاهبة ويطرحه أرضاً ثم يضع الصخرة على صدره ويقول له : إما أن تكفر بدين محمد أو لأدعنك في السموم حتى ينضج لحمك ، فيقول ، ولم يزد : أحد أحد ، لا صاحبة له ولا ولد ، ولا شريك ولا ند »

وكان ياسر أبو عمار وزميل بلال ، في الثقة بالحق والدعوة إليه ، كان يستهدف للعذاب على أيدي المشركين فكان يوثق وتوضع الصخور على صدره ومجلد حتى يتبرأ جلده ليكفر بدين محمد فلا يسمع معذبة منه تحت السياط إلا قوله : أحد أحد ، لا صاحبة له ولا ولد ، ولا شريك ولا ند .

وهكذا كان جل أصحاب رسول الله السابقين في إسلامهم يستهدفون بقوة إيمانهم لعذاب لا يطيقه إلا من رأى الجنة التي يظمأ لها رأى القلب ، وإلا من رأى النار التي يفر منها رأى العين ، فيستسلم لعذاب الدنيا وهو واثق من أنه يرد على ربه شقيماً ليسعد وطمأن ليروى .

أما بعد محمد فقد استهدف كثير من هؤلاء لعذاب المشركين الذين لم يلج الإسلام قلوبهم ولا دار على ألسنتهم إلا كذباً ورياء ، فقد كان عمار بن ياسر ينشد الماء وهو يناضل جيش الكفر مع خليفة رسول الله إذ كظه العطش تحت الحديد والنار والجراح تمضيه ، فلم تغثه إلا امرأة بقدرح من لبن فلما تناوله تهلل وجهه وكبر وقال : صدق حبيبي رسول الله إذ قال : ويح عمار تقتله الفئة الباغية ويكون آخر زاده في الدنيا شربة من لبن .

وكان أبو ذر خليل رسول الله أشدهم عذاباً بعد خليله ، إذ كان يجهر بالنقد اللاذع للخليفة الثالث الذي اجتهد في الإسراف بصلة أهله من آل أمية على حساب الأمة حتى فرغ بيت المال ، وحتى جاءه الخازن يبكي ودفع إليه

المفتاح يقول : لم يكن شيء من هذا على عهد رسول الله ولا الخليفتين من بعده ،  
فانتهرة عثمان وقال ؛ مالك أنت ؟؟ انهم اجتمعوا فقبضوا أيديهم واجتمعوا  
فبسطت يدي « ثم طرده .

من أجل هذا لم يجهر أحد من الصحابة ، على كثرتهم يومذاك ، بانكار  
ذلك على الخليفة الأموي ، ثم لم ينكر عليه أحد منهم لإيثار أهله بالحكم على  
خيار الأمة ، إلا عايأ وأبا ذر ، أما على فقد نصح الخليفة ووعظه فلم ينتصح  
ولم يتعظ ثم لم يجروا على إيداء على ، ولكنه صب سخطه على أبي ذر لردعه فلم  
يرتدع ، ومضى يقسو في نقده على الخليفة الأموي ، ومضى الخليفة يقسو  
عليه في زجره فلم ينتصف أحدهما من زميله حتى نفاه إلى الشام حيث معاوية ،  
وما أدراك ما معاوية ؟؟

قيل لأبي ذر ، وهو يدرع أزقة المدينة ليلاً ونهاراً يقرأ قوله تعالى : ان  
الذين يكنزون الذهب والفضة ثم لا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ،  
يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم ، هذا ما كنزتم  
لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون « يقرأ هذا ويجهر به حتى ضاق الخليفة الأموي  
به ذرعاً ، قيل له إذ ذاك : اتق الفتنة يا أبا ذر ، فقال : وهل في قراءة كتاب  
الله فتنة ؟؟ إنما يدعو إلى الفتنة من يؤثر الباطل على الحق .

ويقول : وهو بن يدي معاوية في الشام مشيراً إلى قصره الأخضر ... :  
إن كان هذا من مالك الخاص فأنت مسرف وإن كان من مال الله فأنت خائن «  
فقيل له : اتق السلطان يا أبا ذر فقال : إنما أتقى سلطان السماء ، ولقد حدثني  
خليلي رسول الله قائلًا : أما ذهب أو فضة أكسئ عليه فهو حجر على صاحبه  
حتى ينفقه في سبيل الله .

ولقد بايعت رسول الله على أن لا أقول إلا الحق ولو كان مرأ ، وعلى أن  
لا تأخذني في الله لومة لائم « ان بني أمية يهددونني بالقتل أو الفقر ولبطن الأرض  
أحب إلى من ظهرها ، وللفقر أحب إلى من الغنى ، ثم يقول : عجب لمن رأى  
الدنيا وتقلبها بأهلها ثم اطمأن إليها .  
وقيل له : ألا تتخذ لك ضيعة ؟ فقال : وما أصنع بأن أكون أميراً ؟؟

وإنما يكفيني كل يوم شربة ماء وفي كل جمعة قفيز من البر .  
ويقول رداً على كعب الأحبار إذ صوب الأمويين بالبذخ وكثر المال ،  
قال : ليودن صاحب هذا المال لو كان يوم القيامة عقارب تسع السويداء من  
قلبه ، فقليل له إذ ضاق معاوية ذرعاً به : اتق الله في نفسك يا أبا ذر ، فقال :  
والذي نفسي بيده لو وضعت الصمصامة على عنقي ثم ظننت أني منفذ كلمة  
سمعتها من خليلي رسول الله قبل أن تحتزوا رأسي لأنفذتها .

فشكاه معاوية إلى عثمان فكتب إليه أن يبعث به فحمله على قتب غير موطأ  
حتى تهرأ جلده . وهو صابر محتسب عند الله خشونة المركب وجعجة السه  
وطول السفر ، وكلما أمضه الألم ذكر أنه قادم على خليله رسول الله من قريب  
فاطمأن ليقينه بأن من وثق بالماء لم يظماً .

وهكذا يصيب هذا الرأي من كبدي وأنا أظماً ما أكون إلى الحياة الدنيا .  
فقد جثم الفقر على صدرى في غضون الحرب العالمية الأولى إذ كنت أعول أبوى  
بمد فقدهما . أخى الأكبر ، وكانت سنى لاتزال دون الشباب وفوق البلوغ ،  
كنت لأزال رخص العود لأقوى على مصارعة الأيام ، وكان تفكيرى لا يتعدى  
حدود صباه الباكر الغض ، فلم أكن لأطبق العمل في غير تعلم الأحداث ،  
وكنت قد أجزت الدور الابتدائى من دراستى فتدرعت إلى هذه المهنة بأحد  
زعماء النبطية . فقدمنى لمدير معارف الولاية في بيروت ، ونجحت الوسطة  
وعهدت إلى وزارة المعارف بالتدريس في قرية إقطاعى آخر من زعماء جبل  
عامل .

وعدت من بيروت راجلاً ليس لى من المال ما يحملنى ولا من الزاد  
ما يزيد على وجبة أو وجبتين أحملهما بيدي أربعاً وعشرين ساعة والجو شتاء  
والبرد قارس ، ولا أملك ما يدفع غائلة الجوع والبرد والخوف والإعياء غير  
ثقتى بالماء ، وأنى إنما أعانى ما يمضنى في سبيل أبوى اللذين هما عدنى في كل  
ما أفكر من حياة .

ويزداد هذا البلاء عندما أصبل القرية التى عهد إلى التدريس فيها ،  
فأقبلت على دار الزعيم الذى كان لا بد من الوفود عليه في بلد يدين له بكل من



صدر عنه أو ورد عليه ، فلما رآني حدثاً لا أتعدى السادسة عشرة من سني حياتي قال : ماذا تستطيع أن تعلم يا ولد وأنت لا تزال غراً جاهلاً ؟؟ فقلت لعل الذي بعث بي يجيبك عن هذا ، فقال : أخرج فلست مستعداً لقبول ولد يعلم أولادي » ثم لم يمهلي أن أتكلم وهو يغدق على من أفحش القول ما ندى له جيبني حياء .

فخرجت من داره ثم من بلده لألوى على شيء ، وكانت الشمس تغادر الأفق أشد اصفراراً من وجهي ، وأقصى كآبة مما أكابد ، ولا يغيب عن ذكري أن رجلاً في آخر القرية دعاني أن أبيت عنده وقال : أين تذهب ، والليل مقبل والسفر شاق والطريق وعر ؟؟ فقلت : إن معي ربي وإن ورائي أبوين ينتظران عودي ، ومن وثق بالماء لم يظماً .

وأغور تحت الليل المظلم في الأودية ثم أنهد إلى الروابي معتسماً لا أعرف وجهاً للسبل التي تفضي بي إلى أي محجة أو مأوى ، هائماً جائعاً ظامئاً عانياً ، يكاد ربي يعصر من قلبي آنذاك ما يصبغ الأفق حتى يزداد ظلمة وما يصبغ الأرض حتى تزيد وعورة وضلا لا ، ولكني كنت ، وأنا أشق مزارع الترمس بعملي ، وأتفادى الصخور ومصادر العراء من وحوش الفقر يقيني ألى لأضام وأنا أنشد الحق ولا أظماً وأنا واثق بالماء .

ودخلت على أبوي مصباحاً أحمل وجوه الموتى ، فلما قصصت عليهما ما كان ، وكانا قد ودعاني آملين ، قال أبي : ان لعنة السماء ستنزل به ، ثم لم يزد على أن عقب على حديثي بقوله : ان الله لن يتخلى عن عباده يا بني ، فاحفظ عني يا محمد وأنا على فراش المرض والعجز : انك لاتعثر ما دمت رافعاً رأسك للسماء تعاهد الله على أن تخدم الحق ، فائق الله يا بني قبل أي عمل تأتبه وأوصيك بالصلاة ... ثم أغمض عينيه يناجي ربه .

ويدور الزمن ، والدهر منجنون ، فاذا باللجنة من السماء تنصب على الزعيم ، وإذا هو نهب الفقر والذل بين يدي ظلم الافرنسي وغطرسته ، وإذا الصاع الذي كال به للبائس المشرّد ، يكال له مضاعفاً بيد أجنبية تهتك الحرمه وتسم العرض ، يد المستعمر الجاثم على صدره ، وإذا بعد ذلك كله يعطى الزمن قياده

البائس الذى شرده وطرده وأهانته فينشئ الأندية ، ويؤسس معاهد العلم ، ويؤلف الكتب ويصدر صحيفته « العروبة » وينفجر بالنقد المر على الزعماء دينيين ومدنيين ، حتى تقوم في أعقاب هذا النقد معاهد للعلوم تحت سماء جبل عامل في صور والنبطية وفي بيروت ودمشق ويستهدف الناقد لعذاب مرير وعدوان غادر من عتاة قومه ، فيقتل الزعيم وأولاده على البائس الشريد بالأمس ، وقد أحرق به الشباب المتحرر اليوم ، وفردوا عليه ليؤاسوه في عدوان زعيم آخر ناله من وراء نقده وتجريحه وتنبيه الناس لجهله وخبائثته .

يجلس الزعيم إليه ويواسيه بكلمات أعادت إليه ذكرى عشرين عاماً مرت على سطوة هذا الزعيم وسلطانه الجائر ، فابتسم الشاعر للزعيم وقال : سنة الله في خلقه ، يصعد الظالم ثم يهبط ، ويهبط المظلوم ثم يصعد « فأحسن أنى ألفته إلى الماضي فقال : نعم لقد كانت منا هئات نعتذر إليك عنها وهذا ابني سيكون منك مكافئ في التفكير عما فرط مني » فقلت : سامحك الله ، إن من وثق بالماء لا يظماً ولن يظماً أبداً .

سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ  
لَهُمْ أَنَّهُ (أَيُّ الْقُرْآنِ) الْحَقُّ ، أَوْ لَمْ يَكُنْ  
بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ؟؟

حدثني أبي رحمه الله أن أصحاب الإمام السجاد على بن الحسين أو الإمام  
الباقر محمد بن علي سألوه : أليس الله يقول : يا عبادي ادعوني أستجب لكم ؟؟  
قال : صدق الله العظيم بلى هو قائل ذلك ، قالوا : فما بالناس ندعوه ليلَ نهارٍ فلا  
يستجيب لنا ؟؟ قال : لأنكم تدعون من لا تعرفون ، قالوا : وكيف نعرفه ؟؟ قال :  
اعرفوا نفوسكم تعرفوه ثم ادعوه يستجب لكم ، قالوا : وكيف نعرف نفوسنا ؟؟  
قال : فكروا في أعينكم كيف تبصر ؟ وفي آذانكم كيف تسمع ؟ ثم في قلوبكم  
كيف تفكر ؟؟ فإذا عرفت ذلك شعرتم بعظمة الله في نفوسكم فدعوتموه  
فاستجاب لكم »

وينقل علماء الطب : أن المجهر الحديث كشف للعين أن تلافيف الدماغ  
تتضمن على أربعة ملايين سلك من العصب ، ويقول : لا يبعد أن تتضاعف  
هذه الأسلاك بتعزيز المجهر لأن العلم لم يقف ، في صناعة المكبرات من مجاهر  
ومراصد ، عند حد ، ففي كل جيل نرى هذه الآلات تتعزز فتأتينا بجديد  
مما لم نشعر به لولا تعزيزها .

ويقول بعض آخر من علماء التشريح في الطب : إن العلم لم يثبت فرقاً بين  
أذني السميع والأصم ، ولا بين لسان الناطق والأبكم من حيث الظاهر ، ذلك  
مما يدل على أن وراء ما تحس العين بالمجهر من عصبين المتصلين بجمهورية الأعصاب  
في الدماغ المسيطر على الحواس ، اختلالاً في عصب لم تتيهه مجاهر الطب الحديث  
ولو كان عصب التلافيف محدوداً بالملايين الأربعة التي نتيهها بالمجهر لسهل  
الوقوف على الخلل الذي ينشأ منه الصمم والبكم » على أن البعض يحقق أن في

ألمانيا مصحات لمجموعة الرأس يطمئن الطب إلى التشريح فيها ، ثم إلى تبين  
العلل القائمة في خرس الألسن وصمم الأذان .  
ومعجزة العين أن جوها الواصل بين الروح وبين مريئات الوجود ، هذا  
الجوهر هو عبارة عن شبكة من العروق الدقيقة تتصل بعصب الدماغ ثم يتصل  
بها إنسان العين المسمى بالجوؤجؤ ، وهو كرة صغيرة الحجم قائمة في حذقة لا تمسكها  
إلا محجر يفرز ماء لزجاً تندى به تلك الكرة ما دامت تعمل على التقاط الصور  
المرئية التي تنكسر عليها أشعة الشمس ، ثم نرى هذه الكرة مغلقة بغشاء شفاف  
يسمى قرنية ترسم عليها تلك الصور فهي من الجوؤجؤ بمنزلة اللوحة الحساسة  
من عدسة الفنان ، فما هي تلك الشبكة ، وما هو هذا الجوؤجؤ وما هي هذه  
القرنية ، ثم ما هو ذلك الماء الذي تفرزه عروق المحجر فتوهل القرنية لالتقاط  
هذه الصور ؟؟

ان الطب ليدھش من عظمة المواد الكيماوية التي يتركب منها ذلك الماء  
المحلق بتلك الكرة ، ويدھش أكثر لقوة هذا الماء على صقل ذلك الغلاف  
الشفاف المسمى بالقرنية . ثم يدھش الطب أكثر عندما يحار في قوة ذلك الماء  
لدى استحالته إلى دموع وقد رته على تضميد جراح القرنية إذ نحدثها عرض  
من خارج أو يقرحها تأثر من داخل ، ويكاد يكون هذا الماء أقوى علاج  
لصقل تلك اللوحة الحساسة وإعطائها مناعة لا يتوفر عليها تواطؤ الملايين من  
أطباء العالم في ملايين من عصور الإنسان ، فن أين ينبع هذا الماء ؟؟ وما هي  
المواد التي يتركب منها ؟؟ ثم من هو الطبيب المشرف على ذلك التركيب الكيماوي  
العجيب ؟؟؟

أما معجزة المعجزات في هذا الكائن الأعجب الذي نطلق عليه لفظ الإنسان ،  
وهو مجهول لدينا بكل ما يتقوم به ، ثم نزعّم تحليله وتعليله ، أما هذه المعجزة  
فهي دماغه وقلبه ، هذا القلب الذي يتولى توزيع الدم بعد تنقيته ، على كل  
خلية يتقوم بها كل عضو ، وعلى كل ذرة تتألف منها كل خلية ، ثم نرى ،  
إذ نحكم التشريح ، عجباً في الوسائل التي تنقى هذا الدم بين الكبد والقاب ،  
وتحول دون تسرب الفاسد منه إلى النزيه ، وإثكفاء النزيه إلى الفاسد .

وهذا الدماغ الجبار الذى يقوم فى تفكيره على حرارة ذلك الدم الصاعد إليه من تلك الجوارح ، والذى يتقوم بأسلاك عصبية دقيقة أكثرها لا يقع تحت مجهر العين وقد أنهاها بعض علماء التشريح إلى أربعة ملايين سلك ، كلها يعمل على التقاط الأفكار من عالم الروح كما تلتقط أسلاك الواحى «الراديو» ألقاظ المذيع من عالم الأثير؟؟

ان بين دماغ الإنسان وبين جهاز الواحى لشبهاً دقيقاً يكاد يكون عبرة لمن لم يؤت حظاً من سعة التفكير فى خلق الإنسان ، فالواحى جهاز يتقوم بأسلاك دقيقة من الصلب تلتقط الصوت مما يتصل بتيار الجاذبية العام المسمى بالكهرباء ، وهو التيار المحيط بكل جرم كونى متحرك ، والدماغ جهاز يتقوم بأسلاك دقيقة من العصب المرهف تلتقط الأفكار مما يتصل بتيار الروح المهيمن على الكون ، فكلمة دقت وانتظمت أسلاك الواحى كان أقوى على أداء رسالته التى هى التقاط الصوت. ولفظه ، وكلمة دقت وانتظمت أعصاب الدماغ كان أقوى على أداء رسالته التى هى اقتباس الفكر ولفظه ، وكما أن حرارة الكهرباء شرط أول فى أداء رسالة الواحى كذلك نجد أن حرارة الدم شرط أول فى أداء رسالة الدماغ ، وهكذا نجد الشبه جلياً بين المهيمن على الواحى وهو الإنسان وبين المهيمن على الدماغ وهو العقل .

قرأت وشيكا فى الصحف أن مرصداً فلوكياً فى شمال أمريكا بدأ منذ أيام يتلقى إشارات لاسلكية متزنة من كوكب الزهرة فى عدة مناسبات ، وقد عكف الراصدون على تبين هذه الحركات الصوتية. واكتناه جواهرها ثم قياسها على أصواتنا ..

وقرأت قبل أشهر أن بعض علماء الموسيقى يعملون على التقاط الموسيقى الكونية الناشئة عن تموجات الأثير ، لما قر فى أذهان الألباء من قادة الفكر الحديث والقديم ، من أن كل حركة طبيعية تتصل بعظمة الكون القائم على نظام أزلى ، يصدر عنها من فنون الموسيقى مالا عهد لأرباب الفنون بالتحسس منه .. والموسيقى الأثرية ليست وقفاً على السمع فقط وإنما تتجاوزها إلى العين والفكر ، فهى نظام عام يستهوى السمع بصوته والعين بشكله والفكر بإبحاثه ،

فاذا سال كان لحناً باعثاً في السمع حنينه إلى مصدره الأزلى ، وإذا جمده كان شكلاً كاشفاً للعين أن تبصر من وراء طبعها النور الذى صدرت عنه ، ثم إذا لطف شف للعقل عما يتقوم به الكون من أسرار تلهمه أن كل ذرة في الكون تقوم على الموسيقى فيما نسمع ونرى ونفكر .

ويقول أحد أساتذة العلوم الكونية في جامعة برلين ، وقد ترجم قوله هذا الدكتور أحمد زكى المصرى في مجلة الرسالة ، يقول ما مضمونه : أن عجائب ما يتقوم به الأثير المسمى بالفضاء أو الهواء ، لا تقف عند اكتشاف الكهرباء من تجاذب الاجرام السابحة فيه ، وإنما تتجاوزه إلى أعجب من ذلك وهو أن التيار الكهربائى العام يتقوم بتيار روحى يهيم عليه في صميم الأثير وهو مصدر التفكير والإلهامات ، فاذا كان التيار الكهربائى مصدر هذه العجائب التى هى بين سمعنا وبصرنا ، فمصدر أى العجائب سيكون التيار الروحى في مستقبل عقل الإنسان يوم يتحكم به كما يتحكم اليوم بتيار الكهرباء ؟؟ ثم يختم هذا وهو على تلاميذه بقوله : إذن صدقوا يا أبناءى ما يرويه لنا تاريخ الأديان من أن الأنبياء والرسل كانوا يمشون على الماء ويصعدون في الهواء »

ويقول انشتين صاحب نظرية النسبية : لا يدخل في روع من يفكر أن الفضاء لا شئ ، فلما لا ريب فيه أن هذا الخلاء ممتلئ صاب ولعله أصلب من الفولاذ » فليعجب الإنسان لعظمة القوة في نفسه التى تخترق بها هذا الفضاء الصلب عن طريق العين والفم والقلب بنظراته ونبراته وتفكيره ، وليعجب أكثر من أن صلابة هذا الأثير قائمة على ما تحتزنه في صميمه من قوة الفكر والصوت والنظر الخائرة فيه من كلى الروح المنبث في جزئيات هذا الكائن الإنسانى الذى يعمر الكون .

من هذا كله فصل إلى عظمة الآية التى قام عليها بحثنا هذا ، وأن بارئ الكون هو منزل الوحي على محمد ، وأن التصديق بهذا الوحي رهن بقوله عز من قائل : سريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه «أى القرآن» الحق » ثم أعقب ذلك بقوله : أو لم يكف بربك «الذى خلقك» أنه «بعظمة خلقه هذا » على كل شئ شهيد ؟؟؟

إِذَا كَذَبَ الْعَبْدُ تَبَاعَدَ الْمَلِكُ عَنْهُ مِثْلًا مِنْ نَتْنٍ  
مَا يَخْرُجُ مِنْ فِيهِ

مَحْذُورٌ

ويتكرر الحديث المأثور عنه في حرصه على تطهير أمته من الكذب ، فقد روى أنه سئل صلوات الله وسلامه عليه : هل يسرق المؤمن يا رسول الله ؟ قال : قد يسرق ، قيل : وهل يزني ؟ قال : قد يزني ، قيل : وهل يكذب المؤمن ؟ قال : لا... لقوله تعالى : إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله .

ويروى عنه قوله عليه السلام : يطبع المؤمن على الخصال كلها إلا الخيانة والكذب « وإذا أمعنا في تحليل الخيانة رددناها إلى الكذب لأن من حملته أمانة فتحملها ثم خانك كان كاذباً في إجابتك لتحملها ، أفليس الكذب هو مخالفة الإنسان عقيدته فيما يقول أو يفعل ؟؟ ويروى عنه صلوات الله عليه قوله : ويل للذي يكذب ليضحك القوم ، ويل له ، ويل له .

وهكذا تستطيع أن تحرر صحفاً عريضة بتشديده النكير على الكاذب وحرصه الشديد على صدق اللهجة في القول والإخلاص في العمل حتى روى عنه أن قال : لا يغرنكم طنطنة الرجل في الليل وكثرة صلاته وصيامه ، ولكن انظروا إلى صدق حديثه وأداء أمانته ، وكلا الإخلاص في العمل والأداء للأمانة يدخل في حيز الصدق ، ويروى عنه : أن ممن لا يزكيهم الله ولهم العذاب الأليم من يمن بما يتصدق والمنفق سلعته بالخلف الكاذب .

لقت أسفت على إضاعة صديق لي من التجار كان حريصاً على صلاته وصيامه وكثير من واجباته حتى عثرت على هذا الحديث وذكرت أنه كان يصارحنى بقوله : أحمد الله على أني قلما عصيت الله وأدمنت على عصيانه إلا الكذب في انفاق السلع فان التاجر لا مناص له من الخلف الكاذب لينفق سلعته .

أحببت أن أصل من هذا كله إلى ما هو أبعد من كذب التاجر أو العامل في قتل الدين وتعريض الإنسانية من وراء قتله إلى التردى في هوة الويل والثبور ،

ذلك هو الكذب فى السياسة ، السياسة التى هى عنصر أول فى بناء الإنسانية والتى فطن لأهميتها الشاعر فى جاهليته فقال :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهلهم سادوا  
فالفوضى فى الناس مهلكة ، وإنما يمتاز الإنسان عن الحيوان بكونه مدنياً فى طبعه ، وكونه مدنياً يلزمه أن يكون اجتماعياً والسياسة هى التى تفرض على الإنسان اجتماعه وتمدينه فإذا كانت السياسة هى التى تحمى الإنسانية من الفوضى وتفرض عليها الحضارة ، فالى أين تقود السياسة هذه الإنسانية إذا كان الكذب والنفاق والرياء والخدعة من مقومات السياسة فى العالم ؟؟

لقد سمعنا عن محمد أنه قال : كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته « فالرجل راع فى بيته ، والمعلم راع فى مدرسته ، والسيد راع فى قبيلته ، والملك راع فى سلطانه وهل الرعاية فى كل ذلك إلا سياسة يروض الراعى بها رعيته بالحكمة فى الهدى والتوجيه والتقويم ؟؟ فكيف يصبح الكذب مقوماً لهذه السياسة ؟؟ وإذا السائس كذب فى قوله أو عمله وهو يسوس رعيته فأين تكون هيئته من صدور هذه الرعية عندما يتضح لها أنه كاذب فى قوله الذى يعد به وفى عمله الذى يرائى فيه ؟؟

لقد أباحوا للسائس أن يعد فيخلف ، وأن يتحدث فيكذب ، وأن يقول فيدجل ، وأن يعمل فيرائى ، ثم أباحوا له أن هتك الحرمات أنى شاء وهو يملك رقاب هؤلاء الذين حملوه على عواتقهم إلى منصة الحكم وأجلسوه على مقعد التشريع ليدافع بلسانه الكاذب عن حقوقهم ، ويتولى بعقله السفیه وضميره الخائن رعاية هذه الحقوق وصونها من أن تهدر .

لقد رأيت سفهاً من العامة فى شارع الرشيد ببغداد يركب الحافلة التى أركها وهو ثمل يترنج ورائحة الخمر تنبعث من فمه ، فتحاماه كل من فى الحافلة أن يكون إلى جنبه ، وازدراه كل منهم ، وسخروا منه جميعاً ، ولكنه وهو ثمل شعر منهم بذلك فقال : ماذا تنكرون على ، هل فعلت منكراً لم يفعله الرئيس فيكم ؟؟ إنكم تزدرونى لأنى فقير لا لأنى ثمل ، وإلا فلم لاتذهبون.



إلى الملاهى الكبرى وترون الخمر على من تدار من ساستكم والمسيطرين عليكم ؟  
فأنتم لا تزددون فى شخصى السكر ولكنكم تزددون الفقر »  
فالتفت إليه وأقررتة على ما يقول ثم قلت له : انك أعقلنا فيما قلت ،

نعم لقد خبرت بنفسى فى لبنان بلد الإشعاع ، كيف يصبح السائس عندما  
تولى رعاية الناس فى مجلس الحكم أو مجلس التمثيل ، يصبح فى عالم يغير عالمه  
الأول ، فالملهى الذى يزوره لا عهد له به من قبل ، والسيارة التى تقله لم يركبها  
فى حياته الماضية ، والمآذب التى يمدّها أو يدعى لها لم يتسن له الجلوس إليها من  
قبل ، وهكذا خبرته فى كل بلد عربى يفحش فى خلواته إلى زملائه بالقول  
والفعل طوال ليلة ، حتى إذا بزّه النهار إلى مكتبه أو مكان حكمه أحدق به  
الجمهور يسألونه حقوقهم فراح يخطبهم ويمعن فى الإبراه عن أنه قطع ليله وهو  
يفكر فى أمورهم ويستعرض قضاياهم .

ورأيت رؤساء حكومات يبيعون الشركات الأجنبية فى بلادهم مصادر  
ثروة البلاد قبل أن يترأسوا ليمدوهم بالمال أيام الانتخاب فيبدلوا لهم عشرات الآلاف  
من الدنانير ليتقاضوها ملايين فيما بعد ، وتنهل هذه الأموال من رؤسائنا على  
الأفاقين من رعاى الأمة الذين يتقنون فن الهرج والمرج فى الأزقة ، فاذا  
بالرئيس العتيد يصبح رئيساً واقعياً وإذا به يبيع الأمة بما أسلف من شرائها ،  
ثم إذا به يجلس على منصة الحكم فيوقع العقوبة على السارق ليستر فقره والسكر  
أو المقامر ليغضى بؤسه .

هولاء الذين يشهدون الحارة والمأخور وهم سادة الأمة المسيطرون  
عليها باسم الحكم ، ثم الذين ينتهكون الحرمات فى خلواتهم ، يشرعون فى مجالس  
الحكم العقوبات عليها ، هولاء هم الذين يعلنون المنابر فى المحافل ويتصدرون  
المجالس فى المجتمعات فتتدفق البلاغة من جوانبهم وهم يعدون الأمة بالصدق  
فى القول والإخلاص فى العمل ، ثم إذا خلوا إلى شياطينهم قالوا انا معكم إنما  
نحن مستهزون »

هكذا يفعل الساسة فى الأمم وخاصة أمتنا العربية يكذبون ويخونون تحت  
ستار السياسة القائلة بزعمهم : ان الغاية تبرر الوسطة » وتقرهم هذه الأمة

الملعوننة على الخيانة والكذب ثم لا تؤاخذهم بهما ، وإنما تصب اللعنات على المسكين في الشعب الذي يضطره بؤسه أو فقره لأن يسكر أو يسرق ثم تذهب منها الوفود إلى هؤلاء الساسة اللصوص الخونة فيطالبونهم بسجن الفقير البائس وتأديبه .

وهكذا لا تزال نرى هذه الأمة الضالة منذ عهد معاوية بن أبى سفيان حتى اليوم تتلمس الأعذار له ولأعقابه من بعده في انتهاكهم حرمانات الله وتشريعهم للأمة الكذب والنفاق وهتك المحارم بدافع السياسة ، وأنها تبيح للحاكم من وراء اجتهاده أن يفعل مالا يسوغ فعله لغيره ، فقد رأينا معاوية رأى العين ينحرف عن الدين في أمور سجلتها أقلام الفقهاء المؤرخين من أئمة الأمة ، ورأينا أعقابه من بعده حتى اليوم يفعلون فعله ، ثم رأينا بعد ذلك من هؤلاء الأئمة الغافلين من يلتمس لهم العذر ويحجز الرضى عنهم والتماس الرحمة من الله عليهم من هنا وصلنا إلى انتشار الظلم والفساد في العالم ، ومن هنا سادت الفتنة في الصدور ، وساد الإجرام في الرؤس ، وساد الظلم في الحكم ، وسادت الفوضى في الرعايا ، وأصبح كل امرئ غير أمين على ماله ولا عرضه ولا دمه ، كل ذلك نشأ عن كذب السائس ونفاقه وريائه وخيائنه ومروقه ، فلو أخذنا بكتاب الله حيث يقول : إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله « فلا نحكم إلا الصادق ، ولو أخذنا بسنة محمد حيث يقول : كبرت خيانة أن تحدث أخاك وهو لك مصدق وأنت له كاذب » فنحجر السياسة من حكم الخائن ، أقول : لو رجعنا إلى الكتاب والسنة في اختيار الحاكم لما عمت الفتنة فينا وساد البغى علينا ولرأينا الملائكة كيف تفر من ساستنا أهبالا من نتن ما يخرج من أفواههم في المحافل وعلى أعواد المنابر .

وَاللّٰهُ اِنْ اَمَرًا يُمْكِنُ عَدُوَّهُ مِنْ نَفْسِهِ يَغْرِقُ لَحْمَهُ  
وَيَهْشِمُ عَظْمَهُ ، وَيَقْرِى جِلْدَهُ ، لِعَظِيمِ عَجْزِهِ  
ضَعِيفٌ مَا ضَمَّتْ عَلَيْهِ جَوَانِحُ صَدْرِهِ ، اَنْتَ فَكُنْ ذَاكَ اِنْ شِئْتَ ،  
اَمَّا اَنَا فَوَاللّٰهِ دُونَ اَنْ اُعْطِيَ ذَاكَ ضَرْبٌ بِالمَشْرِفِيَّةِ تَطِيرُ مِنْهُ فَرَّاشُ  
الْهَامِ ، وَتَطْيِخُ السَّوَاعِدُ وَالْاَقْدَامُ وَيَفْعَلُ اللّٰهُ بِعَدِ ذَاكَ مَا يَشَاءُ .

عَلَى

هذه كلمات تصور للقارئ النبیه شخصیة على بن أبی طالب الی ضربها  
التاریخ مثلاً فی الجرأة والإقدام یوم الأحزاب إذ بارز عمرو بن عبد ودّ ، ویوم  
خیبر إذ بارز مرحباً ، وقد تحامى أصحاب رسول الله وأنصاره الأبطال مبارزة  
کل منهما ، أقول : من هذه الكلمات فقط یشعر القارئ بعظمة أبی الحسن فی  
نفسه ، وعلو مكانته من بلاغة القول وسداد المنطق ، ثم ما یکن وراء قوله من  
همة فی حزم وقوة فی عزم واستخفاف بالحیاة فی سبیل العز .  
یا لله لهذه القوة فی المنطق ، وهذه البلاغة فی القول ، ثم لما یکن وراءهما  
من جرأة فی الإقدام ، وحرص علی الموت بین یدى سلطان الحق فی نفسه ،  
یا لله لهذا كله ینكره علیه من لم یؤت حظاً من فقه الرجال وإنصاف الحق من  
الباطل ، فقد رأیت بعض السذج من أئمة الفقه ، رأیتهم یقولون : لیس فی  
عمل علی التضحية ولا فداء لأن رسول الله قال له : لن یخلص إلیک شیء تکرهه  
منهم » فهو إذن آمن مؤمن .

عجیب قول هؤلاء وهم حفظة القرآن وفیه خطاب للرسول : الله یعصمک  
من الناس » ثم هم یقرون بأن محمداً أشجع الناس ثم لا ینکرون هذه التضحية وهذا  
الفداء علی أبی بکر إذ آمنه رسول الله فی الغار بقوله : لا تحزن إن الله معنا .. » ثم ماذا  
ینکر ابن تیمیة علی بن أبی طالب مما یخوله أن یتنکر له ؟؟ فقد رأیته یجعل

أكثر الأحاديث قيمة في على موضوعه ، بينما لا نجد يتحرى الأحاديث المرفوعة في فضل معاوية بتكذيب ولا تصديق ، وابن تيمية يكاد يكون قديساً في نظر الغالبية من جمهور المسلمين ، فكيف يبيع لنفسه تنقص الإمام على دون غيره من الخلفاء الراشدين وهو أفضلهم في نظر الغالبية من هذا الجمهور ؟؟

فقد روى أحمد بن حنبل وهو إمام ابن تيمية قال : ما ورد لأحد من الصحابة ما ورد لعلي من ثناء رسول الله عليه « وفي السيرة الحلبية عن ابن عباس ما نزل في أحد من الصحابة ما نزل في علي ، فقد نزل فيه ثلاثمائة آية » فعلى ما إذا نحمل ابن تيمية في تنكره للإمام على وجوده فضله بتكذيب جل ما روى له في أمهات السير ؟؟ أفليس في هذا ما يثبت كرهه لعلي ؟؟ وما هي منزلة كبار على عند رسول الله وهو يقول : لا يبغض علياً مؤمن ؟؟

يعتذر البعض عن مثل ابن تيمية وأضرابه من السلفيين بأن قولهم هذا في على لم ينشأ عن كره ولكنه تهوين من شأن على حذراً من الغلو فيه المؤدى إلى وضعه في منزلة الألوهية وقد كان هذا بالفعل فقد أحب قوم علياً حتى ألوهه « ما أسفه الإنسان إذا ركب رأسه وهو يسمع ويبصر ثم لا يعقل ، من يسمع ؟؟ إن شيوخنا السلفيين أرادوا أن يهونوا من شأن على خشية أن يرفعه محبوبه إلى رتبة الألوهية ، أليس هذا من الحمق ؟؟ إن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان كان أهون خلق الله على خلقه ثم نرى أناساً ألوهوه وهم حتى اليوم يعبدونه في جبال سنجار من شمال العراق ، فهل كان الخوف من تألمه باعثاً لهؤلاء الشيوخ على التهوين من شأنه ؟؟ بل نجدهم على العكس فان الغزالي وهو إمام لهؤلاء أنكر له وأوجب الرحمة عليه لاحتمال أنه تاب ، فثبت وقعة الحرة وقتل الحسين بن علي في عهده وتحت سلطانه لا يوجب اللعن عليه ولكن احتمال توبته ولو من طريق الظن يرفع اللعن عنه ويوجب الترحم عليه ، هذا هو منطق شيوخنا الذين لا يزالون منا في مكان التقديس .

محاولون أن يهونوا من شأن على بن أبي طالب وهو أول مستجيب لرسول الله في الإسلام وآخر موضح في سبيله ، خشية من أن يصبح معبوداً ، ولكنهم يحبون ونحسأون ويظاؤون رءوسهم حتى تتعفر جباههم بتراب الأرض عندما تمر بهم .

فريفة من القول تشير إلى فضل معاوية الفاجر المارق من دين محمد فيقرون له ما روى عن ابن عمر مرفوعاً إلى الرسول أنه قال لمعاوية : أنت منى وأنا منك. لتزاحمنى على باب الجنة كهاتين » يشير إلى أصبعيه ، يقرأون ذلك ويقرونه أو يسكتون عليه ، أما إذا وقفوا على حديث يشعرهم بفضل على فتراهم يتأولون ويتمحلون ، ذلك لماذا ؟؟ ليس لشيء إلا أن الله قد شاء أن يميز فينا الخبيث من الطيب ، والغريب فيما أقرأ أن صاحب السيرة الحلبية يذكر عثمان فيأتى على محاسنه ومساوئه وأما معاوية فلا يذكر له غير التحاسن حتى كأنه أول مؤمن بالله وبرسوله وآخر مؤمن ضحى في سبيله ، فليسمع من كان له أذنان ثم يحمل كاتب هذه السطور على التعصب إن شاء .

ان العبودية في الناس للناس ليست وقفاً على ما نرويه من أخبار ترفع أناساً وتحط آخرين ولكن هذه العبودية وقف على الجهل والفقر في الناس فان الذين ألخوا علياً أو غير على لا يزالون إلى الآن يؤهلون سليمان المرشد في غرب سوريا بدافع جهلهم وفقيرهم ، فمن شاء رفع هذا العار عن الإنسانية فليؤد رسالة محمد في الناس ينقذ كرامة محمد وأمة محمد من عار العبودية ، ورسالة محمد قائمة على الأخلاق والعلم ، وهذان زعمان في أن يخضع العقل البشرى للحق فقط ، فلنهدب أمتنا برسالة محمد كما نزلت ولنتقف عقولها بالصدق فيما نسنده إلى محمد من قول والإخلاص فيما نخلفه به من عمل ثم نترك الحق يفعل فعله في الأمة .

فلنعد بعد هذا الاستطراد إلى بلاغة على في صدر هذا البحث فنقول : ان المنطق في قول على هذا ليأبى على أى عبقرى يقرأه إلا أن يشعر بأن علياً يفرض عليه احترامه وإكباره وتقديسه ، إذ جمع في هذه الكلمة الموجزة مالا يحيط به سفر جامع من بطولة الرجال ، انى لأتحدى أى أديب أو شاعر يمر بهذا القول ثم لا يقف عنده ممعناً في الخضوع لاعجازه .

لقد كان في عناية الشريف الرضى بجمع أقوال الإمام أو أهم أقواله ، عناية من الله في إظهاره على المظهر الذى شاء له الله ورسواه والمؤمنون به ، فان في هذه الأقوال بين خطب وكتب ، وبين أحاديث وحكم ، أقول : ان في هذه الأقوال عصمة للتاريخ من أن يحار عليه بالتكرار للحق في شخصية الإمام

على بن أبى طالب ، فلقد أمعن الأمويون مائة سنة ، والعباسيون مائتي عام جاهدين فى طمس آثار هذه الشخصية التى لم يكن ليقوى العالم على طمسها ، وعين الحق ترعى وتهيمن .

ان مارواه أصحاب السير من صحابة وتابعين فى فضل على لا يجعله فى مصاف الخلفاء الراشدين ، ولعلهم لم يرووا له فضيلة إلا وفى سرهم لمعاوية بن أبى سفيان أمثالها ذلك مما أعمل معاوية وحزبه الضال فى صلب التاريخ من دس وتضليل ، إذ اتخذوا من أصحاب رسول الله ثلاث فئات أخضعوها لأهوائهم ، أولها ، وهى أطوع الثلاث لهم وأكثرها استجابة لدهم فى سبيل حطام الدنيا ، كانت تخلق الفضائل لمعاوية وأهله خلقاً ، والثانية وهى أكمل الفئات استجابة لهُوى النفس ، فكانت تروى للصحابة وتتناسى علياً والأئمة من صلبه ، والثالثة هى أشد الفئات جرأة على الله ، ولم تكن تتأثر بغير ما فطرت عليه من الكفر إذ كانت تفترى على الله تخلق المساوى لعل وأهل بيته .

ثلاث فئات ساعدت الأمويين على تأصيل هواهم فى صدور الأمة ، ثم بعثه فى الأجيال بدعاً سيئة يشب عليها الصغير ويهرم الكبير حتى يومنا هذا ، ولسنا فى صدد تفصيل هذا المجل فأن كتب السير مشحونة بمجهود قرنين أموى وعباسى أعمالوا دعائهم فيها على تضليل المسلمين فى الأسانيد حتى لم يستطع بعدهما محقق إثبات سند أو قطع سند ، وحتى أصبحت الرواية قلقة متزعزعة لا يطمئن الباحث الحر إلى سند واحد منها تظافت عليه الرواة .

فخذ مثلاً : مولد رسول الله ، مكانه وزمانه ، وخذ بعثه : مكانه وزمانه ، ونزول الوحي عليه : مكانه وزمانه ، وهجرته : مكانها وزمانها ، ثم موته : مكانه وزمانه ، كل ذلك مختلف فيه ، وهكذا تستطيع أن تجد هذا الخلاف بين الرواة فى كل حركة أجازها الرسول إلى حركة أخرى ، وفى كل فريضة نزلت ، وآية نسخت ، فى كل صحابى آمن ، وآخر نافق ، فى كل غزوة غزاها وسرية أنفذها ، وحكم أثبتته وآخر نفاه ، كل ذلك نشأ عن تلاعب أعداء الإسلام من أمويين نفسوا على رسول الله سلطانه ، ومن شعوبيين حقدوا على الأسلام ، ويهود ومجوس دسوا عليه وكادوا له .

أقول : لسنا في هذا السفر بصدد البحث أو التنقيب عن مصادر هذه الفتن ومواردها ، ولكن الغرض الذي نستهدف له في هذا البحث حملنا على الإشارة إلى شيء من هذه القصص التي زخر ولا يزال يزخر بها تاريخ الإسلام حتى اليوم ، فكلما الآن على الإمام على وهو الذي تضاربت فيه أقوال المسلمين على اختلاف مذاهبهم ، فالبعض غالى في تعظيمه حتى قال قائلهم فيه :  
كل من والى على المرتضى لا يخافن عظم السيئات  
حبه الأكسير لو صب على سيئات الخلق صارت حسنات  
والبعض غالى في انتقاصه حتى قال قائلهم فيه لدى قتله على يد ابن ملجم :  
يا ضربة من تقى ما أراد بها إلا ليبلغ من ذى العرش إحسانا  
انى لأذكره يوماً فأحسبه أو فى البرية عند الله ميزانا  
والبعض الآخر وقف وسطاً بين هؤلاء وهؤلاء من أهل السنة المنتصفين والشيعة المعتدلين .

ولكن هؤلاء جميعاً لم يضعوا الميزان الحق لمكانة على من الإسلام لولا « نهجه » الذى هو بن أبيدينا والذى يلقي على شخصية على بن أبى طالب ضوءاً كشافاً لا يرقى إليه الشك فى وضعه الذى اختاره له أخوه محمد منذ إسلامه ودفاعه عنه ، وأصر على هذا الاختيار حتى فارق الحياة وهو يقول : سيكون بعدى فتنة فإذا كان ذلك فالزموا على بن أبى طالب « بعد أن أعلن المسلمين فى حجة الوداع بقوله : من كنت مولاه فعلى مولاه » فكل فضل لعلى قائم ، فى تحقيقه والتثبت منه ، على ما جمعه الشريف الموصوفى من أقواله فى كتاب أسماه « نهج البلاغة » فهو الذى يحكى عنه ويأخذ منه ثم يعود إليه .

الله

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ  
سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ  
عَذَابٌ مُّهِينٌ

لا أعتقد أن « من » هنا للتبعية كما يقول النحاة ، فيكون المعنى : أن بعض الناس يشترون اللهو . وإنما هي للتكثير كما أقول أنا ، لأننا نجد اليوم سواد الناس الأعظم يشترون لهو الحديث كتابة وخطابة ، شعراً ونثراً ، ليضلوا أنفسهم أو يضلوا غيرهم ، فان تسعين من كل مائة طالب علم ، لدى الإحصاء الدقيق يبدلون صباح كل يوم ومساءه ، من المال الذي وقفه ولاية أمورهم على تثقيفهم ، جزءاً غير يسير ثمن هذا اللهو في أحاديث تنشرها الصحف الزائفة ، وهل هنالك صحيفة غير زائفة ؟؟ ، أو في كتب أمعن مؤلفوها الفكر في تضليل الشباب ، أو في ملاءة قام على مسارحها بهلوانات يبيعون هذا اللهو . ان طالب العلم اليوم ، وأقول هذا عن خبرة لأنني قطعت شطراً من حياتي معلماً ، أقول : ان طالب العلم اليوم حديثه وقدمه ، لا يدخل معهده الدراسي صباحه ومساءه إلا وهو يتأبط بعضاً من هذه الصحف أو تلك الكتب التي يبدل منشؤها ألوف الدنانير على رأس كل شهر للدجالين المضللين من أرباب الأقلام في سبيل تخريجها للشعب ، وفي صميمه أولئك الأحداث ، ثم لا تجد من ولاية الأمور المسيطرين على الأمة سياسة وثقافة من يفكر في الغاية التي كتب لها الكاتب وقرأ له القارئ .

ينقل لي المجاهد الحاج أمين الحسيني عن فترة تشريده في ألمانيا أيام الحرب العالمية الأخيرة : أن وزير الإرشاد الألماني استدعى صحافياً ضمت صحيفته حديثاً عن فنان إيطالي غير جدير بالتشهير ثم سأله الوزير : كم دقيقتك يستهلك هذا الحديث من وقت القارئ ؟؟ فقال خمس دقائق ، قال وكم نشرة تصدر صحيفتك هذه على الملاً الألماني ؟؟ قال : مليوناً وبعض المليون ، فقال الوزير :



إذن أنت تشغل مليون إنسان أو أكثر ، خمسة ملايين دقيقة من الوقت في قراءة إنسان لا قيمة له ، ثم هو إنسان غير ألماني ، أفيلغ به إيمانك بالإنسانية والقومية إلى حد شغل الملايين من أمتك ملايين من دقائق الزمن بالتأفة من الحديث ؟؟ ثم كال له الجزاء عن لهُو الناس بما يضل عن سبيل الحق »

فياليت وزير الإرشاد الألماني يزور اليوم بيروت وبغداد ودمشق والقاهرة ، وهذه أمهات المدن العربية الإسلامية ليقرأ ما تنشره أمهات الصحف تحت سماء العروبة التي أظلت نبي الإنسانية محمداً زمنناً غير قصير كان فيه طوال حياته الخطيب البارع والمتحدث البليغ والكاتب العبقري ، ثم غادر هذه الأرض إلى سمائه وقد خلف قرآناً بين أيدينا يقول : ومن الناس من يشتري لهُو الحديث ليضل عن سبيل الله ، ويقول : ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً ، وترك حديثه يقول : إن الله ليسألكم يوم القيامة حتى عن النفخ في الرماد »

رجل ألماني بعيد عن الإسلام بروحه وعقيدته ولكنه بعقله ، في صميم الإسلام ، هذا الرجل يحاسب الصحفي والكاتب في بلده البعيد عن التشريع السماوي المنزل على محمد العربي ، يحاسب الصحفي على ما يكتب أو ينشر أهو في صميم الحق فيهدى قومه ، أم هو باطل فيشركهم في ضلاله ؟؟ رجل ألماني يفعل هذا وهو بعيد عن مهبط الوحي ، ثم لا نجد في أمة محمد مهيمناً أو مسيطراً يسأل الكاتب عما يكتب والصحافي عما ينشر والخطيب عما يتحدث وفي صميم هذا اللهُو المضل جل ما يكتبون وينشرون ومخطبون ؟؟

كنت أقرأ قبل عامين وأنا في العقد الخامس من سني حياتي ، كنت أقرأ للأديب محمد التابعي في صحيفة « آخر ساعة » وقد أشرف على الستين من حياته ، مغامراته مع المغنية آمال الأطرش المعروفة بأسمهان ، وفي أوائل هذا العام قرأت للشاعر كامل الشناوي في نفس الصحيفة ، مطالعته في سيرة أبي نواس العاراية ، وقرأت للسيد إحسان عبد القدوس في صحيفته : روزاليوسف وصباح الخير ، فصولاً مكشوفة الأدب ، وقرأت للسيد مصطفى أمين في بعض مؤلفاته أشياء كأشياء عبد القدوس والشناوي ، وكل من هؤلاء قد ودع شبابه

إلى غير رجعة ثم أجازوا جميعاً دور كهولتهم مثقلين بعبء السنين الحافلة بالعبث واللهو .

كنت أقرأ ذلك كله أو بعضه ثم أفكر فأتساءل ونفسي : أأكون في هؤلاء قدوة للشباب الخالي من أعباء الحياة ، والبادئ في تلقي دروسها على السنة وأفلام هذه الفئة من قادة الفكر ؟؟ لقد كنا في عهد الشباب العارم أشد قسوة منهم على قلوب الأحداث فيما نكتب أو نخطب ولكننا لم نجز دور الصبي الغاوى إلى الكهولة حتى فطنا إلى ما يأخذنا به واجب الحياة من حكمة فيما نقول وإخلاص فيما نوجه . وأرى هؤلاء ، وأمثالهم كثيرون في القبيل الواعى ، قد أجازوا الكهولة إلى الشيخوخة وأوشكوا أن يفقدوا السوادين في الرؤس والأعين ، ثم لا يزالون في معزل عن توجيه الشباب إلى الحق ، فمن يعمد إلى بناء الأمة عن طريق اللسان والقلم إذا لم يعمد هؤلاء ؟ وهل نرى بلاد العرب أرجى للعرب من مصر ؟؟ ثم هل في قادة الشباب العربى المفكر أحرص على الشباب من قادة الفكر في مصر ؟؟ ولو لم تكن مصر قبلة العرب ، وأدباؤها قادة العرب ، وصحافتها مرآة العرب لما تمثلت مصر وأدباؤها وصحافتها بين يدي تشخيص هذا الداء القابض على نفوس الشباب العربى في محافل الوعى ومعاهد التدريس .

اللهو في الحديث أمام الواحى « الراديو » فلا نسمع خلال عشرين ساعة ، تدفع الأمة ثمنها مالا ودماء ، أكثر من ساعتين أو ثلاث في جدد من وعظ وتوجيه ، ثم يطغى عليهما خليط من اللهو الصفيق بين غناء وعزف يسفان بالروح إلى مستوى الخنوع والضعف ، من شعر أو زجل لا عهد للناظم والزاجل فهما بالفكرة والديباجة اللتين يرفعان بهما وعى السامع من حضيض الأمية إلى ذروات الشعور بكرامة الفكر الإنسانى القائم على العلم .

واللهو في الحديث أمام الصحيفة ، فلا تقرأ إلا ما سهرت على تحبيره عيون لم تبصر غير المعجون فيما يقول الناس وغير الجريمة فيما يفعلون ، فالقصاص جمل همه أن يثير غرائز الأحداث فيما يبدع ، والكاتب أهم ما يحده للكتابة فصول تكبت النفس أو تثير الفضول ، والشاعر أعلق ما يكون ، وهو ينظم ، بالتافه من الفكر والمائع من الأسلوب ، فالأمة العربية اليوم تعاني من كوارث الحياة

أقصى ما تعانيه أمة في العالم تحت وطء الزمن ، فهي في أمس الحاجات إلى كاتب أو خطيب أو شاعر أو قصاص ، يبعث فيها روح التمرد على الظلم ، والخروج على الجمود والجحود ، إذا بها تمنى بالتحايت والمجان ذوى الروح الانهزامية المائعة بمن يحترفون الأدب والفن ولا يفقهون من حدودهما إلا أنهما مثلث قائم على العبث واللهو والمجون .

واللهو في الحديث أمام الخطيب على منبر قلما يطأه قائل موجه ، فلا نسمع إلا قرقرة نجت من ورائها فكراً أكل الدهر عليه أجيالا من العفن ، أو زمزمة نلمس من ورائها غاية تعصف بعقل الناشئ فيستقبل الحياة بقلب أغلف وبصيرة هوجاء ، ذاك يزعم أنه داعية دين ثم لا يفقه من الدين إلا أنه كمامة تلجم آفم وإسار يغل اليد ، وهذا يزعم أنه داعية دنيا وهو لا يفقه من دنياه إلا أنها دار متع هو والحيوان الأعجم فيها سواء .

ذلك هو اللهو الذي يأخذ به الله ويفرض علينا الاعتصام بالعقل من أن نفكر ثم لا ينتهى بنا التفكير إلا إلى أننا خلقنا عبثاً ، فالحياة إنما كانت لنعمل فيها تحت ظل الناموس الأعظم الذي تنزل به الروح الأمين على رسل الله الذين كانوا الصلة بين عالمي الأرض والسماء ، والذين إنما بعثوا بنواميسهم ليعضدوا العقل بالعلم ، ثم ليحققوا بالعلم وحدة الكون فيصعد أهل الأرض بفضل هذا الناموس إلى العالم العلوى متى شاءوا ، وليهبط أهل ذلك العالم إلى غيره من اجرام الكون متى شاؤوا ، ذلك ما يفكر فيه قادة الفكر اليوم بفضل العلم ، ولو فكروا قليلا بصعود محمد وعيسى إلى السماء لفقهوا أن صعودهما رمز لاختلاط الاجرام وتواصلها بفضل الناموس الذي أنزل عليهم ، وليس هذا الناموس إلا رسالة الحق القائمة على العلم والعدل .

تلك هي الغاية من وجود الإنسان ، فأى قول أو عمل يصرفه عنها فهو لغو ولغو لا ينبغي للإنسان أن يأخذ منهما إلا بمقدار ما يشوقه إلى إنسانيته كما يأخذ الظائم التائه في البیداء من ماء الغدُر الآجنة ما يتبلغ به القوة التي تبلغه الهدف الذي يرمى إليه وراء البیداء ، وبعبارة أوضح : إن الإنسان لا ينبغي أن يتخذ من اللهو غاية لحياته كما نرى كثيراً من الملوك وقادة الأمم الذين يمعنون في التهالك

على سيادة العالم ليظفروا باللهو في الحياة ، وينبغي أن نأخذ من اللهو بما نفقه أنه لهو كما نقبل أحياناً على السخيف من القول أو العمل لنعلم كنه السخيف ونميزه عن الطريف .

من أجل هذا يعلم العلماء ضرورة كون الإنسان خليطاً بفطرته من الخير والشر وكونه مأموراً بالعقل يعصمه من الاسترسال في الشر وأن وجود الشرقيّة إنما هو لإيدان بسمو الخير عليه ، فلو لا الظلم لم ندرك ميزة العدل ولو لا القبح لم نشعر بروعة الجمال ، وهكذا نصعد في فقه الحياة إلى أن وجود الشر فيها ضروري لمعرفة الخير ، وبضدها تتميز الأشياء :

أذكر أني كنت في حدائتي ، وأنا أتلقي العلوم الابتدائية ، كنت منصرفاً ليلى ونهارى إلى العلم ، ولكني كنت كبقية زملائي في المدرسة ، نترقب ليالى الأعراس والأعياد لنشهد اللهو واللعب ، وكنت أرى كبار الغواة من ملحنين ومغنين يحاذرون أن يشعر بهم شيوخ البلدة وعلى رأسهم أي الذي كان موضع احترام الشيوخ والشباب ، وكان بيته مفرعاً لهم إلى الله ليالى الجمع وأيام التفرغ للعبادات في شهر رمضان وأيام العشر المحرم ، وهو الذي تسبب في بناء المسجد للعبادة ، وإشادة النادي لإقامة المآتم ولأتمار أهل البلدة فيما يعينهم من أمور دينهم ودنياهم .

كان لأبي هيبه في صدرى لم أقو معها على سؤاله عن سبب حجره اللهو واللعب على شباب القرية ولكني كنت أسمعته يقول : ما أسفه الإنسان يلعب وقد خلق ليوجد « وكان حريصاً على وعلى إخوتي من أن نشهد الملاهى ، فكنا نتسلل إليها خفية عنه ، وكان يعلم ذلك ولكنه يتجاوز بعقله السماح ويقول : ما دمتم تقومون بواجبكم في طلب العلم فسوف يحول العلم نفسه بينكم وبين سوء العقبي من لعب الناس ولهوهم »

كنا نسمع أن في القرية التي هي مولدى ومنشأى ، قصاصاً وحكايتين يقرؤن سيرة بنى هلال وعنترة العبسي ، والحصون السبع ، وألف ليلة وليلة وغير ذلك من نتائج العقول المتردية في سفاسيف العبث بالحياة ، أقول : كنا نسمع أنهم ، والفصل شتاء ، يجتمعون حول موقد عظيم في منزل كبير لهم يقص

عليهم من هذه السوالمف أحياناً ومن مختلفاته أحياناً أخرى ، فيمضى الشتاء وهم يتندرون في النهار بما يسمعون في الليل ، وكنا نحن الصبية نتحسر على شهود مجالسهم ، وما أسرع ما دهمت الإنسانية أيام الحرب العالمية الأولى ، وبدأنا نسمع ونشهد المخترعات والمكتشفات من معجزات الأثير والكهرباء وغير ذلك من عجائب العلم الحديث وكان كل أولئك السامرين طعمة للحديد والنار في الحرب ، واستمرت هذه العجائب من بدائع العقل الجبار تترى على مجموعة الإنسان في حربه وسلمه حتى وصل إلى مناجاة الكواكب ، ثم لا يزال خلائف أولئك الذين درجوا ونشأوا على سير بني هلال وبني عبس وعلى خيالات واضعى ألف ليلة وليلة ، لا يزالون إلى اليوم يتغنون بتلك الذكريات ويروون أبناءهم سر الزير إلى ليلى المهلهل وأبي زيد الهلالي .

هذا اللهو الذى استهلك أجيالا من المسلمين ثم تأتى حتى صار بفضل الفنون الغربية مسارح ومراسح ، فزاد في استهلاك أعقاب تلك الأجيال منا ، وأصبحت الملاهى تغص بالشباب شباب محمد الذى ضمن لهم المشى على الماء والصعود فى السماء بالقرآن والمسجد ، بينما نجد المساجد وقفاً على العجزة والمعنوين ثم نطلب مع ذلك رقينا من جديد ، واسترجاع ذلك المجد الذى كان وليد محمد ورسالته إلى العالم ، يوم كان العلم والدين صنوين فى تدعيم البيت الذى نأوى إليه ، والصراط الذى نرد عليه ، أقول : هذا اللهو هو الذى أبقى علينا فى الدرك الأسفل من حضيبض الهون .

ولنتحدث قليلا بعد هذا كله عن مجالس اللهو وغزاته فى عهدنا الحاضر ، وكيف يستغله ذوو النفوس المريضة من أعداء الإنسانية لأهوائهم ونزعاتهم : عندما زرت مصر فى عودتى من أمريكا إلى وطنى لبنان ، زارنى أحد مواطنى اللبنانيين ، وكان يعمل فى معاهد التمثيل ، وقال لى : ألا تحب أن تزور مكان عملى ؟؟ انك ستسر عندما ترى مصدر التمثيل السينمائى فى القاهرة ، وإلى أى مدى بلغ به النبوغ العربى ، قلت : سأفعل .

ودخلت معه المعهد فى اليوم التالى ، واسمه «ستوديو نحاس» وظل ساعة يطوف بى على الأبهاء والغرف والآلات المعدة لتكبير الأصوات والأشخاص

والأمكنة التي يتخرج عليها هواة الفن من هذا المعهد ، حتى إذا وصل ن إلى غرفة سرية حافلة بالرياش والأثاث الفخم ، قلت : ما هذه ؟؟ فقال : هذه خاصة بفلان « الممثل » نخلو إليها مع أية ممثلة أحبها من زميلاته وكنت حريصاً على الاجتماع بهذا الممثل لأسبغ عليه ما أكنه له من تقدير وإعجاب ، إذ لم أشهد له « فلماً » إلا وهو بالغ الدعوة إلى الأخلاق في توجيه الشباب ، قلت لمراقبي ، وهو أديب جابر : أحقاً تقول ؟؟ فقال : وكيف أكذب عليك ، أفتحسب أن ممثلاً أو ممثلة دخل هذه القاعة وهو يحمل صفة العامل النزيه الذي يخدم الإنسانية عن طريق الفن ؟؟ هذا الذي أقص عليك خلواته بزميلاته هو رأسهم فالى من أذهب بك بعد ؟؟

ويتحدث إلى الأستاذ فايد العمروسي عن هذا السلك قال : ان مدير الفنون للتمثيل وهو فلان ، لا يقبل أية فتاة تعرض نفسها للانخراط في ذلك السلك حتى تعطيه عهداً مخطوطاً وموقعاً بيدها أن لا ترد له طلباً ولو أفضى بها إلى أن تقف أمامه عارية من كل ما يسترها ، قال : وقد نشر ذلك بعض الصحف في معرض التشهير بسفاهة الحكم القائم على تهذيب الجيل وتنقيفه .

ولقد أدى انهيار الخلق العربي في بعض محترفي الصحافة إلى أن نخصصوا فصولاً مطولة في صحفهم اليومية والأسبوعية ، تعنى بالشؤون الداخلية من حياة اللاهيات واللاهين ممثلين وممثلات ، ومغنين ومغنيات ، فتملاً بحور هذه الصحف القائمة على مال الشعب العربي ودمه ، من توافه ما يصدر عن حياتهم وحياتهم حتى الوقوف أمام المرأة والجلوس إلى المائدة ، وهذه هي أمهات الصحف في مصر لا تزال إلى الآن تستغل ذكرى ناريمان ومارغريت في زواجهما وطلاقهما ، ثم ذكرى فاروق في مبادئه ومخازيه ، ثم طلاق شادية من عماد حمدي وزواج سامية جمال من فريد الأطرش وإشغال القراء أياماً وليالى بسفاسف ما ينشأ عن مثل هذه التوافه في الحياة .

وماذا يعنى الأمة ، وهى تن تحت وطء العبودية والاستعمار وتنوع بعبء الجهل والفقر ، من ذكرى ناريمان صادق مع فاروق ، أو ريتا هايورت مع على خان ، أو أمير موناكو مع عروسه ، أو ذاك البريطانى الشاب الحدث الذى

أحب آثار الفراعنة ، أو تلك الفتاة المتمصرة التي أحبت شاباً أمريكياً من وراء المذياع .

أقول : ماذا يعنى الأمة من مثل هذه الأحداث التي شغلت العالم العربي أكثر من شهر في أهم صحفها ؟؟ أيعنيها أكثر من أن تحيط علماً بها في سطور كخبر حدث في العالم ؟؟ انه لا شك تقليد لصحف الغرب التي أنخمها الجدد فراحوا تلهو بالمهازل ، ولكن أين الجدد من صحافتنا التي نقرأ ما همنا بها في بضعة أنهر بينما زخرت أنهرها بالجرائم واللغو والتضليل ؟؟ تكل ذلك ليلهو الشعب عمداً أو خطأ ، عن تفادى ما يحدث به من أخطار تكاد تأتي على بقية ما يتعلل به من تراث ، هذه الصحافة التي يسندون إليها السلطة الرابعة في الأمة تحترف مثل هذه المهن ، فإذا يكتب المصلح وكيف يقول ؟؟؟

ان هذه المجالس القائمة على الفسق والفجور في داخلها ، وعلى اللغو والإغراء وسوء التوجيه في خارجها تكاد تغمر النشء الحديث في العواصم العربية والمدن التي تلبها بالضخامة والرقى ، لقد تأثرنا بها الغربيين على غير بصيرة ، فان التخمة المادية التي أغفلت قلوب الغربيين عن روحانية الحياة فصرفتهم إلى اللغو واللعب ، لم ينلنا منها حتى الحز ، فعدل إنفاق الفرد شهرياً في انكناز لا مهبط عن عشرين ديناراً ، ومعدل أجر العامل في شمال أمريكا لا ينحدر إلى أقل من أربعة دنانير يومياً ، فإذا هبطت إلى المستوى الأدنى في أوروبا وأمريكا فلا تجد فيهم أثراً للعوز فضلاً عن الإحساس بالحرى أو الجوع .

أما نحن ، فالعامل عندنا في أرفع مستوى ، لا يناله من الأجر أكثر من ربع دينار يومياً ، وأما الذين يقفون بأجورهم اليومية عند الثمن أو العشر من الدينار فهم السواد الأعظم من العاملين ، والعاملون لا ينهدون إلى العشرة بالنسبة للمائة من العاطلين ، وأكاد أصيب آلق إذا قلت إن مجموع الأمة العربية البالغة مائة مليون لا يزيد متوسط حياة الفرد الشهري فيها على ربع دينار ، ومن الناس من يحبون ، وهم كثر ، حياة لا تطيقها البهائم من شطف العيش وخشونة الحياة القائمة على الجهل والفقر .

فأين لنا أن نفكر في اللغو واللعب من حياتنا هذه ؟ أيكفى مجرد وجود

عدد ضئيل لا يتجاوز واحداً في الألف ، بملك وسائل البذخ والقصف منا ،  
بينما نجد التسعاية والتسعة والتسعين قابعين في زوايا الخمول والهون ، أقول :  
أيكفي ذلك مبرراً لأن ننصرف عن تحرير هذا السواد الأعظم من ذله وفقره  
وجهله وبؤسه ، إلى نعيم وترف يكاد يستحيل إلى دموع تترقرق في محاجرهم ،  
وعرق يتصبب من جبينه ؟؟

هل اللهو والعبث والدعارة في صحافة الأمة وأدبها وفنونها ، وأنديتها  
ومحافلها ، قاصر في توفيره وضروره وجوده ، على استطاعة النزر اليسير من  
أمتنا ، بينما نرى الجمهور منها يتردى في حضيض يأكل معه التراب ؟؟ وهل  
الغربي الذي نقلده في السفاسيف مسؤل عن تردينا إذا لها واسترسل في لهوه ، وهو  
العامل المكسود ليله ونهاره مما يفرغ معه بما يكده وينصب ، إلى ساعة يفرغ لها  
ويلهو بها ؟؟ ان اللهو واللعب يكادان في الغرب يصبحان من ضروريات الحياة  
لكثرة الجهد عندهم في العلم والعمل ، أما نحن ، والعلم في بلادنا لا ينال الواحد  
من كل مائة إنسان ، والعمل يكاد يكون قاصراً على البؤس والجوع ، بينما نجد  
الأمية في الغرب أندل من اليقظة عندنا ، والعمل عندهم مضمون للفرد من المهمل  
إلى اللحد .

أقول : أما نحن فماذا نبرر تهالكنا على مجالس اللهو والدعارة ، وماذا  
نبرر صموت الحكومات القائمة على دنيانا ، وجمود الكهنوت المهيمن على ديننا ،  
نماذا نبرر عمل النشء القاصر على اللهو وهو المأمول في غدنا لكل ما نرجوه من  
حرص على تراث وسعي في سبيل حياة ؟؟

ان أثر هذا التحرر في امتحان الفتية والفتيات منا بدائع الفنون الجميلة  
من رقص وغناء وتمثيل ، أقول : ان أثر ذلك تغلغل في صدور الأحداث من  
الشعب ، من شهد هذه الفنون ومن سمعها على السواء ، فلقد نقل إلى بعض  
هواة الفن وقرأت في الصحف الغاوية أن فتيات المسارح يتلقين آلاف الرسائل  
في كل شهر من شبابنا العتيد ، وفي كل رسالة تفيض عواطفهم المرجوة لخبر  
الأمة بالتهالك على أقدام الفنانات ، وكثير من هذه الرسائل يكون مصحوباً بصور  
المرسلين الخافلة بالتخنث .



ولقد دخلت بيت صديق لى فى بغداد فرأيت على جدره صوراً بالغة العناية لآمال الأطرش المعروفة « بأسمهان » فسألته ، وهو من أسرة متفكهة فى الدين ، فقال : إن حسناً ، يعنى ابنه الشاب فى كلية بغداد الطبية ، إن حسناً من هواة صوتها الملائكى ، وإنه لا يجلس لطعام ولا لشراب إلا مستقبلاً صورتها ولا هجاً بذكرها ، وشهدت كثيراً من المجالس الخاصة بخدم فيها الجدل بين الشباب حول الممثلين والممثلات والملحنين والمغنيات ، كأنهم فى مؤتمر يعالج قضايا الأمة بينما ينقل لى فى الشام بعض التجار المتصلين بألمانيا فى عهد هتلر قال : لقد طلبت إلى عاملة فى الفندق الذى أنزله تحت سماء برلين ، أن تزور معى المتاجر لشراء بعض ما يلزم النساء لضعف لغتى ، فلبت الطلب ، ولما هبطنا إلى الشارع قالت : كن متأخراً عنى وأنت تتأثرنى ، مترين أو ثلاثة ، قلت : ولماذا؟؟ قالت : ان الفوهرر أصدر أمراً بأن لاتصحب المرأة فى الشارع غير زوجها أو أقرب الناس إليها نسباً ، فعجبت من ذلك ، وأدركت هى عجبى فقالت : فضلاً عن حمزه الأفلام المثيرة لغرائر الشباب والقائمة على الخلاعة والمجون .

ولقد علمت من الدكتور صبحى أبى غنيمه أن اللواط كان فاشياً فى ألمانيا قبيل عهد هتلر حتى أن بعض الصحف كانت تخصص فى أنهارها فصولاً للدعوة إليه والإغراء به ، فلما ولى هتلر الحكم كان يأمر بالقاء اللائط والملوط فى قعر البحر بعد أن يوضع الثقيل من الأصفاذ الحديدية فى أيديهم وأرجلهم ، وقرأت فى بعض الصحف أن روسيا منعت مسارحها من عرض الأفلام الداعرة حرصاً على عواطف النشء من الانهيار .

فالهنون الجائرة على روح الأمة ليست قاصرة على اللهو بصرفها إلى توافه الحياة ، وإنما تتعدى ذلك إلى قتل الرجولة فى الأحداث وهى تدرج إلى مضمار السباق العالمى فى استباق العز والكرامة ، ولقد أجمع قادة الفكر الاجتماعى فى أوروبا للعهد الأخير على أن السبب الذى تردت به فرنسا بين يدي حربها مع ألمانيا ، هو أن الزمن الذى قطعه هتلر فى ترويض الشباب الألمانى على الانتقام

— ١٦٠ —

لكرامته والثأر من أعدائه ، كانت فرنسا تقطعه في جو من اللهو الغامر ، وكان شبابها لاهين عن تراثهم والحرص عليه ، بمحافل يعقدونها لانتخاب ملكات الجمال .

تلك هي عقبي اللهو في الأمة المفتقرة إلى قوة تدفع الضيم عنها ، وتندفعها إلى الحضارة والنمو لتثبت وجودها في العالم ، وذلك ما أحجبت أن أعقب به على قول الله عز من قائل ، من الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله ... إلى قوله : أولئك لهم عذاب مهين .

لَا يَنْظُرُ أَحَدُكُمْ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَهُ فِي الْخَلْقِ  
أَوْ الْخُلُقِ أَوْ الْمَالِ، وَلَكِنْ لِيَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ دُونَهُ

مَحَرَّرٌ

هذا الحديث من مشبطات الهمم إذا لم يقرنه الواعظ أو الراوى بالآيات والسنن التي تأمر بحسن التخلق وبالعمل جهد الطاقة ، وتحصيله فيما يجب أن يسند إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول الداعي إلى الحق به : ليعمل أحدكم في سبيل المال حتى يكل ، وليعمل في اكتساب الخلق الفاضل حتى يستحيل إنساناً كاملاً ثم ينظر بعد ذلك إلى من هو دونه في المال والخلق وليغض عمن هو فوقه فهما إذا لم يكن في طوقه أن يكونه .

لقد كان أتى يقرأ على هذا الحديث حتى كاد يطبعني على القنوع والخنوع لأن جل همي نكاح في الحياة وأنا ناشئ أن ألحظ من هو دوني في الكسب أدباً ومادة ، وأن أغضى عمن هو فوقي بهما ، دون أن أفكر فيما يدفع بي إلى أن أتحرى الأسباب التي جعلت فوق من هو فوق فأخذ بها ، وأن أتحرى الأسباب التي جعلت دوني من هو دوني فأتحامها ، أليس من الجائز أن يكون الكسل هو الذي قعدني عمن هو فوق ، والنشاط هو الذي سما لي عمن هو دوني ؟؟ إذن فعلى من يعظ بهذا الحديث أن يفكر في عقبي ما يترتب عليه من فهم سيئ لما يرمى إليه .

أذكر ، وأنا صبي حدث ، أني كنت أعول أبوي العاجزين محترفاً أوضع المهن في نظر العامة ، فكنت أقنع بما أنتج مساء كل يوم ، وهو مالا يزيد على عشرة دراهم ، وكنت مغتبطاً بهذا القى وأنا ألحظ من هو دوني في الإنتاج ومهنته مهنتي ، ولكن زميلاً لي سألتني مرة : كم تنتج في يومك ؟؟ فقلت : نصف ريال ، فقال : أراك غير نشيط في عملك ، تعال نعمل معاً فأنت شريكى وأنا أخوك وأبواك عاجزان فعلى أن أعينك ، وشد ما كنت حي الأعصاب كبير القلب وأنا معه نجوب الشوارع ونعان بضاعتنا لانفتر لحظة عن الدعاية لها والتأني في عرضها ، وإذا بي لبضعة أيام أضيف إلى دخلي أضعاف ما كنت أنتج .

كان زميلي ، وهو يتحمل غنى كثيراً من العبء ، يقول لي : أنت رفيقي في المدرسة وأبوك معلمي فعلى أن أكون بعونك في عمل لم تخلق له ، انظر إلى فلان وفلان من زملائنا لا يبنت أحدهما ليله إلا على نصف دينار فلماذا نبنت نحن على دراهم معدودة ، إنهما ليسا بأقوى منا أعصاباً ، ولا أصبح تفكيراً ولا أشد للمال فقراً ، فلماذا يكونان أوفر منا إنتاجاً ، إنا إذن لموتى وإنهما لجديران بالحياة ؟؟ قلت له : صدقت إن الحياة قبل أن تكون عملاً واجباً وجهاداً مستمراً ، هي زحام وتنافس ، ولن يبعث في الصدر همة وحرصاً على الجهاد والكفاح سبب أوثق من المباراة في ميدان العمل والتسابق إلى الغايات المثلى في حلبة الحياة ، ان المرء ، وهو يعمل ، عليه أن يلحظ من فوقه ليعن في الكفاح ثم يلحظ من دونه ليحمد الله على أن أجازه وأرى عليه .

ان التزام في الحياة بين أهلها على إحراز أكبر قسط من القوة فيها ، مفروض على الإنسان بفطرته والدين يقره ما لم يسيء إلى العدالة بين المتزاحمين ، وإلا فما هو معنى الكلمة المأثورة لأحد أئمة المسلمين القائلة : اعلم لديك تكانك تعيش أبداً ؟؟ وما هو معنى الآية التي تأمرنا بإحراز القوة : وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة إذا كان عدونا يستعد لقوة لم نعمل لها اكتفاء بما لدينا من قوة دون قوته . ولقد ثبت أن الإنسان بروحه وبدنه ، ينمو على الرياضة ، فكلما ازداد ترويضاً لعقله على التفكير زاد علماً ، وكلما ازداد ترويضاً لجوارحه على الحركة زاد قوة ، ومناطق هذه الرياضة التزامم والتنافس في الحياة ، ولذلك نجد الرياضيين يعقوبهم إنما أحدثوا هذه المعجزات في وسائل الحياة والرياضيين بأبدانهم إنما بهروا الأعين بالرماية والصراع وحمل الأثقال ، إنما كان ذلك منه بفضل الرياضة التي لا يحمل الإنسان عليها إلا الطموح والنظر إلى من هو فوقه في إخضاع الحياة .

أذكر ، وأنا في المدرسة الأولى ، كنت غراً بما أقول وأفعل حتى كنت في كثير مما آتته موضع الهزء والسخرية من زملائي ، إذ كنت قروياً وهم مدنيون لأن المدرسة الوحيدة التي كانت تضمنا يومئذ تأسست في مدينة النبطية التي هي حاضرة جبل عامل الذي أنتمى إليه بنشأتي ، والقرية التي درجت فيها تبعد

بضعة أميال عن هذه الحاضرة فكنت أرد على المدرسة صباحاً وأغادرها مساء ، وقبل ذلك قلما كنت أزور هذه الحاضرة التي كانت ملء سمع الأحداث من لدائي إذ يذهب آباؤنا إليها ويعودون بالسلع والهدايا لأنها البلدة الوحيدة ، بين مآت القرى ، تتمتع بسوق عامرة بالتجارة والصناعة .

والمدينة دائماً مصنع النباهة لناشئتها ، ومبعث العادات القائمة على الرقي والتحضر ، أما القرية فكانت ولا تزال ، إلى السذاجة والوحشية في نشئها ، أقرب منها إلى النباهة والنشاط فهم ، لهذا كنت وأنا ابن القرية ، محط أنظار زملائي المتعلمين في مدرستهم ، يلتفون حولى ويستطلعون أمرى لأقول أو أفعل . ما يضحكهم ويغريهم بالهزء منى ، على أنى كنت حذراً جداً من أن أجعل لهم سبيلاً إلى التمدد فيما يرمون إليه ، لأنى كنت ، إلى سذاجتى ، ذكياً سريع التأثير سريع الانطباع بكل خلق يتواضعون على أنه من صميم الرقي والتقدم . ولقد كان فى المدرسة صبية غبرى هم قرويون مثلى ، وكانوا كما كنت مثار التفكه والدعاب لأبناء البلدة التى نقفنا معاً ، وكنت أشعر أنهم دونى فى الذكاء وأداء الوظيفة ، مما جعل المعلم يهتم بى دونهم ، ويتوسم فى الخير فوق ما يتوسمه فيهم ، لذلك كنت أتعلى عليهم وأوجه نظرى إلى زملائي المتعلمين فأتحسس من عاداتهم وأزيائهم فأعمل على تقليدهم ، ورأيتهم يتباهون بتفوقهم على أبناء القرى فى إحكام الدرس وحفظه وحسن أدائه بين يدي المعلم ، ثم يدلون على غرهم بدرجات الفوز فى الفحص آخر السنة ، فضيت مجارياً لهم أعمل ليلي ونهارى فى التمكن من واجباتى الدراسية ، وتفهم الدرس قبل حفظه ، ثم الادلاء به أمام الأستاذ كأحسن ما يودى الطالب درسه فلا أسمع منهم إلا الهمس ومناجاة بعضهم للبعض الآخر بقوله : انه قوى وشاطر وجلدع .

ثم لم يمر بى أكثر من بضعة أشهر حتى وجدتنى قريباً منهم محترماً فيهم ، يتبارون فى القرى إلى والتحسس منى ، وخصوصاً أبناء صفى ، إذ كانوا يتهافون على دعوتى إلى منازلهم ومبيتى عندهم ، ولكنى كنت أخشى أن أكون موضع احتقارهم بتصرفاتى إذ لا أزال قروياً بطعائى ومباذلى حين أخلو إلى نفسى وأوى إلى فراشى ، ومضيت فى جهادى حتى أنهيت عامى الأول وإذا بى أقفز

صفيين في سنة واحدة وشاع ذلك في المدينة وهالهم الأمر أن تلميذاً قروياً قد استطاع أن يجتاز صفين في عام واحد حتى زار المدرسة زعيم البلدة واسمه « فضل الفضل » ليرى هذا التلميذ ويسمعه ، وقد كنت عند ظنه الحسن .

ولقد بلغ تأثرى هؤلاء الذين كانوا فوق في المال والعلم وبالدين طبعاً لأن الدين بالمال والعلم أسمى منه بالفقر والجهل ، أقول : لقد بلغ تأثرى إياهم وتحدى لهم بعد سنتين أن أصبحت الطالب الأول في المدرسة وأصبحت وكيل المعلم إن غاب أو مرض وأصبحت مرجع زملائي جميعاً بما يستعصى عليهم من الدروس ، إذ كنت أجدهم في انتظاري خارج المدرسة صباح كل يوم ، ليسألوني ما غاب عنهم من فهم جملة علمية أو قضية حسابية ، ولم تمض سنون ثلاث حتى أجزت صفوف المدرسة الست وكنت الأول فيها .

لقد كنت في ذلك كله مديناً إلى التنافس والمباراة والحرص على أن لا أكون دون من هو فوقى ، فلم أكن لأنظر إلا إليه ، ولم أكن لأقنع بما أتحذر به عنه ، وها هم رفاقي لا يزالون في النبطية التي لا تنهد إلى عشرة آلاف من الأنفس تحترف بعضهم التجارة والبعض الآخر الصناعة أو الزراعة ، وأنا أتقلب في المدن ذات الملايين من البشر بين الغرب والشرق ولا أحترف غير الأدب الذي بعده كثير منهم مجلبة فقر وعناء ، أما أنا فقد وجدت فيه الخير والبركة وأحسبني أنفق على بيتي أضعاف ما ينفقون ولا أزال طموحاً أنظر إلى من هو فوقى في علمه وأدبه وماله ودينه وخلقه وأعمل جهدى لأكون فوقه أو مثله . وأنف أن أنظر إلى من هو دونى في كل شئ .

ذلك لأني ما وثقت بصحة هذا الحديث عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، أو لعلى ما وثقت بصحة الرواية التي أسند الراوى بها إليه حديثه هذا ، وأرى أن صحة هذا الحديث رهن بتصرف الراوى والسامع تصرفاً يحول دون جمودهما في الحياة ، فأنا مؤمن بأن هذا الحديث إنما يتوجه إلى من تجاهد قدر ما يطبق في أن يكون الإنسان الأكمل حتى إذا عجز عن أن يكونه وجب عليه ، ليخفف من آلامه ، أن يلحظ من هو دونه ويغضى عن من هو فوقه ، ذلك هو معنى الحديث إن صح ، وذلك ما يليق أن نحمل عليه قول محمد في جوامع الكلم .

## عَلَى أَشْجَعُ مِنِّي مَنْ شَرِبَ مِنِّي إِنْ أُنَاءُ مُغَطَّى

أذكر أني سمعتها من أي ومن زميل له يدعى أمين قاسم بدر الدين ، قالها أو قالها أحدهما في النادي الحسيني أيام نشأته في القرية التي نشأت على أرضها وهي « حاروف » إحدى قرى جبل عامل ، وقد كان للفئة الخاصة من أهل القرية ، أدباء وعلماء وشعراء ، مجالس تعقد لديهم وديانهم في هذا النادي لبان شبابه ، وكان الأدب والشعر يسود هذه المحافل ، وكان للنادي مكتبة تضم نفيساً من الآداب والعلوم قديمها وحديثها ، أذكر منها شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ، وديوان العراقيات ، وإنما أخص بالذكر هذين الكتابين لأنهما وحدهما كانا متداولين في المجالس تحديداً وإنشاداً .

وأذكر ، وأنا صبي إذ ذاك ، أني سمعت هذه الكلمة النبيلة منهم فأمنت . مفكراً فيما يقصد الإمام منها وكيف يكون أشجع منه من شرب من إناء لم ير الماء فيه ؟ ثم تساءلت ونفسي : إذن كل قومي الموالين للإمام أشجع منه لأن إناءهم الوحيد الذي يشربون منه جميعاً هو هذا الأبريق من الفخار الكثيف الذي لا يشف عما فيه ، وشد ما سمعنا ورأينا أناساً يشربون منه فإذا بهم يقذفون الماء فجأة من أفواههم لحشرة قدرة أو سامة تسربت إلى الأبريق وهو في مخدعه وهم غافلون عنه ، ولقد بلغني أن بعض الشاربين من هذا الأبريق نزل في جوفه فرخ ثعبان لأدري ماذا دهاه منه .

أما الخنافس والعقارب والصراصير والديدان وغيرها من حشرات الأرض فكانت في كل بيت وقفاً على مخدع التجربة والأبريق اللذين يحويان هذا الشراب العزيز من ماء القراح ، وما أندر في هذه البقعة من الأرض ، قلت لنفسي ، وكنت أجهل علم البيان ، كيف نكون أشجع من الإمام على ولا يزال العالم منذ أكثر من ألف عام يروي النوادر عن بطولته الحارقة ؟ ثم لم أسكت عن هذا التساؤل حتى أفضيت به في المجلس فضحك بعضهم ولعله أخى أو أخی ،

ثم قال : ستقرأ علم البيان فتفهم أن الإمام يعنى زجر الظالم عن أن يشرب ماء لم يره ، وأن الإقدام على شرب هذا الماء كالإقدام على الموت والإقدام على الموت ما لم يكن فى سبيل حياة غير سائغ فى عقل ولا دين ، وشجاعة الإمام قائمة على هذا فقط ، والذي يقدم على الموت دونما عقل يفكر فى الحياة هو بلا شك أشجع ولكنها شجاعة حيوان لا لإنسان »

ذلك هو مضمون ما سمعته ولما أزل فى مطلع العقد الثانى من سننى حياتى أتأدب على أبى وإخوتى ، وهذا المضمون هو ما أتخيله اليوم أنه معبر عن تفكيرهم فى إجابتى يومذاك ، لأن المجال بين هذه الفترة التى أحبر بها هذا السفر تحت سماء مصر الجديدة ، وبين تلك الفترة البدائية من حياتى تزيد على أربعين عاماً فقدت أهلى جميعاً وجل أصدقائى خلالها فلم يبق منهم من أذكر معه لحناً هذا القول .

شئت أن أدخل من هذا الحديث إلى صلب هذا الناموس الأعظم الذى تنزل به الروح الأمين على محمد والخيرة من أهله وأصحابه ، وفى صميم هذا الناموس علم التربية ، وقد مر بالقارئ فى هذا السفر شئ من تربية محمد لأمتة فى حياتهم الاجتماعية ، أما خليفته على وهو باب مدينة علمه ، فيقفنا على التربية الصحيحة فى كلمته تلك فما أعجب هذه الفئة من الناس فى هذه الفترة من الزمن على هذا الصعيد من الأرض ؟؟ نفر أميون ، فى زمن جذب قاحل من العلم والحكمة ، على أرض كانت ولم تنزل منذ تاريخ البشرية حتى اليوم أفقر بقاع الله إلى نبع الأرض وغيث السماء .

هذه الفئة تنشأ فى ذلك الزمن على تلك البقعة وفى هذه الظلمة من الحياة ، قائمة على تعاليم إنسانية يفتقر إليها العالم فى عصر النور ، وسوف تبقى هذه المجموعة التى تعمّر الأرض من بنى الإنسان مفتقرة إلى تلك الفئة فى ناموسها الأعظم الحافل بالحكمة إلى نهاية العالم ، فى هذه الكلمة الماثورة عن تلميذ محمد تربية صحيحة للإنسان فى تناوله الماء الذى هو عنصر أول فى تقويم الكائن الحى ، كم فى أسلوب هذه الجملة من بيان ؟؟ « أشجع منى من شرب من إناء مغطى » وكم فيها من ردع للإنسان عن أن يشرب ماء لا يراه ؟؟ وكم فيها من علم عريق



بكشف الجرائم وما تحمله من قتل بالإنسان لا يقدم عليه إلا من رأى الموت رأى العين وألقى بنفسه فيه ؟؟

أفلا تكون عناية المدنية الحديثة اليوم بتنزيه الماء وتنقيته من الجرائم ، وتطهيره بالمواد الكيماوية أو بتصفيته في مصانع تشاد خاصة به ، أقول : أفلا تكون هذه العناية وليدة ذلك الناموس الذى شرعه محمد وقام على تعزيزه على ؟؟ ان القرآن يجعل الماء عنصر الحياة الأول إذ يقول : وجعلنا من الماء كل شئ حى » فلم لا يكون تطهيره قوام ذلك العنصر ، ثم لماذا لا يكون على ، وهو وصى محمد ، قائماً على ذلك التطهير وداعياً له ؟؟ وهل أبلغ في الدعوة إليه من قوله : أنا على الشجاع الأول فيكم لا أجروء على شرب الماء دون أن أراه لأثبت من نزاهته وخلوه من الجرائم الفتاكة ، فن لم يفعل فعلى كان أشجع منى باقدامه على الموت والله تعالى يقول : ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة »

هكذا ينبغى أن نشرح قول على ، أقول : على وأعنى به إمام الشيعة وقديسهم الأكبر تحت سماء الرافدين ثم أرى هؤلاء الغلاة في حب الإمام عليه السلام لا يحفظون أو لا يحتفظون بكلمة جامعة من نهجه ، فلقد زرت العراق من أجل هذا الإمام العظيم وفي صميمي أن أدرس فقه محمد إلى جواره ، وكنت أعتز بما أستظهر من بلاغة الإمام ، وكانت هذه الكلمة الرائعة نصب عيني أينما كنت وحيثما حللت ، حتى وردت العراق وعممت وجهي شطر الغرى مرقد البطل على ، ويمر بي الركب على مدينة في قضاء الهندية تدعى « طويريج »

ويا لله من طويريج . . نزلنا في خان محاذ لشاطئ الفرات ، ويحين وقت الصلاة فأرد هذا الشاطئ للوضوء فاذا الشاطئ كله يكاد يستحيل قاذورة من كل ما ممجه الإنسان وهو يبول ويتغوط ، بحيث لا أرى مكاناً لقدمي بين هذه الخبائث ، ثم ألحظ على بعد أمتار نساء يحملن الجرار ويردن هذا الشاطئ ليغترفن الماء الذى يشربن منه ويتوطأن به ، تلك الصدمة التى كانت أول عامل في ثورتي على تأخر قومي وانحطاطهم في التماس الحياة .

ولقد هون على هذه المصيبة بعد ، والجرح يسكنه الذى هو آلم ، أنى وردت النجف ، ونزلت في رحاب أبى الحسن مشرع الإسلام والقائم على

تراث محمد عبقرى العالم ، فرأيت ، ويا لهول ما رأيت مما يبرأ منه على ومحمد ، رأيت شوارع النجف وأزقتها وضواحيها نسخة مكبرة عن شواطئ مدينته . « طويريج » ماذا فعلت بى تلك الرؤية ؟؟ وماذا شخنت صدرى من تردى هذه الجماعة التى يعمر بها أشرف مكان فى العالم بعد الحرمين ؟؟

ماذا يقول على لو رأى شواطئ الفرات ودجلة فى ضواحي المدن التى تكتظ بشيعته ، وهو ينهاهم عن أن يشربوا الماء ما لم يروه بأعينهم نزيهاً عن كل قذى ؟؟ وماذا يقول محمد وقد جعل النظافة عنوان الإيمان فى المسلم ، لو رأى الفقهاء من أمتة والداعين إليه مما يقولون ويفعلون يلبسون من الثياب ما يغطيه القذر حتى يأكل أجسامهم ، ويأكلون من الأطعمة ما يغمره الذباب حتى يسبقها إلى أفواههم ؟؟ ثم ماذا يقول محمد وعلى ، وقد شرعاً لنا أن نأكل الطيب ونشرب الطيب ونلبس الطيب . ماذا يقولان إذا طلعا علينا اليوم ورأيانا لا نأكل إلا الخبيث ولا نشرب إلا الأخبث :

ففى رجب هذا العام كنت ضيف الروضة النبوية فى الحرم النبوى . وكنت أجلس صباح كل يوم بعد الصلاة والزياراة إلى بعض أروفته مع ثلة من كرام الأصدقاء أذكر منهم الحاج صالح القزاز المشرف على ترميم الحرم ، والأستاذ أحمد حسين رئيس حزب شباب محمد فى القاهرة ، ثم يغشانا الشيخ ابراهيم الغلابى الدمشقى ومعه جماعة من أتباعه وهو صوفى عريق فى الافتنان بما يدعو إلى الدين والفقہ فى الرواية عن محمد .

جلس إلينا هذا الفقيه ، ونحن نشرب اللبن ، ورآنى إذ وقع ذباب على كوبى آنف من شربه ، فقال : اغمس الذباب فيه واشربه فان السنة تشرب إلى ذلك ، ثم تناول الكوب منى وغمس الذبابة فيه ثم أخرجها بعد أن سلقها جراحة اللبن وشرب الكوب كله ، وهو يقول : إنما أشربه لثلاث تقول : أمرتك بما لم أفعل . فما هو هذا الفقه ؟؟ ومن هم هؤلاء الفقهاء ؟؟ ثم من هو هذا الراوى الصادق الثبت الذى يروى لنا سنة غمس الذباب فى الشراب الساخن وشربه بعد إخراجه ؟؟ أهذا هو مثل من نظافة محمد التى سنّها لنا ؟؟ يا ليت محمداً وعلياً عاداً إلينا اليوم ورأيانا ورثتهما فى الجامع الأزهر والحرم النبوى والمسجد العلوى

كيف يحييون في أماكن مغمورة بكل ما يزهق الروح من وضر وقدر ، كيف يعيشون كالحشرات في مدن أو قري تغص شوارعها وتموج دروبها بالصبيبة الأحداث أقدر ما ترى الأعين وتشم الأنوف وتسمع الآذان ، ثم يريان شوارع باريس وبرلين ولندن ونويرك كيف تغسل بالصابون سحر كل يوم ، وكيف تغص هذه الشوارع بما لم نعهده إلا فيما يعداننا به في ظلال الفردوس ، ثم نزعم أنا لهما تبع وأنهما من القوم براء .

لقد شهدت بعيني محفلاً دينياً في أحد بيوت الفقهاء العاملين بالنجف ، وكان يتوسط الحفل في باحة المنزل ، حوض ماء ، لا تزيد دائرته عن بضعة أمتار ، ورأيت أحد هؤلاء الفقهاء يطأطيء على الحوض ويغمس فيه وجهه ثم يتمخض ويستششق بمائه بينما جلس إلى جانبه على نفس الحوض بعض آخر يغسل رجليه من وضر خذائه ، والحوض ماء غير جار وليس فيه من الماء ما يستهلك أو ضار الأرجل والخط والبصق ، ولكم كنت ثائراً على أمين الریحاني إذ كتب عن هذا الحوض في أحد مؤلفاته يبالغ في عفنه ونثنه وأنه مرجع الشيعة في تطهير أوانيهم منه والتبرك بمائه وأنه ينجس كل عشرين يوماً مرة فلا يطهر حتى ينزح ويبذل ماؤه أو يصلى عليه الشيخ .

صحيح أن في هذه التهم فرية على الشيعة ولكن بعضها كائن ، وهو قذارة الحوض ولا سيما عند شح الماء ، وغسلهم الوجوه والأيدي والاستنشاق والخمضة وتطهير الأواني للشراب والطهي بمائه وتكاد النفس تنقزز من نثر ريحه ، في هذا أوافق الریحاني ولكني أخالفه في أن ذلك مشروع وأن الحوض يطهر بعد تنجسه بصلاة الشيخ عليه وأنهم يتركون بالشرب منه وأنهم يستعملون مياهه للطهي ، وأنه من القذارة بحيث يقضى على الزائر الغريب عندما يذنو منه ، كل ذلك مبالغ فيه ويقصد الریحاني منه تشويه المذهب وتحقير الطائفة التي تدّين لله به وتستقبله على نهجه .

ومها يكن من أمر فان شيعة على بن أبي طالب لا تتأثره في جوهر ما شرع لهم من مذهب ، والنظافة هي أولى دعائم السنن التي نبههم إلى الأخذ بها وخاصة في الماء الذي يشربونه لأنه العنصر الهام في تقويم حياة الإنسان ، من أجل ذلك

أرى أن الإمام بعد أن أرسل كلمته الجامعة التي تبسطنا في تحليلها هنا ، أراه لا يرضى عن شيعة ما داموا متهاونين في الأخذ بها ولعلمهم بعيدون عنها ، ولعل أقدر ما تقع العين عليه في بلادهم هي الينابيع ومصانع المياه .

مماذا هذا ؟؟ إنه من الجهل بالعلم المفضى بالإنسان إلى الجهل في الدين ، فلو أخذنا بأن العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، لاتسعت آفاق الفكر ولما العقل بالإنسان عن أن ينحدر إلى حياة الحيوان فلا يفرق بين الدين الذي هو قول وبين الدين الذي هو عمل ثم لا يفرق بين العمل الذي هو حياة والعمل الذي هو موت ، هذا الإنسان الجاهل الذي يفهم أن كل طاهر نظيف وكل نجس قذر ثم يأبى أن يفهم أن كل نظيف طاهر وكل قذر نجس ومن ورائهم محمد يقول : النظافة من الإيمان ، وعلى يقول : أشجع منى من شرب باناء مغطى . . . .

## الله أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ؟؟

يقول لي الشيخ محسن شراره ، وكان زميلي في النجف أيام دراستنا الفقه ، وكنت أبحث وإياه علم البيان ، قال لي ، ونحن في بيروت بعد مغادرتنا العراق ، وكان رحمه الله يعانى آلام الصدر ، يقول : تعال معي إلى مختبر الطبيب أحمد سلامة وانظر بعينيك قلبي ورثتي تحت أشعة رنتجن ، وراقب بنفسك انتظام القلب في نبضه والرئتين في تنفسهما فقد أصبحت في شك من صدق الأطباء لأنهم يلحظون المادة قبل كل شيء يتصل بالإنسانية ..

ورافقته إلى المختبر وأنا أفكر : كيف أرى القلب والرئتين رأى العين ؟؟ وما هي تلك الأشعة التي تحترق الجسم الكثيف حتى يشف عما وراءه ؟؟ وكيف يمكن أن يكون في الوجود شعاع أقوى من أشعة الشمس المهيمنة على الوجود ولا تراها تحترق أبسط الأجرام الكثيفة حتى الورق ؟؟ ان الله في خلقه شؤناً ، ولا يزال حتى اليوم يجول في روعي قول مؤدبي لي وأنا في صباى : ان ما ظهر لك يا بني من أسرار الوجود يتضاءل حتى لا يبدو شيئاً بين يدي ما خفى عنك لو اطلعت على غيبه » آمنت بالله وصدق مؤدبي .

ولما دخلنا المختبر قادنا الممرض إلى غرفة الأشعة وأقبل علينا النوافذ حتى أصبحنا في ظلام دامس ، شعرت إذ ذاك برهبة مما استقبل ، وكان كل ما أرى جديداً على فلا أفقه من الحياة إلا أني حذقت علوم اللسان العربي وشيئاً من تطبيق الفقه الشرعي وأحسبني كما كنت أثلقن من أساتذتي الفقهاء أن علوم العالم هي وليدة علم آل محمد وعلم آل محمد كما يزعمون : هو هذا الذي حشرته في صدرى من كتابي قطر الندى وألفية ابن مالك في النحو ، وكتابي الشمسية والحاشية في المنطق ، وكتاب المطول للتفتازاني في البيان ، والمعالم والكفاية واللمعة في الفقه وأصوله ، أما العلوم التي تكشف لي الآن عن قلب زميلي حتى أراه بعيني كيف ينبض فهذا ليس من العلم في شيء .

وفجأة برق هذا الشعاع الخاطف مسلطاً على جسد الزميل فلم أر منه غير قلبه معلقاً في الهواء وأراه ينتفض بدقاته كالرقاص في ساعة الجدار ، يا لهول ما أرى !! قلباً فقط ومن ورائي الطبيب يضبط دقات هذا القلب على ساعة يده ، وتمر لحظات فاذا بنا نتحدث على ضوء الشمس والشيخ محسن يسألني وهو مأخوذ بما أخذت به : كيف رأيت من عجائب العلم الحديث ؟ هل رأيت غير قلبي ؟ قلت : لا والله ، وأسأل الطبيب : ما كنه هذه الأشعة ؟ وكيف تخفى بعض الجسم وتظهر بعضه ؟ قال : أنها أشعة قوية تتولد من زيت اكشفه العالم رنتجن ، فسميت باسمه ، وأن العلم سخرها لكل ما يريد من الاطلاع على مواطن الأجسام الكثيفة ، فإن شئت رؤية القلب دون بقية الجوارح كان ذلك كما رأيت ، وإن شئت رؤية الرئة أو غيرها من الأعضاء الداخلية كان لك ما شئت ، ثم إذا أردت إخفاء الجسم كله لترى ما فيه من معادن كرماسة دخلت فيه من مسدس ، أو مسمار أو دبوس دخله عن طريق الفم أو غيره ، كان لك ما أردت » .

إلى هنا أقف ثم أعود إلى الآية الكريمة في مطلع البحث : ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟ » فاللطيف يقابل الكثيف كالروح يتغلغل في البدن ولا يتأثر به للطفه ، أعني أن كيان البدن الذي هو هذا الهيكل بكل ما فيه مما ترى العين من لحم وعظم ودم وأعصاب ، تحتله الروح مغلفة في كل جزئ منه ولا يتأثر بها في خلل أو نقص أو زيادة ، وكالنور يتغلغل في الكائنات ولا تتأثر به من حيث هذا الكيان الذي تتقوم به ، فالبيت يدخله النور ويبقى بيتاً ، والحي من إنسان وحيوان ونبات يتغلغل فيه النور ويبقى إنساناً ونباتاً وحيواناً ، ولا ينفى ذلك أن يكون النور مقوماً لحياة الحي لأن الحياة لطيفة أيضاً فلا ينفى تأثيرها بالنور كون الجرم الحي لا يتأثر بالنور في كيانه .

وهكذا نصل إلى أن الهواء لطيف ويتغلغل في الاجرام الكثيفة دون أن تتأثر به في كيانها الجرمي ، فقد سمعت من بعض علماء الطبيعة أن البئر لو سدت وطلبت بالجبس ثم دهنت بالزيت لم يمنع ذلك دخول الهواء قليلاً أو كثيراً إلى غيابتها ، فاللطيف من خصائصه التحكم بالكثيف والهيمنة عليه لأنه أقوى منه ،

فالأجاء عند أهل الفكر أن الماء في جرمنا الأرضي مهيمن عليه بقوة إذ هو ألطف منه ولذا كانت الأرض محمولة على الماء ثم أن الهواء مهيمن على الماء بقوته إذ هو ألطف منه ، ولذا كان الماء محمولا على الهواء ، ثم فصل بعد ذلك إلى أن تيار الكهرباء العام هو مهيمن على الهواء لأنه ألطف منه ، ولعل من اليقين الثابت عقلا أن تيار الروح المعبر عنه بالحياة في الوجود هو المهيمن على هذه القوى المتداخلة لأنه ألطفها .

من هنا نعلم أن باري الكون المهيمن عليه هو مصدر هذا اللطف الخفي المتغلغل في الكائنات حيواناً ونباتاً ، على أن عظمة اللطيف وهو يتغلغل في الكون كلياً وجزئياً إنما هي قائمة على الخبرة والدراسة ، من أجل ذلك أردف اللطيف بالخبر ليدل على أن اللطف لا يوجب العلم في اللطيف ما لم يكن مشفوعاً بالخبرة في إدراك ما يتغلغل في كنهه ، فدخل الهواء ودخل النور في الكواثر لا يعطى النور أو الهواء علماً بكنهها حتى يكون للنور والهواء خبرة في إدراك ما كانت له من أسرار .

فامعانك في ترادف الوصفين : اللطيف والخبر .. لإثبات العلم بالخلق : ألا يعلم من خلق .. يقف بك عند الروعة والإكبار لما طويت عليه تلك الآية من بلاغة وحكمة وبيان ، فاللطيف الأول في الكون والذي هو مصدر كل لطف في القدرة على الإيغال والتغلغل في كل كائن ، والخبر الذي هو مصدر كل خبرة في إدراك ما ظهر وما خفى من أسرار ذلك الكائن ، هذا اللطيف والخبر الذي هو فوق كل خبر لطيف إذا أخلق شيئاً كان خلق بعلمه وإدراك كنهه .

ما أروع قوله : ألا يعلم من خلق ؟؟ ، أهو يخلق الخلق ثم لا يعلم خلقه ؟؟ أأنا فورد خالق السيارة ، أو سنجر خالق الخيط الأوتوماتيكي ، أو أديسون خالق المصباح الكهربائي ، أأنا أحد هؤلاء لا ينازعني أحد في أن أدري من كل أحد بما خلقت ، ثم الله ، تعالى الله ، خالق الإنسان ينازعه الإنسان نفسه في علم نفس الإنسان ؟؟ ما أعظم خالق الإنسان وهو يتنازل لإقناع الإنسان

بالبرهان ، وما أسفه الإنسان وهو يتغاضى عن عظمة خالق الإنسان وسمو حكمته فيه !!

كم يكون الواحد منا مزهواً بنفسه إذ يدرك الجمال في الحديقة وهو يتحسس من شكل الزهر فيها ولونه وعطره ، كم يأخذ الزهو إذ ذاك فيدل بنفسه على ما دونه من عوالم تتحدر عنه بالعقل والفكر ، ولكنه إذ تسائله نفسه عن سر الألوان لم تتحد في جذور النجم والشجر وفي فروع وأوراقه ، ثم تختلف هذه الألوان في الأزهار والأثمار لوناً وطعماً وعطراً ، لكنه إذ ذاك نحساً عن أن يجيب نفسه ثم يطرق معترفاً بالضعف خاضعاً لقوة الإعجاز في قوله عز من قائل : سنبهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه «القرآن» الحق : ومن عجب ما عبر بالإنسان من عبر ثم لا يعتبر : أن خالق السيارة أو الطائرة أو أية آلة حديثة يدرك مواطن الخلل فيها إذا اختلت بتحسسه من صوتها وهى تعمل ، ثم ننكر على خالق الإنسان إدراكه مواطن الخلل منه وهو يعمل ، باشرافه عليه وتحسسه منه ، كيف ؟ ولماذا نجيز لأنفسنا القدرة على اكتناه السر فيما نعمل إن كان صالحاً أو فاسداً ، وننكر هذه القدرة على خالقنا فيما عمل فتعجب لإدراكه الخلل في القلب إذا ران عليه الشر وفي العقل إذا جال فيه الخير ؟؟ هكذا نصل مما نفقه إلى أن الحكمة في الإنسان هى لإحكام العين فيما تبصر كيف تبصر ؟؟ وإحكام الأذن فيما تسمع كيف تسمع ؟؟ ثم لإحكام القلب فيما يفقه كيف يفقه ، وأن الإنسان مسئول عن هذه الحكمة فى نفسه : ان السمع والبصر والفؤاد ، كل أولئك كان عنه مسؤولاً .. ثم ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟؟؟



## مَحَرَّ تَرَبَّتْ يَمِينُكَ فِيمَ يُشَبِّهَهَا وَلَدَهَا ؟؟

قال ذلك عندما سئل عن المرأة : أتغتسل من الاحتلام ؟؟ فقال : إذا رأته ماء ، فقل أترى ماء ؟؟ فقال للسائل : تربت يمينك فم يشبهها ولدها ؟؟ منذ ثلاثين عاماً حدث نقاش عنيف بين الشيخ عارف الزين صاحب مجلة العرفان في صيداء عاصمة جبل عامل ، وبين الطبيب شريف عسيران في تفسير آية : فلينظر الإنسان مم خلق ؟؟ خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب « أذكر أن حديث النقاش يومذاك شاع في أنحاء جبل عامل لما فيه من شطط في جرأة الطبيب على الآية وأن تفسيرها كما زعم صاحب العرفان هو خرافة محضة .

سمعت أن الشيخ أجاب السائل عن الصلب والترائب بأن المنى الذي يتكون منه الإنسان أول خلقه والمعبر عنه بالماء يخرج من صلب الرجل وصدر المرأة ويلتقيان في رحمها ثم يتكون هذا المخلوق منهما معاً « ويثور الطبيب على عقيدة أن المرأة تشارك الرجل في تكوين حملها من حيث أصل المادة التي هي الماء ، وإنما تشاركه في تربية الرحم للنواة بالغذاء من دمها في الرحم ثم من حليبها في الخارج وهو الصادر عن ترائبها »

هكذا أستطيع أن أوجه رأى الطبيب وإن لم أسمعته إلا مجملاً ، والا فلا يتوجه إنكاره للماء مع وجود كلمة : الترائب « إلا إذا اعتبر الخرافة عين الآية وأعيد الطبيب من الإلحاد ، هذا توجيهي ، وأما قول بعض الذين أنكروا على الطبيب إنكاره على الشيخ فيقولون : وما الذي يمنع من الحكم عليه بالإلحاد ؟؟ فقد شهدته قبل دخوله الجامعة الأمريكية لا يقطع فرضاً من صلاة أو صوم ، ولقد شهد لي من أثق بصدقه أنه كان يتهجد ، ثم لا يشعر به إلا وقد خرج من معهد الأمريكان ينكر وجود الخالق « هذا ما دار حول ذلك النقاش يومذاك ولعله نزر يسير مما ساد ألسنة الناس بالقذف والإرجاف .

على أن الطبيب قدم على ربه ونحن في سبيل إخراج هذا السفر إلى العالم ، فكل ما نرجوه أن يكون قد ختم حياته بصلاح نفر من أسرته المعروفين بالتقوى ولكن هذا لا يحول دون التبسط في البحث حول هذه المشكلة ، لقد كان هذا الطبيب متأثراً بدعاة الغرب لا يرى ميزة لشرق على الإطلاق ، من أجل هذا كان إذا تحدث أو حضر أو كتب جعل برأيه المنطقية أو التاريخية وقفاً على الاستشهاد بأقوال الغربيين أياً كانت ، ويضع أقوال الشرقيين ، وخاصة رجال الدين الإسلامى ، موضع السخرية من حديثه أياً كانت ، ما في ذلك ريب إذ تحققت بنفسي .

أذكر ، وأنا في بغداد وفي منزل الشيخ رضا الشيبى أو منزل السيد عبد الكريم الأزرى جلسة يقيمها نادى القلم ، ولعل ذلك في السنة السادسة والأربعين بعد التسعماية والألف لميلاد المسيح ، أذكر آنذاك أن الحرب اليهودية العربية كانت قريبة الحدوث ، ودعاة العرب واليهود لها كانت تشغل العالم ، والخاصة من العرب علماء وأدباء وساسة آخذون بأسباب القطعية لليهود ، أذكر إذ ذاك أنى سمعت الدكتور شريف عسران مخاطب أحد رجال النادى بقوله : ما دخل العلم في هذه الأحداث ؟ ان العلم شيء والسياسة والدين والقومية أشياء أخرى ، هب أن العرب يقاطعون اليهود سياسياً أو اقتصادياً ، أما ثقافياً فهذا لا يقره المنطق فانا في أمس الحاجة إلى علوم اليهود .

وانتفضت إلى جانبه ثم قلت له : لقد سبق الجواب عن قولك هذا على لسان عمر بن الخطاب قبل ألف سنة ونيف عندما أمر بتنحية نصرانى له شأن في علم الحساب وكان قابضاً على ضبط المال وتصريفه من خزينة الدولة ، فقال له بعض الحاضرين من رجاله : إنا في حاجة إلى مقدرته الحسابية وليس فينا من يملأ فراغه إذا أخرجناه ، فغضب عمر وقال : لقد مات النصرانى والسلام « أفلا ترون من يقوم مقامه بعد موته ؟؟ إنكم إذ أنحسروا ثم قلت للطبيب وزميله الذى أمن على قوله : هبوا أن يهود العالم منوا بخسف حتى لم يبق منهم أحد ، أفنقدون بفقدكم وسائل العلم ؟؟

ان مقاطعتهم في الثقافة يجب أن تسبق مقاطعتهم في السياسة أو الاقتصاد

حتى نثبت للعالم ، كما أثبت أجدادنا ، أن في طوقنا أن نستقل عن العالم ثم نصبح قدوة للعالم » فنظر بعضهم إلى بعض ثم لم يزيدوا على أن تبادلوا الابتسامات التي تخفى وراءها الهزء بقول من لم يدرس في جامعتهم ولم يتلقن دروسهم على أيدي المبشرين بالإلحاد عن طريق العلم ، ولم يعلموا أني درست العلوم الحديثة قبلها درسوها ثم أضفت إليها العلوم القديمة ، واني أوغلت في أمريكا شمالها وجنوبها فدرست بحواسي كلها كل ما كشفوه وأبدعوه ، بينما هؤلاء الساخرون لم يدرسوا علوم الغرب إلا عن طريق الغيب .

ولنعد إلى نقاش الطبيب مع الشيخ في أن المرأة هل تمنى كالرجل أم أنها حاضنة لمنيه فقط ؟؟ الحق أن الآية الكريمة تحتل الأمرين معاً : فيمكن أن يكون تكوين الإنسان من مائتين أحدهما يدفق من صلب الرجل والآخر من صدر المرأة ويلتقيان في الرحم ثم يمتزجان فيتكون منهما معاً هذا الإنسان ، والتركيب الكماوى بن أيدينا يعلمنا أن كثيراً من الأشياء يتولد من تمازج كثير منها ، ويمكن أن يتكون الإنسان من نقطة الرجل كنواة أولى ثم تحضنه المرأة في رحمها فيتغذى من دمها وبعد أن تلده تغذيه من لبنها الصادر عن ترائها ، أعتقد أن العلم يقر هذا أيضاً ولا ينكر تأثير الولد بأمه عن طريق هذه الحضانة وهذا الغذاء الأولى كما يتأثر بأبيه الناشئ عنه .

ولكن تأثره بالأم عام وأما تأثره بالأب فخاص والعام لا يعطى الشبه الذى يعطيه الخاص ونعنى بالشبه العام هو الصفة المشتركة بين الإنسان والإنسان بدافع التكوين العام الذى يشترك في خلقه الله والبيئة والمجتمع ، وتتميز الفروق العامة بين الأناسى لدى الباحث في الألوان والأشكال والأحجام من سكان الأرض عامة ، فلو كانت المرأة حاضنة فقط لما أشبهها ولدها شهاً خاصاً بحيث يدل عليها ، ولكانت دلالتة عليها دلالة عامة كدلالة الزنجى أو الصينى أو الأوروبى كلاً على بيئته قبل أن يدل على أمه .

فالذى يدفع الثانى ويقر الأول هو قول النبى صلوات الله وسلامه عليه في صدر هذا البحث : تربت عيملك فم يشهها ولدها إذن ؟؟ ينكر الرسول هنا أن يكون شبه الولد أمه عن طريق الحضانة التي هي تكوين ثان أى عام للإنسان

لا تكوين أول أى خاص ، فالشبه المحسوس أو الشبه الخاص بين الوليد ووالديه لا يمكن أن يكون إلا عن طريق التكوين الأول الناشئ عن تمازج النواتين في الرحم ، وبرهان ذلك أن العلوم الحديثة لم تصل بعد إلى إمكان تربية نواة الرجل ليكون إنساناً في غير رحم المرأة .

وقد أجرى العلماء تجارب كثيرة في عصور مختلفة لإنتاج الإنسان من منى الرجل في غير رحم المرأة فأخفقت وأما في أرحام الحيوانات وأجواف الآلات التي كيفوها بمثل حرارة رحم الأنثى ورطوبته ، ومما يقوى برهان أن الوليد مزيج من المائتين : أن البيضة التي تحتوى على ماء الدجاجة التناسلي فقط ، أى لم تلقح بمنى الديكة ، هذه البيضة تفسد تحت الآلة الحديثة المولدة وتحت أمها الدجاجة عند توليدها أيضاً ، من هنا نعلم أن التوليد في حاجة إلى المائتين معاً ، فالمرأة وحدها أو مع غير الرجل لا تلد كما أن الرجل وحده أو مع غير المرأة لا يلد .  
صدق الله وصدق رسوله ويخفق كل علم يعاند الوحي وليس في العالم وحى حق يعاند العلم ، فالدين الصحيح يرافق كل علم ، كما أن العلم الصحيح يعزز كل دين .

## عَلَى إِنَّ أَعْظَمَ الْخِيَانَةِ خِيَانَةُ الْأُمَّةِ وَإِنَّ أَفْظَعَ الْغِشِّ غِشُّ الْأُمَّةِ

رحم الله أبى كان على قلة حظّه من العلوم ، فقهياً بحسن الفتوى لمن يجهلها من  
عُشْرائه في هذه القرية المتواضعة التي أنبئني تحت سماتها قرية « حاروف » ، لقد  
كان فقهياً لأنه تفقه على رسائل الفقهاء من معاصريه أمثال السيد اسماعيل البدر  
في كربلاء والسيد كاظم البزدي في النجف وكثير من فقهاء جبل عامل ، إذ كان  
بيتنا في هذه القرية منزل هؤلاء ، وكان أبى تجلسهم أيام زيارتهم قريتنا تلك .  
وكان كثير الشخوص إلى العراق ليتزود من ضريح أبى الحسن وأشباهه ما يفد به  
كربماً على الله ، وليتفقه في دينه على أيدي أولئك الأعلام من ورثة النبي وحملة  
قرآنه ، وكان إذا مرت به سنة لا تبلغه صوم شهر رمضان في النجف ، ولم  
تلبسه حداد عشر المحرم في كربلاء ، كان إذ ذاك بحسب تلك السنة عارية من  
حياته ، لا أترجم لأبى في هذه الكلمات ، ولكني أحببت أن أدل على أن فقه  
الحياة بله الدين لا يقف عند حد الإمعان في العلوم والفنون ، وإنما يتجاوز هذا  
الإمعان أو ينحدر عنه إلى الإلمام بشيء منه ، ولقد كان أبى من هؤلاء الذين  
فقهوا الدين وأدبه ملمين به دون إمعان فيه .

سألته ذات يوم ، وأنا أقرأ في سورة الفتح ، قوله تعالى مخاطب رسوله  
محمداً عليه الصلاة والسلام : انا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من  
ذنوبك وما تأخر ويهديك صراطاً مستقيماً » سألت أبى : كيف نوفق بين عصمة  
الرسول وبين هذه الآية التي تنفي بصراحة عنه العصمة ؟؟ سألته ذلك وكنت  
لما أزل في دراستي الأولى ، فقال : أنفهم إن أجبتك بما لاعهد لك به أم ترك  
هذا حتى تنضج في علومك ؟؟ فقلت : أحب أن أسمع وإن لم أفهم ، فقال :  
« ان حكيم الله على الخاصة من الناس كالأنبياء والأولياء ومن قرب منزلة  
منهم غير حكمه على العامة منا نحن أميين أو شبه أميين ، فذنب العالم على قدره  
وذنب الجاهل على قدره ، فقد يكون المكروه من الخاصة محرماً عليهم كما قد

يكون المحرم في العامة مكروهاً منهم ، وأضرب لك مثلاً قريباً من فهمك :  
أنا نرى مكروهاً من الشخص العادي أن يقول وهو واقف أليس كذلك ؟ فقلت  
بلى ، قال فاذا فعل الشيخ عبد الحسين صادق أو السيد مهدي ابراهيم ذلك  
أليكون مكروهاً منهم أم تراه محرماً عليهم ؟؟

وهذان الشيخ والسيد من الفقهاء المجاورين لبلدتنا ، وقد كانا محل التبجيل  
والإكبار منا ، فقلت : أعوذ بالله أيمكن أن يقولوا واقفين ؟؟ وإلا فلا يصح لنا  
أن نتخذهما إمامين في الصلاة فضحك ثم قال : وهكذا نصعد إلى الرسل والأولياء ،  
فإن الله يعتبر المكروه منهم ذنباً يستحق عفو وغفرانه ، فقد يكون رسولنا  
الأعظم قد ظن أن الفتح أى فتح مكة غير قريب وأنه كائن بعد عام أو عامين ،  
فكان ظنه هذا غير حسن بالحق الذى يدعو له ، وهو مكروه بالنسبة إلينا  
ولكنه بالنسبة إلى الرسول الأعظم لثم يفتقر إلى عفو تعالى فعبر عنه بقوله عز  
من قائل : ليغفر لك الله ، وهكذا ينبغي أن نتأول كل ما يشتبه ويستعصى علينا  
فهو من كتاب الله لنوفق بين العصمة في الرسل ، وإلا كنا وإياهم في صعيد واحد  
وهذا باطل ، أفهمت ؟؟

لقد وفر على أى كثيراً من جهد التفكير في مستقبل حياتي وأنا أدرس القرآن  
وأرى نسبة الاثم لكل نبي قبل محمد ، فكنت كلما مرت بى شبهة من ذلك  
رجعت بالذكرى إلى قول أى فاطمأن بى الحكم على أنها موثولة وأن الرسل لا ينبغي  
أن يشاركونا فى الاثم ، وإلا لقلت الثقة فيما يشرعون لنا من دين ولصح فيهم  
قول الملاحدة من أنهم أناس حاولوا السلطة والتسوا بالسيادة فى الناس عن طريق  
الدين ، أفليسوا بشرأ مثلنا مخطئون ويصيبون ؟؟

وأرى أن هذا التأويل يوفر كثيراً من العنت على طائفة من المسلمين يقصرون  
عصمة الرسل على الوحى فقط وأنهم فيما عدا ذلك بشر مثلنا يجوز عليهم الخطأ ،  
ويستشهدون لذلك بأن النبى كان فى كثير من المواطن يرى رأياً فينكره بعض  
الصحابه عليه فيجيب بقوله : أنتم أعلم بأمور دنياكم ، مما يدل على أن العصمة  
فى الدين لا فى الدنيا ، وهذا هو عين الخطأ فى الفكر لأن الدنيا ليست خارجة  
عن نطاق الدين ، وكان الأولى بهؤلاء أن يجعلوا هذا الحديث وأشباهه فى عداد

الموضوعات ويرجعوا إلى الحكم بعصمة النبي في كل ما يقول ويفعل لأن قوله وفعله تشريع ، وإلا فما معنى شق صدره وتطهير قلبه ؟؟ ألتقبل الوحي فقط ؟؟ أم لتنزيهه عن كل لائم ؟؟

على أنى بعد أن نضجت في تفكيري أعود إلى سيرة أنى في هذا فأتساءل ونفسي : إذا اعتبرنا أن المكروه من العامة هو محرم على الخاصة فلم نحكم على الخاصة بالعصمة إذن وقد اقترفوه وهو محرم عليهم وإن كان مكروهاً منا ؟؟ أليس الله قد عبر عنه بأنه لائم ؟؟ إذن فهو لائم وفاعله غير معصوم ، إلا أن يقال : إن العصمة إنما تثبت لهم في منطوق الناموس العام الذي هو الدين وهو قانون كلي ، وأما التأويل فهو استثناء ينال الجزئ منه ، ولعله من قبيل الشاذ في المنطق ، والشاذ لا يقاس عليه .

فلنعد الآن إلى صلب الموضوع بعد هذا الاستطراد ، الذي يستلزمه قول الإمام : إن أعظم الخيانة خيانة الأمة ، وأن أفظع الغش غش الأئمة « لقد صدق إمام البلاء سلام الله عليه فإن الخيانة عظيمة ولكنها من الخاصة التي تهيمن على الأمة أعظم ، وأن الغش فظيع ولكنه من الإمام المقتدى به أشد فظاعة لأن السواد الأعظم من الخلق يشخص في قوله وعمله إلى هذا الصنف من الناس وليس عبثاً قولهم السائد : الناس على دين ملوكهم » .

مررت بمصر لدى عودى من أمريكا في حدود العام الثاني والثلاثين بعد التسعماية والألف من تاريخ الميلاد ، وكانت مصر تموج بالهتاف لسعد زغلول الزعيم الوطنى ، وكان ذكره مدوياً على كل لسان وفي كل مكان فكان ذلك ، مضافاً إلى ما سمعت ، باعثاً في نفسى له التجلة والإكبار ، وشئت أن أراه وأصررت على ذلك ، ثم فوجئت بأنه كان لا يأكل الطعام قبل أن يقدم له شراب الخمر وأن صفة خيمبر لا تكاد تصدق على غيره وعلى غير زميله الشيخ عبد العزيز البشرى الأديب المعروف ، ولما تحققت ذلك تضاءلت مكانته من نفسى ورغبت عن الاجتماع إليه وأصبح في نظرى واحداً من الناس وإلا لكان محل التبعة في خيانة الأمة .

ويقول لى الأستاذ موسى كاظم حاكم لواء العمارة في العراق : لقد تحدث

إلى "رجل ما ملء سمعى أدباً وعلماً حتى أكبرته ورأيت أنه من خيرة من نفتدى بهم في غمرة هذا الفساد ، وصممت على نصرته وتعزيز ما يدعو إليه من هدى ، ولكنى إذ بلوته علمت أنه لا يصلى وأنه يرى الصلاة إضاعة للوقت فسقط من عيني كأن لم يكن ذلك الذى تحدث إلى من قبل فلأ صدري بجلا وهيبة ، ثم قال : وأما أنت فقد كنت في نظري من عامة الناس إذ علمت أنك مررت بالناصرية وأنا حاكمها فلم تتصل بي وأنا المسئول وأنت تزعم أنك أديب والاديب حريص على التحسس من كل من يتحمل تبعة الإصلاح في الشعب ، ولكنى إذ سمعت من مضيفك هنا أنك حريص على الصلاة أكبرتك وأحببت أن أراك »

سقت هذين المثلين لا لأبرهن على أن من لوازم القيادة في الأمة أو الهيمنة عليها أن يكون القائد المهيم مصلياً أو بعيداً عن الحمرة ، ولكن لأشير إلى أن الأمة عندما يتضمن دستورها الاجتماعى وناموسها الروحى حجر شئ وإباحة آخر كان على سائسها والحاكم الأول فيها الخضوع لناموسها والعمل بدستورها قبل كل فرد منها وإلا كان خائناً وكان عليه أن يتحمل تبعة هذه الخيانة في كل من يقتدى به منها ، فالشعب العربى والأمة الإسلامية لناموس لها غير الإسلام ولا دستور لها غير القرآن فأى رجل سادها كان عليه أن يمعن في تطبيق هذا القانون على نفسه قبل أمته ليكون فيها المثل الأعلى الذى تشخص إليه أبصارهم وتهوى عليه أفئدتهم .

لذلك قر في نفوس المسلمين أن الخير في الأمة لا يصدر إلا عن خيرها والشر لا يصدر إلا عن شرها ، كما قر في نفوسهم أن انحذارهم وانهايار عزهم إنما نشأ عن المثل السئ في قادتهم منذ تسامحوا في تطبيق الناموس الأعظم الذى هو القرآن ، على نفوسهم ومنذ سنوا هذا التسامح ارباعياهم فسادت الخيانة فيهم حتى قعدوا وحتى فقدوا مقومات هذا التراث الذى عزوا به وضمن لهم سيادة العالم .

ان الغربى لا يتأثر قائده والمسيطر عليه بأخلاقه لأن المفروض في القائد أن يتسم بطابع القانون والقانون عندهم هو هذا الذى يتحلل من كل ما نسميه أخلاقاً أو ديناً ، والمادة التى وفرها له العلم والنصب في سبيل الحياة أمسكت عليه ديناه بمقدار ما أمسكت علينا ديانا أيام تحللنا في ديننا وأخذنا من العلم بالنصيب الأوفى



تحت السلطان العباسي أو الأموي من قبله ثم أعقب ذلك فينا هذا الانهيار الذي لا نزال نعاني هوله إلى يومنا الحاضر وسيستمر بنا جارفاً إلى يوم القيامة ما لم نتلاف الأسباب التي رزحنا بها تحت وطئه .

أما الشرقي وأعني به العربي خاصة أو المسلم على عموميه فيحيا حياتين مادية وروحية بخلاف الغربي القاصر على الأولى، وفي كلتا حياتي المسلم يفتقر إلى الدين لأنه يضمن الحياتين لمعتنقيه معاً ، وربط إحداهما بالأخرى بحيث لا يستقيم حياً كاملاً إلا بهما معاً كما لا يستقيم الإنسان كامل الحياة إلا بروحه وجسده فإذا انسلخا بعضاً عن بعض فقد الحياة وخرج عن كونه إنساناً ، هذا هو المفروض في المسلم ، أما غيره فليس له من تراثه ناموس يشرع له الحياة مادة وروحاً كناموس الإسلام .

فاذا كان دستور المسلم ينص على أن دينه الرئيسي الإسلام كانت رسالة محمد سيد المسلمين أمانة في عنقه وكان عليه أن يؤديها على أتم وجه في قوله وعمله لأنه إمام الأمة وقدوة الشعب فعليه وحده تقع تبعة الإخلال بالنظام من سواد الأمة إذ هو حامى دستورها والداعى إلى الاعتصام به فاذا خان هذه الأمانة كان المسؤول الأول ، وإذا غش في أدائها كان المجرم الأول لأنه الأول في شعبه والرأس من أمته .

فشرب السيد الخمر ولعبه الميسر وأكله السحت وتركه الصلاة أو الصوم أو الحج ، وتعمده الكذب أو الغش أو الخديعة ، ونبذه الصراحة والصدق والإخلاص في القول والعمل ، كل أولئك جزئيات قد لا يضر بعضها فاعله وإنما هي في مجموعها كيان هام يتألف منه كلى عام يصمد معه الحكم القائم عليه إلى أجل ثم يطيح به وبسلطان أمته آخر الدهر ، من أجل هذا كانت الخيانة في الرئيس أعظم وكان الغش فيه أفظع ، لأن خيانة الفرد وغشه محدودان ولكن خيانة الرئيس أو الإمام أو القائد لا حد لها إلا في حدود الأمة جمعاء .

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا  
أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ، أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ  
وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ » .

الله

لقد كان أمين الریحانی الأديب العربی المعروف فی طليعة هؤلاء الذين  
يسفهون الناس ، وأعني بالناس ما عناهم القرآن فی هذه الآية وهم المؤمنون ،  
فالناس والأناس والأناسی والإنسان والأناسين ، كلها ألفاظ تعبر عن الإنسانية  
أو تشير إليها ، ويأبى العقل أن ينسب غير الإيمان لمن يتصف بها ، ولذلك  
يحجبون صفة الإنسانية عن عقها من أبنائها فيقولون للمجرم أو للجاهل ليس  
بإنسان وإنما هو حيوان أو جناد .

فالاستاذ الریحانی كان كثير الاستهزاء والاستخفاف بهذا الصنف من الناس ،  
وكان يدعو للعروبة والتحليل من الدين ، ففي الكثير من مؤلفاته كثير من هذا  
التحليل الذي يسميه أحياناً تحراً ويعزو إليه حرية الرأي وحرية الفكر والتجديد  
وما اشبه ذلك من مصطلحات هذه الفئة التي بليت بها العروبة قبل أن يبلى  
بها الإسلام .

أذكر أني قرأت له فی آخر كتبه عن العالم العربی وهو ما يختص بالمغرب  
الأقصى ، ولعلی لا أخطئ هذا الحدس ، قرأت له ما مضمونه : إنك لتصغى  
إلى البعض من أهل العلم وهو يتحدث إليك فتتملاً أذنيك حكيمته حتى إذا خلط  
حديثه بالدين سمعته يخبط ويهذى حتى تحسب السفه وقفاً على عقله « ويوسفني  
أن أقرأ هذا له بعد موته فلا يسمع ما أرد به كما سمع من قبل ردودي عليه  
في انحرافه عن الإخلاص للتاريخ وهو يحرك كتبه الأولى « ملوك العرب » وكلماته  
في بعض الصحف الأمريكية بلغة السكسون عن العادات الغربية في الشرق .  
كنت إذ ذاك أرد في صحف لبنان لیسمع وكان يسمع ويقرأ وأحياناً  
أجتمع إليه فيتعذر ويمعن في الإبراه عن نيته الحسنة ويعلم بأنه سيبيض ما سوده

في الطبقات التالية لكتبه ، ولكنه مع الأسف لم يبيض وبقيت كتبه سوداء في كثير مما لفته إليه ، ومن شاء فليقرأ أعداد جريدة لسان الحال في بيروت ومجلة العرفان في صيداء لسنتي ٢٦ و ٣٢ على ما أذكر ، أقول كنت أردّه ليسمع أما اليوم فأردّه ليسمع التاريخ :

ينسب السيد الرحمانى من يعتنق الدين ويدافع عنه إلى السفه والهذيان ، وأن العلم شئ والدين شئ آخر ، فإذا يقول فى الحكيم ابن رشد الذى قطع حياته وهو يبنى فلسفته على الصلة الوثيقة بين الدين والفلسفة وهو الوحيد الذى سفه الغزالى فى كتابه « تهافت الفلاسفة » إذ زعم هذا بعد الفلسفة عن الدين ثم ألف ابن رشد كتاباً يرد به الغزالى وأسماه تهافت « التهافت » .

وما قول السيد الرحمانى فى الرئيس ابن سينا وهو يقول فى مقدمة أحد كتبه ولعله القانون وقد قرأتها بنفسى ، يقول فيها ما مضمونه : كنت إذا اعترضنى فما أدرس مشكل علمى واستعصى على حلّه ، أعتكف للصلاة والبصوم فما أغادر المسجد إلا وقد ألهمنى ربي حل ما أشكل على .

وما قول السيد الرحمانى فى العلامة جابر بن حيان الرياضى المشهور ، والذى ينسب إلى اسمه علم الجبر والذى لا تزال كتبه إلى جانب مؤلفات ابن رشد والرازى وابن سينا تدرس فى جامعات الغرب ، ؟ ولقد سمعت من الدكتور يحيى الهاشمى الحلبي ، وهو يحمل شهادته العلمية من برلين ، قال لى ونحن على شاطئ بردى فى دمشق : إن علماء الألمان يحارون كثيراً فى أمر هذا الرجل « جابر » الذى لا يزال كثير من آرائه رموزاً لا يقدرّون على حلها .

ثم يزيد فى حبرتهم أنهم لم يقفوا على أستاذ درس عليه غير جعفر بن محمد الصادق ، وهذا لم يأخذ العلم إلا عن آبائه وبطريق الوحي والإلهام ، إذ رأوا جابراً يقول عند كل قضية يدعمها ببرهان يقول : قال سيدى جعفر ... حتى تركتهم يعقدون المؤتمرات للبحث فى أن العلم الأولى مصدره الإلهام والإلهام الحق لا يصدر إلا عن الأديان .

ما قول صاحبنا الرحمانى فى اعتصام هذه الفئة بالدين منذ ألف عام ولا تزال محل الثقة عند علماء الغرب حتى اليوم ؟؟ أكانوا يهذون ويخطون إذ يبحثون الدين ؟؟

أو كانوا سفهاء في حكمهم وعلومهم التي لا تزال مناراً للعلم حتى اليوم ، أكانوا سفهاء في تدبيرهم واستلهاهم ما أبدعوه من علوم وفنون عن طريق الأخذ بالدين والاعتصام بناموسه ؟؟

وهذا جبران خليل جبران الذي لم يصل إلى حد العبقرية إلا من وراء كتابه « النبي » الذي ترجم إلى أربعين لغة ، وقد قرأته فلم أجده فيه جملة إلا مقتبسة عن الإنجيل والتوراة والفرقان . كتب الأنبياء ومصادر الوحي والتنزيل ولذلك أسماه « بالنبي » كما صرح بذلك مراراً لا أنه ادعى النبوة كما يزعم الذين واروا جنته وكتبوا على قبره « النبي جبران » افتراء عليه .

ثم ما قول السيد الريحاني في كتاب نهج البلاغة الذي كان هو نفسه يقدسه ، والذي كان صاحبه الإمام على موضع تقديس الريحاني عندما جاء على ذكره ، وما قوله في العلوم التي انبثقت من جزيرة العرب بفضل محمد حتى أنارت العالم وكانت هذه البدائع وليدة انبثاقه ، والدين الذي يسخر منه كان الطابع الأول لمحمد وخلفائه من بعده ، أكان هؤلاء سفهاء فيما بنوا وجددوا ولا يزال من يتأثرهم يبنو ويجدد باسم محمد ودين محمد وعلوم وفنون محمد وأهل محمد ؟؟ أكان أولئك هاذين بدينهم مخلطين في الدفاع عنه والدعوة إليه ؟؟

فلنعد إلى كلمة « الناس » هنا وروعة استعمالها في لحن القول : ينقل التاريخ في الأدب العربي : ان عائشة بنت طلحة زوجة الأمير المصعب بن الزبير كانت أجمل نساء عصرها وأكثرهن تديناً ، وكانت تحرص على أن لا يفوتها فرض صلاة في المسجد حتى صلاة العشاء ، وكان المصعب يغار عليها في مثل هذا الوقت فيمنع في إقناعها أن لا تذهب وتأبى أن تجيبه إلى طلبه ، وقد كانت مطبوعة على العناد وقاسية في معاشرته الزوج أبية على كل طاعة ، وذلك ما كان يعزز حبها في نفسه .

فعند ذات عشية إلى تأثرها خفية وهي تذهب للصلاة وكان الجو مظلماً ثم خالفها الطريق وكن لها في أحد المنعطفات ، فلما أجازته ولم تره نغمزها بيده في كفها وعاد إلى كمينه فرجعت من حيث أتت ، فكان هو أسبق منها إلى المنزل عن طريق آخر وفي عشية اليوم التالى قعدت عن الذهاب إلى الصلاة في المسجد فسألها السبب

فقلت : كنا نذهب إذ الناس ناس ... فليتأمل من أوتي حظاً من بيان العرب  
روعة هذا الجواب ثم ليعد إلى فرقان محمد وقوله في صدر هذا البحث : وإذا  
قيل لهم آمنوا كما آمن الناس ... قالوا : أنؤمن كما آمن السفهاء؟؟  
فالله ، تعالى الله ، يعتبر محمداً وأصحابه الذين عرفوا الحق فآمنوا به  
أناساً ، وأما المنافقون إذ ذاك فاعتبروهم سفهاء ، وهكذا لا يزال حتى يومنا هذا  
منافقون يصممون المؤمنين بالسفه لأنهم آمنوا بمحمد وبدين محمد ... ألا انهم هم  
السفهاء ولكن لا يعلمون . فقد نفى عنهم العلم لأن العلم إذا صح في الإنسان هداه  
وكان ثالث ثلاثة لا يتصل بحقيقة الكون ووحدانية الوجود غيرهم بشهادة الفرقان  
إذ يقول : شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم « فأدرك وحدانيته  
لأدرك سر الوجود وهو عين الإيمان بالحق في الكون .

وَيُحِ عَمَّارٌ تَقْتُلُهُ الْفِئَةُ الْبَاغِيَّةُ .. الْحَقُّ مَعَ عَمَّارٍ  
مَا لَمْ تَغْلِبْ عَلَيْهِ دَهْلَةُ الْكَبِيرِ ..

محمّد

أما أن عماراً تقتله الفئة الباغية فقد صدق رسول الله فيه ، وأما أن تغلب عليه دهلة الكبر المعبر عنها بضعف الشيخوخة فقد كذب سعد بن أبي وقاص الأموي على رسول الله بنسبة ذلك إليه .

الحديث الأول مجمع على صحته في كتب الحديث ولذلك أجمعوا على أن معاوية بنى على علي ، وصدق رسول الله في أنه قائد الفئة الباغية التي قتلت عماراً ، وأما الحديث الثاني فهو من وضع الأمويين ليحطوا من قيمة عمار ويدفعوا لعن التاريخ عن معاوية ، وليس ذلك بهين على من فقه التاريخ وعرف كيف يتلقى الحديث عن رسول الله ، وكيف يمحّصه ويدفعه إلى محكمة العقل في إثبات صحته أو فسادة ؟؟

لقيت الأستاذ عباس محمود العقاد في مصر الجديدة ومعى الشيخ فهمي هاشم ، وكان العقاد قد أصدر مؤلفاً عن معاوية بن أبي سفيان وأنصفه في سلب العظمة عنه من نفوس الضعفاء ، لقيت الأستاذ العقاد فهنأته بكتابه الجديد وجراته على الباطل فقال :

« لأدري لماذا أجد في نفسي كرهاً متأصلاً للأمويين وعلى رأسهم معاوية ، هؤلاء الذين أساؤا إلى تاريخ الإسلام ولو طال بملكهم الأجل لما وصل إلينا من جوهر الدين شيء »

هذه « الدهلة » قتلتني قتل الله من قالها مفترياً على الله وعلى رسوله بها ، لم لم تغلب دهلة الكبر هذه على أبي بكر وقد تولى الخلافة وهو أكبر سنّاً من عمار ؟؟ ولم لم تغلب على عثمان وقد جعله عمر في رجال الشورى وبايعه عبد الرحمن ابن عوف وهو أكبر سنّاً من عمار ؟؟ أفكان عمار وحده المعرض لغلبة دهلة الكبر عليه فيكون على غير حق بانحيازهم إلى علي بن أبي طالب نافرأ من الطلقاء وناقوا على الوزغ بن الوزع مروان بن الحكم وأبيه ثم على الباغي معاوية بن أبي سفيان ؟؟

أكان عمار مع الحق طوال حياته حتى عمد إلى نصرته على معاوية فغلبته دلهة الكبر فكان على غير حق؟؟ ما لكم أيها الناس؟؟ وكيف تحكمون؟؟  
أيقول رسول الله لعمار : إنك مع الحق إلا أن تغلبك دلهة الكبر « وكيف تغلبه دلهة الكبر؟؟ ومتى غلبته؟؟ أحين خلع بيعة عثمان؟؟ وهل بقي مسلم لم ينقم على عثمان حتى عبد الرحمن بن عوف الذي أسند إليه الخلافة يوم الشورى؟؟ إذ هجر عثمان ولم يكلمه حتى مات ناقماً عليه؟؟ وحتى على بن أبي طالب قعد عنه ناقماً عليه استخذاه لعشرته يعيشون في الأرض فساداً على مرأى منه ومسمع؟؟ أكل هؤلاء لم تغلب عليهم دلهة الكبر وقد غلبت على المسكين عمار بن ياسر؟؟؟ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا .

أم غلبت دلهة الكبر على عمار إذ كان في صف على يوم حربه لمعاوية؟؟ ولماذا اعتزل إذن ذو الكلاع جيش معاوية بقومه ليرى أية الفئتين تقتل عماراً إذ ثبت لديه حديث : يا عمار تقتلك الفئة الباغية؟؟ أكان ذو الكلاع وهو سيد قومه حمير غافلاً عن ذيل الحديث الذي رواه بن أبي وقاص : إلا أن تغلب عليه دلهة الكبر؟؟ ولم أجمع المحققون في تاريخ الإسلام على أن عماراً كان على حق وأنه مات شهيداً لو صح لديهم حديث ابن أبي وقاص عن رسول الله؟؟؟ من يضع هدنة بيني وبين معاوية يا قوم؟ فقد أعلنت عليه حرباً لا هوادة فيها منذ فتحت عيني على التاريخ ، فما تورعت ولن أتورع أبداً عن إدانته بكل ما فدح الإسلام والعروبة من خطب وما دهمها عن عاصف ، ولست أعنى بالحرب هذه التي يتبادل فيها المتخاصمان ضربو القتال ، ولكنها حرب يتصارع تحتها حق أنتصر له وباطل لا يزال يجهز عليه منذ ألف عام في صدور أكل الجهل والحق عليها أجيالا من العفن .

ولقد تشفا نفسى أناس محصوا التاريخ قبلي فابتلوا بأناس حجب الله عن أعينهم أن تبصر نور الحق ، وعن آذانهم أن تسمع صوته وعن قلوبهم أن تفقه برهانه ، من هؤلاء الذين محصوه وهم على وعى الشيخ محمد الغزالي في كتابه « الإسلام المبتري عليه ، والأستاذ العقاد في كتابه « معاوية بن أبي سفيان » والأستاذ سيد قطب في كتابه « العدالة الاجتماعية » والشيخ محمد الطيب النجار

في كتابه « الموالي في العهد الأموي » لقد شفى هؤلاء نفسى بصراعتهم طغيان معاوية في صدور من لا يزالون يرزحون تحت وطئه من جيلنا الحاضر ، ليرفعوا غشاء الجهل عن ناشئة الفكر الحر في عصر لا يسود أهله غير العلم الصحيح والدين القيم .

ولقد أعربت لهؤلاء عما شفى جهادهم في الله من نفسى فعلمت أن أناساً ناوؤهم فيما أبرهوا عنه من حق ، وأن هذا المناوئ يرى خيراً في معاوية ونهجه ، وأن له على الإسلام فضلاً لا يزال قائماً حتى اليوم ، فعمدت إلى استفهام هؤلاء بنفسى وهم من فقهاء مصر والعاملين على إحياء التراث الإسلامى .

أذكر أن كامل السوافرى الأديب الفلسطينى كان مرافقى إلى أحد هؤلاء وكان إلى جنبه عندما سألته عما دار بينه وبين السيد قطب من مناظرة في مجلة الرسالة ، فانتفض ثم انهال على القطب بالسياب والشتائم ، ولكنى صدمته دون أن أخرج وأنا في بيته إذ قلت : لم نجثك لنسمع الشتيمة ولكن السيد السوافرى نقل لى أنك رددت السيد قطب في طعنه على معاوية وابنه يزيد ، فأجبت أن أعى ما رددته به ، ويا لله منه إذ حملق وزجر ثم قال : ومن هو السوافرى ؟؟ انه لا يستحق أن يكون مسماراً في نعل يزيد « فقال السوافرى : وانا مالى ؟؟ » أما أنا فلم أملك نفسى من الضحك .

ثم التفت صاحب المنزل إلى وقال : وأنت ما قولك في صحابة رسول الله يا أستاذ ؟؟ أليس من الصواب أن نرضى عن محسنهم ونستغفر لمسيئهم ؟؟ فقلت : دون أن أحاجى ، أما أمثال على وأبى بكر وعمر وسلمان وأبى ذر وعمار فنعم ، وأما أمثال معاوية ومروان وابن العاص فما أطيق أن أسمع بهم إلا عن طريق الشتم واللعن والتجريح . فانكفأ على السوافرى ويكاد ينفجر من الضحك ثم قال : ان صراحة الحومانى محببة إلى النفس ، وليس لى أن أقول شيئاً وهو عندى وأنا أحبه ، ثم انتهى بنا الحديث إلى موعد نجتمع فيه بأخيه لأرى عقله ومكانته في حجر التاريخ .

ويلتقينا الشيخ صباح يوم الجمعة ونشرب القهوة وعصر الليمون ، ووجهه لا ينضب من البشاشة والترحيب ، ثم تنبسط في الحديث القديم إلى ذكر السلف



فيمعن في الرضى عنهم والاستغفار لهم وأن المتأخرين لم ينصفوهم ، وأن في الجليل الناشئ من تجرؤ على النحت من اثلثهم بينما لم يصلوا إلى أدناهم منزلة : صدقت ، وإذا به من وراء مجاملتى له يترحم على يزيد ، فأعجلته عن القول وقمت أودع خشية من أن أسمع بأذنى رضاه عن إبليس .

وبعد ذلك أصبحنا لى صديقين ، أدناهما إلى قلبي أصغرهما سنّاً بما فطر عليه من صراحة وعصبية في الرأي القائم على اعتصامه بالدين وأن المسلمين اليوم لا يعلق بهم من الإسلام إلا أنهم يشخصون إلى مصدره بالذكرى وليس في صدورهم ما يعتز به الإسلام من قول ولا عمل ، ففى نظره كل مسلم كاذب في إسلامه والإسلام برئ منه ، وأن الإصلاح في المسلمين يكاد يكون مستحيلاً .

ولنعد إلى دلّة الكبر هذه المعبر عنها بالشيخوخة الغافلة ، هذه المخلوقة للأمويين والمفتري بها على الله ورسوله ، هذه الدلّة لم نجد رسول الله قد خص بها إلا عماراً المكنى ، لشدة يقظته ، بأى اليقظان ، دلّة الكبر هذه قد نالت غماراً إذ خلع بيعة عثمان ولكنها لم تنل عثمان وهو يحمل آل أبى معيط على رقاب المسلمين وعملاً حجورهم وأجحارهم من مال الأمة حتى كان منهم مروان ومعاوية ويزيد معاوية وخلفاء الله ورسوله في العالم ، هكذا أصبحنا في عهود الفكر الحر نتحرج عن أن نغمز الكتب « الصحاح » التي لا تغمز من الصحابة عليهم رضوان الله إلا من أنكر على الأمويين بغيرهم وأقام النكير عليهم أمثال أبى ذر وعمار وعلى ابن أبى طالب ، وهكذا يجب أن نطأطئ رؤسنا لمن يروى عن رسول الله ويجعل معاوية بن أبى سفيان أحد أسناده ، سبحانه اللهم هذا بهتان عظيم .

أَيُّهَا النَّاسُ؟ لَا تَسْتَوْحِشُوا فِي طَرِيقِ الْهُدَى لِقَلَّةِ  
أَهْلِهِ ، فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ اجْتَمَعُوا عَلَى مَائِدَةٍ شَبَّهَهَا  
قَصِيرٌ وَجُوعُهَا طَوِيلٌ

على

في القرآن أكثر من آية يشير إلى قلة الصفوة من بني آدم ، وهم الهداة القادة إلى الحق ، فيقول عز من قائل : وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ، ويقول : وما آمن معه إلا قليل ، وقوله : وقليل ما هم ، وهكذا . يعزز الإمام قول الله بنسبة القلة للسالكين سبيل النجاة بقوله : لقلة أهلہ ...

ولنتساءل الآن عن السر في قلة المهدي وكثرة الضال ، وفي ندرة المؤمن وطغيان الكافر؟؟ أهو قلة الهادي وكثرة الضال في الخارج أم ضعف العقل وقوة العاطفة في الداخل؟؟ أرى أن سهولة الظفر بما يرضى العاطفة وصعوبة الوصول إلى ما يدعو العقل هما السبب الأول في اندفاع الإنسان إلى الكفر وإحجامه عن الإيمان ، فالفضيلة محفوفة بقيود يشق على العقل كثيراً تحطها ليعصم الإنسان بها من مزالق الحياة ، وأما الرذيلة فطريقها سهل إذا تحلل المرء من الدين وأمن سطوة القانون ، فكيف إذا نبذ الدين وظفر بالسلطان؟؟

هذه هي النقطة التي وقف عندها الإمام بين يدي سلطانه وهو يقول لمن يهتمه بضعف السياسة : والله ما معاوية بأدهى مني ، ولكنه يغدر ويفجر ، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس ، ولكن كل غدرة فجرة وكل فجرة كفر ، ولكل غادر لواء يعرف به يوم القيمة » ويقول في موطن آخر : قد يدرك الحول القلب وجه الحيلة ودونها حاجز من تقوى الله ثم ينتهز فرصتها من لآخرجة له في الدين » ويقول أيضاً : لولا الدين والتقى لكنت أدهى العرب »

عند هذه النقطة أي نقطة التخرج من الدين ليتغلب على معاوية بالغدر والنفاق وهدر المال المحجور من ورائهما في سبيل الغلبة والسلطان » أقول : عند هذه النقطة وقف الإمام : أيعمل بالقاعدة القاتلة : الغاية تبرر الوسطة ؟

وقد كان يفعلها محمد صلوات الله عليه في سبيل التأليف أيام تشريعه ، أم يعتصم بناموس محمد بعد أن ختمه بقوله : اليوم اكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً « فلا يرى بعد ذلك مساعداً للتصرف بالدين تصرف المشرع الأول والمستنير الآخر ؟؟

وآثر أخيراً أن نخسر هذا السلطان وهو يتأثر محمداً وأصحابه على أن يظفر به وهو ينافس معاوية في احرازه عن طريق التحرج والتحمل ، لهذا قال : ان الناس قد اجتمعوا على مائدة شبعها قصير وجوعها طويل « فما أروع هذا التشبيه وما أبينّه للغافل الذي يفوته معرفة أن السلطان الجائر كالمائدة التي تشبع آكلها إلى أجل ثم يعقبها جوع بغير أجل ، فكيف تتمتع معاوية وأصحابه بالشبع من تلك المائدة ؟؟ إنها أعوام قصيرة ثم انقلبوا إلى حيث يحصدون ما زرعوه من غدر وخيانة وكفر ، في عالم لو أخلفوا فيه ما أخلفه محمد وأصحابه البررة لما بقي غير مسلم في العالم .

ولذا أمعن القارئ في نهج الإمام يجد أن نغمته على الغدر في سياسة الناس والخيانة في السياسة منهم ، يجد أنها العامل الأول في تشاؤمه بالحياة وخوفه على الدين ، لاعتقاده أن السياسة هي العنصر الهام في تقويم الأمم وطبعها بالطابع الذي تخلد أو تفنى معه ، فالسائس أو القائد أو الرئيس أو الخليفة أو الملك أو الحاكم ، خذ ما شئت من هذه الألقاب تجدها المثل الأعلى للناس يتأثرونه ويقتدون به وينسجون على منواله ، ولهذا قيل : الناس على دين ملوكهم ، لما قر في الأذهان من أن ملك الناس هو أسمى الناس شخصاً فينبغي أن يكون فيما تخلق به أسمى الناس اخلاقاً ، فاذا كان هذا الملك أو هذا السائس مثلاً أدنى فيما يسوس ويملك والناس وراءه ، فاذا تكون عقبي المسوس له والمملوك به في الأمة ؟؟

إذن : فالإمام يرى : أن قلة السالك في طريق الهدى يرجع إلى قلة الإيمان وقلة الإيمان أو كثرته إنما يتأتى عن الجور في السلطان أو العدالة فيه لأن السلطان هو باب الأمة إلى حق أو إلى باطل ، والمسيطر على الأمة مالم يكن أفضل الأمة فلا يصلح أن يكون مثلاً أعلى لها ، وإذا لم يكن كذلك طبع الأمة بطابعه

فكانت مثالا عنه ، لأن الرئيس في الشعب بمنزلة الرأس من الجسد ، وظيفته القيادة ووظيفة الجوارح الخضوع له والائتمام به ، فاذا صلح الرأس صلح الجسد وإذا فسد فسد .

فلنستعرض ، على ضوء ما يشرعه الإمام ، ساستنا اليوم وقادة الفكر فينا ، ورواية الأمر منا ، هل يتسع لهم طريق يفضي بهم إلى نجاة؟؟ ولنعتمد أولا إلى البحث عن علل الفساد في الحكومات كيف تدمرها وكيف تدمر شعوبها آخر الأمر؟؟ ان ما اتفق عليه حكماء كل عصر منذ فجر التاريخ الذي تتقوم به العصور ، هو أن للإنسان غرائز كانت معه في أزليته ، وأخلاقاً هيبت عليه باستلهاهم أو بوحى من ربه ، هذه الغرائز وتلك الأخلاق تتقوم بها إنسانيته ، فالغرائز تدفعه إلى الحياة ، والأخلاق تهذب في اندفاعه معها كيلا تغلب حيوانيته إنسانيته ، فهو يندفع بطبعه نحو المرأة مثلاً فيمسكه العقل الذي هو وليد الشرع أو القانون عن أن يجنى أو يجنى عليه .

فالعقل الملهم لم يشرع ضرورة الصديق مثلاً للإنسان إلا لأنه عنصر هام في تقويم حياته الإنسانية ، وهكذا نجد أن الأمانة والوفاء والرحمة والعفاف والمحبة والإباء والتضحية وأمثال هذه ، إنما هي نواميس شرعها العقل الحكيم لبقاء الإنسان وحجر عليه اضدادها كالخيانة والغدر والقسوة والفسق والأنانية والحسنة وأمثالها حذراً من تلاشيها ، وقد جرب الإنسان في كل عصر أن يغير أو يبدل من حلقات هذه السلسلة التي تواضع الحكماء على أنها ضرورية لبقاء الإنسان فلم يستطع ولعله جرب في سائر عصوره الإخلال بهذا النظام فكان سبياً في دماره .

والآن نجد في عصرنا الحديث بعض الشعوب يتجاوز هذا النظام في بعض بنوده فيتحلل من العفاف الذي نسميه الزواج أو الإمساك عن الزنا ، فيقع في مشاكل تنحل معها إنسانيته وتنهار بها قوميته كما أصاب إيطاليا وفرنسا في عصورهما المتأخرة واسمع ما قاله رئيس جامعة « إنسأبر » في ولايات مشغن من أعمال أمريكا الشمالية ، قال في حفل كنت من شهوده سنة « ٩٣١ » عندما شرعت هذه المملكة تحريم السكر والبغاء ، قال يعلل ذلك : إن تحرر الفتى والفتاة

عندنا من العفاف حال ذون الزوج وأصبحت المرأة أحرص ما تكون على جبالها من الحمل والولادة وخشيت الحكومة أن تنقرض الأمة بعد جيل أو جيلين لذلك شرعت تحريم البغاء ، ورأت أن الجرائم التي تنشأ عن السكر تفوق الجرائم التي تحدث عن أى شذوذ آخر فى الأخلاق فشرعت تحريم الخمر .

ولكن أمريكا الشمالية هذه رجعت بعد عامين عن هذا التحريم لأنها لم تجده فعالاً ما لم يتضمن العالم معها على تحريمه وعلى تحريم الخيانة والكذب اللذين كانا سبب إخفاق هذا القانون فى الشعب الأمريكى إذ شرع فى تهريب الخمر باسم الأثرية المختلفة الألوان ، وفى اقتراف الزنا باسم الحرية فى الصداقة بين الرجل والمرأة وهما أجيبان .

أما الكذب والخيانة فيكفى للتدليل بهما على هتك الإسلام وتضليل المسلمين ما كان من معاوية وابن العاص الأمويين على عهد على بن أبى طالب من حمل قميص عثمان ورفع المصاحف على رؤس الرماح يوم صفين إذ غطى معاوية على شهوته للسلطان بنشر قميص عثمان على منبر الخطابة فى الشام وهو مضرع بالدم يدعو الناس لأخذ الثأر من على وهو برئ من قتله ، وإذ غطى على جبينه فى صفين برفع المصاحف على الأسنة يدعو جيش على لتحكيم القرآن عندما شعر بالهزيمة ، فكان من ذلك تضليل المسلمين والقضاء على الحق فى ذلك الحين ولم يزل هذا التضليل وهذا القضاء على الحق قائماً فى المسلمين إلى يومنا هذا ، لأنه أصبح سنة فى السياسة أن يكذب السائس ويخدع ويضال ، والناس على دين ملوكهم .

وكان من نتائج ذلك أن بدأ الإسلام ينحدر بأهله منذ أنغمض على عينيهِ حتى تلاشى ملك الأمويين بعد قرن فى الشرق ثم ذر قرنه فى الغرب فصار على نهجه الزائف وانهار بعد قرن والقرن أو القرنان بل القرون قليلة جداً فى أعمار الأمم ، وهكذا تلقف العباسيون من الأمويين هذا السلطان وساروا فيه بسيرتهم فانهاروا آخر الأمر وولاهم مثلهم وولى هذا المثل أمثال من فاطمين وأبو بيين وعثمانيين فلم يحيدوا عن سيرة معاوية فكانت بعدهم هذه العقبي المؤلمة للأحفاد اليوم ، وحسبنا تدليلاً على ذلك ما قاله الزعيم الألمانى بسمارك : ان على كل

مسيحي أن يقيم تمثالاً لمعاوية في داره يبقى نصب عينيه إذ لولاه لا بقي غير مسلم في العالم .

هذه نتائج الكذب والخيانة في السياسة بالأمس وأما نتائجها في سياسة اليوم فلا نضرب مثلاً عاماً ونحكم إجمالاً على أن هذه المجازر البشرية منذ قرن لم تكن إلا وليدة السياسة الخرقاء القائمة على الكذب والغش والأنانية ، وإنما نضرب للقارئ مثلاً محسوساً هو أقرب إلى إدراكه من العموميات ذلك هو : أن بريطانيا التي كانت منذ مائتي عام ولم تزل حتى الأمس القريب أدهى الأمم ، تدعى لنفسها لقب « بريطانيا العظمى » وقد قامت سياستها منذ سادت العالم على هذه الخلال التي سنها لنا معاوية ووزيره عمرو بن العاص ، وخذ واحدة من هذه : عندما أقتنوا الحسن بن علي أمير مكة أيام الحرب العالمية الأولى في أن يسهم معهم بدحر الأتراك كان إقناعه قائماً على وعدهم الشفهي والكتاني في أن يساعده على تحرير الجزيرة العربية وتنصيبه ملكاً عليها من اليمن جنوباً إلى حدود الأتراك شمالاً بدون استثناء أي جزء منها ، وفي نفس الوقت كانوا يسجلون على أنفسهم وعداً للهود باعطائهم فلسطين وطناً قومياً لهم في قلب المملكة العربية ، فلما انتهت الحرب تكشفت عن هذه الخديعة فكانت سبباً لمشاكل عربية طوال خمسين عاماً وأصبحت الآن مشاكل عالمية ربما يزول بزوالها العالم كله ، والأحداث التي هي بين سمعنا وبصرنا تشير بصراحة وإقناع إلى ذلك كله ، تلك هي عاقبة الخيانة والكذب والخديعة والتضليل في السياسة ، ولم تكن لتفعل فعلها في العالم لو كانت في الأفراد ثم لا تتجاوزهم إلى الحكومات كما قدمنا .

امش معي في الساسة العرب لذلك على أخلاقهم اليوم : قال لي صديق يسكن جنوب لبنان : أترى هذا الذي أصبح اليوم رئيساً لمجلس الوزراء في مملكة « كذا » من أقطار العرب ؟ قلت بلى وأعرفه يعمل للأجنبي وهو من أجراء السكسون ، قال : إنه يحمل صفة أخس من الخيانة الكبرى ، فقلت هات ... فقال : لقد كان رفيقي أيام دراستنا في « مرج العيون » وكان مأبوتاً يأتيه أكثر الطلاب حتى ضج منهم وجاءني يقول : أنا لك ... واحمني من هؤلاء الذين يطاردوني ليل نهار حتى أقضوا مضجعي ، فأنت أولى بي منهم »

ويقول لى الصديق الأستاذ العلايلي : لقد ذهبنا إلى فلان .. أبى الابع ، ورجوانه قبول الدخول في مجلس التمثيل إذ دعى إليه فأبى ، ونحن نعلم إفادة الشعب منه إذ يحكم ، فأجابنا بقوله : لقد زرت باريس سنة كذا ونزلت في فندق كان صديق لى ينزله وهو طالب حقوق ومرموق من زملائه ، وتعلق عليه أسرته أملاً كبيراً بعد عوده ، ففقدت من غدى حذاء كنت وضعته عند النوم خارج الغرفة لينظفه ماسح الأحذية ، فسألت عن الحذاء خدم الفندق وجرتى فلم أعثر له على خبر ، وجئت هذا الزميل فشكوت إليه سرقة الحذاء فقال : لا تضع حذاءك خارج الغرفة لأن الفرنسيين لصوص .

وبعد أسبوع نسيت وصيته فوضعت حذائي الثاني خلف الباب ابتغاء تنظيفه ففقدته وهرعت إلى الزميل فلامنى وقال : لقد نصحتك فلم تسمع ، وجمعنا الخدم واتصل الخبر بمدير الفندق فأجرى تحريراً دقيقاً بين القائمين على الخدمة والنظام فلم نعثر له على أثر ، وامتنعت إذ ذاك من وضع الحذاء خارج الغرفة حتى انتهت زيارتى ، وفي صباح اليوم الذى أغادر فيه باريس كنت خارجاً من الحمام ومررت بطريقي على غرفة الصديق فأجلستنى لشرب القهوة ، ويشاء الله أن تسبق عيني إلى الحذائين في غيابة السرير ، فأصبحت برعدة مما أرى وودعت فرنسا وأنا ناغم على الحياة التى توهل مثل هذا لأن يصبح سيداً في قومه من بعد » ويقول لى هذا الصديق : وبعد أنهى الأمير حديثه حديق إلينا ثم قال : أتريدون منى أن أدخل حكومة يرأس مجلسها التشريعى سارق أحذية ؟؟ ان هذا لكثير على بلد يدعى أنه بلد اشعاع ويرأس أكبر مجلس فى حكمه لص ... » وأعرف رئيساً يكاد يكون الأول فى حكم قطر عربى آخر ، وله ولد ، ولعله كبير أنجاله ، قد عبث بمال الأمة حتى اقتنى طائرة خاصة تحمل خيلته إلى مصيفها فى لبنان ، وكان قد زارنى وأنا فى بيروت زعيم وطنى من ذلك القطر وقد أسهم فى تحريره إذ كان من رجال الثورة على المستعمر فيه ، فقلت له : هل زارك وزير بلادك المفوض فأجاب سلباً ، فعمدت إلى التلفون وفتفت بالوزير فأجابنى أحد موظفيه بأنه صعد إلى بعض المصايف لزور الآنسة «فلانة» وسألت بعد ذلك نفس الوزير عن هذه الآنسة التى يهتم لها بالزيارة بينما يفرط

في زيارة المجاهدين فقال لي : انها خلية نجل الرئيس وأرجوك أن تستر على « ولقد سترت عليه .

ويقيم أحد الوزراء المفوضين لبعض الحكومات العربية ، حفلة ميلاد للمليكة الهاشمي في بيروت وتبعد تكاليف الخمور فيها إلى خمسمائة دينار . ما هذا ؟؟ وكيف يقام حفل لميلاد ملك مسلم ينفق فيه على الخمور هذا المال الذي يعوز كثيراً من حياة الأمة العربية بلد الإسلام ؟؟ وأسأله فيجيب : هكذا يسر العرف هذا العصر « إذن المسألة مسألة عرف ولو عارض الدستور الإسلامي الذي يملك الملك ويرأس الرئيس ويحكم الحاكم باسمه .

وينقل لي وأنا في نويزك ، صديق صادق : أن بعض الوزراء العرب أقام حفلاً للتعارف هناك ، وطلب من الفندق الذي أقيم فيه الحفل أن يشتمل السباط على شيء لم يسبق أن اشتمل عليه في حفل قبله ، وإذا بالجمهور المدعو للحفل يفرغ إلى مأدبة تحف بفسقية تصب من أنابيبها الخمر في بركة صفت على ضفافها الكؤوس لمن شاء الزلفى إلى الله بأن يشرب أو يسقى على شرف نبيه محمد ... » هذا بعض من كل أردت أن أدلل فيه على أن قادة الأمة هم مرجع الأمة في صعودها وانحدارها وأعمالهم هذه هي التي حالت دون تقدم الإسلام ورفق أهله ، وبالتالي أخلت هذه الأعمال طريق الرشاد من أهله فكانوا قلة ، وسيبقون قلة إلى يوم القيمة ما دامت سياستنا هذه يتأثر بها السياسة معاوية ويضربه وخلفاءه من بعده أمثالا يسير على نهجها والناس يسرون خلفه .



# الله

## إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ السَّكَادُونَ .

يروى الأعلام في السر عن رسول الله صلوات الله عليه أنه سئل : هل يسرق المؤمن يا رسول الله ؟؟ فقال : قد يسرق المؤمن ، فقيل : وهل يزني المؤمن ؟؟ قال : قد يزني المؤمن ، قيل : وهل يسكر المؤمن يا رسول الله ؟؟ قال : قد يسكر المؤمن ، قيل : وهل يكذب المؤمن قال : لا .. لقوله تعالى : إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ . « يضعف هذا الحديث أنه ظاهر عليه الوضع من حيث الترتيب في أسلوبه ، ومن حيث أن الكذب أسهل على المؤمن من الزنا والسكر والسرقة ، وجرة المؤمن على السهل من الأثم أقرب إلى الإمكان من جرأته على الصعب ، على أن « قد » هاهنا تفعل فعلها في التقليل لنفي العصمة عن المؤمن ، ولعل التشريع هو الدافع لترتيب هذا الحديث بجعل الكذب الذي نراه سهلاً في مصاف الكبائر التي لا يأتيها أولو الأيمان لما يأتي :  
أولاً : ان الكذب على الله وعلى رسوله في التشريع يسئ إلى العالم أجمع ، ولهذا أجمع الأئمة على أن الرسل معصومون في تبليغ رسالتهم عن الكذب .  
ثانياً : ان الكذب من خاصة الناس ، وهم قدوة ، في منزلة الكذب على الله ورسوله لأنه يسئ إلى الناس كافة إذ ترى الأمة مثلها الأعلى فيمن يقودها ويسيطر عليها حتى تطرف بعض الفقهاء في وجوب طاعة الرعية للراعي ولو كان فاجراً .

ثالثاً : الكذب في حقيقته ، سواء صدر من الخاصة أو العامة ، يسئ إلى الروابط الإنسانية القائمة على الصدق لأن التفاهم عنصر أول في تقويم الحياة فإذا ساد الكذب فسدت الحياة .

إذن ، فالزنا والسكر والسرقة ونحوها من الجرائم الكبرى تأتي بعد الكذب في الإساءة إلى الإنسان من حيث هو إنسان ، فكثيراً ما يزني الإنسان أو يسكر أو يسرق فلا يضر إلا نفسه ، وقد يتعدى نفسه إلى قليل من الناس ، ولكنه

إذا كذب وكان مشرعاً أفسد الدين ، وإذا كذب وكان راعياً أفسد الرعية ، وإذا كذب وكان سياسياً خرق القانون ، ثم إذا كذب وكان من سواد الناس ضلل كثيراً من الناس ، وليس كذلك غيره من الكبائر ، وفي يقيني أن الخيانة والغش والغدر والرياء والتدجيل والتضليل ، كل أولئك من قبيل الكذب لأنه داخل في حيز التمويه وستر الحق وهو عين الكذب .

وفي يقيني أيضاً أن بلاء العالم ، منذ سادته البلاء ناشئ عن الكذب ، وأن هذا القلق في عالمنا المضطرب وما سبقه من عوالم ، أكثره إن لم يكن كله قائم على الكذب في الساسة من خلف وعود ، ونقض عهود ، ومن تضليل وتدجيل في أساليب الدعاية القائمة على أنانية الفرد أو المجتمع وعن جشعه وعصبيته لقبيله أو عنصره ، وفي كل هذا خرق لنظام الإنسانية وهتك لنا موسى الحق المهيمين على العالم .

فالكذب الذي هو أدهى ما يأتيه الإنسان بين يدي شهواته ، هو أكثر الجرائم تفشياً في عصرنا الحاضر ، هذا العصر الذي ملأ العالم نوراً بحضارته الخافضة بالعلوم والآداب والفنون ، أصبح الكذب فيه من الفنون ولعل الفنون والآداب فيه حالت أكاذيب وأضاليل ، من أجل ذلك سادت فيه الجرائم وملك القلق والاضطراب عليه أن يطمئن بعلومه وفنونه وآدابه إلى لون ثابت من ألوان الحياة ، هذا العصر الذي شبك العالم وحبكه حتى كاد يصبح أمة واحدة في جيل واحد ، نراه أبعد عن السلام والاستقرار من عصور الظلام أيام كان الإنسان وحشاً يقترب أخاه الإنسان .

فاذا كان الكذب أفظع لإجراماً عند الله من الفجور والفحش والسكر والبغاء فياويلنا نحن أبناء هذا العصر من عقبي حياة نصير إليها ونحن كذابون في كل ما نقول ونفعل ، وكل منا أفحش في كذبه من سكير وزناء ، انا هذا الذي يراني جل من عرفني مسلماً وأنا أكتب أو أخطب ، لأمر بي يوم إلا وأستهدف تحت سمائه للكذب ، على عمومه ، في بيتي وبيوت الناس ، على المنبر وامام المذيع ، قاتلاً أو كاتباً ، ولعل كاذب في طعامي وشرابي وفي لباسي وسكني . أجلس إلى المائدة في المطعم وكل هواي في أن أكل حراً بيدي ، ولكني

مكره على أكلى بالشوك والسكين إشعاراً لمن يرانى بأنى متمدين وأنا أبعد الناس بطبعى عن هذه المدنية الزائفة ، وأغادر فراشى لمقر عملى فأعتمد إلى الياقة أشد بها خناقى وإلى الحذاء الملعون أضغط به صدرى لا رجلى ، وكل هواى فى أن أطلق عنقى وصدرى للهواء الطلق تحت سماء مصر اللاهبة وأن أنفـس عن رجلى بصندل فوق رمضاءها الكظة وعلى ضفاف نيلها الراكـد وبين حدائقها الخاشعة لقيظها المعتوه .

ولقد أثتت منزلى فى مصر بأثاث بعضه قديم وبعضه جديد ، والويل لى كل الويل من أهل بيتى عندما يسألنى سائل زائر عن القديم ان صدقته بأنه قديم ، وشريت سيارة بألف جنيه على أقساط تستهلك عاماً واحداً ، ويا ويلي من بنائى ان قلت للسائل إنه بالتقسيت ، واستحضرت معى من العراق أغطية فاخرة للسـرر ثمن الواحد ثلاثة دنانير وهو عينه فى مصر يساوى ثمانية ، فقامت على قيامه أهلى إذ صدقت فى جوابى للسائل عن ثمنه ، ويا لها ليلة لم أنم من السخط ولم يناموا .

وهكذا كلما طرق الباب علينا زائر وفى محب ولكنه غير مرغوب فيه لأهلى ردوه مدعين أنى غائب ، وأنا حاضر أسمع قول السائل والمجيب ، فاذا أقيته يوماً ما وأنبأنى بزيارته كنت ملزماً بأن أكذب لأدفع الغيبة عن أهلى ، وهكذا كدت أنكر حقيقتى فى الناس وكدت أجهلها بين أهلى وأنا ممعن فى الكذب ، وكدت أنسى أن لغى خليط من الحقيقة والمجاز لا أنها مجاز فقط ، فياويل ويا ويل الناس جميعاً وهم على شاكلى ، من خلة الكذب التى غطت على كل صفة نتجمل بها ونحسب أنها زينة فاذا بنا فيها أحقر عند الله من الفجار مقتر فى السكائر .

إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ كَانَتْ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ .. قَالَهَا  
لِرَجُلٍ أَخَذَتْهُ الرَّعْدَةُ إِذْ وَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ.

مَحْمَد

يقول لي السيد عبد الهادي الصالح ، وهو من نخرة شباب العراق ثقافة وإخلاصاً ، يقول ، ونحن نستعرض العصبية الجاهلية في الأسر حتى يومنا هذا ، قال : عندما استوزر الملك فيصل الأول توفيق السويدي وهو في غضون شبابه ، ذهبنا وفداً من الشبان لتنهئته بالوزارة على اعتبار أنه أول شاب وزير ، ولما أدى قائلنا هذه الرسالة أجاب الوزير عليها بقوله : لا تهتئوني بأني أول شاب أستوزر ، ولكن هتئوني باسناد الوزارة لأبناء الأسر العريقة في المجد ... »

لقد كنت صممت قبل أن أسمع هذا على إغفال كتاب وضعته للعظاميين من كل عاص بهن أبيه وأسميته « عنفص » لكثرة من مر بي منهم وآلني بتبججه واعتماده على عظام آبائه وأجداده في كل ما يفخر به ويسأل الناس لإكباره من أجله ، أقول : كنت صممت قبل أن أسمع السيد عبد الهادي على إغفال هذا الكتاب لما سيحدثه من عدا بيني وبين كثير من أصدقائي وجلهم من هذا القبيل ولكني لم احتمل عنفصة الأستاذ السويدي هذه وعدت فصممت على إخراج كتابي « عنفص » هذا للناس .

أذكر من شخصيات كتابي هذا رجلاً من بلدة شقراء في جبل عامل ومن أسرة نبيلة أنجبت كثيراً من العلماء والأدباء والشعراء وهي أسرة قشاقش وكنت في مطلع شباني معلماً لمدرسة هذه القرية ، وكان لي حظوة عند شيوخ هذه الأسرة وشبابها ، وكنت أعاني من عظاميتهم هذه ، وكان أكثرهم تبججاً بعظاميته هذا الذي أنقل عنه حديثي الآن واسمه السيد محمد جواد وكنت كثيراً ما أصارح أستاذي السيد حسن الحمود وهو من جلتهم ، كنت أصارحه بمضايقتي من هذه العصبية المقيتة فيقول : هؤلاء شباب وللشباب شذوذه فلم أقنع بذلك .

كان العلامة السيد عبد المحسن الأمين رأس هذه الأسرة ولم يكن على شيء من هذه الخلطة وإنما كان متواضعاً لا يفرق بين إنسان وإنسان إلا بفضل ، وكان

قد اتخذ موطنه في الشام فخطب أحد الشبان من آل مروه إحدى نجائيه فلبى السيد إذ رآه أهلاً وعلم أن بينه وبين ابنته حباً نشأ عن صلات رحم من حيث الأمهات ، وكان العلامة يصطاف كل سنة في بلدته شقراء ، فلما ورد لها تلك السنة قامت قيامة شباب الأسرة عليه إذ زوج ابنته العريقة في نسبها من شاب لا يزيد على أنه واحد من الناس .

وكانت ابنته المخطوبة تصطاف معه فألبوها على خطيبها نساء ورجالا حتى فسخت خطبتها منه وعلم الشاب الخطيب فسقط في يده وألزمته الحمى فراش المرض العضال ، ويزور رأس أسرة الخاطب المرحوم الشيخ على مروه ، وكان من العلماء الأفذاذ ، يزور شقراء ليصلح بين الخطيبين حرصاً على حياة المريض فيجتمع بشباب الأسرة وكهولها في دار المسجد ، ثم يلجأ بالمهمة التي من أجلها زارهم ثم يعمد في سرد الآيات الكريمة والأحاديث المأثورة في أن المؤمن كفؤ المؤمن وأن جدتهم صلوات الله عليه يقول : إذا جاءكم من ترضون دينه فخذوا منه وأعطوه » سيما وأن بين الخطيبين رحماً وأن الخاطب على فراش الموت ، فلم يحبه منهم إلا هذا الشاب بقوله : لا نعطيه يا شيخ لأننا سادة الناس والناس عبيد لنا وليس بين السيد والعبد كفاءة ... » وانتهت هذه العصبية بفسخ الخطبة ومن ورائها موت الخاطب .. ويشاء الله أن تبقى هذه الفتاة عانساً إلى سن الأربعين ثم تزوجت من رجل ليس له نسب هو لاء الأفذاذ ولا نسب الخاطب الأول .. سقت هذه الكلمة بين يدي قوله صلى الله عليه وسلم في صدر هذا البحث لأدلل على أن العظامية ليست من الدين ولعلها مما ينكره الدين الحنيف الذي ضرب لنا مثلاً في إنكار الذات فضلاً عن النسب عند قوله عز من قائل : يوم لا أنساب بينهم ولا يتساءلون ، وقوله : ان أكرمكم عند الله أتقاكم ، وعند قول رسوله هذا ؛ إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد ، فالتقوى والعمل الصالح هو ميزان الإنسان لا أبوه مهما علا ولا ابنه مهما نزل .

من هنا كان الشك غالباً على اليقين في صحة ما ينسب إليه صلوات الله عليه من حديث : أنا خير من خير من خير من خير .... لما يشعر من تبجح بالنسب بينما هو ينهى عنه وقد أثبت القرآن أن إبراهيم كان

- ٢٠٤ -

أبوه وثنياً فلم يقدح ذلك في نبوته، وهكذا نجد قوله عليه السلام : كلكم من آدم وآدم من تراب ، ومن جعل مقياس الإنسان في سموه وانحداره راجعاً إلى عمله لا يفخر بنسبه ليكون القدوة الصالحة لمن لانسب له والله تعالى يقول : نخرج الحى من الميت ونخرج الميت من الحى ، فحسبنا أن نثق بعصمة الرسول لا أن نضفى هذه العصمة على آبائه إلى آدم ولا على أبنائه إلى أغاخان .

فمحمد صلوات الله عليه لم يكن أفضل الخلق لأنه من هاشم فان منها أبا لهب وهو عمه ، بل كان أفضل لأنه رسول ، ولم يكن أفضل الأنبياء لأنه ذو رسالة ، فان الأنبياء قبله كانوا ذوى رسالات ربانية كرسالته، ولكنه كان أفضلهم من أجل أن رسالته أعم وأمه أوسع انتشاراً وأنصح لإنسانية ممن سبقه أنبياء ورسلا ، وكلما اتسعت دائرة العمل آذنت بسعة فضل العامل ، وليست قريش أفضل وفيها بنو أمية الذين أبرهوا على أنهم أحسن العرب في إهمالهم رسالة العرب التى هى الإسلام وهكذا نستطيع أن نقول : إن الدين لم يثبتنا بأن العرب أفضل الأمم لأن منهم محمداً ، فان غيرهم من الأمم بعث الله منها الأنبياء والرسول فلم يكن ذلك باعثاً على أنهم أفضل الأمم ، وهكذا نستطيع أن نثبت شرعاً وعقلاً أن الفضيلة لا تدور مدار الإنسانية ولا القومية ولا القبلية ، ولكنها ، كما ينص الدين ، خلق حسن يتصف به الإنسان دون غيره فيعلو عليه ، وأن الرذيلة لا تدور مدار الإنسانية ولا القومية ولا القبلية ولكنها كما يفصح الدين ، خلق سئ يتصف به الإنسان دون غيره فينحدر عنه .

هكذا ينبغي أن نفهم الدين وهكذا ينبغي أن يفهمه الجاهل منا ، فان محمداً وأى إنسان في العالم ، يشتركان في الإنسانية لحما ودما وعظما ، ثم سمعاً وبصراً وفكراً ، واكنهما مختلفان عملاً ، والذي فضل به محمد أباه وعمه هو عين الذى فضل به محمد أى إنسان في العالم ، وإلا فأى معنى أو أية ميزة أقول الرسول الأعظم : لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ؟؟ وقوله : من تعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه بهن أبيه ولا تكنوا .

فكل حديث ، مهما صح سنده ، يثبت فضل قريش على العرب ، هو من وضع الأمويين ، وكل حديث مهما صح نسبه أيضاً ، يثبت فضل هاشم على

قريش هو من وضع العباسيين أو العلويين ، ان الدين واضح بين وان القرآن هو الفرقان بين أيدينا ، فليتعظ كل منا بقوله الكريم : يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » فلم يقل : إن أكرمكم عندي العرب بل قال : الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر أن لا يقيموا حدود ما أنزل الله .

وأى حديث صح سنده نوؤه ، فان التأويل من لوازم الدين في مواضع الشبهات ، واللغة ليست حقيقة فقط وإنما هي مجاز وحقيقة والقرآن مشحون بالمجازات ، فحديثه صلى الله عليه وسلم : أصحابي كالنجوم ، يعنى أصحابه الذين اتبعوه باحسان لا الذين صحبوه ولو لينافقوا أو ليتحسبوا منه ويؤلبوا عليه وهؤلاء كثر وعلى رأسهم بنو أمية ، ويعنى القرآن بقوله حاكياً عن رسوله : قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى » يعنى بالقرنى آل بيته الذين فرضت الصلاة عليهم معه فى ليلنا ونهارنا إلى يوم القيمة ، والمقصود من أهل بيته هم الذين أتموا رسالته من بعده وهم على والحسين وبقية الأئمة الهداة كالصديق والباقر والرضى والكاظم .

وأعنى باتمام رسالته تعزيزها والحرص عليها والتضحية فى سبيل قدسها والاعتصام بها ، فنصرة على لابی بكر وعمر فى إقامة هذه الرسالة بسيفه ورأيه ولسانه هو من إتمام هذه الرسالة ، وتضحيته بحقه فى الهيمنة عليها أول الأمر والتزامه الصمت عن الإصرار عليه هو من إتمام هذه الرسالة ، فانه مما لاشك فيه ، لو أن الخلافة أسندت لعلی أول الأمر ، وهو الموثوق على لسان رسوله ، ثم بما برهن به عن حزمه واعتصامه بالحق حتى آخر حياته ، لحالت سنوه الثلاثون دون الهنات التى مكنت آل أبى معيط من هتك الدين وسن البدع السيئة على أيديهم وألسنتهم إلى يومنا هذا .

وهكذا نجد أن تضحية أبنائه الذين تحملوا مسؤولية هذه الرسالة من بعده كالحسن فى تنازله لمعاوية كى يكشف للمسلمين عن سوء نوايا معاوية وقد ثبت ذلك فى بطون السير ، وكأخيه الحسين الذى عمد إلى التضحية بدمه ودماء أصحابه وأهل بيته ليفضح الأمويين ويعصم رسالة جده من كفرهم بها ونيلهم منها ، ثم

انصراف أحفاده الباقين من تأييدها بدمائهم إلى تسجيلها في دواوينهم وإملائها على أصحابهم بغية خلوصها من دس معاوية وآله في الدين ما ليس من الدين ، إذ قرأت في السيرة الحلبية : أن المؤمنين المتكتمين على أنفسهم في عهد الأمويين أمعنوا في إملاء ما وعوه من فضل عليّ على تابعهم خشية الطغيان الأموي عليه وانتهى قولهم في علي إلى أنه قد نزل في فضله ثلاثمائة آية من القرآن »

هوئلاء هم القربى وهوئلاء هم أهل البيت وآل محمد ليس غير ، فانما شرفهم الله في كتابه وعلى لسان رسوله لأن وظيفتهم إتمام رسالته بالحرص عليها والتضحية في سبيلها . وإلا فليست قرباه وآله من غير جبلتنا ولا هم صنف من الملكوت الأعلى هبط علينا ، فعقيل بن أبي طالب الذي لاذ في كنف معاوية من أجل حطام الدنيا هو أخو علي الزاهد فيها ، وجعفر الكذاب هو أحد أحفاد الإمام جعفر الصادق الذي يقول فيه أبو حنيفة : ما دخلت على جعفر بن محمد إلا وجدته صائماً يصلي أو يقرأ القرآن » هوئلاء هم آل محمد ومكان القربى منه وهم المفضلون في كتاب الله وعلى لسان جدهم صلوات الله عليه وعليهم وعلى الأخذين برسالتهم والناهجين في الاعتصام بها هجهم .

لم يفضل هوئلاء غيرهم من الناس بكونهم من صلب محمد ولا بكونهم من سلالة هاشم ، ولا لأنهم تحدروا من أصلاب مضر ومعد وعدنان ، وكيف يكون ذلك كذلك ، وقد صبح عن جدهم عليه الصلاة والسلام أنه قال لابنته : يا فاطمة اعملي فلن أغنى عنك من الله شيئاً ؟ وأنه قال : إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا : إذا سرق فيهم الشريف عفوا عنه وإذا سرق الوضيع أدانوه ، أما والذي نفسي بيده لو أن فاطمة سرقت لقطعت يدها » وأنه صلى الله عليه وآله قال بلسان ربه في حديث قدسي : أدخل جنتي من أطاعني ولو كان عبداً حبشياً وأدخل نارى من عصانى ولو كان سيداً قرشياً » صدق رسول الله : لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لأبيض على أسود ، ولا لرجل على امرأة إلا بالعمل الصالح ، بمثل هذا ندين ، وهكذا يجب أن نفهم الدين .

وبعد فما أحب أن يفوتني في هذا الموضوع حدث لا يزال يحز في نفسي منذ خمس وعشرين سنة إذ كنت في أمريكا الشمالية في ولاية بنسلفانيا



ضعيف نفر من المهاجرين العرب ، وإذ كان حديث الزعامة في جبل عامل من جنوب لبنان موضوع ذكريات هؤلاء الأخوة الذين يحدقون في آنذاك : يسألني أحدهم السيد على الحاج من قرية قيليا في ناحية مشغرة : هل لا تزال عبودية الزعماء مسيطرة على شعبنا المسكين ؟؟ فضحكت وقلت له : لعل عندك شيئاً من هذا وتريد أن تفصه علينا ، فتفضل :

قال ، وهو يتألم ، لقد مر في ثلاثون عاماً وأنا بعيد عن وطني وفي طوق أن أعود إليه ، ولعل هذا العود أغلى أمنيائي ، ولكن كلما ذكرت السبب الذي من أجله فارقت وطني رسبت نفسي في أعماقي ثم قالت : مت هنا ولا تعد ، فان موتك بعيداً عن وطنك وأنت عزيز خير لك ألف مرة من أن تحيا فيه وأنت ذليل ، فاحتسب آمالك وآلامك عند الله فان لك ولهم عنده حساباً غير بعيد » ثم قال : في جوارنا بلدة « الخيم » كان يسودها وما جاورها من القرى زعيم يدعى الحاج محمد عبد الله ، وكنا من المدلين عليه بدافع هذا الجوار ، وكنت شاباً عاتياً اعتد بقوتي وجرائي ، ويشاء الله أن أكون رسول هذا الزعيم إلى زعيم أكبر يدعى كامل الأسعد » تعرفونه جميعاً ، وكانت بلدة « الطيبة » التي هي حصنه تبعد عنا عشرة أميال .

وكان من الطبيعي أن أحمل هذه الرسالة شاكراً حتى إذا دخلت على الزعيم الأكبر وأسلمته الرسالة ثم انقلبت من ديوانه عائداً إلى مضيف أمثالي ، وكان في مؤخرة الديوان أخوه عبد اللطيف الأسعد فتلقاني وأنا أجتاز البهو إلى الخارج بصفعة على وجهي فقدت معها بصرى آنثى ثم وضعت يدي على عيني وأصغيت أسمعه يقول : تخرج مولياً ظهرك للزعيم يا كلب ؟؟ أما كان عليك أن ترجع متقهقراً ؟؟ انك لمار » ، ولما استعدت بصرى خرجت ولم أعد إلى بلدي ، ولكن كانت وجهتي بيروت ثم هذه الديار العزيزة علينا ، والتي لم نر الخروج من تلك العبودية إلا تحت سمائها ، ونحن كما ترى ، لانعود إلى الوطن حتى يتحرر من فرنسا خارجياً ومن الزعامة داخلياً ، فان العبودية واحدة ، ولعل الشاعر مصيب إذ يقول :

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة على الحر وقع الحسام المهند

كذلك شاء رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نكون أحراراً إذ يربينا على  
الحرية والحرية بقوله للدخل عليه وهو متعبد وجل : هون عليك إنما أنا ابن  
امرأة كانت تأكل القديد ، وهكذا أبينا هذه التربية ورزحنا تحت عبودية السادة  
الكبراء من زعمائنا ، ندخل مجالسهم زحفاً على الركب ثم نغادرها متقهقرين  
حرضاً على الغطسة في نفوسهم وعلى الخنوع والذل والعبودية التي ربوها في  
نفوسنا ، فليسجل تاريخ جبل عامل ، وهو وليد أوى ذر الغفاري الذي ذهب  
ضحية لإبائه وعزته ، فليسجل تاريخ هذا الجبل تلك المأسى وهذه العبر للأجيال .

على

وَاللّٰهُ مَا أَحْثُكُمْ عَلَى طَاعَةٍ إِلَّا وَاسْتَبَقَكُمْ إِلَيْهَا ،  
وَلَا أَنهَاكُمْ عَنْ مَعْصِيَةٍ إِلَّا وَاتَّأَنَّى قَبْلَكُمْ عَنْهَا

قالها عليه السلام يعلل بها قوله قبلها بنفس الخطبة حيث قال : والله لو شئت أن أخبر كل رجل منكم بمخرجه ومولجه وجميع شأنه لفعلت ، ولكن أخاف أن تكفروا في برسول الله ، ألا والى مفضيه إلى الخاصة ممن يؤمن ذلك منه ، والذي بعثه بالحق ، واصطفاه على الخلق ، ما أنطق إلا صدقاً ، وقد عهد إلى بذلك كله ، ومهلك من هلك ، ومنجى من ينجو ، ومآل هذا الأمر ، وما أبقي شيئاً يمر على رأسي إلا أفرغه في أذني وأفضى به إلى . . . »

في القرآن مثل هذا الأسلوب ، أعنى تعليل المعجز باستحالة أسبابه ، قال عز من قائل ؛ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ، ففي الشطر الأول من هذه الآية إعجازهم عن إدراك سر الروح ، وفي الشطر الثاني تعليل هذا الإعجاز بأن العلم وحده هو الذي يكشف هذا السر ، ولم يؤثروا منه إذ ذاك إلا القليل الذي لا يمكن السائل من فهمه ، لذلك نهى رسوله عن أن نخوض مع السائل فيه .

وهكذا نجد أن الإمام أدلى بمعجز في صدر كلمته التي يجري حولها البحث حيث قال : والله لو شئت الخ . . . ثم علل ذلك بقوله عليه السلام : والله ما احثكم الخ . . . كانه يثبت أن علم الغيب ممكن إذا توفرت أسبابه . ومن أسبابه العصمة ونضج العقل المعبر عنه بالثقافة ، أما العصمة فقد أشار النبي إليها في أحاديثه القدسية حاكياً عن ربه قوله : يا عبدى أطعني تكن مثلي أنا أقول للشيء كن فيكون وأنت تقول للشيء كن فيكون » وقوله في حديث قدسي : ما زال عبدى يتقرب إلى بالطاعة حتى كنت عينه التي تبصر وأذنه التي تسمع . . وقوله صلوات الله وسلامه عليه : المؤمن يرى بنور الله .

وأما الثقافة فقد دعا إليها بقوله تعالى : هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟؟ ومن يؤث الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ، وقول رسوله عليه السلام :

أطلبوا العلم من المهد إلى اللحد ، أطلبوه ولو في الصين ، العلم نور » فرسالة محمد القائمة على العلم والعصمة تضمن للمسلم المؤمن العامل بعلمه علم الغيب ، لأن إدراك ما تقدمك علم ، وإدراك ما أحقق بك علم ، ثم إدراك ما تستقبل علم ، فكما أن للعلم بأحداث الماضي قواعد وأصولاً تدرك بها ، وللعلم بأحداث الحاضر قواعد وأصولاً يدرك بها كذلك للعلم بأحداث المستقبل قواعد وأصول تدرك به ، ولسنا بسبيل الكشف عن قواعد وأصول علمي الماضي والحاضر لأننا ندرسها وندرسها أبناءنا وهي بين سمعنا وبصرنا ، وأما أصول وقواعد العلم الذي يكشف لنا مغيبات أو أحداث المستقبل فهي هذه التي وردت في كتاب الله وعلى لسان رسوله من دعوة إلى الحق في كل ما تأتيه من قول أو عمل ، ومعرفة الحق رهن بتثقيف العقل وإخضاع النفس بالعمل في الحياة بين يدي هذه الرسالة التي جاءنا بها محمد .

فلقد أثبت العلم قدمه وحديثه أن لصفاء النفس وخلوصها من شوائب الحياة الدنيا ، أثراً كبيراً في استلهاهم الفكر أسرار الحياة ، وقد أوردت شواهد كثيرة في هذا الكتاب ، نقلاً وعقلاً ، تثبت أن العلم ليس وليد الدراسة فحسب ، ولكنه قد يتجاوزها في كثير من أمهات ما يسر ويشرع إلى الاستلهاهم عن طريق الرياضة الروحية كما كان يفعل الرئيس ابن سينا والحكيم ابن رشد ، والرياضي جابر بن حيان ، فضلاً عن سيد العلماء والحكماء محمد بن عبد الله صلوات الله عليه ، ونعني بخلوص النفس من شوائب الحياة ، اعتصامها بتعاليم الدين الصحيح القائم على ما هو بين في كتاب الله وما يتصل به من قول رسوله المأثور ، فاعتصامها ذلك هو عين عصمتها ، وهو عين العلم الذي تكشف به أسرار الحياة فيما تستقبل فضلاً عما أجازته وما تضطرب فيه من حياة .

كنا في منزل العلامة الشيخ محمد المدني محرر رسالة الإسلام في القاهرة مساء يوم ما ، كنا اثنين فقط لاثالث لنا إلا الصفاء وإلا البحث العلمي السليم ، وقد خضنا في النقاش حول العصمة في الأنبياء والأوصياء ، وأقوال المذاهب الإسلامية فيها بالأمكان وعدمه ، فمنهم من ينكرها حتى في الأنبياء لأنهم بشر .. ومنهم من شبهتها حتى في الأوصياء بعدهم ، ولقد رأيته مقتنعاً بالرأي الأول في نفى العصمة

عن الأنبياء إلا في الدين ، وحجته أنهم بشر فكنت بالطبع نقيضه ، وكان حديثي مجملاً ورأيت أن أتبسط فيه بعد جلوسى إلى مكتبي ولم أشأ أن أهمله فكان مفصلاً فيما يأتى :

العصمة ممكنة لكل إنسان عقلاً وشرعاً وإن كانت ممنوعة عادة ، أما عقلاً : فأى إنسان وهو حر مختار لا يستطيع صرف نفسه ، وهى ملكه ، عما لا يحب ؟؟ فلقد أثبت فى غير مكان من هذا الكتاب وفى كتابى « الأصفياء » نفى الجبرية عن الإنسان بأنه مختار وهى صفة وهبها الله له وقد شارك فيها ربه كصفات الكرم والإحسان والعلم والبصيرة ، فكما يقال : الله الكريم المحسن العالم البصير ، كذلك يقال فى الإنسان مثله ، ولكن هذه الصفات وأشباهاها تختلف بين الخالق والمخلوق من حيث المصدر قدماً وحدوثاً ومن حيث الكنه قوة وضعفاً ، إذ هى مقدمة بصلورها عن الخالق وحديثة بصلورها عن المخلوق ، كما أنها قوية فى كنهها وهى إلهية وضعيفة فى هذا الكنه وهى إنسانية ، وهكذا كلمة مختار . فأى عقل يحول بين المرء وبين حسن اختياره ويقصره على السوء فى هذا الاختيار طالما هو حر فى اختياره ؟؟

وأما شرعاً : فكيف لا تكون العصمة فى الإنسان ممكنة وهو مأمور بها من ربه ؟؟ أيامره الله أو ينهاه بما لا يستطيع فعله وعما لا يطيق تركه ؟؟ ان الآثام التى تحول بين المرء وبين العصمة محدودة ومعلومة فى الكتاب والسنة وقد أجمالها الله وفصلها نبيه ثم نهانا عنها فلو لم تكن ممكنة لنا لكان النهى عنها من العبث ، والأحكام التى نحن مكلفون بها شرعاً هى أوامر ونواه ، ومعنى العصمة هى أن تأتمر بأمر ربك وتلتهى عما نهاك عنه ، فلو كانت غير ممكنة لما أمرنا بها أو نهانا عنها كما قدمنا ، إذن فالعصمة ممكنة شرعاً وليست فى البشرية طبعاً ، وإلا لزم الجبر فى القضاء وهذا ممتنع على ما فصلنا .

لم أفهم السبب الذى يعللون به عدم العصمة فى الإنسان إلا أنه أمر عادى ، وهو يعود إلى التربية ، فما رلايب فيه أن رهبة السلطان فى نفوس الرعية تقلل من الجراءة على انتهاك القانون ، والاستخفاف بهذا السلطان يزيد من تلك الجراءة

فتكثر الجرائم هنا وتقل هناك ، وإذا تظافر العلم والدين ورهبة السلطان العادل في الرعية كان سبباً قوياً في عصمة الإنسان ، أو على الأقل كان سبباً قوياً في الحد من الجرائم ، ومعنى الحد من الشيء هو القابلية للزيادة والنقصان فيه ، وإذا قامت هذه القابلية في الإنسان طبعاً كان معنى ذلك إمكان صعوده إلى العصمة وإمكان هبوطه إلى الاجرام ، فليس لدينا وسط في الطبع وإنما لدينا قابلية في الإنسان لأن يكون بالتربية المفروضة عليه عقلاً وحكماً وشرعاً ، أحد الملائكة ، وبعدها أحد الشياطين .

فمن أين جاء الداهيون مذهب عدم العصمة عن الأنبياء لأنهم بشر ، أقول : من أين جاؤا بأن البشرية علة لعدم العصمة ؟؟ فهل قال الشرع ذلك ؟؟ وهل قال الرسول : انا مثلكم بشر أخطئ وأصيب أم قصر هذه البشرية عليه بكونه يأكل ويشرب ويمرض ويسقم ؟؟ فالأنبياء مثلنا في البشرية المطلقة من حيث الطبيعة لا من حيث التطبع والكسب ، والشرور ليست من طبيعة الإنسان ولكنها من كسبه وإلا لكان مفطوراً على الشر وكان أمر الله باجتنابه عبثاً كما قدمنا .

أما نسبة الخطأ في القرآن إلى الأنبياء فقد مر بنا تعليله في غير مكان من هذا الكتاب وأنه محمول على التأويل الذي يتبع المجاز وأن المجاز أحد جزئي اللغة لا تتحقق في التفاهم إلا بهما معاً ، وبيننا أن كل شيء نسبي في الحياة ، فقد يكون الأمر المكروه في الناس محرماً على الرسل فيترتب عليه حكم التحريم وهو التأنيم للفرق بين العالم والجاهل وبين المحكوم والحاكم من شؤون واعتبارات جعلت أحدهما تابعاً والآخر متبوعاً ، فعلى المتبوع الذي هو قدوة أن يتحرج حتى في المكروه والمستهجن ، وإلا كان آثماً لأن المكروه في عامة الناس قد يجرهم إلى المحرم .

بقي علينا أن نوضح إمكانية العصمة في الناس : لماذا تكون نادرة ؟ قدمنا أن الرعية على قدر خوفها من الراعي واحترامها له ، وعلى مقدار هيبة سلطانه في صدورهم يكون إقدامهم أو إحجامهم في خرق القانون ، وعلى مقدار خوف الطفل من أبيه واحترامه له يكون ائثاره بأمره وانتهاؤه بنهيه ، وعلى مقدار خوف التلميذ وهيبة معلمه في نفسه يكون امثاله لأمره واجتهاده في درسه ثم على مقدار

حب العاشق حبيبه وعلى مقدار تلمحه في هذا الحب يكون إخلاصه له وحرصه على رضاه واستجابته لإرادته .

وهكذا نصل إلى النبي أو الوصى أو المؤمن ، وفي غير مكان من هذا الكتاب أشرت إلى ما أوجزه هنا من أن الدكتور أحمد زكى العالم المصرى كتب في مجلة الرسالة المصرية نقلاً عن أستاذه في جامعة برلين قوله لتلامذته وهو منهم قال : يا أبنائى إذا قيل لكم إن الأنبياء والرسل كانوا يمشون على الماء ويصعدون في الهواء بأنفسهم لا بوسائل أخرى فصدقوا ، لأننا بفضل اكتشافنا للتيار الكهربائى جئناكم بهذه المعاجز فبماذا نجيبكم لو اكتشفنا تيار الروح الذى راضوا أنفسهم به وهمنوا عليه بينما هو يهيم على الكون ؟؟ ، انتهى قوله بإيجاز وتلخيص .

فالتيار الروحى ، أو عالم الروح ، كما نطلق على ما يقابله عالم المادة ، تختص بالسيطرة على المادة لأنه أقوى منها ، وهناك عالم آخر يسيطر على الروح لأنه أقوى منها وهو عالم العقل ، وأقرب شئ يمكننا من تصور هذه العوالم الثلاثة مجتمعة هى السيارة التى بين أيدينا ، فالمادة هى الصلب الذى يتقوم به هيكلها القائم المحسوس ، والروح هى الحرارة الناشئة من البترول الذى تخرج به الصلب من عالم السكون إلى عالم الحركة ، والعقل أو إذا شئت أن تسميه علماً ، هو بمنزلة السائق من السيارة يوجهها كيف شاء .

فعلى مقدار خضوع المادة ، التى هى الآلات ، للحرارة بالحركة يكون تأثير البترول مصدر الحرارة فى الآلات دفعاً إلى الهدف وإلا تحطمت ، وعلى مقدار خضوع الحرارة للسائق وهو يتحكم فيها ، يكون تأثير العلم والعقل فيها توجيهاً للمادة وإلا انفجر البترول وهلك الثلاثة معاً ، فوظيفة المادة التى هى الآلات المولف منها هيكل السيارة ، ووظيفتها أن تتحرك بحرارة البترول التى نعبئ بها عن الروح ، ووظيفة هذه أن تتحرك تلك ، وأما وظيفة السائق الذى نعبئ به عن العقل فهى توجيه الروح التى هى الحرارة فى دفع الهيكل الذى هو المادة إلى حيث يشاء ، وهذه المشيئة يجب أن تقوم على الحق الذى يستلهمه العقل . ثم نرجع إلى التمثيل مقابلاً فنقول : إن على مقدار إخلاص العقل الذى هو السائق فى الهيمنة على الروح الذى هو البترول ، وعلى المادة التى هى الهيكل ،

أقول : إن على مقدار هذا الإخلاص في الهيمنة يكون لإخلاص البترول والصلب في الخضوع لإرادته ، ويتحقق إخلاص العقل الذي هو السائق بالتزامه الحق فيما يريد من تحريك سيارته ، وهذا الحق يقوم على فن التحريك الذي تلقنه علماً خاصاً بالسيطرة على المادة ، وعلى نبل الغاية التي من أجلها تحمل المسؤولية في قيادتها وتوجيهها ، وفي تركيب الإنسان شبه كذلك يلقي ضوءاً على العوالم الثلاثة ولكنه أدق منه في السيرة لذلك عمدنا إلى الأخف حكماً والأسرع فهماً .

ولنعد الآن إلى صلب الموضوع في قول الإمام وهو إحاطته علماً بما كان ويكون من الغيب ، وكونه قائماً على العصمة ، ثم كون العصمة ممكنة لمن يؤمن بالحق ، وهذا أي الإيمان بالحق ، ممكن لمن يضع بين يديه الناموس الذي تنزل به الروح الأمين على محمد فخضع له ثم عرضه محمد على أصحابه فخضع له منهم من خضع وتحرر منه من تحرر ، وكان الإمام على أرحب صدرراً لتلقي هذا الناموس ، وأكبر قلباً للتأثر به ، ثم كان أنضج دماغاً في الأخذ منه والإيغال فيه ، حتى أصبح موضع ثقة محمد في الحرص عليه والتضحية بين يديه من بعده ، وحتى كان مرجع الخلفاء الراشدين ، وأصحاب رسول الله الذين اتبعوه باحسان ، فكانوا يحدقون به ويشخصون إليه شخصهم إلى رسول الله في استلهم الحكمة واقتباس النور ، وذلك ما حمل عمر ، وهو أشد الصحابة أسراً ، على أن يقول : لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو حسن .

من هنا تفيض الحكمة وتتحقق العصمة ، فلكل هدف يشخص إليه الإنسان طريق نسميه علماً ، ولهذا العلم قواعد وأصول لا يمكن الوصول إلى ذلك الهدف إلا بادراك هذه القواعد والإخلاص في استخدامها إذ يشخص إلى غايته وعن في التوجه إليها والوقوف عليها ، وبين أيدينا كثير من أولى العلم الذين يشخصون إلى كثير من الأهداف ويحققون كثيراً منها بعد أن معنوا في الإخلاص للعلوم التي تؤدي إليها ، فهناك علماء الفلك وعلماء الطب وعلماء الكيمياء وعلماء الطبيعة ، ولكل منهم غايات شخصوا إليها فتمكنوا من الحصول عليها حتى جاؤنا بمعجزات تحار بين يديها العقول .

فعلى مقدار ما يخلص العالم لعلمه يكون شخصه إلى الهدف ووصوله إليه ،



وعلى مقدار حبك لأى شئ تعمل على الظفر به يستجيب لك ذلك الشئ بالخضوع لإخلاصك ، فهل بعد ذلك عجب فى أن تكون العصمة ممكنة لمن أحب وغلا فى الحب حتى ضحى فى سبيل محبوبه كل ما يحول بينهما من حياة ؟؟ وكم نتمثل بالكلمة المأثورة : صاحب الحاجة أعمى لا يرى إلا قضاءها « والكلمة الأخرى القائلة : حبك الشئ يعمى ويصم » ثم نمر بها ولا نمنع فى تحليلها ؟؟

فاذا أحب محمد أو على أو سلمان أو أبو ذر ، إذا أحب أحد هؤلاء ربه وغلا فى حبه ، وكانت غايته الوصول إليه فلم لا يكون أعمى عن كل ما يصرفه عنه ، ويحول دونه ، ؟؟ ومثل هذا الحب للمتصوف ألا يعمى ويصم عن كل شئ دونه ؟؟ ثم أليست هذه هى العصمة ؟؟ أو ليس بلوغها ممكناً لمن آمن ؟؟ أو ليس الوصول إلى الله هو غاية الغايات ؟؟ فلم لا يكون هؤلاء معصومين وقد ضربوا لنا الأمثال فى جهنم لله واستحالتهم فيه ؟؟ ولم لا يكونون بعد ذلك ملهمين منه ، يعلمون باطن الحياة وظاهرها ويحيطون علماً بما كان وما سيكون ؟؟

# الله

## أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ، فَهُمْ مُدَامُهُ اقْتَدِهِ .

تجئ هذه الآية بعد ذكره تعالى أنبياءه ورسله .

كثيراً ما يسألني أناس حرصوا على مصيرهم بعد الموت وهؤلاء كثيرون في المهجر الأمريكي إذ فارقوا وطنهم ثم يئسوا من العودة إليه وأشرفوا على مغادرة الحياة الدنيا ، وكان لي عندهم مجالس يفيضون فيها القول على تقرير هذا المصير ، وكنت أرى لدموعهم وهم يقولون : نخشى أن نخسر الحياتين معاً ، فهل لك أن تدلنا على طريقة تفضي بنا إلى الفوز بالأخرى بعد أن خسرنا الأولى ؟؟

ولقد مر بي ، قبل ذلك ، زمن وأنا حائر فيما حاروا فيه أتساءل ونفسي : إلى أين نمضي ؟؟ وما هي الحكمة من وجودنا ؟؟ ومن هو هذا الموجد ؟؟ وغير ذلك من الأسئلة التي يصطدم بها الفكر إبان نضجه ، وكنت أقنع بأن العقل أعجز من أن يصل إلى كنه الخالق بينما هو يعجز عن اكتناه أبسط مخلوقاته ، وإذا عجز العقل عن أن يكتنه خالقه عجز عن إدراك الحكمة من وجوده ومن حياته وموته ثم بعثه وحسابه ، لأنها جميعاً تتعلق بالخالق ، ولقد مر بي هذا التساؤل وأنا في العقد الثالث من سني حياتي وأشرت إليه في ديواني « نقد السائس والمسوس » المطبوع في لبنان سنة ١٩٢٨ حيث أقول :

وكم قائل لي : أين الآلهة فصفت ذاته لي وصف مسكنه ؟؟  
أرى الكون ضلت لديه العقول فكيف تحييط بمن كونه  
أقول : كثيراً ما يسألني من يثق بي : عما يحملني على ما أدين به مطمئناً  
إليه حريصاً عليه ، دونما برهان أقدمه بين يدي عقيدتي في أن ديني خير الأديان ،  
وأن ربي هو الذي لا إله إلا هو في الأرض والسماء ؟؟ فما أطيق الجواب عن  
ذلك بغير الجمل التي صدرت بها كتابي هذا ، وهي التي جرت على لساني  
إذ فكرت في إخراج هذا السفر للعالم وشرعت فيه ، تلك هي : عرفت الله بمحمد  
وعرفت محمداً بعلي ، إن مالا يردده عقل سليم : أن يقلد الجاهل العالم وأن يقتدى

العالم بالأعلم ، من أجل ذلك نرى كل ذى فضل من علم أو فن ، إذا كتب أو قال ، أسند ما يحتج به لصحة رأيه فيما يقول ويكتب ، إلى رأى من يثق هو ويثق سامعه بأنه أفضل منه ، وما أكثر ما نسند اليوم آراءنا في تدعيم حججنا علماً وأدباً ، إلى علماء الغرب وأدبائه لأن ما أسدوه إلى الإنسانية من علوم وفنون طغى علينا حتى لم نبصر غيرهم في تراثنا علماء وأدباء .

لقد كنت من هؤلاء الذين لا يرون وجهاً للحياة إلا تحت سماء الغرب ، ولا يثقون ، في قول أو عمل ، إلا إذا كان مصدره الغرب ، ثم يحتقرون كل قائل أو عامل لم يستند في التلليل على صحة قوله وعمله إلى الغرب حتى كأن لم يكن الشرق يوماً ما مصدرراً لكل أو بعض ما يأتبه الغرب من هذه البدع في تعزيز الحياة ، من أجل ذلك عمدت إلى دراسة الغرب في الشرق والغرب ، بعد أن درست الشرق في الغرب والشرق ، وأكثرت من التنقل بين العالمين القديم والجديد حتى أصبحت عريقاً في معرفة الشعوب قدمها وجدديها فخرجت بعد عشرين عاماً بهذه النتيجة التي لا يستطيع فكر أن يتعدها فيما يقول عن الغرب تلك النتيجة هي فيما يلي :

ان الغربي قد وصل في تفكيره إلى أبعد ما يصله مفكر في كنه الحياة الدنيا من علوم وآداب وفنون ، خليقة أن ترفع الإنسان من مستواه الحيواني إلى مستواه الإنساني ولكنهم لم يتخذوا علومهم هذه وسيلة إلى ذلك وإنما اتخذوها وسائل تفضي بهم إلى تعزيز الجشع والأنانية والاستئثار حتى آلت بهم إلى الانحدار من مستوى الإنسانية إلى مستوى الحيوان الأعجم ، وبرهان ذلك ما نرى ونسمع من تناحرهم في سبيل حياة لم يفكروا في الغاية من وجودهم تحت سماءها . ورجعت من أمريكا وأوروبا ، بعد سنين وسنين تقلبت فيها على نعم القوم ، ولم أحرم نفسي من كل ما يعدونه في صمم الحياة من ترف ورفاه ، رجعت بهذه النتيجة التي مرت بالقارئ قبل سطور والتي ضربوا المثل بها قائلين : الحياة هي أن تملأ جيبك وتركب سيارتك ، أقول : رجعت بعد ذلك إلى ما كان يغدني به أبي ، ذلك الرجل الأحمى الذي لم يدرس من الحياة إلا القرآن وبعض الحديث ، ولم يفقه من الدين إلا ما اشتملت عليه رسائل الفقهاء من مسائل

وتعليقات ، ثم لم يوت من حطام الدنيا أكثر من الحزب الحقيق والادام التافه . رجعت إلى ما كان يغذى هذا الشيخ الجليل به روى من نصائح ومواعظ بأن أدرس العلوم والآداب والفنون ما استطعت ولا أغفل عن الغاية التي يرمى إليها العلم والأدب والفن ألا وهي الإنسانية التي دعا إليها الله في كتبه السماوية وعلى ألسن رسله وأوليائهم » ثم إذا أمعنت في استقفاه معنى هذا الإنسانية لم يزد على قوله : أنها معرفة الله والإيمان به وبرسله ، فأقول له : وكيف يتسنى لي ذلك ؟؟ فيقول : أدرس القرآن والحديث ونهج البلاغة ففيها الكثير مما تحب أن تعرف » ولقد مات ، رحمه الله ، وفي نفسه حسرة أن يراني قبل موته ففيها وشاعراً ، أما فقيهاً فلاأخدم الحق بفقه الحياة عن طريق الدين ، وأما شاعراً فلاأفهم كلام الله وكلام رسوله وكلام إمام الباغاء على بن أبي طالب ، وكان كثيراً ما يصارحنى بذلك ، وطالما مهد لي السفر إلى النجف لأدرس الفقه وأنا غصص العود وكنت قد أنهيت دروسي الابتدائية في مدارس الحكومة ، وشرعت في دراسة المقدمات للفقه من نحو وصرف وبيان ، ثم فاجأتنا الحرب العالمية الأولى ولم أنهد إلى الخامسة عشرة من سني حياتي ، فقضى نحبه وهو يوصيني بتحقيق أمله في أن أدرس الفقه وأتقى الله .

وتضع الحرب أوزارها عن كتل بائسة من البشر وأشلاء أمعنت في صهرها الحرب على النار والحديد ، وأراني بعد ذلك حريصاً على تنفيذ وصايا أبي ، ولعلني كنت أحلم بتنفيذها ، ولم أفق من حلمي هذا إلا وأنا في النجف أجثو على ركبتى متلقياً فقه محمد وآل محمد على أعلام الأمة ، وكنت أحس بثورة عارمة في نفسي على هؤلاء الذين هم قادة خمسين إلى سبعين مليوناً من شيعة أهل البيت ، ولم أر فيهم إلا من يتجه بفقهه إلى الآخرة وهو أعمى عن كل ما يحدث به من دنياه ، والا من يتجه بفقهه إلى الدنيا وهو معرض عن كل ما يشير به إلى أخرها ، وما زلت أحمل هذه الثورة في صميم نفسي حتى عدت من أميركا بعد خمسة وعشرين عاماً وزرت العراق ووضعت كتاب « وحى الرافدين » يحمل تلك الثورة العارمة .

أقول : لقد عدت بعد تنفيذ وصايا أبي في درس الفقه إلى حد ما ، واحتراف

الشعر إلى حد ما ، فعكفت على دراسة القرآن والحديث ونهج البلاغة بعد ثلاثين عاماً مرت على وفاة أبي ، وكنت خلال هذا الجيل من الأعوام ، قد صعدت وانحدرت مراراً في تيار هذا العصر الجارف متأثراً بالغرب المادى تارة وبالشرق الروحي تارة أخرى حتى وقفت عند ترائي النفيس الذي غرسه أبي في صدرى قبل أن أفقه الحياة ، وكم للتراث من أثر في النفس يغلب كل أثر ولو بعد حين .

وانتهيت من دراسة هذه الكتب إلى أن التقليد فيما يستعصى على العقل حله من مشكلات العلوم القائمة على اكتناه الحياة وراء ما نحس ، هذا التقليد هو أمر لا محيد للعقل عنه ، فان التفاوت بين العقول كائن ، وان هذا التفاوت حجة على الإنسان في أن العلم لا حد له ، من أجل ذلك كان على المرء أن يفكر في حياته وأن يعمق في هذا التفكير للوصول إلى الغاية التي من أجلها كان حتى يصل فيقف مطمئناً إلى حياته ، أو يعجز فيعمد إلى من هو أنضج عقلاً وأسمى تفكيراً منه ، فيتأثره ويمضي على نهجه مطمئناً كذلك إلى حياته ، وفي يقينى أن هذا الاطمئنان هو العامل الأول في توفر الإنسان على العمل الذي خلق له على هذه الأرض وتحت هذه السماء كائناً حياً .

والدراسة التي رضت نفسى عليها في حياة محمد وناموسه الأعظم من فرقانه ، ومن سيرته على ألسنة الصحابة وأقلام المؤرخين من قدماء ومحدثين في شرق الأرض وغربها ، هذه الدراسة التي بدأتها وأنا مقبل على الحياة في شبابه ، وانتهيت وأنا ريان منها في كهولتى ، هذه الدراسة أوقفتنى عند قوله عز من قائل : فهذه هم اقتده « مفكراً في أن الاقتداء عنصر هام وسبيل أول يفضى بالإنسان إلى الحق الذى ينشده والهدف الذى يرمى إليه من وراء تفكيره .

ورأيت أن قادة الفكر في العالم من قبل ومن بعد يجمعون على أن العبقري الأول في مجموعة الإنسان هو محمد بن عبد الله ويليهِ على بن أبى طالب ، ثم رأيت من دراستى ثانيهما أنه لم يحد عن طريق الأول قيد لحظة في حياته وبعد موته ، وأنه لو خامرة أقل ريب في دينه لبدّ معاوية في غدره وفجوره ، ولكان أقوى منه في شراء الضمائر واستهواء النفوس المريضة بالمال والرتب ، ولكان عباد الشهوات أكثر إقبالا عليه منهم على خصمه ، ولكن إيمانه العاصم من وراء

عقله الجبار المشيع بتعاليم محمد ، وقف به عند النصحية بما يفنى في سبيل الخلود ..  
 فبعقل على هذا الذي كان مرجع الخلفاء بعد محمد ولا يزال إلى اليوم مصدر  
 العبقرية في الوجود ، بهذا العقل الذي كان كذلك ثم لم يتهافت بين يدي حياته  
 الدنيا مع قدرته على امتلاكها ، أدركت أن وراء هذه الحياة حياة أسمى ،  
 وخلف هذه الدار داراً أبقي ، عرفها محمد قبل على عن طريق الوحي وعرفها  
 على بعد محمد من تاقين محمد إياه ، إذ يقول : والذي بعث محمداً بالحق واصطفاها  
 على الخلق .. لقد عهد إلى منجى من ينجو ومهلك من يهلك ... وما أبقي شيئاً  
 يمر على رأسي إلا أفرغه في أذني وأفضي به إلى ... »  
 فإذا كنت أحقق أمراً علمياً أو أدبياً أو فنياً أو فلسفياً وأقتنع بصحة رأيي  
 فيه من تأثري من هو فوق في العلم والأدب والفن والفلسفة ، فلماذا لا أقنع  
 بصحة رأيي في فقه الدين من تأثري من هو فوق فيه عاماً وعملاً وإخلاصاً ؟؟  
 إن سجل عباقرة العالم منذ عشرات القرون حافل بفكرة الدين وأنها حق ، ثم إن  
 سجل عباقرة العالم منذ ألف وأربعمائة عام حافل بعظمة محمد وعلى في جبروت  
 العقل فلم لا تأخذ هؤلاء جميعاً قدوة لي فيما أدين لله به وأنشد الخلود له ؟؟ إلى  
 إذن لخاسر وسفيه .

اللَّهُمَّ أَرِنَا الْحَقَّ حَقًّا وَارْزُقْنَا اتِّبَاعَهُ وَأَرِنَا الْبَاطِلَ  
بَاطِلًا وَارْزُقْنَا اجْتِنَابَهُ

محمد

شهدت في منتدى رابطة الموظفين عصر ، حفلا أقيم لنشر الثقافة والدين ،  
وتكلم فيه الشيخ محمد أبو زهرة أحد علماء الأزهر ، وجاء في كلمته على ذكر  
أبي طالب رحمة الله عليه ورضوانه ، مثبثاً أنه مات مشركاً ولكنه أثنى عليه  
بما هو أهله من رعاية محمد وحمايته من عتاة قريش .

وكان لابد لي من التعقيب على هذه المحاضرة ، إذ كنت حريصاً ، وفي أي  
حفل ، على أن لا يفلت مني حق مظلوم حتى أرد ظلامته ، وكان لابد لي أيضاً  
من الثناء على المحاضر قبل أن أقول كلمتي ، لما أفاض فيه من قول جليل ، ثم خلصت  
من الثناء إلى اللوم والعتاب على أن يفقه العالم حقيقة الدين فيصل به فقهه إلى  
الرضي عن أبي سفيان وعن سخله معاوية ، ثم عن مروان وعن عمرو بن العاص ،  
بل عن يزيد كما يروى لنا التاريخ في سيرة أبي حامد الغزالي الذي لم ير حرجاً  
في ضرورة الترحم على يزيد لأنه ثبت لدينه إسلامه ، أما كيف ثبت إسلامه فلم  
يتحدث إلينا به أقول :

يفقه العالم فينا حقيقة الدين فيصل به فقهه إلى الرضي عن هؤلاء والتوقف  
عن طلب الرحمة من الله لأبي طالب ، وقد أجمعت الإنس والجن والملائكة  
والشياطين على أن أباطالب عصم رسول الله من عدوان المشركين طوال حياته ،  
كما أجمعوا على أن أولئك قد حاربوا رسول الله طوال حياته ، فكيف نقول  
ثم ماذا نقول لهؤلاء البسطاء الذين أوتوا العلم وفقدوا العقل الذي يوجه العلم إلى  
حيث يسمو به الإنسان عن قبيل الحيوان ؟؟

قلت في موقعي ذاك معقباً على محاضرة الأستاذ أبي زهرة : بالأمس قرأت  
في صحيفة «لواء الإسلام» التي يحررها جماعة من العلماء وعلى رأسهم الشيخ  
أبو زهرة ، قرأت كلمة لأحدهم تشير إلى فضل الإمام جعفر الصادق ، وتنقل  
أن اباحنيفة قال : ما دخلت على جعفر إلا وجدته صائماً أو مصلياً أو يقرأ

القرآن ، فاذا كان جعفر كذلك وهو إمام ستين مليوناً من المسلمين شيعة أهل البيت فلم لا نأخذ قول هذا الإمام حجة في ثبوت إسلام أبي طالب ؟؟ على أن هذا الثبوت لم يقتصر على الشيعة وإنما رواه بعض أهل السنة في السيرة الحلبية ، فلماذا نأخذ برواية معاوية في صحيح البخارى ولا نأخذ برواية جعفر بن محمد الصادق أستاذ الأئمة الأربعة ؟؟

وإذا كان رسول الله قد بكى عمه أبا طالب واسترحم له ربه وشكا بعده ضعفه وتشريده وطلب الحماية من قريش بعده فلم يحره أحد ، وإذا كان قد أعلن بعد انتصاره واستعلائه على المشركين ، سخطه على الطلقاء من آل أبي سفيان ، وإذا كان هؤلاء حققوا بعد موته صدقه وعدله في هذا السخط إنما فعلوه في الدين من الهتك والتجريح ، أقول : إذا كان ذلك كذلك فهل يبقى في وجوهنا قطرة من حياء وفي رؤسنا ذرة من عقل إذ نعلم إلى أبي طالب فنتخرج من الترحم عليه ونعده مشركاً ثم نعلم إلى معاوية فنتخرج من السخط عليه ونعده صحابياً ومسلماً فنغدق عليه الرضوان والرحمات : ما أسفه الإنسان إذا لم يعقل فيما يقول أو يفعل !!

ويقوم الشيخ أبوزهرة بعد ذلك فيقول : أما أبو طالب فانما نعهده من المشركين ليكون على إشراكه بما أسداه للإسلام في حماية محمد والذود عنه أفضل من الكثير بعد الفتح على إسلامهم وفي هذا ما فيه من تعظيمنا لأبي طالب ، وأما الشيعة فهم في صميم الإسلام وفقههم فقه أهل البيت وكثيراً ما نلجأ إلى آراء الفقهاء منهم في التفسير والأصول والاستنباط ، وإمامهم جعفر هو إمام الأئمة « ومجلس بعد ذلك إلى فيقول : لقد كنت في مطلع شباني مغرقاً في حب الإمام على ومعناً في تفضيله على سائر الصحابة ، ولكني بعد أن وعيت وفقهت رجعت إلى أن علياً كرم الله وجهه أحد أصحاب رسول الله وأنه يفضل بعضاً منهم ويفضله البعض الآخر .

ها هنا أحببت أن أقف وأتمثل بقول الرسول في صدر هذا البحث ، اللهم أرني الحق حقاً وارزقني اتباعه وأرني الباطل باطلاً وارزقني اجتنابه « ولم أشأ أن أسأله السبب الذي من أجله كان يرى علياً أفضل الصحابة في شبابه ثم أصبح



في كهولته يراه مفضولاً لبعض هؤلاء الأصحاب ، لم أشأ أن أسأله ذلك لأنه من الصعب على المرء وهو مقبل على الشيخوخة أن يصبح رأياً كان عليه وهو في غمرة الشباب ، ولقد كنت هممت أن لأغادر النادي حتى أقول له : رب شباب يستلهم العاطفة خير ألف مرة من شيخوخة يستعبد بها العقل .

ان العاطفة التي هي وليدة الطبع أصدق في الإلهام من العقل الذي هو وليد المجتمع ، والمجتمع هو هذا الذي نراه لا يزال منذ ألف عام يطبع حياته بطابع الدين التقليدي الذي أمعن أعداء الإسلام من عرب خانوا رسالتهم وعجم أخلصوا لوثنيتهم ، أمعنوا في تشويه الإسلام الصحيح الذي شرعه محمد وارعاه البررة من أصحابه وعلى رأسهم على يملى عليهم تأويله وتعزيزه والتضحية في سبيله ، ليت الشيخ أبا زهرة ذكر السبب الذي من أجله فضل على على بعض أصحاب محمد مستلهماً بذلك طبعه لا تطبعه ، فان الذي بين أيدينا مما نطبع به أنفسنا ثم نطبع عليه ناشئتنا لا يقره منطق ولا يصبح عليه تفكير .

لمثل هذا قال رسول الله عليه صلوات الله وسلامه كلمته تلك التي تشعرونا بأن الحق لا يكون حقاً في الواقع حتى نراه كذلك ونؤمن بأنه حق ، ثم لانكون بعد ذلك محققين حتى نعمل به ونتبعه ، وأن الباطل لا يكون باطلاً في الواقع حتى نراه كذلك ثم نؤمن بأنه باطل وأنه يجب علينا اجتنابه ، وأي حق أوضح من على في حياة محمد وبعد مماته خليق بأن نتبعه ، وأي باطل أكبر من أن نتجاهل فضله السائد بعد محمد أو أن نتنكر له ؟؟

ويا ليت أبا زهرة ومن قال قوله من علمائنا الأعلام يا ليتهم ذكروا السبب الذي من أجله وثقوا برواية من أثبتوا أن أبا طالب مات على الشرك ، ولم يثقوا برواية من ثبت لديهم أنه مات على الإسلام ، وإذا صح لدينا أن بعض الرواة كجعفر بن محمد الملقب بالصادق والثابت أنه من أهل بيت رسول الله وأنه صاحب مذهب الإمامية الذين يفضلون عدداً بعض المذاهب الأربعة ، أقول : إذا صح لدينا أن أباطال مات مسلماً عن طريق جعفر ابن محمد فلم لم نعمل به ؟؟ أنجعل رواية أبي هريرة وأمثاله في صحيح البخاري وأمثاله أصح من رواية جعفر بن محمد وأمثاله في إثبات إسلام أبي طالب ؟؟

— ٢٢٤ —

لم لانعول على أضعف الروايات ، وندحض بها أصح الروايات في سبيل الحق الذى تقر به عن محمد الباكية على عمه أبى طالب ؟؟ أياغضب رسول الله أن أخذنا برواية ابنه جعفر الصادق في تنزيه أبى طالب عن الشرك ويرضى ان أخذنا برواية بعض الناس أنه من المشركين الذين لا يصح أن نرضى عنهم وأن نستغفر لهم ؟؟ أياصح لنا أن نرضى عن معاوية الذى سن لعن على وأهله بعد الصلاة والذى أخذ البيعة لابنه يزيد والسيوف مشرعة على رؤس الصحابة ، حتى أباح مدينة الرسول وحماه لعتاة جنوده ، ثم نوؤمن بأن معاوية مأجور في ذلك لأنه مجتهد ، ونتخرج في الرضى عن أبى طالب ونعده مشركاً ؟؟ فسبحانك اللهم هذا هتان عظيم .... اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه يارب .

عَلَى

لَوْ ضَرَبْتَ فِي مَذَاهِبِ فِكْرِكَ لَيَبْلُغَ غَايَاتِهِ  
مَا دَلَّتْكَ الدَّلَالَةُ إِلَّا عَلَى أَنَّ فَاطِرَ النَّمْلَةِ هُوَ فَاطِرُ  
النَّخْلَةِ ، لِذَقِيقِ تَفْصِيلِ كُلِّ شَيْءٍ ...

وغامض اختلاف كل حي ، وما الجليل واللطيف والثقل والخفيف والقوى والضعيف في خلقه إلا سواء »  
كان كثيراً ما على أي علي : إن الأئمة يا بني في عصمة عن الخطأ كالأنبياء لأنهم ورثتهم ، وتما أن محمداً سيد الأنبياء كذلك على فانه سيد الأوصياء ، والأوصياء كالأنبياء في علم الغيب ، ومن أغرق في أقوالهم ير العجب من رموزهم وإشاراتهم إلى كل ما حدث وسيحدث في العالم ، ألا تسمع قول الإمام وهو يصف الأرض بقوله : وأسكنها ، على حركتها ، من أن تميد بأهلها » فانه يشير إلى أن الأرض متحركة والعلم الحديث يعزو هذا الكشف إلى العلماء المحدثين .  
ومن قول الإمام ما أسمعني بعض الرواة ولم أقرأه في النهج ، قوله : لو شئت لجعلت لكم من الماء نوراً يكشف الظلم » يشير عليه السلام إلى الكهرباء وقد مر بالقارئ في غير مكان من هذا الكتاب قريب من ذلك ، وقد قيل لي ان كثيراً مما نسب إلى الإمام لم يسجله الشريف الرضي في نهج البلاغة لاختلاف الرواة على صحته ، على أن الشريف ليس جامعاً محيطاً بكل ما قال الإمام ، فقد يكون ما فاتته منه فوق ما عثر عليه ، وإذا كان ما اتصل بنا عن رسول الله خلال اثنتي عشرة سنة قد ملأ الطوامير فكيف نحصر ما اتصل بنا عن علي ، وهو باب علمه ، ففي نهج البلاغة ما لا يكاد يستوعب قول الإمام عن عام واحد وقد لبث أربعين عاماً يقول ويكتب ويخطب وهو أعلم الصحابة بعد رسول الله وأبلغهم وأقضاهم ؟؟؟

فلنعد إلى عظمة العقل في قوله : ما الجليل واللطيف والثقل والخفيف والقوى والضعيف في خلقه إلا سواء » فان غاية ما وصل إليه العلم الحديث في

تعليل الكائنات هو عين ما أشار إليه الإمام بقوله هذا ، فقد تحدث إلى ، وأنا في مدينة ديرويت مشغن إحدى ولايات أميركا الشمالية تحدث إلى الدكتور محمد كاشف الغطاء آنذاك ، وكان يدرس في جامعة مشغن ، قال : لقد شهدت رئيس محفل الأتوم بالأمس يلقي محاضرة في بحث الذرة ، جاء فيها قوله :

« ان العنصر الأول في تقويم كل كائن والذي كان يسميه الحكماء الأقدمون بالجوهر الفرد ، هو ما نسميه الآن بالذرة ، وهي تصغر عما تراه العين ثلاثة ملايين ضعف ، ولقد كشف العلم الحديث عن أن هذه الذرة غير بسيطة كما كان يعتقد الحكماء في الجوهر الفرد ، ولكنها مركبة من نواة تدور حولها كهارب على شكل نظامنا الشمسي ، وسرعة هذه الكهارب في دورانها حول الذرة كسرعة الكواكب في دورانها حول الشمس فكل كائن حي أو جاد يتقوم بهذه الذرة المركبة من نواة تدور حولها كهارب تختلف قلة وكثرة فيختلف الكائن المركب منها صلابة ولينا ، فعناصر التركيب في الماء مثلاً هي عينها في الفولاذ ، وما نأكله هو عين ما نلبسه » يقول محدثي : وفي نهاية البحث نحني المحاضر ظهره ثم يقول : آمنت أن خالق الكون واحد لأن طراز خلقه واحد .. »

وكلام الإمام جلي في إثبات وحدة الخالق من دقة الصنع ووحدة الطراز في هذه الدقة وتساويها في الأشياء والأحياء كبيرها وصغيرها كالنخل والنمل حتى كأنه يتنبأ للعلم في هذا العصر أن يكون طريقاً للاقرار بواحدانية الخالق ، وحتى كأن أول من صدقت فيه نبوءة الإمام هو هذا العلامة الأمريكي الذي ألقى بحثه من على منبر الأتوم في جامعة مشغن على طلاب هذا العلم وفيهم الأستاذ العراقي محمد كاشف الغطاء ، فاعجب لعظمة الإلهام في نفس على وهو تلميذ محمد قبل ألف عام يبعث في عصر النور هذه العظمة القائمة على اكتشاف الذرة وتفجيرها في نفوس الأعلام من علماء القرن العشرين .

أجل : لا فرق بين النملة الحقةرة الصغيرة ، وبين النخلة الجلييلة الكبيرة من حيث الخلق الأول ثم من حيث الدلالة على أن خالقهما واحد ، فدقة الصنع والتفصيل إلى غموض الخلاف بين المخلوق والمخلوق ، يعودان إلى وحدة في الخلق سواء ، وفي ذلك دلالة على وحدة المصدر الذي كائنا منه »

هكذا يقول ، أو يريد أن يقول على اليتيم تلميذ محمد اليتيم ، وكلاهما تخرجا من أرض قفر خلاء لا أثر لحضارة الإنسان تحت سمائها ، ولعلمها قفر خلاء من كل ما يؤهل الإنسان لأن يتحضر ، يريد على ربيب محمد وتلميذ حكمته ، أن يشير بقوله هذا إلى أن دقة الصنع في الكبير منها ضخم حتى يملأ فضاء العين ، وفي الصغير منها تضاعف حتى لا تتركه العين ، يريد أن يشير إلى أن هذه الدقة تستعصي على العقل أن يدركها أو يحيط بها ، ولا سبيل للعقل في إدراكها إلا أن يخلص في إيمانه بعظمة خالقها فتتكشف بن يديه عن أسرار الحق في صميمها وحده وجلالا كما تكشفت لأستاذه محمد وتكشفت له بعده دونما قراءة في كتاب أو دراسة لعلم .

هذا القول وأشباهه من أمالي أولى الوحي وسندنة الإلهام هو الذي جعل المفكرين في جامعة برلين يعقدون المؤتمرات ، عندما أكبروا جابر بن حيان باعث الجبر المشتق من اسمه ولم يققوا له على مصدر العلم الذي وضعه ولم يزل أكثره رموزاً لم تتبينه عقولهم ، أقول : هذا الذي جعلهم يأترون للتفكير في إمكان تلقي العلوم والفنون عن طريق الإلهام ، إذ ثبت لديهم أن جابراً هذا لم يدرس على غير جعفر الصادق ، وإن علم جعفر ورأى عن آبائه حتى محمد ، وقد أشرنا إلى ذلك في غير هذا المكان .

أذكر وأنا صبي ، سمعت من خطيب منبر يذكر : أن في سبي الطاغية يزيد بن معاوية لأهل بيت محمد اللواتي وردن من العراق بعد قتله الحسين على الشام ومثلن بن يديه ، كان فهم زين العابدين على بن الحسين وهو صبي لم يراهق وقد نجا من القتل في كربلاء لأنه كان مريضاً ، يقول الخطيب : ان هذا الصبي عندما مثل السبي بين يدي يزيد وهو في مجلس حافل بأعيان الشام ، طلب الإذن في القول فأبى يزيد أن يأذن له ، فقال له بعض جلسائه : دعه يتكلم فإذا محسن أن يقول وهو في حديثه هذه ؟؟ فقال يزيد : اسكت انهم أهل بيت زُقُوا العلم زُقا »

سألت أبى عند انتهاء الحفل ، وكان لذكرى الحسين شهيد كربلاء ، سألته عن معنى : زُقُوا العلم زقا » فأجابني بقوله : ان يزيد يعنى بقوله هذا أن أهل

— ٢٢٨ —

بيت الرسول علماء غير معلمين بما تلقوه عن أبيهم وجدهم من علم الله بطريق الوحي « وهذا مصداق ما جاء عن رسول الله بالسند الصحيح قوله : اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » وقوله : من زهد في الدنيا علمه الله بلا تعلم وهواه بلا هداية وجعله بصيراً وكشف عنه العمى « وليس الزهد في الدنيا تركها وإنما هو الأخذ بحلالها والعزوف عن حرامها ، وهو عين الإيمان الذي ينظر العبد من ورائه بنور الله ..

أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ... إِنَّ الدِّينَ فَرَّقُوا  
دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ...

الله

مخاطب ، جل وعلا ، بقوله هذا أنبياءه من نوح إلى إبراهيم ثم إلى محمد .  
وإذا تخاطب الله رسوله بحكم فأنما يسوق هذا الحكم إلى عباده عن طريق رسوله ،  
فكل آية في القرآن تشتمل على تشريع أو عظة يأمر بها الله أنبياءه فأنما يقصد بها  
التبليغ على ألسنتهم إلى سائر خلقه ممن يعقل لئلا يكون على الله حجة في عدم  
التبليغ وهو المسئول عن عباده . ولقد كرر سبحانه حكمه هذا في تحذير عباده  
من الفرقة في الدين فقال في موطن آخر : ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً  
لست منهم في شيء » ولست مع من يفسر الفرقة في كنه الدين فتختلف الأمة  
في التوجه وعدمه وإنما الفرقة في الدين هي الخلاف ضمن حدوده ، وهو ما نسميه  
باختلاف المذاهب ، لأن الخلاف بين التوحيد وعدمه ليس خلافاً في الدين  
وإنما هو خلاف بين دين ولا دين .

فالفرقة التي ينهاها الله عنها في صميم الدين وهي عين هذه الفرقة السائدة فينا  
باسم شافعية ومالكية وحنبلية وحنفية وجعفرية ، وزيدية ، وغيرها من المذاهب  
ثم بين شاذلية ونقشبندية ، ورفاعية وقادرية وغيرها من الطرق ، هذه الفرقة  
التي كثيراً ما أفضت بنوينا إلى التنازع والتشاحن ، وإلى التباغض والتناحر ثم  
إلى التفتيق والتكفير ، فقد نقل لي السيد علي محي الدين البقاعي وهو مهاجر في  
نويرك ، نقل لي أيام نزولي ضيفاً عليه في أمريكا قوله :

لم أعرف نفسي مسلماً إلا في هذه البلاد لبعدي فيها عن تناحر المسلمين  
في أوطانهم باسم الدين تحت وطء الفرقة في المذاهب » ثم قال : أذكر وأنا صبي  
سمعت ليلة ما ضجة كبيرة في بلدي فسألت بسببها فقالوا : مر بالقريّة رجل  
رافضى فتعقبوه خارج البلدة حتى غربت الشمس وقضوا عليه ثم واروه في  
غار ، فأصبحت إذ ذاك على صغرى بمثل القشعريرة من تأثير ما سمعت على  
حواسي ، ولم أزل إلى اليوم أحاسب قومي في نفسي على ذلك العمل الشنيع .

وينقل لى السيد أديب خان فى دمشق ، ونحن نستعرض الفرقة فى الدين وما أدت إليه من ضعف فى أخلاق المسلمين ، والسيد أديب هذا هو من أنساب أمان الله خان ملك الأفغان السابق ، تحدث إلينا فى منزله بالشام فقال : شهدت ذات ليلة اجتماعاً دينياً فى مدينة كابل فطاف علينا صاحب المنزل بطبق فيه مثل حب الهال ، وكان كل منا يتناول حبة ويأكلها فكنت كذلك ولكنى إذ مضغت هذه الحبة لم أكد أسيغها طعماً وريحاً فسألت من هو بجانبى عن كنه تلك الحبة ؟؟ فقال : هذه قطعة من لحم رافضى يدين بمذهب خامس ، وأصحاب الزوايا إذا ظفروا برجل من أتباع هذا المذهب قتلوه ثم جففوا لحمه وقطعوه كما ترى ليطوفوا به على رواد زواياهم عند الذكر تقرباً إلى الله بأكله »

فليسمع من له أذنان ، وليفكر من له عقل فى المسلمين إلى أية مرحلة بلغ بهم الجهل والسفه فى الحياة من وراء تفرقهم فى الدين ، لهذا كنت مغتبطاً إذ وردت مصر واجتمعت إلى نفر صالح من علمائها يديرون مؤسسة تدعى : « جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية » ويصدرون صحيفة باسم « رسالة الإسلام » ناطقة بلسان أولئك الجماعة وحافلة بروائع الفكر الحديث فى الإسلام بأقلام مفكرين معتدلين مخلصون للحق فيما يكتبون ، عاملين على تنزيه الإسلام من أوضار الفرقة فى أهله ، وقد عززوا هذه الصحيفة بمؤسسة علمية أسموها « معهد الدراسات الإسلامية العليا » ولقد شهدت بعض ندوات هذه المؤسسة وسمعت أقوال الاعلام من رجالها .

ولقد تحدث إلى باعث هذه الفكرة العلامة الشيخ محمد تقى القمى الإيرانى القائم على هاتين المؤسستين الصحيفة والمعهد ، قال : الحقيقة أنا لم تقدم على هذه المهمة الإسلامية للتقريب بين مذاهب أهل السنة أو مذاهب أهل الشيعة ، وإنما عملنا يستهدف للتقريب أولاً وقبل كل شئ بين مذهبي السنة والشيعة على إطلاقهما لأنهما المذهبان الوحيدان اللذان يتقرب بهما الدين الإسلامى ، وتباعد ما بين المذهبين لم ينشأ عن جعفر بن محمد الصادق إمام الشيعة ، ولا عن أبى حنيفة وزملائه من أئمة السنة ، لأنهم كانوا قدوة صالحة فى تقدير بعضهم بعضاً ، ولكن التباعد نشأ من أتباعهم وبعد قرون مرت على زوالهم ، واعتقد أن للدخلاء على الإسلام



قبلاً وبعداً كل ما أوجب الفرقة بينهم ، فعسى أن نتوفق لإزالة هذا السم الخبيث المتأصل في نفوسهم من رواسب ذلك الدس »  
أقرأ على الدوام بعض الصحف الإسلامية في القاهرة وخاصة مجلة لواء الإسلام ، وأخرج منها بأن الإسلام قاصر على المذاهب الأربعة ، إذ يجيب محرروها ما يلقي عليهم القراء من أسئلة تتعلق بأحكام الإسلام ، يجيبونهم بفتاوى قاصرة على الأئمة الأربعة : أبى حنيفة والشافعي ومالك وأحمد ابن حنبل ، ولم أجد أحداً منهم يجيب السائل بفتوى جعفر الصادق وهو معلم الأئمة الأربعة ومحل تقديرهم ، فكنت إذ ذاك أتساءل ونفسي : لماذا هذا ؟؟ أليست هذه فرقة في الدين ؟؟ ثم صممت على سؤال المجلة بفحوى ما أنكرته عليها من ذلك فكتبت للصحيفة ما يلي :

اخواني الأفاضل محرري ندوة لواء الإسلام  
أراكم في إصدار الفتاوى الشرعية لسائلكم من قراء المجلة تحضرون هذه الفتاوى بالأئمة الأربعة وتهملون الإمام جعفر بن محمد الصادق الذي نقلتم في مجلتكم هذه إكبار الإمام أبى حنيفة له بقوله : ما دخلت على جعفر بن محمد إلا وجدته صائماً أو مصلياً أو يقرأ القرآن وانكم لتعلمون أن فقه جعفر هذا يدين لله به من المسلمين ما يزيد على خمسين مليوناً ، ولعل أتباعه يربون على اتباع أحد الأئمة الأربعة ، وتعلمون أيضاً أن المكتبات الإسلامية مشحونة بفقه جعفر ، وأن مدارس النجف حيث يرقد بطل الإسلام على تضم عشرات الألوف من رواد الفقه الجعفري منذ قرون ، وإن لجعفر هذا آراء يرتضيها بعض أهل السنة فوق ما يرتضى آراء تناقضها في المذاهب الأخرى .

وتعلمون أيضاً أن التنكر لهذا العدد الذي يناهز الخمس أو السدس من مجموع الأمة الإسلامية والذي يطلق عليه اسم الشيعة الإمامية الجعفرية ، ان هذا التنكر يسىء إلى الوحدة الإسلامية القائمة على قوله تعالى : أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، وقوله عز من قائل : ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء » فلم لا تتقربون في فتاواكم هذه من الشيعة لتقربوهم إليكم ، ثم لم تتجاوزوا معهم في تجديد الفقه الإسلامى ؟؟ ولم تدعوا لتعزيز جماعة التقريب

بين المذاهب الإسلامية ؟ وبعد ذلك لم لم تنادوا بضرورة المؤتمرات العلمية لتعزيز  
الفقه الإسلامي في الأزهر وتدعوا أعيان علمائهم ليشهدوها ويسهموا في تعزيزها  
ثم يعملوا هم لعقد مثل هذه المؤتمرات في النجف ويدعوكم لتشهدوها وتسهموا  
في تعزيزها ؟؟

انى أرى أن في الطليعة من صحف الإسلام مجلة الأزهر ومجلتكم ومجلة رسالة  
الإسلام ، فلم لم تتضمن هذه الصحف في الدعوة إلى الوحدة الإسلامية بتوحيد  
هذه المذاهب التي تتفق وأصول الإسلام ثم تختلف بالفروع التي هي إلى القشور  
أقرب منها إلى اللباب ؟؟ لم لم تركوا هؤلاء الأئمة متراحين في مراقبتهم لا يقلقهم  
تناحرنا باسم المذاهب التي لم يشرعوها لنا إلا لنتحد في حظيرة الإسلام ونضوى  
نحت لوائه ، ألا يصح لي أن أكون مسلماً ومسلماً فقط ؟؟ دون أن أكون حنيفاً  
أو جعفرياً ؟؟ إذن ماذا كان محمد وأصحابه الأبرار فيما يدينون الله به ؟؟

ولقد وقفت على شواهد من هذا التناحر بين أتباع كل مذهب وأشياع  
المذاهب الأخرى مالمو شرحته في هذا السفر لخرجت من ديني ، لأن تصور  
صدور هذه الأجرام التي يترفها معتنقو كل مذهب ضد معتنقي المذاهب الأخرى  
أقول : ان مجرد تصور تلك الجرائم يبرأ الإسلام منها إلى باعته ويناجيه أخيراً  
كما ناجاه أولاً بقوله : ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء ..  
وحسبي أن أنقل شاهداً واحداً هو بين سمعكم وبصركم ، ان الدكتور  
على عبد الواحد وفي روى لي أنه كان في العراق يسمع بأذنيه شتم آل البيت من بعض  
أهل السنة لأنهم يعتنقون أن الشيعة يلعنون أبا بكر وعمر ، فمن هو هذا المسلم  
الذي يلعن آل بيت الرسول ؟؟ ثم من هو هذا المسلم الآخر الذي يلعن عمر ؟؟ هل  
هما مسلمان ، وهل الإسلام حملهما على ذلك أم الفرقة في الإسلام التي هي وحدها  
اختلاف المذاهب ؟؟ هل أوصى جعفر بن محمد الصادق إلى شيعته بلعن عمر أم أوصى  
أبو حنيفة أتباعه أن يلعنوا أهل البيت ؟؟ سبحانك اللهم هذا بهتان عظيم ...

لا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى  
عَرَبِيٍّ ، وَلَا لَأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلَا لَأَسْوَدَ عَلَى  
أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى . .

محمد

هذا كلام خليق بأن يقوله محمد لأنه وليد قول الله تعالى : إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ولأنه دليل على أن قائله مرسل من ربه إلى الناس كافة لا لصنف منهم دون آخر ، ومن أعجب ما سمعت قول الشيخ محمد أبن زهرة أحد علماء الأزهر ، وهو يتكلم على منبر الشباب المسلم في القاهرة ليلة الهجرة النبوية قال : أن السر في الهجرة من مكة إلى المدينة ، ومؤاخاة الرسول بين المهاجرين والأنصار برهان على أن هذا الدين لا مكان له ولا قومية فهو مشاع للإنسانية أينما كانت وحيثما نبئت ، ثم استشهد بالحديث الذي يدور حوله هذا البحث .  
ولما كان هذا القول عجيبياً لدى لآني شهدت المتكلم الذي أقر هذا الحديث وحبذه ، شهدته يقر الحديث المروى عن أبي بكر أنه قال في حجاجه الأنصار يوم البيعة تحت السقيفة : الخلافة في قريش ، ولآني سألته عن مبلغ الصحة في الحديث القائل : اختار الله من العالم العرب ومن العرب مضر ومن مضر هاشم واختارني من هاشم فأنا خيار لخيار من خيار « فأقره فكيف نلائم بين هذا وبين ذلك ؟؟ أكرم الناس على الله أتقاهم فالخلافة ينبغي أن تكون في الأبرر الأتقى لا في قريش ، والخيرة لله في العالم لا تخص عنصراً ولا شخصاً وإلا لكان الجبر في الخلق ، فهل خلق الله الناس من طين وخلق العرب من ذهب ؟؟ وهل كانت قريش من جوهر والعرب من خزف ؟؟ أم كلنا لآدم وآدم من تراب ؟؟ وما أعظم ما قاله على وهو يجهز الرسول للدفن عندما بلغه قول أبي بكر « الخلافة في قريش » فقال : إذن نحن أولى منه لأننا من هاشم وهاشم أقرب إلى الرسول من قريش « وكان الإمام ينكر أن تكون هذه الخلافة في قريش وإنما يجب أن تكون في الأبرر الأتقى .

نخطئ كل من يفضل العرب على العجم ، كما نخطئ كل من يفضل قريشا على غيرها في الخلافة إذا لم يكن مناط هذه الخلافة فضيلة وتقوى سائلتين في الخليفة على فضيلة غيره وتقواه إذ يقول الله : ولا ينال عهدى الظالمين ، يقول هذا لآبراهيم إذ طلب من ربه جعل هذا العهد في ذريته ، وإن حديث : الخلافة في قريش مكذوب على أنى بكر لا على رسول الله لأن مفتريه يرمى إلى هدم الإسلام حيث انتهت فيه الخلافة إلى معاوية فأثار بالعصية العربية عصبية الأعاجم وأطاح بروعة الإسلام في قوله صلوات الله عليه : لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى »

هذا الحديث هو الذى مشى بالقرشين قادة حتى انتهوا إلى معاوية وابنه يزيد وأبنائه من بعده إلى مروان الحمار ، وهو الذى انتهى بالهشاميين قادة حتى انتهوا إلى آغاخان الذى هو الإمام الأربعون عند ملايين من المسلمين يقصدونه ويعتقدون فيه الحلول ، لو كانت الخلافة بعد محمد محصورة في قريش لما مات دون أن يصدع بها ، ولما فارق الحياة حتى أوقف على منبر الخلافة قرشياً وهو يقول : هذا هو الخليفة عليكم من بعدى ، ولوقف من الخلافة موقفه من النبوة وهو واثق من أن الله يعصمه من الناس .

إن الكتاب الكريم قد أوضح أمر الخلافة بقوله : « لا ينال عهدى الظالمين » وهل هناك أصرح من هذا في وجوب كون الولي لعهد الله هو أفضل الخلق بعد نبيه ؟؟ فلينظروا الأفضل ويلقوا إليه مقاليد أمورهم سواء كان عربياً أو عجمياً ، والغريب في أمر هؤلاء الذين يصححون مثل هذه الأحاديث التي وضعها بنو أمية ليعزوا دعوتهم إلى العروبة دون الإسلام ، كيف يصححون مثل هذه الأحاديث فيجعلوا العرب خير الناس لأنه خرج منهم خير الناس محمد ثم يقرأون قوله تعالى : يخرج الحق من الميث ويخرج الميث من الحق »

ولو كان طيب محمد من طيب عنصره لما عدا هذا الطيب عمه أبا لهب ، ولكان هذا الطيب منحدرًا من صلبه حتى نال آغاخان فحال بينه وبين أن ينفق ملايين الدنانير يوم زواجه من المؤمنة الصالحة « ريتا هايوارت » ولو كان فضل قريش هو الذى يؤهلها للخلافة لما كانت قريش أجراً للناس على تكذيب محمد

ونبيهه وتشريده ثم تعذيب أصحابه بالنار والحديد ، وأغرب من هذا كله أن العنصريين من العرب يفسرون قوله تعالى : كنتم خير أمة أخرجت للناس ، وقوله : جعلناكم أمة وسطا .. بأن الأمة هي أمة العرب ولم يلتفتوا إلى التناقض إذن في الآيات ، وبأدنى تفكير يصلون إلى الحق في أن المقصود هنا بالأمة أمة محمد التي خلفت أمة الأنبياء قبله فان عصره خير العصور وأمته خير الأمم ، ولم يقل أحد أبداً في التفسير الحق أن المعنى بأمة محمد هي أمة العرب ، وأما كونها وسطا فلائها وسط بين الدنيا والآخرة إذ بعث نبيا بين يدي الساعة .

ولقد برهن العرب بعد محمد على أنهم ليسوا بأهل لحمل رسالته إذ لم يمر بهم قرن واحد حتى خذلوا هذه الرسالة ، وحتى نازع بعضهم بعضاً على الملك وتبددوا شيعاً في الأرض ، وحتى الآن نرى المسلمين الأعاجم خيراً لحمل رسالة محمد من العرب فان العرب لا يهلون إلى مائة مليون ، وقد تفرقوا إلى دول عشر بينما نجد معاصريهم من المسلمين الأعاجم كأندونيسيا والباكستان لم ينحدروا انحذارهم في الفرقة والتنازع ، ثم بعد ذلك تتساءل وأنفسنا : هل للعرب رسالة غير الإسلام ؟؟ فأين احتفاظهم بهذه الرسالة ؟؟ وكيف يضمنون لصوتهم السيادة في العالم إذا لم يضطجعوا بعبء الرسالة التي جاء بها محمد ؟؟

ومن يقول : إن العرب خير أمة أخرجت للناس ؟؟ القرآن مخاطب المسلمين بذلك لا العرب ، انه لم يقل أبداً أنها العرب وإنما يقول أبداً أنها الناس ، أنها المؤمنون ، ألكون محمد من العرب كان العرب خير الناس ؟؟ وإذا كان الله قد اختار من بني آدم العرب ، كما يرويه الحديث الأموي الموضوع : فلم مخاطب الله بني إسرائيل بقوله : أني فضلتكم على العالمين ، أفلم يكن العرب يومئذ من العالمين ؟؟ ولم نفضل العرب على السكسون أو الجرمان أو السلافيين ، وها هي مدنيهم فضلت ، ألف مرة ، مدنية العرب حكمة وعلمها ؟؟ أي العرب قاد العالم قيادة غاندي ؟؟ وأهم سادس سياسة الاسكندر ، وأي علماء العرب فضل بعقله انشتين أو ماركوني أو أديسن ؟؟ تقولون : محمد فالجواب : ان محمداً رسول وعلمه لاهوتي ورسالته سماوية ، ولقد سبقه كثير من الرسل كانوا كمحمد في كونهم يمتازون عن البشر برسالاتهم اللاهوتية .

ان محمداً أفضل البشر برسائله لابقومه ، ورسائله هذه لم تكن وليدة الأرض التي نبت فيها ، ولا الأمة التي تحدر منها ، ولكنها وليدة خالق الأرض والسماء الذي يتعهد خلقه بنواميسه زمنياً بعد زمن على أيدي وألسنة من أهلتهم لحمل هذه النواميس عناية الله بهم ، والله أعلم حيث يجعل رسالته من أفراد خلقه لا من شعوب أرضه ، ففي كل أرض ينبت الصالح والفاقد معاً . والله في خلقه شؤون حيث يقول : ومن الأرض قطع متجاورات وزرع ونخل تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل »

وآخر القول : إذا كانت أمة العرب هي خير أمة أخرجت للناس فما بالها نامت تحت وطء الزمن واستيقظ غيرها ؟؟ لماذا اتحدت في زمن بلغ العالم فيه ، إلا العرب ، مبلغاً لم يحلم به مجد العرب من قبل ولا من بعد ؟؟ أفيتخيل العرب بساط الريح ، ونور الكهرباء ، ودفع البخار ، ونجى الواحى ، وتفجير الذرة ويحقق ذلك كله غير العرب ثم نتشدد بأن أمة العرب هي خير الأمم ونستخر لهذا التشدد قول الله وقول رسوله ، ؟؟ إنا إذن من السفه لفى سبات عميق .

ان العالم العلوى اليوم ، وأعنى به عالم العلم ، يتنادى على رأس كل عام ليأتى فى أنبغ رجل عالمي لمنحه شهادة الشرف « نوبل » وهي الشهادة التي تحمل إقرار هذا العالم بسمو من يتأهل على غيره في العلوم أو الفنون أو الآداب ، فهي كما تمنح شهادتها تلك للرجل الشرقى كتاغور الشاعر وغاندى الحكيم ، كذلك تمنحها للرجل الغربى كجورج برناردشو الأديب وأنشتين العالم ، فهل كان السر في نبوغ تاغور أو غاندى هو تفوق العنصر السنسكريتي على غيره من العناصر في الشرق ؟؟ أم هل كانت جرمانية « أنشتين » و« سكسونية » برناردشو أشرف خلقاً من غيرهما في عناصر الغرب ؟؟ أم هل نجول ونصول في حلقات القول ثم نعود فننظمه إلى قول محمد : كلكم لآدم وآدم من تراب » إذن فالسر كله في هذا التراب .

## على لبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمناً

أول ما فتحت عيني على حياي الشاعرة ، كنت معجباً بما أستظهره من الشعر المنسوب للإمام الشافعي وهو قوله :

أمطري لؤلؤاً جبـال سرنديب وفيض آبار تكروت تبرا  
همتي همة الملوك ونفسي نفس حر ترى المذلة كفرا  
أنا إن عشت لست أعدم قوتاً وإذا مت لست أعدم قبرا  
وتمر بي سنون وفي نفسي من هذه الأبيات أثر لا يرحله أي أثر من مكانه ،  
حتى أملى عليّ بعض أساتذتي بيتين من الشعر في عزة النفس وهما :

على ثياب لو يباع جميعها بفلس لكان الفلس منهن أكثر  
وفهن نفس لو تقاس ببعضها نفوس الوري كانت أجمل وأكبرا  
فسألت الراوي عن قائلها فقال هو نفس الشافعي أيضاً ، فزادني عندي منزلة  
الإمام الشافعي سمواً وعلواً ، ولما قرأت نهج البلاغة ووقفت على قول أبي الأئمة  
فيه : لبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمناً » ثم علمت أن الشافعي ينتسب  
للإمام علي فقلت : انها بلاغة آل محمد لم تزل تتحدر في أصلاهم حتى  
خاطبهم الشاعر بقوله :

ورثوا السيادة كابراً عن كابر فهم كعقد الدر جل الناظم  
هذه الأبيات قصمت ظهري في الدنيا ، فما تنفس لي صبح عن البصيص  
أمل في دنياي إلا عرضت لي هذه الأبيات فزوت نفسي عن ذلك البصيص ،  
لأن حياة في هذه الدنيا يصيبها الإنسان عن طريق العفة والإباء لم توجد في هذا  
العالم القائم على التلق والخسة والغدر والهوان ، أذكر أن حفلاً أقيم لي في ديرويت  
مشغن بولايات أمريكا المتحدة عام إحدى وثلاثين وشاء القائمون على الحفل أن  
يدعوا للتبرع في سبيل تكريمي ، وكان نزول الخبر علي كالصاعقة إذ علمت  
أنهم سيفعلون ذلك بين سمعي وبصري ، واعترضتني إذ ذاك أبيات الإمام

الشافعي فأبيت وأصررت رغم أن الحفل إنما أقيم لهذه الغاية وأنها لن تكون بغير ذلك ففضلت أن أعود كما دخلت على أن أتحمّل هوان التبرع لمساعدتي وأنا شاهد ، وعلى أن أتناسى ما أستظهره من الشعر الذي خالط لحيى ودمى في الإباء . ولقد أشرفت على أن أدخل برلمان لبنان أو أن أظفر بما يعزز دنيائى من المسيطر الافرنسى الذى لم يصل إلى برلمان لبنان أحد إلا من وراء ركوعه بين يدي ذلك المسيطر ولا يزال هذا الركوع إلى الآن سبباً أول في سيطرة هذه الفئة على الحكم والتمثيل في لبنان ، لأنها لا تزال قائمة في مجالس الحكم على الرواسب في نفوس الشعب الذى أذلوه فاستخذى لهم بالجهل والفقر والذل ، لقد كنت ، وأنا أصدر مجلة العروبة وأقود حزب الإصلاح ، وأعمر النادى الحسينى ، أقول : لقد كنت قريباً من كل ما أطمح إليه في سبيل حياتى الدنيا لو حملت نفسى على ما ينصحنى به صديق قريب من المسيطر الأول ، وكنت كلما فكرت في هذه النصائح وجال في خاطرى المثل السائد في أخلاف معاوية بن أبى سفيان على لسان ميكافيللى من أن الغاية تبرر الوسطة ، عرض لى قول الشافعى هذا فلفظت القلم وعفت الدواة وفزعت إلى قول الإمام : لبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمناً .

يقول لى الأمير شكيب أرسلان رحمه الله ، وأنا ضيفه فى لوزان من أعمال سويسرا أيام عودتى من أمريكا ، يقول لى ، ونحن نستعرض جهاد الثائرين العرب على الاستعمار فى عهد فيصل بن الحسين الهاشمى ، قال : لم يحل من نفسى محل التجارة والإكبار أحد كالسيد عبد الحسين شرف الدين الذى قاد ثورة جبل عامل على الافرنسيين سنة ١٩١٩ ، والذى ورد إلى دمشق بعد قمع الثورة متوارياً وفيصل ملك عليها ، قال الأمير : لقد بعث الملك ببدره فيها خمسة آلاف دينار من الذهب إلى السيد هذا بيد تاموسه الخاص احسان الجابرى فرفض السيد قبول البدره وقال : نحن لم نثر على العدو من أجل المال ولكنها عقيدة دينية نستجيب لها كلها خشينا على تراث محمد أن يصاب» يقول الأمير : ان ذلك مما أكبر هذا السيد فى نفسى ، وسأتحدث بخلته هذه ما حييت .

لقد بقى قول الأمير قلقاً فى نفسى حتى أجمع إلى السيد إحسان الجابرى



وآخذ الخبر من مصدره ، ويشاء الله أن أمر بحلب وأنا في طريقي إلى العراق ، وأن يدعوني السيد الجابري إلى منزله وأن أتحدث إليه عما سمعت فقال : إن الأمير روى لك ما قصصته أنا عليه وأن السيد الجليل رفض المال بآباء ونحن نعلم أنه طريد مشرد وفقير ، ولدى أن أعدت المال إلى الملك وقف لإجلاله له ثم قال : هذا ما لم أعهد في حياتي ولم يمرر في رجل ممن احترم في رجال الأمة من يحمل هذا الإباء ويتحلى بهذه الكرامة »

وينقل إلى السيد طعان وهو من خلطاء المرحوم كامل الأسعد زعيم جبل عامل أيام هذه الثورة قال : خرجنا عندما ظفر الجيش الافرنسي بالثورة وشرذ الثائرين ، خرجنا لاجئين إلى الشام حيث كان الملك الهاشمي فيصل ، وكنا قرابة أربعين شخصاً نلحق بالزعيم الأسعد ، وليس معنا من المال إلا النزر اليسير ، وقد كان الزعيم حيث حل يتنظم مجلسه وسماطه الجماعات التي لا تحقد إلا بموائد الملوك والأمراء .

يقول السيد طعان هذا : ان في الشام أسرة من آل الجارود يدعون القري من الوائليين الذين هم أصل لعشيرة الأسعديين ، ولعل زعيمهم الجارودي أحسن بحاجة الزعيم إلى المال فجاء ببكرة من الذهب ينوء بحملها بعض خدمه ثم وضعها على المنضدة أمام الزعيم قائلاً : هذا قرض مني لك ترده على لدى عودك إلى أهلك فظهرت علامات الغضب على وجه الزعيم ولكنه كبت نفسه الثائرة وشكر قريبه ثم قال : ان إقدامك على مثل هذا دون أن تأخذ رأي المرأة ما فوقها جرأة ولقد كان جزاؤك كبيراً لولا الرحم . فاحمل مالك وإياك أن تعود إلى ما فعلت » قال السيد طعان : ولما خرج الرجل كاسف البال أحلقنا بالزعيم ناقمين إذ لم يبق معنا ما يسد العوز ثم قلت له ، وكنت مُدلاً عليه ، ما يمنع عطوفتك من قبول هذا المال وهو قرض ، فان أيدينا صفرت من المال ونفقاتنا باهظة وقد تمتد بنا الهجرة شهوراً فإذا نصنع يا سيدي ؟؟ فنظر في وجهي محققاً ثم قال : إلى الآن لم تعلم أني مخلوق لأعطي لا لأأخذ يا طعان ؟؟ وان نفسي لتأبى أن أمد يدي لقرض أو هدية من طريق لا أطمئن معه إلى عزتها وكرامتها » ومن طريف ما أذكر في معرض الإباء وكرامته على النفس الشريفة : أن

العلامة شرف الدين السابق الذكر أسس معهداً للعلوم في جبل عامل من جنوب لبنان ، وناشد رئيس الجمهورية العون لهذا المعهد من المال المخصص للمعاهد الحرة ، فبعث إليه الرئيس بشئ ضئيل بينما أموال الدولة تتدفق على معاهد الإرساليات التبشيرية في لبنان ، فأعاد السيد إلى الرئيس هبته مصحوبة برقبة فيها أبيات من الشعر أظنها لأحد أجداده الشريف الرضى ، قال :

أخطأت في طلبى وأخطأ في ردى ، ورد يدي بغير يد  
فلأجعلن عقسوتى أبداً أن لأمد يدي إلى أحسد  
فتكون أول زلّة سبقت منى وأخسرها إلى الأبد

وتتجاوب أصدا هذه الرقبة في الآفاق العربية حتى صكت مسامع العاملين في المهجر الأفريقي ، فتنادوا لإغاثة المعهد الجعفرى الذى حمل السيد على تنازله بالطلب ، فتطوع المهاجرون له بمليون دينار لبنانى كانت نواة لكلية داخلية في مدينة صور لا تزال منذ عشر سنوات تضرب الرقم القياسى في رقيها وتقدمها تحت سماء لبنان .

فالإمام الشافعى والعلامة شرف الدين لم يأتيا بدعاً بالتضحية في سبيل الحرص على كرامة النفس لأنهما تحذرا من صلب من طلق الدنيا ثلاثاً وهو يقول : لبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمناً .

## الدين قل لا أسألكم عليه أجرأ إلا المودة في القربى

يتمحلك بعض المفسرين في صرف هذه الآية الكريمة عن أهل بيت الرسول تعصباً للأمويين في العهد الأول ، وعداء للشيعية المتفانين في حب آل البيت . فما تلا ذلك العهد من عهود ، فيفسرون القربى بالرحم المطلق أى أن الرسول مأمور بأن يطلب أجرأ منا على تبليغ رسالته أن نحب أرحامنا ، لأن التواد في الأسرة أساس عمران المجتمع وهذا ما يدعو إليه الدين ، وأكثر المفسرين على أنه صلوات الله عليه مأمور في هذه الآية أن يطلب منا أجره على التبليغ محبة أهله وذوى قرباه ، وقد أجمع المسلمون على وجوب هذه المحبة ولكنهم لم يفكروا في السر من هذا الغرض ، وحتى المفسرون لم يذكروا السبب الذى من أجله أمر الله رسوله أن يطلب ذلك منا .

ولقد اختلفوا في تحديد هذه القربى وفي تعيين أهل البيت الذين طهرهم الله في كتابه الكريم ، فمنهم من يطلقه على من آوى إليه النبي في مسكنه من نسائه وأبنائه ، ومنهم من قصر أهل البيت والقربى على علي وفاطمة والحسن والحسين وهم الذين قدمهم بين يديه عند المباهلة ، ومنهم من أبعد في ذلك فجعل سلالة الرسول من علي وأبنائه جميعاً هم أهل بيته وقرباه ، حتى رووا عنه صلوات الله عليه قوله : أكرموا تقمهم لله وشقمهم لى ، فعلى هذه الرواية نحن مأمورون بمحبة من تحدر منه شقياً كان أو تقياً .

هذه أقوال ثلاثة ، أما الأول فمن غلاة الأمويين في كرهه على وأهله ، وأما الآخر فمن غلاة الشيعة في حب على وأهله ، وأما الأوسط فعليه يقوم هذا البحث في تعليل هذا الحب والأمر به من الله ، والقائلون به أيضاً على خلاف ، بعضهم يحصر القربى في أولئك الذين قدمهم بين يديه وهو يباهل ، وبعضهم تجاوز هؤلاء إلى ما شاء الله من أعقابهم على أن يكونوا في المنزلة الأولى من الأمة علماً وتقى وشجاعة وهم الشيعة الزيدية ، ومنهم من حصر القربى في اثني عشر إماماً

يبدوهم على ونحتمهم محمد بن الحسن العسكري ، وهم الشيعة الجعفرية ، ومنهم غير أولئك كالأسماعيلية والبهرية والنصيرية وكثير أمثال هؤلاء الذين لا يستحقون البحث .

فلاعتدال كائن في الوسط وهم الشيعة الجعفرية الذين يعتبرون القربى من الرسول هم الأوصياء الاثنى عشر إماماً المرضى عنهم لدى الفرقتين الاسلاميتين الكبيرتين وهما أهل السنة والشيعة الجعفريون ، هؤلاء الأئمة هم : علي والحسن والحسين وزين العابدين علي بن الحسين ومحمد الباقر وجعفر الصادق وموسى الكاظم وعلي الرضى ومحمد الجواد وعلي الهادى والحسن العسكري ومحمد بن الحسن ، ويعتقدون بما ثبت لديهم من النص أن لكل رسول من أولى العزم أوصياء اثني عشر يعززون رسالته من بعده حتى تتمكن من هيمنتها على العالم . هذه النقطة على ما أعتقد ، هي السر في وجوب محبتهم ، أعني أن محمداً إنما سألنا أن نحب قريبه الذين تأثروا بعد موته ، لأنهم حملة رسالته والقائمون عليها تعزيزاً وحرصاً وتلدويناً ، والذين يدفعون عنها كل غائلة تضطربهم للتضحية في سبيل تلك الرسالة بأعز ما عندهم وهو النفس ، لذلك نجد أكثر أهل البيت هؤلاء ذهب ضحية الحرص على الدين والاحتفاظ برسالته إما قتلاً أو سماً ، ولقد رأيت أسماء هؤلاء الأئمة مثبتة على دعائم الحرم النبوى مع أسماء الخلفاء الراشدين فعلمت أنهم عند رضى المسلمين جميعاً ، كما قرأت تراجمهم في كتب التاريخ الإسلامى مخوفة بالتجلة والإكبار من جميع المسلمين على اختلاف نحلهم ومللهم .

في عقيدتى أن محمداً أراد بأهل بيته وقريبه المفروض علينا محبتهم والصلاة عليهم في صلواتنا كما ذهب إلى ذلك كثير من الفقهاء الأعلام ، أقول : إنما أراد محمد بأهل بيته ، وهو يدعونا إلى محبتهم ، أراد هؤلاء الذين تضافروا من بعده على تعزيز رسالته ورعايتها من العبث والدفاع عنها كل من سولت له نفسه بالتشكر لها والانتقاص منها ، ولقد رشحهم لذلك إذ قال في أولهم : أفضاكم على « هذا في معرض الحكم والفصل في أحكام الدين ، وقوله : أنا مدينة العلم وعلى بابها » في معرض الفقه في الدين ، وقوله : على منى وأنا من

على « في معرض الحرص على ناموس الدين والفناء فيه ، وقوله : من كنت مولاه فعلي مولاه » في معرض السيادة والقيادة ، ثم لم يقل هذا أو مثله لأحد من الصحابة قط ، وأما ما رواه بعض المجانين من أن النبي قال : معاوية مني وأنا من معاوية فالرد عليه من الجنون ..

ولقد قام الإمام على بوظيفته خير قيام إذ راقب السير في تعزيز هذه الرسالة على عهد أبي بكر فرضي عنه وشد أزر الخليفة بما يحفظ على الدين تأييده وانتشاره والتضحية في سبيله ، ثم راقب السير على عهد عمر فرضي عنه وشد أزره فكان الخليفة الثاني لا يأتي أمراً جليلاً إلا بمشورة على حتى روى عنه قوله : لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو حسن ، وهكذا استمر في رعايته ناموس الدين على عهد الخليفة الثالث عثمان فكان منه ما أنكر الإمام عليه كونه ، فأخلص له النصيح وبالغ في دعوته إلى الله ورسوله بالحكمة والموعظة الحسنة ، فلم يجد ذلك فقعد عنه ولم يؤذه ولكنه لم يكن منه مكانه من الشيخين فكان آخر الأمر ما كان . أرجو أن يعتبرني القارئ وأنا أستطرد في بحثي هذا إلى أشياء قد يظن معها أنني طائفني أحنز لفرقة ما من فرق المسلمين ، أقول : أرجو أن يعتبرني مسلماً فقط كما اخترت لنفسى منذ فقهت الإسلام ورأيت الشذوذ من الفرقتين الشيعة والسنة على السواء وحملت عليهما معاً في عدد من مؤلفاتي كوحى الأرافدين و « من يسمع » وغيرهما ، لقد أخذت على كلتا الطائفتين هنات أكبرت الأئمة الخمسة عنها فرجعت إلى ما كان عليه المسلمون قبل هذه المذاهب ، آخذ منها ما أعقل وأثق من صدوره عن الله ورسوله ، وأترك ما لا أثق به من أسانيد يريدون منا أن نعمل بها تعبداً دونما رجوع فيها إلى عقل أو إلى تمحيص نقل ، فانا مسلم فقط ، أفلا يمكن للإنسان أن يكون مسلماً وحسب ؟؟

ولنعد إلى صميم البحث . هؤلاء النفر الذين عناهم الرسول بقوله : اني تارك فيكم ما أن تمسكتكم به لن تضلوا : كتاب الله وعترتي أهل بيتي .. كما رواه أحمد في مسنده وكما يرويه جعفر عن آبائه ، وفي رواية إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي الخ .. أقول : هؤلاء النفر الذين يبدؤون بعلى ويتهون بالإمام الثاني عشر وهو محمد بن الحسن العسكري وقد رأيت أسماءهم

مثبتة فوق دعائم الحرم النبوي المقدس كما مر فسألت متجاهلاً، الشيخ صالح الفوزان وهو القيم على الحرم ويكاد يكون أتقى وأبر مسلم عرفته في الحجاز ، سألته عن هؤلاء الذين يشاركون رسول الله والخلفاء الراشدين في قيام أسماهم على أروقة الحرم القدسي فقال : هم أهل بيت رسول الله .

وعلمت آخر الأمر أن رسول الله لا يدعونا لمحبتهم إلا لأمر عظيم ، ولا عظمة عنده لأمر إلا فيما يدين الله به ، لذلك نجدهم في سيرهم يرقبون كل من توسد الأمر لحكم أو سلطان بعد رسول الله ، فان عدل وآمن وصدر في قوله وعمله عن كتاب الله وسنة رسوله وثقوا به وعززوه ونصروه . وإن جار وبغى واعتسف واتخذ دينه هواه ثاروا عليه كثورة على معاوية وثورة الحسين على يزيد ، أو قعدوا عنه كقعود على عن عثمان وقعود ببيعة الأئمة عمن أعقب معاوية ومن جاء بعده من ملك عضوض ، وخلال قعودهم كانوا عاملين على تثبيت الإيمان بالله ورسوله في صدور أتباعهم ، وتسجيل ما يفصل إجمال القرآن بالسنة الصحيحة التي يروونها عن آبائهم وأجدادهم إلى رسول الله ، هذا هو السر في عناية الله بهم وأمره نبيه في أن يسألنا الأجر على تبليغ رسالته محبتهم والاعتصام بهم .

ولقد عجبت ، وأنا مسلم صريح ، من أن « صحيح البخاري » ويكاد يكون الثقة الأولى في نفوس أهل السنة يتقبل الحديث المسند إلى رسول الله عن معاوية بن أبي سفيان مراراً وعن أمثال أبي هريرة صاحب الغرائب في رواياته ، ثم لا نجد يروي عن جعفر بن محمد الملقب بالصادق عند المسلمين جميعاً ، لماذا هذا ؟؟ وإلى أي مدى تردى المسلمون بعد نبيهم ولما يزل غضاً في قبره ؟؟

عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَكُونَ بَصِيرًا بِزَمَانِهِ .  
لَا يَنْبَغِي لِمُسْلِمٍ أَنْ يُدِلَّ نَفْسَهُ .

محمّد

ذكرت مهذين الحديثين إحدى ليالى الشهر العابر من هذه السنة التى أحر فيها كتابى هذا ، كنت أجلس تلك الليلة وحدى فى مصر الجديدة وليس لى سمر غير الواحى « الراديو » إذ كان أهلى فى مصيف لبنان ، وإذا بى أسمع مديع الشرق الأدنى يقول : لقد منحت حكومة العراق مائة فدان فى ضواحي بغداد « للآباء اليسوعيين » وهم النفر الذين يؤلفون إرسالية التبشير الافرنسى البغيض ، يقول : منحتهم الحكومة تلك الرقعة ليبينوا عليها كلية للعلوم والفنون .

لقد صعقت من هذا ، وكنت أقرأ قبله بأيام ، اجتماع اللجنة السياسية للجامعة العربية بدعوة من العراق لمقاطعة فرنسا « ثقافياً » واقتصادياً وسياسياً ، وأن اللجنة أجلت البت فى الموضوع فخرج مندوب العراق وهو صاحب ثم أعلن وزير الخارجية العراقى للمصحف : أن بعض الدول العربية أبت تنفيذ هذا الاقتراح وهو فى صميم العروبة » ، فليسمع من له أذنان : مندوب العراق فى الجامعة العربية يقترح مقاطعة فرنسا ثقافياً ، وحكومته فى بغداد تمنح هبة لأشد الإرساليات التبشيرية وطأ على العروبة والإسلام وأفظعها كيداً بما تدس فى تثقيفها النشء العربى على دين محمد وعروبته ، تمنحه مائة فدان فى بغداد ليعزز رسالته هذه القائمة على الدس والتضليل .

والله يشهد أنى أمعنت ملياً فى التفكير بما مجرى فى الأمة العربية من محن على أيدي رجالها وقادتها الأول ، ثم رحت أتساءل ونفسى : أيجهل العراق أعمال هذه الفئة فى عالمنا العربى وخصوصاً لبنان الذى هو بين سمعنا وبصرنا ، فقد تخرج فيه على أيدي هؤلاء السماسرة للاستعمار آلاف من شباب لبنان مسلميه ونصاراه كانوا ولا يزالون شجى فى حلق العروبة وشوكة فى عين لبنان كما كانوا ولا يزالون إلى ساعتنا هذه أداة للاستعمار الفرنسى بين عيون تجس

وأيد تتحسس من مواطن الضعف الآخذ بأسباب الرق والبقظة فينا ، لا يزال لبنان وقد مر على انسلاخه من الجسد التركي المقيت عشرات السنن ، أقول : لا يزال هذا القطر الجميل مشوه الجلال بما يسود أهله من فرقة وتباغض وتناحر باسم الدين على أيدي منظمة الآباء اليسوعيين .

وعمدت صباح ليلتي تلك إلى التفكير فيمن أكتب إليه من العراق لأطمئن : أحقيقة هذا أم هو خبر يحتاج إلى تحقيق ؟؟ فلم أجده أقرب إلى من سفير العراق في القاهرة وهو صديق لي وعريق في عرويته وإسلامه ، وهو بعد ذلك مقرب من الملك الهاشمي وله شأن في قومه ، فكتبت أطلععه على ما سمعت وأستطلععه صحة النبأ ، وأنكرت على العراق ، إذا صح الخبر ، فعل ذلك مها يكن لون العذر ، فلنا إلى تطهير أرضنا من القوم أعوج منا إلى سربلتها بمخازيهم التي لم تترك فينا حساً إلا وهو جريح بما تحمل إلينا من آلام وآثام »

ويجب السفير الذي لم أشأ ذكر اسمه حرصاً على كرامته ممن آثروا التجارة بالوطن والدين على التضحية في سبيلها من بغاة الحكم وعبدة السلطان الزائف ، أقول : بحبيبي السفير وفي مجلسه القائد أحمد حلمي والأديب كامل كيلاني بقوله : ليس عندي ما أجيبك على غيرتك في رسالتك إلى ، إلا مثل عامي عندنا أحب أن أرويه لك : قيل : سئل الجمل عن السبب في اعوجاج عنقه فأجاب : أي عضو من جوارحي غير أعوج حتى يستقيم العنق ؟؟ « ثم قال : وفهمك الختام ... » من هو المسئول عن هذا الحدث الجسيم تتعمده حكومة العراق في عهد فيصل الثاني وهي ألصق الحكومات العربية بالعروبة والإسلام ؟؟ وأنتظر اليوم تلو اليوم والأسبوع تلو الأسبوع لأسمع ضجة حول هذا الحدث فلم أسمع ولم أقرأ كأن هنالك أمراً مدبراً أن لا يتصل نبأ هذا الإجرام بالصحافة أو أن الصحافة متأمرة مع الحكومة على إخفاء هذا الحادث ، وكم تأملت أن لا يكون لي رفيق في إنكار هذا ، لأن الأفراد الذين تحسسوا من خفايا اليسوعيين في لبنان أقل من القليل الذي أنا منهم .

ان الفرقة التي تسود لبنان اليوم وقبل اليوم وستسودها بعد اليوم حتى يوم القيمة ، ليس لها وكر تحلق منه أو جحر تآرز فيه غير هذه الكهوف وتلك المغاور التي أسسها الإفرنسيون باسم الثقافة والدين في مدن لبنان ودساكره وعلى



قممه وفي سهوله ، حتى لم يبق شر منه إلا وفيه ذئب يعوى أو أفعوان يجار ، كل ذلك كان في سبيل القضاء على تركيا التي حمل الإسلام وزرها. حين تحملت أوزار الغفلة والتعاجز عن الاضطرلاع بعبد الرسالة المحمدية وانصرفت إلى السياسة الغاشمة بظلم أرحامها من العرب وسوء سياستها مع جيرانها من أهل الكتاب . يقول بعض السفهاء من المسلمين : ان الآباء اليسوعيين خدموا لغة العرب بصحفهم ومؤلفاتهم ومعاهدتهم ومكاتبتهم » ولكن هؤلاء غفلوا عن إساءتهم إلى لبنان بالفرقة في أهله والقطيعة بينه وبين جيرانه العرب ، فان رجال الجزويت هؤلاء بتلقينهم للنشء المسيحي دروس البغض والكراهية لجيرانهم المسلمين ، وبتلقينهم للنشء المسلم دروس الإلحاد والتشكيك في دينهم أحدثوا هوة تحيقة بين اللبنانيين مسيحيهم ومسلمهم ، فلن تجد حياً مسيحياً يقطنه مسلم ولا حياً مسلماً يقطنه مسيحياً ، ولن تجد مجلساً إسلامياً يشهده مسيحياً ولا مجلساً مسيحياً يشهده مسلم ثم لا تجد لغة تسود أسرة مسلمة هي عين اللغة التي تسود أسرة مسيحية فجميعهم غرباء في بلد واحد وتحت سماء واحدة وعلى صعيد واحد .

وأما القطيعة بين لبنان وبين جيرانه العرب فلا تجد مسيحياً لبنانياً إلا ويخشى كلمة وحدة سورية أو وحدة عربية ، وقد بلغ شؤم هذه الكلمة في نفوس مسيحي لبنان أن أصدر مطرانهم اغناطيوس مبارك سنة ١٩٤٧ كتاباً وجهه إلى المهاجرين في أمريكا يحثهم على العمل ضمن هيئة الأمم المتحدة لاحتفاظ لبنان بكيانه المسيحي وإخراج مسلميه إلى سوريا على أن يحل محلهم مسيحيو سوريا ، ويقول في الكتاب نفسه ، ويشهد لي بذلك الأستاذ الفريد أبو سمرة صاحب جريدة القلم الصريح في جنوب لبنان ، إذ كنت وإياه تلك السنة مسافرين إلى شمال أمريكا وعثرنا على هذا الكتاب فقرأناه معاً .

يقول المطران المبارك فيه : إذا لم ينشأ وطن قومي للهود في فلسطين فلا حياة لنا نحن مسيحي لبنان في جوار العرب ، ولكننا إذا تضافرنا مع اليهود نستطيع أن نعيش مطمئنين إلى حياتنا ونتفادى تنكيل العرب فينا وثوراتهم علينا » هذا قليل من كثير ذلك الكتاب ولم يكن ليصدر هذا عن كاهن عربي لولا مؤسسات الجزويت وأخواتها من الإرساليات التبشيرية باسم المسيح محب السلام وفادى العالم.

أما دسهم في مؤلفاتهم وخاصة صحيفة « المشرق » التي يصدرونها على رأس كل شهر ، أقول : أما دسهم فيها على العرب والمسلمين بل على العروبة والإسلام فهي بين سمعنا وبصرنا ، ولقد تناولت مرة وأنا مع أحد أدباء الحجاز ، وكنا في مكتبة صادر ببورت ، تناولت من يده مجلة المشرق أبحث محتوياتها فلم أر في الفهرس ما يشير إلى رسالتها التبشيرية ، ولكن موضوعاً لفتني إلى قراءته تحت عنوان « القضية في أواخر العهد العباسي » فقلت قد وصلت إلى ضالتي ، لعلهم يدسون شيئاً فيه كعادتهم وإذا بالكاتب يبحث عن لباس القضية ، ويعلق منه بالجنة فقط وأنها كانت ذات كمين ينتهيان إلى بضعة أمتار طويلاً ومتر عرضاً وأن لكل قاض إذا خرج وصيفين محمّلان كمي جيبته ، ومن قرأ هذا البحث شعر بكل حواسه أن الكاتب يتنقص الإسلام في شخص القاضي عهدئذ وهو يلبس جيبته ويتجنح وصيفيه .

وكم عثر المسلمون في معاهد هذه الإرساليات ، على كتب تطعن في محمد وهي تدرس بين أيدي الطلاب من محمّديين وعيسويين فتشور ثائرة المسلمين المستخذين ويتظاهرون فتعمد الحكومة إلى الاكتفاء برفع الكتاب من أيدي الطلبة ، أما رفع الحق من صدور المبشرين « بالحق » على شخص محمد النبي الإنساني الذي قدس عيسى وأمه ، ودحض عنهما تهم اليهود ، أما هذا فلم تعمل في سبيله ولكنها تغاضت عن مدرسة المطران مبارك وتضامنه مع اليهود في وجه أمة محمد .

كل ذلك كان وليد اليسوعية في لبنان فهل حسدنا العراق حكومة وشعباً على حياتنا هذه متنافرين متقاطعين في بلد واحد ، فعمد إلى تعزيز اليسوعية في بلاده لتنشئ لهم كلية يتخرج عليها أمثال المطران مبارك في لبنان ، ويصدر عنها صحيفة كصحيفة المشرق تحت سمائه؟؟ والأغرب من ذلك أن بعض العراقيين في مصر يرر عمل حكومة العراق بأن بلدية بغداد احتاجت إلى هدم مؤسسة اليسوعيين لاعتراضها شارعاً أجمع المهندسون على ضرورة شقه فعمدت إلى إرضاء الآباء القديسين بمنحهم مائة فدان في مكان آخر من بغداد ، ولم نسمع في العالم أن حكومة هدمت داراً أو مسجداً أو معهداً يعترض طريق الرقي والتقدم ثم عوضت

أهله بناء أو أرضاً وإنما تعوضهم مالا ، فلم لم تفعل حكومة العراق ذلك وتنقذ شعبها من هذا الطغيان ؟؟

ان الهوان والذل والاستكانة التي شملتنا نحن المسلمين في لبنان من جهاد اليسوعيين وزملائهم الجزويت فينا بتحقير الإسلام في نفوس ناشتتنا الغضبية التي لم تجد غير معادهم منتجعاً للعلوم والفنون ، وبتعالى المسيحيين علينا في رقبهم العلمى والفنى ، أقول : ان الهوان الذى لحقنا هو في ذمة تركيا من قبل ثم في ذم القائمين على الوعظ والإرشاد فينا إذ لم يصلوا إلى أن العلم والعلم وحده هو الذى يعزز الدين وهو السلاح الذى يحول دون امتنانه وانتقاصه .

من هنا نستطيع أن نصل إلى نظرة محمد في مستقبل رسالته على أيدينا بقوله : على المسلم أن يكون بصيراً بزمانه » وقوله : لا ينبغي لمسلم أن يذل نفسه » وأى ذل أصاب المسلمين فوق ذلهم هذا الذى لحقهم من إقبال الأمم على العلوم واعتصامنا بالجهل ؟؟ ، وأى عمى فى أبصارنا وعمه فى بصائرنا فوق حسبنا أن الدين هو محض صلاة وصوم دونما فقه فى الصلاة لماذا وجبت وفى الصوم لماذا فرض ؟؟ وكيف يكون المسلم بصيراً بزمانه » وهو جاهل يمكن عدو دينه وقوميته من عرضه ينهشه ومن كرامته ينحت أثلتها ؟؟ ثم كيف يتوخى المسلم لنفسه العزة ، ويتفادى لها الذل والهوان ، وهو يضعها بين يدي عدوه بمعن فيها تحقيراً وتعزيراً ؟؟ فهل نحن العرب ، بتمكن إرساليات الجزويت الغربى منا أفرنسياً وغير افرنسى ، أقول : هل نحن على بصيرة فى زماننا ؟؟ وهل نحن من وراء ذلك ننشد العزة والكرامة لأنفسنا ؟؟ كلا إن أية حجة لنا فى تمكينهم منا لا تنهض دليلاً على أنا ورثة محمد وحفظة رسالته .

## هَلْ كَفَى بِالْأَجَلِ حَارِسًا

دعني الجالية العربية في مدينة «كراند رابيدس» لزيارتها أيام وجودي في الولايات الأمريكية المتحدة سنة ١٩٤٦ ، فليت طلبها وأعددت عدتي للسفر في قطار الساعة الثامنة من صباح ليلتي ، وهو قطار «بولمن» أجمل وأفخم وأسرع القطر الأمريكية ، وقد أبرقت لهم بذلك لينتظروني في المحطة إذ لم يكن لدي عنوان أحد منهم ، وفي الصباح شيعني اخواني في مدينة ديتريت مشغن إلى محطة القطر وقبل خروجه بدقائق، وتركهم ودخلت المحطة الجبارة ، ويشاء القدر أن أصل إلى قطاري متأخراً دقيقة واحدة ، وهو يغادر أرض المحطة وأنا أراه وأتحسر على أن فاتني على غير إرادة مني .

كانت صدمة لنفسى أن لم أدرك القطر وأنى سأنتظر ساعة ليتحرك غيره ، وأن القطر الآتي بطئ وردد وأن لا وسيلة لإعلام المهاجرين الذين سيصلهم القطر ولست فيه وأنه يجب على أن أجلس في القاطرة التي ستجرتني بعد ساعة خشية أن تفوتني أيضاً إذا عدت إلى هو المحطة ، وأياً كان فقد جلست متألماً متحسراً ناقماً على القضاء والقدر الذى لم ينصفني وأنا أخدم الحق في كثير من مواقف بين العرب في تلك الديار .

واشتدت نقمى عندما تحرك قطاري الأخير ورأيت فيه نموذج القرن التاسع عشر : لا جمال ولا سرعة ولا نظافة ولا تدفئة ، وأرى الأرض والسماء من تساقط الثلوج لا تمتاز إحداهما عن الأخرى ، وقطعت فيه أربع ساعات كانت كأنها أربعة أعوام ، بينما القطر الذى فاتني يقطعها بساعة ونصف الساعة ، ويكاد يستعصى على فكرى ولسانى وقلبى ما يسوده من جمال القرن العشرين وجلاله ، وكم تساءلت ونفسى : لم تخلى الله عنى ولم أكن لأكفر به طرفة عين ؟؟ ولقد وقفت لسانى وقلبى على خدمة الحق منذ فهمت الحق ، فلماذا أرى الحق يعصف بي أحياناً فلا أعى في نفسى سبباً يستنزل بها ذلك العصف ؟؟

ومع الساعة الثانية بعد الظهر أشرفنا على المدينة وكل ثقتي بأن لا أرى في المحطة من يرشدني إلى ندوة القوم أو ندى زعيمهم ، ولشد ما أذهلني ما رأييت ، من جموع يضيق بها بهو المحطة الرحب ، ولدى أن وطئت الأرض تدافع أبناء العرب يستبشرون ويهتفون بسلامة الوصول ، ولكنني شعرت بأن التهيئة لسلامة غير هذه السلامة المعتادة إذ رأييت في وجوههم الشحوب والكليج والرعب فسألت بالسبب فقالوا ألم تترك لنا أنك ستردنا في قطار بولن على الساعة الثامنة صباحاً ٢٢ فقلت أجل ولكنه فاتني بدقيقة ثم ركبت القطار البطئ في التاسعة .

فعلا هتافهم : الله أكبر .. الله أكبر .. وزاد عجبى وتسألى فقالوا : إن قطار البولن تدهور ولا يزال رجال المكافحة ينقلون القتلى والجرحى منه منذ ثلاث ساعات ، وكنا ننتظرك أن تنزل بنا قتيلاً أو جريحاً ولكن الله سلم ، وأن علينا أن نبسط لك الليلة الفداء ، فأهلاً وسهلاً .. » فصحوت إذ ذاك من فكرة كانت سكرة وشعرت بكل جوارحي خطأ ظني السيئ في خالقي اللطيف بي ثم عدت أتمثل قول الإمام : كفى بالأجل حارساً

ودعاني نفر من المهاجرين العرب في جزائر « لاص بالمص » التابعة لأسبانيا ، دعوني وأنا عائد إلى أوروبا من أفريقيا الغربية فنزلت عليهم أسبوعاً كاملاً ، وكان فيهم شاب درزى متأدب لازمني وأشعري صحف هذه الجزيرة فزارني وفد منها ممثل جريدة الشعب الشيوعية وكانت الثورة في أسبانيا قد أخذها القائد « فرانكو » وبقي للشيوعيين بصيص يتبينون منه الوثوب مرة أخرى ، زارني هذا الوفد وأعدت له الزيارة مع الرفيق الدرزي في عمارة الجريدة وهي في ثلاثة أدوار . ويشاء الله أن يكون ائثار بن أعضاء الحزب الديمقراطي لنسف بناية الجريدة الشيوعية وأن يتضامن الحزب على تنفيذ الخطة ساعة وجودي في العمارة وأنا أمل على محرري الصحيفة حديثاً سياسياً عربياً ، وينفجر الديناميت ساعتئذ فاذ بالصاعقة تنقض فتصم الآذان وإذا بعجاجها يغشى الأبصار ، وإذا بهول الفاجعة يذهلنا عن أن نعي ما نفعل فنشعر بأن الأرض تدور من تحتنا ، وأن السماء تطبق علينا ، ثم لا نظفر بالوعي إلا ونحن على بعد عشرات الأمتار من البناية ، ونرى الإسعاف ورجال الأمن والمكافحين ينتزعون الضحايا والجرحى من تحت

الأنقاض ، وإذا بنا نتساءل وأنفسنا : لم لم نكن أحد هؤلاء المحمولين على الأكتاف وفي حوافل الاسعاف ؟؟ ثم التفت إلى رفيقي أقول : كفى بالأجل حارساً .

وأعود إلى ذكريات الصبي فأذكر : ان من مصائب الحرب العالمية الأولى وباء الهیضة « الكوليرا » وأن لبنان ناله القسط الوافر من هذا الوباء ، وقد تحملت قريتي أكثر من ألف إصابة به وتكاد نفوسها لا تزيد على المئتين بعد الألف ، وكنت إذ ذاك في الخامسة عشرة من سني حياتي ، وقد تولى أهل القرية العرب القتال إذ يرى بعضهم بعضاً ينهارون في الأزقة ، وبين الجدران ، وعلى الطرق ، حتى امتلأت فرج الساحات بالجثث وتعفن الهواء وتيس في البلدة من يطبق مواراة هذه الضحايا ، إذ كان الشبان في الجهاد ولم يبق إلا النساء والصبية والشيوخ .

وكان أبي في عقده السابع يكاد ينهد إلى الشيخوخة ، ولكنه إذ رأى ما رأى وسمع ما سمع من أن أغنياء البلدة وجبئاءها أغلقوا بيوتهم على أنفسهم فراراً من الموت ، قال لي : قم يا بني نعمل لله فقمت وقادني إلى منزل الحاج محمود أيوب ، وكان رجلاً صالحاً ، وناداه من خارج فلباه مدعياً ، وأمن على طلبه إذ قال أبي له : أنترك الموتى في الأزقة للكلاب والطير ونحن ندعى الإسلام ، ثم مشينا الثلاثة ، نحمل هذه الجيف المتفسخة إلى الخفر حيال المقبرة فنوارها دونما صلاة ولا غسل وتمر بنا أيام حتى لم يبق جثة إلا وهي مواراة . وهكذا كنا نطوف القرية لإغاثة من ينهار بالمبردات والشاي وغيره مما يقبض الأمعاء ويحول دون الإسهال المميت ، دون أن يشفق أبي وعمي على نفسيهما ولا على شباب هذا الصبي الذي واساهما في الجهاد بنفسه وهو في غمرة من فقه الحياة ، وتنظف القرية من الوباء حيث يسودها النظافة من السكان ونحن الثلاثة في عصمة من كل هذا ، وكلنا عرتني أو عرت عمي الحاج محمود رعدة لمنظر مؤلم أو مشهد مروع ، نظر أبي في وجهينا ولم يزد على قوله : جاهدوا فان إمامكم يقول : كفى بالأجل حارساً .

وأذكر أبي ، وأنا في مطلع ربيع حياتي ، غادرت مدينة بيروت بين الظهر

والعصر إلى صيداء راجلا ، إذ لم يكن لدى ما أكرى به ركوباً يحملنى آنذاك لقلّة ذات يدي ، وكنت قد وردت بروت أنشد عملاً أدفع به غائلة البؤس عن أبوى العاجزين فى غضون الحرب العالمية الأولى وأخفقت فيما نشدته .

ومررت بصيداء مغيب الشمس أجتازها إلى بلدى الذى لا أعشاه إلا بعد منتصف الليل ، وليس فى يدي ما أدفعه لمبتي فى صيداء إن تفاديت وحشة الليل فى طريق وعر لا مذهب فيه إلا للقوافل ، ولا مسلك على جانبيه إلا للوحوش الفارسة ، وصممت على المغامرة من وراء عقل يتضاءل بين يدي طيش الشباب الأرعن ، حتى إذا انتصف الليل أو كاد ولم يبق لى إلا خمسة أميال على أن أقطعها فى واد تكسو جانبيه والجبال المشرفة عليه غابة قل أن تطأها قدم إنسان فى وضوح النهار فأين منها مسارب الإنس تحت هذا الليل الحالك الرهيب ؟؟

رأيتنى ، وأنا أنساب فى منعطفات هذا الوادى السحيق « وادى النمرية » ، والليل غير مقمر والسماء عارية من الكواكب يكسوها نمام الخريف ، أقول : لقد شعرت بى إذ ذاك شبحاً فاقد الحس لأعنى كيف أطأ وأين تسير بى قدامى حتى كدت أطر فلا أسمع صوت قدمى ولا أبصر موطئهما ثم لا أحس فى هذه الظلمات المتراكمة بين ليل يدهم بالغمام وغابة تتكاثف بالخوف ، لا أحس همساً يخرق سكوت هذا الأفق الذى يحرق بى إلا ضربات قلب يكاد ينشق عنه صدر أخذ يعلو ويهبط حتى أحسست أن وراء مقامع من حديد .

وفجأة تبدد غنى هذا كله إذ جال فى نفسى خاطر لحظت معه أنى إنما أخوض هذه المخاطر فى سبيل أبوى ، إذن فالله معى وأنا منه فى حصن يقينى من كل شر ، ولحظت أن أنى فى مثل هذه الساعة من كل ليلة ، قائم فى محرابه يصلى ويدعو لى ، ثم لحظت آخر الأمر قول إمامى أبى الحسن : كفى بالأجل حارساً « فمن يصدق أن صبيّاً لم يراهق ولم تتجاوز سنه بضع عشرة سنة يقدم على اقتحام غابة يوغل فيها كل نوع من الوحوش الضارية والسباع الكاسرة ، يقتحمها هذا الصبي بعد منتصف الليل ، بينما يتحاماها الأبطال فى وضوح النهار ؟؟ إلى ، وأنا أنهى اليوم إلى الستين من عمرى ، لا أزال كلما مرت بى ذكرى تلك الليلة أرعد ويكاد الرعب يقذفنى من حلق أربعين سنة إلى حيث أخبل وأجن .

- ٢٥٤ -

فليس الأمر أمر شجاعة أو إيمان ولكنه أجل سبق به قضاء الله أن يتجشم  
 مثلى الأهوال ويقتحم المخاطر ثم لا يحزمه كائن ما، وهو يعمل للحق، فلم أكن  
 بعملى إذ ذاك أتلقى الهلكة عامداً ، ولكنى مرغم بطبعى على جهاد يضطرني  
 للاضطلاع به شرفى وإنسانيتى ودينى ، ذلك هو بين يدي الحق الذى يفرض  
 على أن أضحي بكل ما أملك حتى نفسى فى سبيل أبوى الشاخصين إلى الله  
 من أجل



الله

رَبَّنَا إِنَّنَا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَصَلُّوْنَا السَّبِيلَ ،  
رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا

هؤلاء السادة الكبراء الملعونون على السنة أتباعهم يوم القيمة كثيرون بين أظهرنا منذ فجر التاريخ ، ولسنا نتحدث في ظل هذه الآية الكريمة عنمن سبق منهم ولكننا نعرض قبيلاً من هؤلاء الذين هم بين سمعنا وبصرنا ، والذين يقرأون هذه الآية أو تتلى عليهم وهم معروضون عنها ، فليسمع قارئ هذا البحث وليفكر : سمعت أحد مهاجرين العرب في أمريكا ، وهو من جنوب لبنان ، وقد بلغني أنه عاد إلى وطنه بعد هجرة ثلاثين عاماً فلم يلبث أكثر من بضعة أشهر ثم رجع إلى مهجره ، سأله السبب في ذلك فقال :

جاءني مختار البلدة صباح يوم ما وقال : ألا تحب أن تزور معي زعيم القضاء فلان؟؟ قلت : وما شأني وشأن زعيمكم؟؟ اني غريب عنكم وقد قطعت حياتي في بلاد لا زعيم لها إلا العمل الحر ثم عدت لأموت بين أهلي وعشيرتي لا لأحيا حياتكم هذه القائمة على العبودية والاستخذاء ، فقال : لا بد من هذه الزيارة لأن الزعيم عرف بعودك إلى وطنك ، والعرف يقضي على كل قادم أو مقم بزيارة سيد البلاد ، وما عليك من هذه الزيارة وأنا معك فستكون محترماً ومكرماً عنده

فاستجبت للصاديق وهبطنا معا إلى المدينة حيث يقيم الزعيم ثم دخلنا عليه قصره وإذا به مستلقياً في البهو على ظهره يطالع إحدى الصحف ، وكان الحاجب قد آذنه بنا فأذن لنا ، وحينئذ بسلام الإسلام فلم يجب بالسلام ولكنه خاطب المختار بقوله : كيف أنت أبا فلان؟؟ ولكنه قال ذلك دون أن يتحرك أو أن يحول بصره عن الصحيفة ، وعبثاً حاول صاحبي أن يلفته إلى الزائر الجديد بتلويحه وتلميححه ، وجلسنا بضع دقائق دون أن نظفر من الزعيم بضيافة أو ترحيب ، فخرجت إذ ذاك بغير إذن ثم لم يعلم بي أحد إلا وأنا أبجر من بيروت عائداً إلى مهجري هذا .

وهكذا يتحدث إلى السيد عبد الكريم الزين أحد وجهائنا في بيروت ، أن ابن عمه جاء من مصر ليتقاضى ثلاثين ديناراً كان قد اقترضها أخو هذا الزعيم أيام دراسته في مصر ولم يردها له ، فدخل عليه نفس البهو ووجده يجلس نفس المجلس مستلقياً وحداؤه في رجله فلم يكلمه ولم يتساعل ونفسه عن الزائر بعد أن تقدم الحاجب إليه معرفاً عنه وعن السبب الذي جاء من أجله ، ولبث في الثوى صامتاً وغريمه صامت ما شاء الله أن يلبث ثم خرج ولم يشعر الزعيم بدخوله ولا خروجه « يقول لي السيد عبد الكريم هذا : لقد سألت ابن عمي لدى عودته عما فعل ؟؟ فقال : بقيت نصف ساعة في منتدى الزعيم أعد مسامير حداثة الذي استقبلني به » ثم لم يزد .

وقد تحدث إلى الطبيب شريف عسيران فقال : عندما احتل الحلفاء لبنان نزل من إحدى البوارج التي مرت بساحل صيداء بعض الضباط الانكليز وسألوا عن فلان .. وهو أبو الزعيم الآنف الذكر وكان زعيماً أكبر من شبلة ، قال الطبيب ، وقد كنت حديث السن فسألت ألى عن السبب الباعث لهم على هذا السؤال ومن أين عرفوه ؟؟ فلم يجبني بما أطمئن له «

» ولكنني عندما دخلت الجامعة الأمريكية كان لي زميلة من طرابلس ، كنت أجلس وإياها إلى ظلال الشجر في باحة الجامعة وتبسط في الحديث ، والحديث شجون ، فسألها مرة أليس لك حبيب ؟؟ وهي مسيحية ، فقالت بلى وأخرجت من حقيبة يدها صورة تريني بها ضابطاً بريطانياً أحبته أيام الاحتلال حيث أرسلت البارجة التي أقلته في ميناء طرابلس ، وأصعدها معه إلى ظهر بارجته ثم قدم لها تلك الصورة .

يقول الطبيب : ولكنني عجبت إذ رأيت في الصورة زعيمنا هذا إلى جنب الضابط فسألته السبب في وجوده معه ؟؟ فقالت : لقد سألته عنه فقال : هو أحد موظفي الاستخبارات عندنا في جنوب لبنان « قال الطبيب : حينئذ أدركت السر في سؤال الضباط الذين هبطوا صيداء قبل سنين عن هذا الزعيم ، من أجل ذلك لا يزال ولده هذا حتى اليوم يتقلب في وظائف الدولة الكبرى من حكومة لبنان التي كانت ولا تزال صنائع المستعمر .

وزعيم آخر من هؤلاء السادة اتحدث إلى قارئى عنه وقد كان أكبر زعيم في لبنان ، ولقد شهدت مجلسه في قصره مع أحد الوجهاء ، وكان الزعيم قد استدعى بنائين ليضيف إلى برجه العالى برجاً أعلى ، فسأله رفيقى : وهل مقر الزعيم في حاجة لتعزيز؟؟ فقال : لا ، ولكنى أحببت أن أزيد في ضخامته ليشرف على جهات الأفق الأربع فإراه الغادى والبادى وتتحدث الركبان عن أثر فلان « يعنى نفسه ، أقول : لقد سمعت هذا وكنت حداثاً لم أجز عنفوان شبانى فسخرت في ذات نفسى من زعيم شاء أن يخلد بقصر يبنيه في عصر لاخلود فيه لإل العمل الصالح .

وقال له مرافقى : أرى أن تلبى ياسيدى رجاء الطائفة ببناء كلية لأبناء رعيته ، فبدأ الغضب على وجهه ثم قال : نعلمهم ليركبوا ظهورنا ، أليس كذلك؟؟ « ثم قام فاحتجب ، ولما خلوت برقيقى ونحن عائدان من حيث أتينا ، قلت له : ماذا ترى؟؟ فهز رأسه وقال : لقد تنادى هو وبعض الزعماء والفقهاء منذ حين لبحث هذا الأمر ثم انفض اجتماعهم عن لاشئ وكنت شاهد هذا الإخفاق فلم تبرد حسرتى حتى أشعت بيتين من شعرى في الأوساط وهما :

أرى الزعماء والفقهاء طرا قد اجتمعوا لما لا خير فيه  
كلا الأخوين ظراط ولسكن شهاب الدين أظروط من أخيه

لقد كان هذا السيد أقوى زعيم على إصلاح قطر يسوده ربع مليون إنسان لا يمتازون عن الحيوان إلا بالعبودية لصنم متحرك هو هذا الزعيم ، ولكن الزمن بالمرصاد لكل من حاول أن يخلد بغير حق فان ذكر هذا الراحل يزداد سوءاً كلما ازداد وعى الشعب الذى أخضعه زمناً ما لجلالوته وكلاب صيده .

وهكذا نجد زعماء آخر في هذا القطر كان يتوفر لديه من ملكه الخبيث ما يزيد على خمسين ألف دينار لبنانى كل عام يقيم بها مأدبة فخمة ياتف حولها أعيان لبنان حكومتهم وشعباً وتندق حولهم الطبول والمزاهر ، على أنغام الناي والأرغل من شعب قضى الله عليه أن يكون عبيداً ونحو لا لهذه الفئة من طغاة الأمة يقيمون المآدب لأمثالهم من دم الشعب وعرقه بينما لا نرى في الشعب من يحلم بطعامه وكسائه ، يقيمون هذه المآدب لرجال الدولة وزبانية الحكم وهياكل التمثيل ومن

لف لفهم في سبيل الوصول إليهم والانخراط في سلوكهم ليتخذوا الشعب مطايا إلى مآربهم وأهوائهم .

ونجد في مكان آخر من هذا القطر زعيما آخر قطع أيام درسه الحقوقي في أوروبا يعيش في حدود شهواته على ما يجنيه من سرقة الأحذية في الليل عن أبواب الغرف في الفندق الذي يقطنه ، حتى إذا أنهى علومه عاد ليكون محامياً ثم قاضياً ثم رئيساً لمجلس التشريع وإذا به بعد ذلك كله يشغل أكبر منصب للدولة أجنبية في عالم البترول .

ونجد مثل ذلك زعيما آخر ما انفك طوال حياته يشغل وزارة قيمة في مجلس الدولة يصل بها إلى أحسن ما يتخلق به الدئى الحسيس في سلوكه وأخلاقه إذ شاع أنه احتجب عن الوزارة أسبوعاً ضج ذوو المصالح من تغيبه ، ثم يعود إلى عمله معصوب الرأس مهشم الوجه من لكلمات فاجأه بها ضابط سكسونى وهو يغزو خليلته « الحرة » بعد منتصف الليل ، ويألها معركة حدثت بها من رأى الوزير وهو ينهار من أعلى السلم إلى أسفل مغشياً عليه من لدمة شج منافسه بها رأسه فطاحت به من أعلا البناية ثم لم يفق من إغمائه إلا وهو في الزقاق بين الحمالين ومساحي الأحذية .

وأعرف زعيما آخر من هؤلاء السادة يسود منافسيه في الانتخاب لمجلس التمثيل كل عام بما يبذله من ماله الوفير لموتى الضمائر من شذاذ الآفاق فيقومون بغرائب الدعاية له من وراء التضييل والتدجيل ، فعلى كل جدار ، وفوق كل منصة ، وتحت كل شرفة ، وعلى كل عمود ، أثر من هذه الدعاية يعلنه أولئك الأوباش معلنين أهليته لتمثيل الأمة ، والأمة بأسرها تعرف من أين جاء بماله الذى ملأ به الجيوب وأشرق النفوس ، ولو سألت أيّاً رأيته عن مصدر هذا المال أجابك : انه من زراعة الحشيش المسكر وتهريب الأفيون المخدر ..

وهكذا عرفت زعيما آخر كنت أزوره إبان موسم الانتخاب النباني فأجد أوراق النقد بين يديه أكثاداً يوزعها على تلك الربانية ، فأعجب لإنفاق مئات الآلاف من الدنانير في سبيل منصب لا يجنى منه الآلاف ، كيف يكون ؟ ومن أين يأتي بسد العجز وهو مملق ؟؟ ويجيبني من هو خبير بمصادر المال

المتدفق على رعاة الأمة ، فيقول : انها الشركات الأجنبية التي تمتص دماغنا ، تغدق عليه ليفوز بالنيابة فالوزارة فالرئاسة ، وعندئذ تتقاضى هذه الشركات منه ما تستغل به الأمة وخزينة الدولة من واردات محتكرة ونخالصة الضرائب . وأعرف زعيما سورياً كان يطوف أمريكا فيخطب المهاجرين العرب داعياً للتعاون مع فرنسا ، وزعيما سورياً آخر كان يطوف طواف زميله داعياً للتعاون مع بريطانيا ، وكلاهما كان يتفانى في خدمة الأجنبي بينما كان الأول يناسب العداء للملك فيصل الأول ، والثاني يناسب العداء للملك عبد العزيز بن سعود ، وكلاهما يفضل الاستخذاء للأجنبي على التحرر من نير الاستعمار ، كل ذلك في سبيل المناصب التي يتنافسون عليها في بلادهم .

وأعرف زعيماً عراقياً مسلماً كان قد رأس مجلس الوزراء العراقي أكثر من مرة ، وقد صارخني عندما زرتة لأخذ حديث عن مقاطعة العرب لإسرائيل للنشر في مجلتي « العروبة » أيام صليورها في بيروت ، صارخني بقوله : أن من الخطأ مقاطعة اليهود لأننا في أمس الحاجة إلى إنتاجهم العلمي والعمل ، وكان مرافقي الدكتور أحمد نسيم ، فلما خرجنا حلفت إليه مستفهماً عما سمع فقال : لا تلمه انه يرأس جمعية يهودية اقتصادية ويكاد يكون نصف ثروته الفاحشة من رئاسة هذه الجمعية » .

ولعل القراء يكونون أشد عجباً إن قلت لهم أن مرافقي الدكتور أحمد نسيم هذا كان يهودياً ثم دخل الإسلام ، ويكاد عقله على عليه لإخلاقه لإسلامه . وهكذا نجد في كل قطر بل في كل بلد سيداً على على من يسوده في قوله وعمله ما يضل به من فسق أو دعارة أو خيانة أو إسراف ثم لا يقيم وزناً للشعب الذي يتخذ مطايا لشهواته في دوائر الحكم أو مجالس التمثيل ، وإذا مارست حياة هؤلاء السادة وعبيدهم تجدك كل يوم في أو في كل لحظة متمثلاً بالآية الكريمة حاكية قولهم يوم القيمة : ربنا إننا أطعنا ساداتنا وكبراءنا فأضلونا السبيل ، ربنا آتاهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً »

إِذَا أَرَادَ اللَّهُ إِنْفَازَ قَضَائِهِ وَقَدَرَهُ سَلَبَ ذَوِي  
الْمُقُولِ عُقُولَهُمْ حَتَّى يُنْفِذَ فِيهِمْ قَضَاءَهُ وَقَدَرَهُ

محمّد

في طي هذه الكلمة عبرة مارستها بنفسى في حياتى وحياة غبرى ، ولعلى  
أكون مطمئناً إلى الحق فيما أقضه على قراء كتابى هذا مما حدث لى أكثر مما أطمئن  
إلى الحق وأنا أقص عليهم ما سمعت مما حدث لغبرى ، ولعل كل بصير بما  
مر به من أحداث الزمن يسجل على نفسه أو لغبرة مثل هذه العبر فيطويها في  
تكيانه أو ينشرها فيبعثها إلى الأجيال عظة بالغة الأثر في صميم التاريخ .

أنا محمد على الحوماني الذى يسجل على نفسه بين يدي الحق هذه العبر ،  
أنا هذا الذى شرق في الأرض حتى أشرف على الصين ، وغرب حتى هبط  
بلاد السكسون ، ثم أمعن في غربته حتى خاض بحر الظلمات إلى العالم الجديد  
« أمريكا » شمالها وجنوبها وما بين هذين ، ثم أمعن في طوافه حول العالم حتى  
أحلق بأفريقيا وطوقها من جهاتها الأربع ، أنا هذا الشيخ الذى قطع الربيع من  
حياته مجوب قطراً أو يغادر قطراً ، من بلد إلى بلد ومن شعب إلى شعب ثم من  
حياة إلى حياة ، أنا هذا الرحالة العالمى ، أقص على قارئى عبرة واحدة من العبر  
التي مرت بى ، وهي كثيرة ، فأذنتى بالرجعى إلى أن الإنسان مهما نضج فكره  
وحصف عقله لا يزال مفتقراً إلى اكتناه ما يحدث به من أسرار .

أما هذه العبرة فنشؤها مصر الجديدة ، في هذه الشرفة التي تطل بى على  
قاهرة المعز والحدائق المنبثة حولها تنبثق من فجر النيل الخالد على الدهر ، لقد  
وردت مصر هذه قبل خمسة أعوام ، وكنت قلق النفس مضطرب الفكر أنشد  
الطمأنينة والاستقرار ، بعد أن لبثت عامين في دمشق ، وأعواماً في بغداد في  
سبيل هذا الاستقرار وتلك الطمأنينة ، فلم أقف لها على ظل ، وكنت قد يئست  
من بلدى لبنان الذى يطمح إليه كل دخيل ، ويستقر لديه كل أجنبي ، ونحفق  
بين يدي سمائه الضاحية وأرضه الناضرة كل من نبت على أرضه ، وتغيا ظلاله ،  
وتنسم هواه ، أقول : بعد تقبلى هذا في آفاق العروبة أنشد السكينة والهدوء

لم يستجب لى أفق عربى إلا على ضفاف النيل وتحت سماء مصر .  
 هذا البلد الذى يطمئن الأديب فيه إلى أدب ، والعالم إلى علم ، والشاعر إلى فن ، وفى كل أولئك هواى ، مشفوعاً بنحو معتدل لا إلى الزمهرير ولا السموم ، قلت لنفسى ، وقد نزلت مصر ، وقالت لى ابنتى : ها هنا مهبط الروح ومسرح الأحلام ، أفلا تسكن وتهداً وتطمئن وتستقر ؟؟ قلت بلى يا بنية ، أرى أن مصر تشيع روحى بهوائها ومائها ، ثم بالأندية والمحافل القائمة فيها على العروبة والإسلام ، ها هنا نستقر إذا شاء لنا الاستقرار ، وعمدنا ، ابنتى وأنا ، إلى اختيار الحى ، فكان مصر الجديدة ، ثم إلى اختيار الشارع فكان شارع السعد ، ثم إلى اختيار السكن فكان هذا البرج الشامخ من ناطحات السحاب ، نستقبل فيه الشمس وهى تشرق ، ونودعها وهى تغيب ، ولقد قطعنا من الضعف قوة فى تأنيث المنزل مما يتفق وحياتنا المتواضعة ، وكان خبر الاستيطان فى مصر نغماً يتردد على ألسنة الأجيال من أصدقائنا ، وفى آذان المعجبين بالأدب والشعر من محبيننا .

وتودعنى سلوى إلى لبنان لتعود بأمرها وإخوانها وألبث منتظراً هذا العود وحدى فى هذا المنزل أجلس إلى شرفى وحدى ، وأصغى إلى الواحى وحدى ، وأستلهم كواكب السماء والأرض وحدى ، ثم آوى إلى فراشى وحدى ، ذلك مما أعاد إلى خيال الشباب واستيحاء الشعر مدحاً ذكريات الشباب العارم على شاطئ بحيرة مشغن فى أمريكا ، وعلى ضفاف بردى فى دمشق ، وتحت أفياء النخيل فى العراق ، ثم على صخر شوران وتحت ظلال الصنوبر وفى أحضان الأرز ، على قديم لبنان وبين يدي شمس الضاحكة ونسيمه البليل .

على هذه الذكرى عدت إلى الشعر فكانت باكورة نظمى فى الجبال «الشمس الغاربة» بعد أن مر عشر سنوات على نظمى «ديوان حواء» وكنت قد أوشكت أن أركد وأن تبخر عواطف الحب فى صدرى ، وأعود إلى التماس حياة أسمى من حياة اللعب واللهو والدعة والخيال ، حياة الجدة والحزم والخلود فى ظل حقيقة لا يأتيناها الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، حياة العمل الباقى بعد ركود الجسد وانتفاض الروح .

لقد أفقت ساعتئذ من سكرة رانت على قلبي عشرات الأعوام لم أحسب معها للحياة حساباً غير العبث والمجون ثم تساءلت ونفسي ؟ : أيشرف الإنسان على شيخوخته ثم يفارق الحياة وهو غافل ؟؟ فلو لم يكن في قلب المرء إلا ذرة من الأمان بالحق انه حق لكان في ذلك ما يدعو له لأن يفكر ثم يحتاط لما يستقبل بعد الموت ، ألا وإن التربية التي درجنا في كنفها ، ونشأنا على الاحتفاظ بها حتى أصبحت جزءاً من حياتنا ، ان هذه التربية لتجرى في دمائنا ، وتنفض في صلورنا ، وتحقق في جوانحنا ، مهما حاول المجتمع أو المدرسة أو العشير أن يحول دون بروز تلك النواة وغلبيتها آخر الأمر .

فكرت في كثير من هذا ، وأنا تحت تأثير روعة هذه « الشمس الغاربة » التي تودعني عشية كل يوم لتستقبلني في صباحي ، وأنا من بعض ليالي مفكراً فيما آتية من غدي لأشبع به روجي الجائعة إلى الطمأنينة والاستقرار ، وإذا في أشعر ، وأنا أحلم ، بيد أبي تنخسني قبيل الفجر بأصبعه السبابة التي عودتني هذه النخسة أيام كنت حدثاً يطيب لي نوم الصباح فأقوم للصلاة مكرهاً متثاقلاً ، أما اليوم وفي هذا السحر فقد شعرت أني عدت إلى حياة أحسب العود إليها كل ما آمله من حياتي ، تلك هي حياة الطهر والقداسة في كنف أبي وتحت رعايته ، وبين يدي تهذيبه وتأديبه .

وهنا تأتي العبرة التي من أجلها حبرت هذا البحث وأرسلته في صميم التاريخ ، لا على هامشه ، إلى الأجيال التي تستقبل مثلما أستقبل ، قمت إذ ذاك أصلي وكان أبي أمامي وكان ذكره أعادني إلى تلك الليالي الحافلة بدموعه وتسييحه في جوف الليل وهو يصلي ، فصليت ما شاء لي الله أن أصلي ثم بكيت ما شاء الله لي أن أبكي ، وسألت الله ساعتئذ أن يوفقني إلى « الرجعي » بعمل يمحو السيئ من حياتي ويبقى على الخير في نفسي ، وغمرتني إذ ذاك روحانية كشفت لي عن صدق ما أرجوه في نفسي وتحقيقه في مستقبلي ، وأن الله سامع لي ومحيب دعائي . وكان أول ما جال في روعي أن أقدم بين يدي ، وأنا أستجيب لعقلي وإيماني ، ما قدمته بين يدي وأنا أستجيب لهوأي وطيشي ، ذلك هو الفن الذي فطرت عليه ، ونهت به ، وأعرت فيه ، ذلك هو الشعر الذي سلخ الشطر



الأول من حياتي ، وأنا عابث ، أحببت أن يسليخ الشطر الأخير من هذه الحياة وأنا جاد ، فسأعاقب نفسي وأنا أستقبل شيخوختي بنفس العامل الذي عاقبتني به وأنا أنهد إلى الشباب . ذلك العامل هو الفن الذي يعصر الشباب إثمًا وتعصره الكهولة بله الشيخوخة حكمة وحزمًا .

عاهدت ربّي على أن أنسخ من صدرى كل هوى يحملني على العبث فيما أجيل به فكري ويفصح عنه لساني ثم يسجله قلبي ، ورجوته أن يفتح السبل أمامي بين يدي سفر أقصر فكري على تخريجه الفني ويكون قاصراً على الإشادة برسالة محمد الذي بث أي في روعي محبته وتقديسه ، والذي لم أجد بعد أن فقهت الحياة ، حياً خالداً محمد إليه الفكر حديثه وقديمه ، روائع الحضارة القائمة على العلم والخلق والدين ، أقول : لم أجد بعد فقهي الحياة حياً خالداً غير محمد ، على هذا صممت وشرعت أبعث الفن في زوايا نفسي ، وعطلت كل أداة تتصل به وتحيله إلى أي شيء من حطام الدنيا ، وكانت قصيدة « الشمس الغاربة » أول أغنية مدوية في العالم بأعجاذ محمد .

كنت إذ ذاك أتوقع مفاجأة الأسرة لي عائدة فتحول دون إغراقي في تخريج سفرى الجديد « انت انت » ولكن الله شاء لي أن استرسل في استلهامي هذا الأفق ، وأن أطمئن إلى وحدتي في استيحاء جماله وجلاله ، لذلك حال بيني وبين أسرتي سنة كاملة ، وأنا أحمد إليه تلك الحيلولة ، حتى أتممت رسالتي في ديوان « انت انت » ولو كنت بين أهلي لأفضت بي رعايتهم إلى تعطيل فني وعجزى عن أداء تلك الرسالة .

وسألت الله بعد وفائي بالعهد له أن يتولى بفضله طبع هذا السجل الذي يرهقني بتكاليفه إن أقدمت على تخريجه بما أملك من مال نزر ، فيشاء ربّي أن أغشى ندوة الشورى وأن يكون فيها ثلة من أهل الفضل والسياسة وأن يطلب مني مؤسس الندوة أثناء المجلس شيئاً من شعري الجديد ، فأملت عليهم قطعاً من إحدى ملاحم الديوان ، ويشاء الله أن يتأثر بعض شهوده فيتطوع لطبعه وينجز الرجل وعده ، فاذا بالديوان بعد شهرين في أيدي هواة الأدب والشعر . وهنا وقفت مطمئناً إلى ما كان ، ولكن الله الذي وفق للإخراج لم يقف

لطفه بي عند هذا الحد وإنما ألقى في روعي أن أبعث بضع نسخ من الديوان إلى سدنة الحرمين في مكة والمدينة فاذا ببعض أو لثلك يفتح لي طريق الجو إلى روضة القدس حيث يرقد محمد صاحب ديوان « انت انت » ثم إذا بي أنزل في مهبط الوحي وإذا بالوزير السعودي الشيخ محمد سرور الصبان يتلقاني في وادي العقيق وإذا به يصحبني إلى أكثر من عشرين حفلاً تحت سماء طيبة أنشدتهم فيها من ديوان « انت انت » وإذا بمدينة محمد تطبق علي من فيها بذكرى « انت انت » على لسان شاعر جديد ورد الروضة القدسية ليضع فيها أول نسخة سبّح الله بها العالم من ديوان « انت انت » .

ثم إذا بالوزير يأبى أن يغادر المدينة المنورة إلا وأنا معه في البر عن طريق « بدر » مصلر الأعجاز في الإسلام ، ويأبى هذا العبقرى إلا أن أصبح به إلى جعدة فأنزل عنده المنزل الكريم ، وإلا أن أرافقه إلى مكة فنكون في قصره « كرامة الجود » ويأبى إلا أن أرافقه إلى مدينة الطائف ثم يأبى آخر الأمر إلا أن أكون وإياه معاً في الوفود على ملك الحرمين سعود بن عبدالعزيز الذي دعاني لزيارة مقره في الرياض ، وليبت الوزير إلى كل ذلك ، وأنشدت المليك لإنشادي أعيان المدن الحجازية جمعاء ، ويكون عطف الملك على الشاعر ، بفضل محمد ورب محمد ، كعطف الوزير عليه قبل ذلك ، وإذا بي أعود إلى مصر وأنا مثقل بنعم ربي من وراء تلك الرسالة التي أخلصت فيها إلى الحق ، فكانت هذه أولى بوادر الطمأنينة والاستقرار في نفسي ، تلك هي العبرة التي كنت مسروراً بها وأنا أتمثل قوله صلوات الله عليه : إذا أراد الله نفاذ أمر سلب ذوى العقول عقولهم حتى ينفذ أمره . فتهيئة الجو لنظم الديوان ، بوحدتي في أجمل بقعة من الأرض ، وتسخير الطابع له دونما أجر إلا تأثره برسالة محمد ، ثم التوفيق لزيارة الأماكن التي بعثت في نفسي عوامل الوحي حتى كأني ، كلما وقفت على مكان منها ، كنت قد وقفته في عالم الغيب وأنا أنظم الديوان .

هذه الأسباب التي توفرت لدي من وراء يقيني بالله وإيماني بالحق ، هي التي وقفت بي آخر الأمر موقف الموقن المؤمن ، أليس في ذلك عبرة لمن أراد أن يعتبر ؟؟

ثم لم يقف قضاء الله وقلده في تعزيز « انت انت » عند هذا الحد وإنما تجاوزه إلى إحرازى بفضلته جائزة المجمع اللغوى المصرى الأولى للشعر هذا العام ، فلم أحرز بواحد من دواوين شعرى الستة هذه اليد من مجمع مصر العلمى الموقر لولا ديوان « انت انت » حتى شافهنى العلامة عباس محمود العقاد ، وهو أحد أعضاء المجمع ، قال لى : مما يجب أن نفخر به أن المجمع لم يجمع على جائزة أولى فيما سبق وإنما كان بمنحها بأكثرية أعضائه ، وأما ديوانك « انت انت » فقد تجاوز الاجماع إلى الإعجاب « ذلك من فضل الله على أحببت أن أسجله فى هذا السفر وأبعث به عبرة إلى الأجيال .

## عَلَى سَتَعْرِفُونَنِي بَعْدَ خُلُوءِ مَكَانِي وَقِيَامِ غَيْرِي مَقَامِي

لا أحب أن ألفت القارئ إلى بلاغة هذه الكلمة ، لأن كلام الإمام لإمام الكلام ، ولكنني أحب أن أستطرد إلى ما ترمى إليه كلمته هذه من بعيد ثم أنسأل ونفسي ؟؟ هل عرفه أهل العراق بعد خلو مكانه ؟؟ ومن ذا الذي قام مقام الإمام بعد تخليه عنهم ، ونجاته منهم ؟؟ حقاً لقد نجا منهم بالموت الذي كان حياة له بعد موته فيهم .

هذا الذي كان يتقدمهم في الحرب ، ويعرفون منزلته من رسول الله ، وأنه مع الحق ، وأن مناوئته باغ عليه ، وأن الله أمر بقتال الباغي ، هذا الذي يعرفون جيداً أنه أول من أسلم لله مع رسوله ، وآخر من جاهد في الله بعد رسوله ، يعرفون ذلك كله ، وهو إمامهم وأمامهم في الجهاد ولكنهم أبوا رغم ذلك كله ، إلا أن يلحقوا به في مقدمة الصفوف يوم صفين ، ولم يبق بين قائد جيشه مالك الأشتر وبين مضرب معاوية إلا بضعة أمتار ، والإمام يعظهم ويمنهم بالظفر الوشيك ، ويذكرهم بسابقتهم وخلافته وقرابته من رسول الله أن يثبتوا ويصبروا ، ولكنهم أبوا إلا أن يعلنوا حرباً عليه أو أن ينزل على حكم عمرو بن العاص في الاحتكام إلى القرآن ، فيأمر قائده الأشتر بالرجوع ، ويغمد هو سيفه بعد أن علموا أن معاوية قد وضع رجله في ركابه ابتغاء الهزيمة .

هذا الإمام المظلوم قد خلا مكانه فيهم بعد هذه الكارثة التي نزلت بالعراق واستمر العراق تحت وطئها مئة عام ، فن ذا قام فيهم مقامه خلال هذه الأعوام الطويلة الآجال ؟؟ حسبنا أن نذكر اثنين فقط ممن جلسوا للحكم في العراق وتقمصوا إمارته بعد أمير المؤمنين سلام الله عليه ، هما عبيد الله بن زياد ، والحجاج بن يوسف الثقفي ، أولهما يمثل يزيد بن معاوية ، والثاني يمثل عبد الملك ابن مروان ، وكلاهما أحدث في التاريخ الإسلامي حدثاً ما زال العالم الإسلامي وسوف يبقى إلى يوم القيمة حافلاً بروعة هذين العهدين وما نشأ عنهما من

تقويض دعائم الإسلام التي قامت على سواعد محمد وأصحابه في الدعوة إلى تحرير الإنسانية ووحدة العالم .

ولما اخترت هذين لأدل على مبلغ استخداء العرب للحاكم المستبد إذا استشرى فهم ، فقد عرف يزيد أن الأبناء العراقي لا تخضع إلا لمن لا يعرف للحق وزناً ، ولا يقبل الله حكماً ، من أجل ذلك كتب لعبيد الله بن زياد بن أبيه ، وزيد هذا هو ابن سمية المجهول الأب ، وقد استلحقه معاوية بأبيه أبي سفيان لأنه كان يفتق بها وشاع أنها شهدت على نفسها بأن ابنها زياد هو من أبي سفيان .

فعبيد الله بن زياد هذا كان والياً لمعاوية على البصرة فكتب إليه يزيد بعد استخلاف أبيه له وخروج أهل الكوفة عليه باستقدامهم الحسين بن علي بن أبي طالب ليقوم فيهم مقام أبيه ، أقول : كتب إليه يزيد يستقدمه للكوفة ليحول بين الحسين وبين قوم أبيه ، فقدم ابن زياد على الكوفة قبل الحسين ودخلها في الظلام يتشبه في مشيته وبزته ونقبتة ولحيته بالحسين ، فقتلناه أهل الكوفة وهو متنكر وهم لا يشكون في أنه الحسين بعد رسوله مسلم بن عقيل الذي بشر بقدومه ، فكان ابن زياد كلما مر يقوم منهم رحبوا به وقالوا : مرحباً بابن رسول الله ، وهو ضامت لا يجيب والناس يزدحمون خلفه يتأثرونه إلى قصر الإمارة ، فلما دخل القصر رفع اللثام وأمر الحجاب أن يغلقوا باب القصر ويعلنوا الجاهل أن الأمر عبيد الله بن زياد يأمركم بأمر أمير المؤمنين يزيد أن تفدوا عليه مبكرين بأسلحتكم ومن تأخر قطعت رأسه .

وبالفعل فقد تلحرجت الرؤس في الصباح ممن لم يمثلوا أمره ، فاذا بكوفة الجند كلها مندججة بالسلاح تحديق بقصر الإمارة ملبنة أمر الأمير لا تائرة عليه ، وإذا بالأجناد تسير لقتال الحسين بن فاطمة ربحانة رسول الله ، وإذا بهذه الكتائب التي كانت بالأمس منعقدة لنصرة الحسين تخرج عليه فتتأثر ليزيد الفاسق منه ، وإذا بها لا توقف عند قتله حتى تلحق به أهله وبنيه ثم تدوس جثثهم بسنابك الخيل وتحمل رؤسهم وتسيي نساءهم إلى ابن زياد هذا الذي لم يدع كرامة في العراق إلا وضعها تحت قدميه ، هذا ابن زياد الذي قام فيهم مقام علي يأمرهم

بذبح الحسين سبط الرسول الذي لقبه بسيد شباب أهل الجنة ، يأمرهم بذبحه فيطيعونه ، وأما على فكان يأمرهم بقتال الفئة الباغية فيعصونه .

وأما الحجاج بن يوسف فقد بعث به عبد الملك بن مروان إلى العراق مؤدباً لهم وكانوا يحصبون كل أمير يرددهم من بني أمية ، ولكن الحجاج قبل أن يحصبوه صعد المنبر وهو متنكر فلم يتكلم حتى هموا بحصبه ، وإذا به يضع العمامة على رأسه ويقول :

أنا ابن جلا وطلاع الشمس يا متى أضيع العمامة تعـرفوني  
ثم انهال عليهم بالقذف والتحقير والشتائم والتهديد حتى لم يترك في قاموس الفحش صخراً إلا قذفهم به .

يقول : يا أهل العراق ويا أهل الشقاق والنفاق وسيئ الأخلاق ، يا بني الكيعة وعبيد العصا ، وأولاد الإمام « إلى آخر ما هنالك من قذف تندي له الجباه وهم ساكتون واجمبون ، قد فارقتهم تلك النفوس العاتية التي حاصروا بها دار عثمان من قبل ، والتي غزوا بها معاوية بقيادة الأشتر النخعي يوم صفين .

ثم قال الحجاج لغلامه : اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين عبد الملك فبدأ الغلام قراءته : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان إلى أهل الكوفة سلام الله عليكم ورحمته وبركاته ، فلم يردد التحية أحد ، فقال الحجاج مخاطب القوم : أيسلم عليكم أمير المؤمنين ولا تردون السلام أما والله اني لأرى رؤساً أينعت وحان قطافها وإني لصاحبها ، وكأني أنظر إلى الدماء بين العمام واللحي ، والله لأحزمنكم حزم السلمة ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل ، ولأؤدبنكم غير هذا الأدب ، ثم التفت إلى الغلام وقال اقرأ ، فلما وصل الغلام إلى قوله : سلام الله عليكم فلم يبق في المسجد أحد إلا قال : وعلى أمير المؤمنين السلام .

وهكذا بدأ الحجاج يسترقهم ويستضعفهم وينزل بهم الضربة تلو الضربة والفجعة تلو الفجعة في نفوسهم وأموالهم ودينهم وأعراضهم حتى لم يبق بيت في العراق إلا دخله الرعب وراى على قلوب أهله القلق والاضطراب ، أما الدماء التي أراقها الحجاج من أعيانهم وكرامهم ، وأما الدل والاستكانة والانكسار

الذى ساد به عروبتهم ، أما ذلك كله فحسبنا أن التاريخ لم يزل منذ ألف وثلاثمائة عام يحدثنا عن مبلغ ما وصم الحجاج به شرف العروبة وعز الإسلام . هذا هو الذى قام مقام الإمام على فى العراق بعد ابن زياد ، وتلك هى حالة العراق بعد أن خذلوا علياً وقتلوا ابنه وهتكوا حرائره .

وليس هذا غريباً فى عراقنا العربى ، فإن استخذاء هذه الأمة للعجباية لا يزال يصمنا به التاريخ منذ كانت أمة ، فان جبروت عمرو بن هند فى الجاهلية بلغ فى قومه مبلغاً أطلقوا عليه معه لقب مظرط الحجارة ، لشدة وطئه عليهم وقسوة حكمه فيهم ولم يجرؤوا ولم يتقرب إلى الحق بدمه واحد منهم ، كما لم تجد فى العراق طوال ستين عاماً سادهم فيها ظلم الأمويين وعسفهم ، لم نجد مضحياً واحداً يقدم على قتل ابن زياد إذ قتل إمامهم ، ولا من أقدم على قتل الحجاج وقد ترك بعد موته خمسين ألفاً منهم فى سجن بلا سقف تحت شمس العراق .

ويحمل التاريخ المظلم لنا عن فاجعة التتر أيام غزوهم بغداد أن المرأة منهم كانت تدخل المنزل على عشرين أو ثلاثين شاباً عراقياً قد اختبأوا فيه من هول الفاجعة ، أقول : كانت تدخل هذه التتيرة عليهم ويبلدها خنجر فتدبحهم عن آخرهم دون أن تثور فى شاب منهم حمية أو تدفعه للدفاع نفس أبية .

وهكذا كان يحكم مكة فى العهود المتأخرة أحد الشرفاء الجبابرة حتى بلغ من عسفه أنه كان يطلق فيلاً له فى الشوارع والأسواق فيأكل ما يأكل ويتلف ما يتلف ولا يجرؤ أحد على رده ، وقد جمعهم مرة رجل مرهوق منهم وحرضهم على أن يتضامنوا ثم يصارحوا الشريف الحاكم فى إنكار ما يأتية الفيل من إتلاف ، فأجمعوا أمرهم وانقادوا للناصح فشئ بهم إلى دار الحاكم ولما بدأ يصعد السلم بدأوا ينفضون عنه حتى دخل على الشريف وحده ، وكان قد بلغ الشريف ما أجمعوا عليه ، فلما رآه وحده صاح به قائلاً : أين عصابتك؟؟ وماذا تريدون؟؟ ولماذا اجتمعتم؟؟ فقال : جئناك يا سيدى لنزجوك أن تأتى بأبنى لهذا الفيل العزيز علينا خشية أن يموت وينقرض نسله .

وما أجمل أن أستطرد بقارئى إلى وطنى جبل عامل فى لبنان فقد كان هذا الجبل الذى يضم ربع مليون من اقحاح العرب الأباة ، لقد كان أول من ثار فى

وجه الفرنسي المستعمر حتى ضرب المثل للأقطار العربية في التضحية والجراحة والحرص على الكرامة ، ولما سادته أذنان الاستعمار هانت تلك الكرامة عليه ، فكان آخر عهد الافرنسيين سبة على العروبة باستخلائه لزعماء تأنف العبيد أن تستخذى لهم ، لقد حكمهم ضابط فرنسي أعرج أعور يدعى بتشكوف ففعل بهم أضعاف ما فعله الحجاج بن يوسف في العراقيين من قبلهم ، إذ كان يطوف قرى هذا الجبل ويأمر بأن يخرج أهل كل قرية لاستقباله يقبلون يديه كما يقبلون يدي كل فقيه فيهم ، ولقد زار مرة أم القرى « بنت جليل » فتعدوا تقبيل يديه إلى أن حملوه مع قرينته بمقعديهما على عواتقهم ، فهل بعد هذا خذلان وانكسار ؟؟ وهكذا كنا نرى كل معقل من معاقل العروبة أيام احتلال الأجنبي لبلادنا ، من العراق إلى سوريا إلى شرق الأردن إلى فلسطين إلى لبنان إلى مصر ، نرى كل معقل يخضع ويستخذى لزعم ساد قومه تخضوعه للمستعمر على حساب هؤلاء المساكين ، فقد كان عبد الرحمن شهنشرو يسود الشام بنفوذه البریطاني ، وجميل مردم يسودها بنفوذه الفرنسي وهكذا قل حتى اليوم في أمثال هؤلاء من كل قطر ثم لم نجد عربياً واحداً ضحى بنفسه فأقدم على تضحية واحد من هؤلاء في سبيل أمته وكرامة وطنه وأعجاده بينما كانوا يترامون على الحديد والنار في ثوراتهم على الاستعمار .

وهكذا نصل إلى الطائفة النصرانية في سوريا ، وهم عرب اقحاح بلغ بهم الاستخذاء لزعمائهم أن ألّوها بعضهم وهو سليمان المرشد ، وهكذا نجد أن جيرانهم وهم الطائفة الاسماعيلية التي ترى في آغاخان بدعاً من الربوبية وتعطيه نص الآية القرآنية : لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، هؤلاء وأولئك من قادة الأمة ورعاتها هم خلفاء معاوية وابن زياد ويزيد والحجاج وعبد الملك بن مروان وأضرابهم ممن قفى على آثارهم بتأسيس الزعامة على الرجس والإفك والسحت والخيانة والكذب والتدجيل ، فالإمام إنما يعنى أمثال هؤلاء بقوله : ستعرفونني إذا خلا مكاني وقام غيري مقامي ، فكأنه ، سلام الله عليه ، قد أشار إلى أن الأمة إذا لم تستجب للهداية من قادتها فستمتي بقيادة يتشمونها أشق موارد الحقول في الحياة .



إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ  
الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا، قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ  
أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى

الله

إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ كِتَابَ اللَّهِ وَعِترتي أَهْلَ  
بَيْتِي، مَا إِن تَمَسَّكُمْ بِهِمَا لَنْ تَضِلُّوا

محمد

أريد أن أخوض في هذه الكلمات المترادفة على معنى واحد : القرني ، آل  
النبي ، أهل البيت ، العتره النبويه ، وغير ذلك مما يشير إلى سلالة محمد وخاصة  
أهله ، أقول : أريد أن أخوض في هذه الألفاظ التي قدسها بعض المسلمين إلى  
حد العباداة ، وتنكر لها البعض الآخر إلى حد السباب والشتم .

قرأت كتاباً لإسعاف النشاشيبي أسماه الإسلام الصحيح فكان فيه على أهل  
بيت رسول الله أقسى من معاوية ، حتى أنه نفى كون الآية القائلة : إِنَّمَا يُرِيدُ  
اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا « نفى أن يكون المقصود  
بها غير أهل بيته بالمعنى العرفي الذي يتناول نساءه وبناته ومن يؤمهم إليه ، أو  
المسلمين عامة على اعتبار أنهم جميعاً أهل بيت الرسول ، هكذا قرأت فيما قرأت  
لهذا الرجل الغريب الأطوار ، ثم قرأت في نفس الكتاب تهجاً على الإمام جعفر  
ابن محمد الصادق الذي كان الأئمة الأربعة أول الناس تقديساً له وإكباراً ، ثم  
قرأت لاشباه النشاشيبي من حملة الأقلام للتنقص من آل الرسول في الشام وبغداد  
وبيروت ممن شابع النشاشيبي في تهجمه وصوبه في تقرير ما جاء به .

أقول ذلك لأنهم لم يكتبوا ليحققوا في التاريخ ولا ليخدموا الإنسانية في  
توجيه الأجيال ، وأعجب من ذلك أن النشاشيبي في كتابه المذكور يفسر الآية  
التي يخاطب بها الله رسوله بقوله : قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى :

بأن الله يأمر نبيه أن لا يطلب أجره من المسلمين على شقائه في تبليغ رسالته إلا أن يحب كل مسلم قريبا : فهل هنالك تفسير أغرب من هذا ؟؟ وهل الحيوان بله الإنسان في حاجة للحض على أن يحب أهله ؟؟ أو يحبه أهله فان في الحث على صلة الرحم غنى عن ذلك . ولقد وردت هذه الجملة بلفظ أهل البيت في القرآن عند ذكر إبراهيم ومحمد فقط ، فهل كان المعنى بهما أمة إبراهيم وأمة محمد أم نساء كليهما ومن يؤيان ؟؟ هل كانت الحكمة في هذه الآية هو أن يحب كل مسلم قريبا أو أن يحب المسلمون نساء النبي ؟؟ وهل هذا هو السر من فرض الصلاة على آل النبي في كل صلاة تتقرب إلى الله بها ؟؟

من هم أهل البيت الذين صلى الله عليهم في القرآن وطهرهم ، وفرض علينا تقديمهم في الصلاة ، وجعلهم رسول الله ثاني اثنين في هدينا بقوله في صدر هذا البحث : إني تارك فيكم الثقلين ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا ، كتاب الله وعترتي أهل بيتي « كما يرويه أحمد في مسنده ، وكما يرويه جعفر بن محمد في حديثه ، من هم هؤلاء ؟ أهم بضع نساء في حجر النبي أفضلهن عائشة التي ضحت بعشرات الآلاف من المسلمين في يوم الجمل تشفيا من علي بن أبي طالب لأنه أشار على النبي بطلاقها ؟؟ من هم هؤلاء الذين يجعلون حكمة القرآن في عنايته بأهل البيت وقرنى رسوله إبراهيم أو محمد ، قاصرة على أن تطلب الصلاة إلى يوم القيمة من الله على نساء النبي ، دون أن نفكر في سبب أقوى من هذا السبب وحكمة أسد من هذه الحكمة ؟؟ وهل من الحكمة أن نؤمن بأن الثقلين اللذين يتولىان هدينا إلى يوم القيمة هما القرآن ونساء النبي ؟؟ وهل الحكمة في قولنا : اللهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم ، هي الصلاة على نساء محمد وإبراهيم فقط ؟؟ ان هذا لكثير جدا على عائشة وأم سلمة ومارية القبطية وضرائرها ، اللهم إني أشهدك على احتراحي نساء رسول الله وأبرأ إليك من أن أقرن بهن اسمك في الصلاة أو أن أقرن بهن كتابك في قول رسولك .

ولماذا نصلي على نساء محمد ونساء إبراهيم ولا نصلي على نساء نوح ونساء لوط ؟؟ أفليس رسولنا إبراهيم ومحمد ؟؟ ولماذا لم نقل اللهم صل على محمد

وآل محمد كما صليت على نوح وآل نوح أو على لوط وعلى آل لوط ، إذا كان المقصود من أهل بيت كل نبي هو نساءه أو أمته ؟؟

ان هنالك سرّاً يفقهه المسلم الصحيح الإسلام ، والمحقق الذى لم يحل بين عقله ونقله ، هوى أو جمود ، ذلك السر هو فى صميم الناموس الأعظم الذى تنزل به الروح الأمين على قلب محمد ، فليس الدين الذى يتعهد به الله عباده وحيّاً فقط ، وإنما هو إلى الوحي المجمل ، نبي يوحى إليه فيفصل ويبلغ ، ثم هو إلى هذين ، فئة تحرص بعد النبي على هذا التبليغ فتعززه فى الصدور وتمكنه من النفوس ، وتحفظه من العدوان ، وتحول بينه وبين الجور فى الحكم والجهل فى التطبيق ، من أجل هذا قال رسول الله إذ نعت إليه نفسه : إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا ومضى بمهد لهذه العترة بنشدانه عليّاً فى حجة الوداع مشرفاً على الناس وهو يعلنهم بقوله : ألسنت أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟؟ قالوا بل يا رسول الله ، فقال ممسكاً بيد علي : اللهم من كنت مولاه فعلى هذا مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه . فلقد كان على الرسول أن يعلن قبل أن يموت : أن هذا الناموس القائم على ثلاثة أركانه ، وحى مجمل ، ونبي مفصل ، وإمام يعزز ويراقب ، أقول : لقد كان على الرسول أن يعلن قومه بالركن الثالث بعد الإجمال والتفصيل ، ألا وهو التقرير والتعزيز على يد هذه الصفوة من أهله ، التى كانت الصفوة بعد إبراهيم ثم الصفوة بعد محمد ، وقد رمز إليها القرآن بالقرى تارة وبأهل البيت تارة ثم فى آية المباهلة آخر الأمر ، فعلى المسلمين أن يفقهوا الدين من هذه الناحية فلا يخلطوا بين السلطتين الروحية والزمنية ، فإن الله ورسوله لم يريدوا على الناس فرض السلطة الزمنية وإنما أرادوا فرض السلطة الروحية فكانت فى الصفوة من أهل بيت الرسول ليكون على المسلمين أن يتدبروا فرقانهم من طريق هذه العترة الطاهرة قبل أن ينوطوها بالحاكم الزمنى .

وإذا درسنا حياة على وفاطمة والحسن والحسين حتى الإمام جعفر بن محمد المصادق نجدهم لا يتعدون فيما يقولون أو يفعلون حدود الحرص على تراث محمد وتعزيره فى صدور المسلمين والحيولة بينه وبين الأهواء والنوازع ، ولو أدى

بهم ذلك إلى التضحية بنفوسهم في سبيله ، هذه السلطة الروحية لم ينازع أحد بها علياً بعد محمد لأنها براء من حطام الدنيا ، وقد شهد له الخلفاء الراشدون بأنه زعيمها القدي إذ جاء على لسان عمر وهو أشد الخلفاء اعتزازاً بنفسه واعتداداً بمكانته ، جاء عنه قوله : لولا على هلك عمر ، وقوله : لا أبقي الله لمعضلة ليس لها أبو حسن ، على أن علياً نازعهم في السلطة الزمنية ليتمكن ، بلا منازع ، من تطبيق الحياة على السلطتين معاً في شخص واحد ، ولكنه لم يستطع إذ كان غير نبي ، وإذ رأى أن الذين تولوا هذه السلطة ، أي السلطة الزمنية ، أمعاء على أن يماشوه في نصرة الحق وتعزيزه في الملم ، فطوى عنها كشحاً وظل يعزز ويراقب .

أما الخلفاء الراشدون الذين تولوها قبله ، فلو زهدوا فيها زهده ، وسمعوا لرسول الله في ترشيحه لها يوم الخندق ، لعرفنا مبلغ الصدق والإخلاص في قول الأستاذ عبد الفتاح عبد المقصود صاحب كتاب « الإمام علي » وهو محلل هذه الناحية من عهد الخلفاء حيث قال : مما لاشك فيه أن علياً برهن لنا في حياته كلها أنه كان المثل الأعلى للسير في ركاب الدين في حياة رسول الله وبعد مماته ، فلو تولى الخلافة بعد الرسول واستمر فيها أربعين عاماً مطلق اليد معزراً من الصحابة ، لتفادى الإسلام جل الأسباب التي لم تدعه يستمر في رقيه أكثر من ثلاثين عاماً ، إذ كلنا يعلم أن تنازع الصحابة على الخلافة وتجاهل أكثرهم علياً أفضى بها إلى عثمان الذي مكن للأمويين من أحداث كانت السبب في تقهقر الإسلام وعجزه عن أن يسود العالم .

لقد صدق الأستاذ عبد الفتاح ، فان تجاهل أبي بكر لعلي وهو يتولى الخلافة ثم يدلى بها إلى عمر من بعده ، وتنكر عمر لعلي وهو يجعلها شورى ، ان ذلك التجاهل وهذا التنكر ، أفضيا بالخلافة إلى عثمان ، ثم إن ضعف عثمان بين يدي شيخوخته وعثر عشيرته ، أفضى إلى جرأتهم على الحق بتأهيل عائشة ومعاوية للخروج على علي ، فكان ذلك مدعاة لأن يحرص علي على ما آتمن له من تعزيز الدين والدفاع عنه ، إذ لم ير في عائشة المرأة الضعيفة ، ومعاوية الباغي على الحق ، لم ير فيهما ما يراه في أبي بكر وعمر وعثمان من فقه في الدين وسابقة في

الجهاد ، فكان عليه بعد الخلفاء أن يحتفظ بالسلطتين ويقاتل دونهما حتى استشهد وخلفه في الاستشهاد أبناؤه جرحاً على الدين من خلفاء معاوية ، فكانت دماء أهل البيت حائلة دون تهادي الأمويين في محو الدين كما كان مفروضاً لهم ، إذ لم يوقفوا به إلا أنه وسيلة للهاشمين يتندرون بها إلى انتزاع السيادة منهم . من أجل هذا لم يطل عمر هذه الدولة بعد كارثة كربلاء أكثر من سبعين عاماً ثم بدأت تنهار ، وبدأ نجم الباطل في أفق أمية يميل للأفول ، ولم يبق في صدور المسلمين أثر من هذه الأحداث إلا النقرة على معاوية وأخلافه ، وإلا الحجة لآل الرسول والعطف عليهم والرضى عنهم .

ولقد كان وما زال إجماع المحققين من فقهاء المسلمين على أن معاوية أساء إلى الإسلام حتى ختم حياته مسيئاً ، إذ لم يندم على سن الشتم لأهل البيت على وأبنائه قبل موته ، وإذ حمل المسلمين على استخلاف ولده يزيد وهم كارهون له بذلك آخر الإسلام وحال بينه وبين غزو العالم واستهلاكه ، ولعل ولده يزيد كان يحمل فكرته إذ عمد إلى قمع الدين من أساسه ، فبدأ بالسلطة الروحية في شخص الحسين وأهل بيته فأبادهما بزعمه ، وانصرف بعد ذلك إلى الكعبة فأحرقها ثم أشخص إلى مدينة الرسول جيشاً بقيادة ابن عمه مسلمة ، ففعل تلك الفعلة النكراء حتى كانت دماء الصحابة والقراء والأطفال والنساء تجري في أزقة المدينة ، وحتى وقف قائده على قبر الرسول يلطمه برجله ويقول : لدمه بلامة يا محمد .... « ويزيد » هذا من أم نصرانية كانت السبب في إحفاظه على الإسلام فشاء أن يقضى عليه ولكن الله سلم ، وقد فطن إلى هذا في يزيد وأبيه ، السياسي الألماني الداهية بسمارك حيث قال : ان على كل مسيحي في العالم أن يقيم تمثالاً لمعاوية بن أبي سفيان في داره إذ لولاه لما بقي غير مسلم في مجموعة البشر .

هكذا نستطيع أن نفسر عناية القرآن بقربي محمد وعناية محمد بتعزيز هذه القرى وترشيحها للخلافة بعده ، ثم جهر على واعتزازه بقوله : نحن أهل بيته .

مَثَلُ الْمُسْلِمِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ  
إِذَا أَصِيبَ عُضْوٌ مِنْهُ تَدَاعَتْ لَهُ سَائِرُ الْأَعْضَاءِ  
بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى

مَحْذَرٌ

أقرأ هذا الحديث في الوقت الذي أنبأني فيه السيد علي حافظ صاحب جريدة  
المدينة المنورة ، أنبأني ، ونحن في القاهرة ، أن ابراهيم شاكرونجيب صاحبة  
التاجرين السعوديين بعثا إلى ألقى إنسان ، وهما في لبنان ، يدعوهم من أقطار  
العالم العربي على نفقتهما زاداً وراحلة ، ليعقدا قران ابن الأول على ابنة الثاني ،  
قلت له : لعل هذا العرس يستهلك من مالهما مالا يقل عن مائة ألف دينار ،  
فقال : وأكثر ، ثم قال : ولقد احتكرا كل فنادق لبنان الفخمة لضيفاة  
المدعوين ، وقد بذل الوالدان لولدهما بعد العقد مائة ألف دولار نفقات رحلتهم  
إلى أمريكا يقضيان فيها شهر العسل تحت سماء نويزرك وفي ظلال ناطحات السحاب .  
وفي الوقت نفسه لمعت في خاطري بارقة أطلت على بيروت الجميلة قبل  
أشهر حيث أقيم لمثل هذا ، حفل عقد فيه قران المارد عبد الله الجابر أحد أمراء  
الكويت من آل صباح ، على إحدى جميلات لبنان من آل المرعب ، فكان  
مثل هذا الجنون في الإسراف بأموال لم تنلهم في إحرازها مشقة ولا عناء ، ولقد  
قرأت في صحف لبنان ، وهي لاتصدق إلا في مثل هذا الإغراق ، قرأت أن  
الحفل أقيم في فندق « سان جورج » وأن مما نكبت العروبة فيه فقده العروس تلك  
الليلة خاتماً يقدر ثمنه بعشرين ألف دينار ، وأن الأمير أعد للعروس قصرأ  
عليون وربع المليون من دنابر البترول الذي لم يهبه الله للغرب ليصل به إلى تفجير  
الذرة ، ولكنه وهبه للغرب الذين يستغلون به الحياة الإنسانية المعذبة .

وفي نفس الوقت عادت بي الذاكرة إلى بضع سنين خلت حيث أقام الإمام  
المسلم زعيم الإسماعيليين الأمير علي خان ، عرساً تحت سماء أوروبا الحافلة بجبال  
الحياة المغمورة بالفسق ، أقام هذا الإمام الهاشمي ، لعقد قرانه في باريس على

الممثلة « البتول » ريتا هايورت ، دعا إليه مآت من أعيان العالم على نفقته ، وقد أجمعت الصحف أن الإسراف ، من مال الله طبعاً ، بلغ بالأمر إلى أن ينشئ في قصر الزفاف ، حوض سباحة من ماء العطور « الكالونيا » ليغتسل به العروسان ، ثم لا يعلم غير الله مصدر هذا المال الذي يتسبب عرقاً أو بحرى دموعاً من طائفة تعبد هذا الطاغوت فتزنه على رأس كل عام بما يكلفها ملايين النقد من أحجار الماس لينفقه على شهواته كما كان ينفق على شهوات أبيه من قبل. تمر هذه الخواطر بي ، وأنا أقرأ في الصحف كل يوم ما ينزل بالمسلمين في الجزائر من فظائع الإفرنسيين ، ثم أقرأ في هذه الصحف ما يقاسيه «ايون» لاجئ مشرد عن وطنه من عرب فلسطين ، فهل وعى هؤلاء الذين يغرقون المحافل والأندية بالأموال الرخيصة في عبثهم ولهوهم ، أقول : هل وعى هؤلاء صراخ إخوانهم في الجزائر وهم يستغيثونهم تحت الحديد والنار ، أم هل غفلوا عن إخوانهم عرب فلسطين وهم يرزحون تحت وطئ البؤس ، هل وعوا ذلك فعملوا إلى اقتطاع حفنة من هذه الملايين المهدورة على مذبح الشهوات ليغيثوا بها صراخ أولئك وبؤس هؤلاء؟؟ وكيف إذن يؤمنون بقول محمد وهو يدعوهم للتعاون والتضامن ، ويضرب لهم الأمثال في أن يكونوا كالجسد الواحد إذا أصيب عضو منه تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر؟؟

هل ساور عبدالله الجابر هم أو سهر من أجل إخوانه في الجزائر وهم يضحون بأنفسهم في سبيل عرضهم المنتهك ، وحققهم المغصوب من وراء البغى على عروبهم وإسلامهم؟؟ وهلا ساور آغا خان ونجيب صاحبة سهر أو حمى وهم يرون بأم أعينهم عشرات الآلاف من لاجئ فلسطين يقفون كل شهر على أبواب الإغاثة يستجدون الأجني فضلة من ثياب أو تصاعاً من بر والهود عمرحون في ديارهم فارحين آمنين؟؟ هلا ساور هؤلاء أو ساور غيرهم من أثرياء المسلمين هم أو قلق من أجل إخوانهم فأشركوهم في المال الذي أنفقوه على الرقص والمجون والبدخ في خلواتهم وجلواتهم؟؟

كنت أقرأ ، وأنا شاب حدث ، سيرة المأمون مع « بوران » بنت الحسن بن سهل في زفافها عليه ، وأنه بلغ من الإسراف ليلة عرسه أن كان غلامه ينرون

على شهود الحفل ، رقاعاً تحمل أسماء قرى و دساكر ، فكل من تلقى رقعة ملك ما فيها ، كنت أقرأ هذا ثم أقرأ أمثاله من إسراف الملوك بن يذى شهواتهم ، فأمعن في التفكير : هل الملوك على حق في إنفاق أموال المسلمين كما يشاؤون ؟ أم هو ما لهم الذي يأخذ هذا الطريق في الإنفاق ؟؟ على أنى كنت أرجع إلى إقناع نفسي : بأن الأمة إذا كانت متوفرة على الرخاء والأمن والعزة بفضل ملوكها وقادتها فلا بأس بأن يختار هؤلاء الدنيا ثمناً لجهودهم في تعزيز الأمة .

ولكنى كنت أعجب من الأمة إذ تستخذي للملك الذي لا يقودها إلا إلى الفجور والفسق بما يقول أو يفعل ، كنت أعجب لذلك حين أقرأ سيرة الملك الأموي يزيد بن الوليد إذ كان كلما طرب لجاريته « حباته » ألقى بنفسه في حوض من الخمر أعد له في مصيفه « بيت راس » شرق نهر الأردن فيتلف كل يوم بدلة ملكية بفعله هذا ، كنت أعجب للمسلمين إذ حملوه لدى موته في مصيفه هذا على قبر جاريته هذه ، حملوه على أكتافهم مسيرة يومين إلى دمشق ليقبروه في ملافن « الأبرار » من عشرته .

أقول : لم أكن أعجب من إسراف هؤلاء الملوك لأن الأمة كانت في أوج عزها ولم يكن في المسلمين من نخشى على ماله أو عرضه أو دمه ، ولكن الزمن في عهدنا اليوم يختلف عن ذلك الزمن اختلافاً كبيراً ، فإن القوة التي كانت تخولنا يومذاك سيادة العالم وفرض السياسة التي تضمن لنا هذه السيادة عليه ، هذه القوة أصبحت في قبضة أعدائنا ، وأن الرقعة الإسلامية التي لم تكن تغيب عنها الشمس أيام عزنا ، أصبحت هذه الرقعة في عهدنا الحاضر ليست أجنبية عنا فحسب ، بل عدوة لنا لم تزل منذ قرن ونيف تترصد بنا الدوائر للقضاء على تراثنا ، والحد من نشاطنا وتقدمنا ، حتى كان لها ما شاءت وأصبحنا صنائع لها تهدم بأيدينا وألسنتنا وأفكارنا ، كيئناً قام فينا على مجد العروبة وعز الإسلام .

أقول : انها تهدم بأيدينا وألسنتنا وأفكارنا بقية ما نعتصم به من تراث ، أعرف رجلا في بيروت يدعى علياً ... ثبت لنا في الحرب العالمية الثانية عن طريق الطباط المغريين في الجيش الافرنسي ، إذ كانوا يتصلون بالشيخ محمد المغربي الذي هو مغربي الأصل والذي يقطن لبنان ، نقل لنا أن ظابطاً مغربياً



وقف على تقارير سرية يقدمها على... هذا أثبت أنه في سلك الاستخبارات الأجنبية ، يتجسس على الفقهاء من قومه فقط ، وقد كان هذا « العلي » أعجوبة في نعومة حديثه وحرصه على التعرف إلى كل فقيه يشغل مكانة مرموقة في قومه ، وكان فقهاء السنة والشيعة سواء عنده في تعلقه لهم واعتزازه بصداقتهم ، وقد كنت في ريب من أمره ، إذ علمت أنه فقير ولكنه يعيش في مجبوحة دون أن يكون لأحد عليه منة ، وزاد ريبى فيه عندما هم أهل بلده ببناء مدرسة وانتدبوه لأن يعمل معهم فاختار لنفسه زيارة الهند في هذه السبيل ، وهو رجل أمي تماماً ، وقد كان ذلك فذهب إلى الهند وعاد بسمائة دينار ذهباً بنى بها المدرسة وبنى بيته ، فكيف ذهب إلى الهند ؟ ومن ذا يعرفه في الهند ؟؟

ولما نقل لي الشيخ عبد الله العلايلي بلسان الشيخ محمد العربي ما تكشف عنه خالق « العلي » أدركنا السر جميعاً فيما كان منه ، ولقد نشأ أبنه مكانه فدرس في الجامعة الأمريكية وخرج منها فدخل في صميم الحكومة ، وكان تعزيز رئيسها « فلان » يومذاك أول من احتضنه فعلمنا أن هذا الرئيس من قبيل علي وابنه ، وما أعجب أن ذاع صيت هذا الوليد وملأت شهرته الآفاق ، لأن الأجنبي عندما يتبنى شخصاً ينخر له الصحافة المأجورة ، والإذاعة التي يتبناها ، والسمايرة المدين يسبحون بلدانيره ودراهمه ، حتى يملأ به المجتمع ويصل من وراء هذه الشهرة إلى المنصب الذي يستطيع أن يقابل إحسان سيده به ، وهكذا نجد كل مأجور للدخيل يعمل بيده وفكره ولسانه على هدم تراثه خدمة لسيده الأجنبي واستخذاء لشهواته ..

وأعرف رجلاً كان قبل الحرب العالمية الثانية صبيّاً فقيراً نشأ يتيماً ورأى فيه بعض هذه الفئة التي تعمل « لوجه الله » ذكاء يبشر بمستقبل حسن يعمل فيه تحت إمرتهم ، فأولجوه باب الجامعة الأمريكية فلم يخرج إلا أستاذاً متفوقاً عليهم بمهارته وذكائه ، وكانت قد دخلت الحرب فدخل في سلطان بريطانيا ، وإذا به يذهب إلى لندن ويحجى منها مرتين في الشهر ، وإذا به يتكشف عن تاجر ماهر بين الإيراد والتصدير ، وإذا به يصبح المؤثر الأول على غرفة تجارة لبنان ،

ثم إذا بتجارته تعم العالم العربي وإذا به هو في صميم مجلس التشريع اللبناني ،  
وإذا حزبه الأول فيه .

ولقد كنت يومذاك خصما « لفلان » رئيس حكومة لبنان وكنت قد نظمت  
ديوان « فلان » وعرف التاجر به فدعاني إلى مكتبه وحاول إغرائي بطبعه وتعزيز  
أدبي لا لشيء سبق مني له فعجبت لذلك ووقعت في ريب من أمره ، ثم رأيت  
« محمداً » بن علي الذي سبق ذكره يكثر من الدخول عليه فازداد الريب في نفسي  
وسألته : ماذا يصنع هذا هنا فقال : انه محرر جريدة أنشأها له ، فصمت  
وعلمت كل شيء ، ثم قرأت بعد سنين وأنا في مصر كتيباً لهذا التاجر النشيط ،  
واسمه « اميل » يسجل في هذا الكراس الصغير ما أذكر من قوله : لنضع  
قضية فلسطين على الرف ونعمل في سبيل رقيتنا وتقدمنا » فقلت للحاج أمين  
الحسيني الذي أهدي إلي هذا الكتيب ، أتعرف صاحب هذا الكتاب ؟؟ فقال  
أعرفه من أوله إلى آخره ، ثم الأعجب من هذا أنا قرأنا للسيد اميل ... بعد تأميم  
مصر لقناة السويس وقيامه بريطانيا وفرنسا في وجهه رئيس مصر ، قرأنا له  
بالنص : لنضع الآن قضية القنال على الرف ونعمل على إنقاذ فلسطين ...

ولنستطرد بعد .. فان هذا الاستطراد حبيب إلى قلب السامع والقارئ ،  
ولقد عرفت رجلاً منذ أكثر من ثلاثين عاماً لدى ذهابي إلى العراق في سبيل  
دراسي الأولى ، كان هذا الرجل رفيقنا وكان قد تخرج من إحدى الجامعات  
الأجنبية في بيروت ، فكنا كلما استوقفنا مخفر أمن بن لبنان والعراق ،  
وكانت المخافر افرنسية وسكسونية ، افتقدنا صاحبنا فإذا هو مع رئيس المخفر  
الأجنبي يتناجيان ، وفي مدينة الموصل ركبنا القطار إلى بغداد فدخلنا محطتها  
منتصف الليل وإذا بنفر من الجزويت « الغرايب » يسألون عن صاحبنا ويصحبونه  
إلى حيث لا نعلم .

وبعد أيام سمعنا بأنه أصبح أمين سر للملك فيصل الأول ، ثم بعد سنين  
عاد إلى لبنان يحمل ثروة كبيرة ، ثم إذا هو اليوم في مجلس التمثيل ، وهكذا  
نجد أكثر هذا المجلس المبارك من هذا الطراز الطيب الأحداث ، ولا يزال كذلك  
ثم لن يزال شوكة في عن العروبة ما دام الآباء اليسوعيون من الجزويت الافرنسي

يغدونه بلبانهم « الخالص » من شوائب الدس والتضليل حتى ينشأ في مسيحي لبنان من يحيله من طوائف مختلفة إلى طائفة موحدة ، ومن أديان متناحرة إلى دين واحد ، ولن يتوفر على ذلك حتى يخلط المسيحي بالمسلم لغة وجواراً وزواجاً ، فلا نرى في بيروت بعد ذلك حياً مسيحياً لا يقطنه مسلم أو حياً مسلماً لا يقطنه مسيحي ، ثم لا نسمع في حى مار نقولا لغة الافرنسيس وفي حى البسطة لغة يعرب ، وحتى نرى المسيحي في المسجد يوم الجمعة ونرى المسلم في الكنيسة يوم الأحد ، وهذا أبعد في لبنان من سمائه عن أرضه .

وبعد ، فقد شطح بنا القلم ولكنه شطح محبب إلى نفس الأبى الحر ، إذن فالزمن قد تغير من زمن كانت العروبة فيه سيادة اللغات ، ودينها سيد الأديان ، إلى زمن أصبحت العربية هزءاً في نفوس أبنائها ، وأصبح دين العرب موضع النقد والتجريح من أهله ، فلم يعد للإسراف والتبذير من المسلم عذر مشروع ، وأصبح كل قوى في المسلمين مسؤولاً عن ضعفهم ، وكل غنى مسؤولاً عن فقرهم ، كما أن كل حر منهم أيّاً كان من الأرض مسؤولاً عن كل مضطهد مستعبدهم أيّاً كان ، وإذ ذاك فقط يصدق علينا أنا مسلمون ، وأنا في مجموعتنا كالجسد الواحد إذا أصيب عضو منه تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر .

عَلَى  
إِنَّ فِي الْقُرْآنِ عِلْمَ مَا يَأْتِي ، وَالْحَدِيثَ عَنِ الْمَاضِي ،  
وَدَوَاءَ دَائِكُمْ ، وَنَظْمَ مَا يَبْنِيكُمْ

يريد الإمام بكلمته هذه أن يقول : إن في القرآن علم ما يأتي وعلم ما كان ، وهو المعبر عنه بقوله : « حديث الماضي ، وفيه علم الحاضر ، المعبر عنه بقوله : دواء داءكم ، وهو علم الطب نفسياً وبدنياً ووقائياً ، وبقوله : نظم ما يبنيكم وهو سائر العلوم سياسية وثقافية واجتماعية ، لأن في كل من هذه تنظيمات لحياتنا الجماعية ولولا ما نعتصم به من نظام في حياتنا لكنا من غير نوع الإنسان المسيطر على ما دونه من الحيوان والنبات والجماد ، والفضل في ذلك للعقل القائم في تهذيب الإنسان على تعاليم القرآن ووصاياه ، فليتدبر قارئ ما أفضى إليه به من التدليل على هذا الحكم :

يتناقل أهل القرية التي هي مولدى وكانت فيها نشأى الأولى ، وهي قرية « حاروف » من أواسط « جبل عامل » بين لبنان وفلسطين ، يتناقل أهلها بحيث أسمع : أن فتاة تلقب « بالكبشة » وقد رأيتها ، أصابها داء الصرعة وهي ضمية فبعثت أمها أخاها إلى عالم معروف بفقهِ الدين والتقوى يدعى الشيخ عبد الله نعمه ، وكان موطنه بلدة « جبع » من أعالي جبل عامل ، بعثت أخاها ومعه هدية للشيخ ليكتب « تيممة » لابنتها المريضة ، وكان أخوها لا يثق بهذا النوع من العلاج ، فتصرف بالهدية وقطع يومه في مدينة النبطية التي هي وسط بين « حاروف » و « جبع » بلدة الفقيه .

وعاد إليهما آخر النهار وقد احتال عليهما بقرطاس لقطه من الشارع وذهب به إلى الخراز فخط عليه جلدة يوهمها أنها تيممة ، ويشاء الله أن تحمل المريضة هذه التيممة الوهمية ويكون في حملها شفاء لها من داء الصرعة ، ثم يشاء الله أن يموت الفقيه بعد عام وأن يتحدث الناس بفضله ، ومن هؤلاء الناس أم طالب ، وهي أم المريضة ظلت تشيد بفضل الفقيه الراحل على ابنتها بتيممة شفها من داء الصرعة ، ويضيق ابنها ذرعاً بحديثها فيصارحها بأن التيممة من صنعه هو وأن

المعالجة بالتأتم من خرافات العقل البائد ، فتعتمد الأم وابنتها إلى فك التميعة فيتضح صدق ابنها وتزول الثقة من نفس الأم والبنت فإذا بها تعود إلى الصرعة ثم ترافقها إلى القبر .

سقت هذا المثل الصادق الذى وقع فى قريتي وبين سمعى وبصرى ، وأنا على علم بالأم والبنت والابن أعرفهم جميعاً ، أقول : لقد سقت هذا المثل لأدل على أن العلم الحديث لم يخطئ بارجاع كثير من الأمراض إلى علم النفس ، وقد أصبح العلاج النفسى لمرضى الأعصاب من اليهيبات ، وأن تأثير العقيدة ، والإرادة ، والاطمئنان ، والثقة ، على الجسم فى رأس الأصول التى يقوم عليها الطب النفسى ، وأن العقيدة لها المكان الأول فى التأثير على النفس سواء كانت صحيحة أو فاسدة ، ففى الحديث الشريف : لو اعتقد أحدكم بالحجر لأفاده» وليس ذلك بضار فى الدين لأن الإسلام لم يأت بخلق جديد فى العقائد وإنما جاء ليصححها بالتوجيه إلى الحق ، كما أنه لم يأت بما يمحى العواطف العاصفة بالعقل وإنما جاء ليهذبها ويصرفها عن الشر إلى الخير .

من هنا نصل إلى أن العقيدة فى الصنم أحاطها الدين إلى عقيدة بالله ، من أجل كرامة الإنسان ، وأن هذا العقل القائم فيه لا يلبق به عبادة الحجر أو الشجر ، وإنما هو نور يشق للإنسان حجب الغيب عن ربه الخلق بالدينونة والعبودية ، ففى القرآن دواء دائماً حقاً لأن عقيدة المسلم وقفت عنده واستحالت فيه من وراء عقله المؤمن به والشاخص إليه ، فكان من الطبيعى ، وهو الصلة بينه وبين ربه خالق الموت والحياة ، أن يتخذ منه وسيلة لشفاؤه من كل داء ، وقد آمن بذلك الطب الحديث وعمل به ، إذ وجدنا كل طبيب نفسى يأتى مريضه من طريق المؤثرات عليه عقداً ونفسياً ، ثم يعالجه بالطريقة القائمة على علم النفس . والعقيدة هذه لا تؤثر على صاحبها فقط ، وإنما تتعداه إلى غيره ، فقد حدثتني أمى وصادق على حديثها أبى : أن أجباً لى ولدته قبلى وكان اسمه اسمنى «محمد على» وكانت قد بثت بعده من الحمل ، وأن أبى أيقظها ليلة القدر ، وهى الليلة السابعة والعشرون من شهر رمضان ، وكان أبى يحى أكثر لياليه تهجداً ، وكان قد قرأ تلك الليلة حديث الرسول : من مات له ثلاثة أولاد وصبر فله الجنة »

وكان قد فقد ولدين ، فأوقظ والدتي ثم قرأ عليها الحديث وقال لها : ان أعمالنا لا توجب لنا دخول الجنة وقد فقدنا ولدينا وصبرنا فلندع الله ، إن كان هذا الحديث صحيحاً أن يأخذ أحد هذين الولدين ، فاطمة ومحمد ، ليكون لنا بفقد الثلاثة سبيل إلى رحمته .

قالت أمي : فصمت إذ ذاك ثم بكيت وقلت له : سأزل على حكم الله وسأصبر على بلائه فافعل ما تشاء فأنا راضية بما أنت به راض والله على ما أقول شهيد ، قال أبي إذ سألته صدق الحديث عن أمي : لقد صدقت واني لأذكر أني صليت ركعتين قربى لله بعد أن هجعت أمك ثم سألت الله : ان صح هذا الحديث فأنا متنازل عن أحب الولدين وهو أخوك محمد ، فلم نصبح تلك الليلة حتى كانت الحمى تغور في جسد أخيك ولم تمهله أكثر من ليلتين ، وإذا به يفارقنا ليلة العيد ، فلم نجزع ولعلنا كنا على العكس ، فرحين بأن أجاب الله ما سألناه وصدق ما رواه الرواة عن رسوله ، ثم لم تلبث أمك بضعة أشهر حتى حملت بك بعد يأسها وكنت أنت خليفة أخيك « محمد علي »

فما قول علماء النفس في هذا الحدث الذي وعيته من أبوي؟؟ وما هو تعليلهم هذا التأثير من أب يصلي وطفل هاجع لا يعلم ما وراء هجوعه؟؟ وهل يستجيب الله لرجل يضحى بولده في سبيل الزلفى إلى ربه؟؟ هل عند علماء النفس تعليل لهذا غير أن للروح عالمًا تتجاوب جزئياته في حدود كليه العام؟؟ كما أن للمادة عالمًا تتجاوب جزئياته كذلك في حدود كليه القائم فيه؟؟ فكما أن الجرم المادى يتأثر من وراء اصطدامه بجرم مادي آخر كذلك نرى أن الجرم الروحي يتأثر من وراء اصطدامه بجرم روى آخر ، وكما أن تأثر الجرم المادى بمثله يختلف قوة وضعفًا باختلاف الجرمين في الكبر والصغر ، كذلك نجد تأثر الجرم الروحي مختلفاً قوة وضعفًا باختلاف الجرمين في الكبر والصغر ، من هنا كان تأثير الإرادة القوية على الإرادة الضعيفة قوياً فما نسميه بالعين .

فقوة الإرادة في الأب أو الشجاع أو المظلوم وهو يتصور الموت ويستنزله لولده أو مبارزه أو ظالمه أثرت على ضعف الإرادة في الولد أو المبارز الجبان أو الظالم الغافل وهو يتصور الحياة لبقاء على نفسه ، فجزئى الروح في الفاعل له السلطان

على جزئى الروح فى المنفعل ، لذلك نرى القوى والغنى والعالم يسيطرون على الضعيف والفقر والجاهل ، ونرى هؤلاء يستجيبون لأولئك فى الخضوع لإرادتهم والاستسلام لسلطانهم .

هذا من ناحية الطب النفسانى وأما الطب البدنى فالقرآن يضم الكثير من عقاقيره ، ففى قوله تعالى : فكلوا واشربوا ولا تسرفوا « أبلغ عقاراً للسرء الأمراض الباطنية إذ كانت المعدة وما زالت بيت الداء ، وأكثر أدوائها ينشأ عن التخم الناشئة عن إسراف الآكل فى طعامه أو شرابه . وفى تحريم القرآن لكثير من المأكول الخبيثة كالميتة والدم ولحم الخنزير وتحريم الخمر والحبائث من الشراب الآسن والطعام المتعفن ، وتحريم القذارة وسوء الكلاب والخنزير وإلزام الإنسان بالطهارة فى عبادته أو سلوكه مع غيره ، أقول : إن فى تحريم ذلك وإيجاب هذا كثيراً مما يفتقر إليه الطب البدنى الحديث ، فى الوقاية والعلاج . قدمنا فيما مر شيئاً من إثبات أن علم ما بين أيدينا طباً وسياسة وقضاء واجتماعاً مشار إليه فى القرآن إما تصريحاً أو تلميحاً ، فالتصريح فيما مر وأما التلميح ففى أمثال قوله عز من قائل : سخر لكم الخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون « فقوله : يخلق ما لا تعلمون تلميح يكاد يناقش التصريح فى الدلالة على آلات البخار والكهرباء وما ينشأ عنهما من مسخرات الإنسان للركوب وغيره ، وهذا كله يشير إلى علوم حديثة لم تكن ثم كانت ولعل التصريح بها فى ذلك العهد يعزز الارتجاف والشك فى صدور ضعيفى الايمان بالإخبار عن أشياء يستعصى تصورهما على عقولهم الضعيفة ، ولذلك كان فى صميم الرسالة الإسلامية الدعوة إلى العلم والحض عليه من المهد إلى اللحد لتقوى عقولنا على تصور العلوم والفنون ولتحقق فى مستقبلنا ما كان قبلاً من قبيل الخيال .

أما أن فى القرآن علم ما كان المعبر عنه فى قول الإمام بالحديث عن الماضى ، فلا يحتاج إلى تدليل ويكفى لإثباته ما يشير إليه الكتاب الكريم فى قصة ذى القرنين وقصة أهل الكهف ، وقصص الأنبياء والرسل ، فانها مشحونة بعلوم الأولين منها ما حققه العلم الحديث كبساط الريح وعرش ملكة سبأ فى قصة سليمان ، إذ كان العلم يدرك السرعة التى أوتىها سليمان فى الطيران ، بواسطة الأثير «اللامتلك»

وأما سرعة النقل بحيث يقطع الجرم في سره آلاف الأميال بضع ثوان كما فعل مستشار سلمان في نقل العرش ، أما هذه السرعة فقد أشار إلى إمكانها العلم الحديث في استخدام الذرة للسلام العالمى إذ صرح أحد علماء الذرة بأن في الإمكان القريب سير الأجرام بسرعة الضوء .

وهكذا نجد أن حديث الماضى في القرآن ، لا يشعرونا بعلم ما كان فحسب ، وإنما يتعدها بالإشارة إلى علم ما يكون ، كما في قصة أهل الكهف من إغفالهم قرونًا ثم بعثهم أحياء ، وفي قصة موسى وعيسى من فلق البحر وانفجار الصخر عن الماء وإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ، وفي قصة سلمان من تكليم الطير ، وغير ذلك مما لم يصل إلى تعليله وتأويله أهل الحضارة بالعلوم والفنون وفي ذلك ما يثبت صحة قول الإمام بأن في القرآن علم ما يأتي به مستقبل الإنسان ، فخذ مثلاً على ذلك علوم الأثر اليوم وفي طليعته فن التوجيه للطائرات والصواريخ : في سنة ١٩٤٦ كنت في أمريكا وقد جرى توجيه أول طائرة قذفاً باللاسلكى من نويزك إلى لندن كما يقذفون الأصوات مركزة على موجات الأثر بالأجهزة اللافتة في المذياع ، وذهب في الطائرة بعض المهندسين لا لقيادتها بل للإشراف على ضبط سيرها فقط ، وبعد أن أصابت الهدف بهم وهبطت الهويثا على أرض لندن قدموا تقريراً لمصادر التوجيه في أن القذف أضبط من القيادة وأنها لم تحد في سيرها عن الخطة التي رسمت لها قط .

ففى قوله تعالى : وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف ما كول « إشارة تكاد تكون صريحة في الدلالة على توجيه القذائف بواسطة الأثر ، فكلمة أبابيل مجهولة المعنى ، ولعلها من قبيل ميكائيل وإسرافيل وعزرائيل ، وغيرها من الأسماء المضافة إلى اسمه تعالى وهو « إيل » فيكون المقصود بالطير جماعة من الملائكة تقذف هؤلاء المعتدين على الكعبة والذين هم أصحاب الفيل ، تقذفهم بحجارة قيل في التفسير : إن كل حجر مكتوب عليه اسم الذى قذف به ، فكان يصيبه فيصعقه ولا يتجاوزه إلى غيره .. ويفسرون السجيل بالطين المطبوخ ، وأرى أنه من التسجيل وهو الرقم ليتناسب مع التفسير بأن اسم كل مقذوف من العتاة وجد محفوراً على الحجر



الذى قذف به ، فيكون المعنى ، والله أعلم ، : إن ملائكة أباييل رمت هؤلاء الطغاة بقذائف سجلت عليها أسماء المقدوفين بها ثملا تتعدهم « كما نرى اليوم في الحروب القائمة بآلاتها المدمرة ، على العلوم الحديثة من أنها تحكم توجيه القذائف لأعدائها بحيث لا تتعدهم إلى غيرهم من المسلمين ، وكما نرى من ضبط إرسال الصوت في الأثر على موجات خاصة لا تتعدها إلى غيرها من الأوج الأثرية ، والقرآن الكريم حافل بكثير مما يفتح للأجيال المقبلة طرق الكشف والإبداع في مجال الحياة لمن أراد أن يستقصى ويتعمق في البحث عن ذلك .

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ  
أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ

السلامة

ينقل لى القائد أحمد حلمى ، وهو المجاهد المعروف رئيس حكومة فلسطين ،  
والذى لولاه لما أبقي اليهود على بيت المقدس ، يقول : عندما تقهقرت جيوشنا  
فى العراق بن يدى قوة بريطانيا أيام الحرب العالمية الأولى ، لجأنا إلى مدينة  
« سلمان باك » ، قريباً من بغداد ، وكان الجيش البريطانى تحصن فى كوت  
الإمارة ، ثم جهز فرقة كاملة العتاد للحاق بنا والقضاء على فلولنا ، وكنا لانزىد  
على أربعة آلاف ننتظر المدد لينقذنا من هول المعارك الساحقة بآلاتهم الحديثة ،  
ونحن متأخرون بكل شئ ، ولقد كان قائدنا نور الدين التركى لايام الليل حرصاً  
علينا من الهجوم المفاجئ ، وكنت مساعداً له .

وإذ نحن فى أخرج وقت نعد الأيام القليلة التى تسبق العاصفة الهوجاء ،  
وإذا برسول القائد يستدعنى لمقابلته ، وجئته فناولنى برقية وردته من متصرف  
لواء كربلاء يقول فيها :

لقد أفضى إلى العلامة السيد إسماعيل الصدر وهو المرجع الإسلامى الأول  
فى هذه البلاد ، أنه رأى فى حلمه الشهيد العباس بن على بن أبى طالب حامل  
لواء أخيه الحسين بن على يوم كربلاء ، فقال له : خذ السيف المعلق فوق  
ضريحى وابعث به للقائد نور الدين ، ثم ليهاجم العدو به وسينتصر بأذن الله »  
يقول السيد حلمى :

دفع القائد إلى بالبرقية يستطلع رأى وقد رأيت فى وجهه الاستخفاف بما  
فها لأن العصر عصر جيوش وقيادة لا عصر توائم وأدعية ، فقلت له : أرنى  
أن فى هذا أكبر عامل معنوى يدفع الجيش المسلم للاستماتة فى دفاعه ثم يدفع  
العشائر لمناصرة الجيش ، فتهلل وجه القائد مستبشراً ثم قال : حسناً فافعل  
ما تريد ، ثم أشعنا فى القبائل برقية السيد الصدر وأن الجيش والأهلين سيستقبلون  
سيف العباس باستعراض عظيم ، وقد حددنا اليوم ، وكان فيه استقبال رائع

ثم أعلننا الهجوم في اليوم التالي ، وكان الجيش البريطاني قد توجه إلينا من الكوت  
تعضده الفرق الآلية والمدمرات في نهر دجلة ، والجيش يواكب الأسطول .  
يقول السيد أحمد حلمي : والله لقد رأينا عند الاشتباك أن كل جندي هنا  
كأنه جيش في وثوبه وهياجه وكانت صيحات : الله أكبر عز فنصر ، تدوى  
في الفضاء حتى خلنا السماء تطبق على الأرض ، ويستمر الاشتباك أربعة أيام  
حتى لم يبق في نهايتها جندي بريطاني يعود نذيراً إلى كوت الإمارة ليلبغ الفرقة  
المتحصنة فيها ، قال : ونستمر في الهجوم إلى الكوت فتحاصر الجيش أربعين  
يوماً حتى خرج مسلماً مستأسراً ، وبعد ذلك وصلنا المدد وقد تكالنا بالظفر ،  
ولا أزال إلى الآن أفكر في ذلك النصر ثم لا أجده له دافعاً غير السيف المبارك  
باسم العباس شهيد الحق في كربلاء .

ولذلك حلمياً آخر يتصل بهذا العباس أيضاً : نقل لي أبي ، وكنت في سن  
الدراسة ، أن بعض العلماء الأعلام في النجف قال : أنا أفضل من العباس بن أمير  
المؤمنين لأني عالم والعباس شهيد وقد جاء في الحديث : أن مداد العلماء أفضل  
من دم الشهداء « فرى هذا العالم من ليلته تلك في عالم الحلم ، شخص العباس  
يقول له : هب أن الحديث صحيح ولكن من أنباءك أني شهيد فحسب وأنى  
لست بعالم؟؟ فأفاق العالم وهو يبكي وينيب إلى ربه .

وينقل لي ، وأنا في مصر ، أحد الذين شهدوا احتفالاً دينياً في مسجد  
الحسين بن علي بالقاهرة لسنة ١٩٥٥ ، أن القائد محمد نجيب وهو أحد الضباط  
الذين قضوا على عهد فاروق ، وكان هذا القائد من خطباء ذلك الحفل الديني ،  
قال ، في مطلع كلمته :

عندما دعاني اخوتي الطباط لقيادة حركتهم في القضاء على العهد البائد ،  
كنت على فكر من ذلك ولكنني أرجأت لإجابة دعوتهم ليوم أو يومين ريثما أفكر  
في المصير ، ورأيت في تلك الليلة ، وأنا أحلم ، سيدنا الحسين يقول لي : أقدم  
على ما تدببت إليه ، وليبت من صباح تلك الليلة اخواني فقمنا بالثورة وكانت  
المعجزة في أن الانقلاب حدث دون أن تراق فيه قطرة من دم .

وحلمياً آخر أختم به مجرى البحث : يقول لي الشيخ علي الغول ، وهو من

الأتقياء الأبرار ، وقد زرت به في قريته « دين » من جبل عامل بعد عوده من العراق ، قال وأنا أسمع : من أغرب ما مر بي في رحلتي هذه أني أغفيت حيال ضريح الشهيد أبي عبد الله الحسين في كربلاء ، فرأيت في الحلم وقال لي : قم وخذ نصيبك » فانتبهت وقلت لنفسي : انها أضغاث أحلام ، وبقيت جالساً فحفظت خفقة أخرى فرأيت الإمام للمرة الثانية يقول لي : قم وخذ نصيبك » فانتبهت متعجباً ولم يسبق لي في هذه الزيارة ما يشير إلى هذا النصيب مما يتعلق بظروف حياتي ، ثم أغفيت أيضاً وأعاد الإمام على القول فقممت والرعب يرعدني أقول : إنه وحى .

ثم خرجت وأهبت برفاقى فركبنا المركبات تجرها الخيول وكانت ، على ما أذكر خمساً وكنا فوق الأربعين شخصاً ، ولما أجزنا حدود العراق إلى سوريا مررنا بصفين وكان الجو حاراً والوقت ظهراً فأحسست أني الوحيد فهم يقظان ، وتحسست من الوقت للصلاة فرأيت ، وأنا راكب ، على جانبي الطريق بقعاً صغيرة تلمع لمعان الكواكب في الليل ، وأمعنت في التحديق إلى هذه البقع فاذا بها دنائير من الذهب منتثرة على الصعيد الأبيض لا أول لها ولا آخر ، فأيقظت من هم معي في المركبة ، وقد أغفوا ، أقول : قوموا وخذوا نصيبكم من الدنيا فانتبهوا وأريتهم الذهب فجئن جنونهم ثم ألقوا بأنفسهم من الحافلة إلى الأرض . ويا لها ساعة أفاق الركب فيها ينهر بعضهم بعضاً ، ويعودون إلى الوراء يتهافون على الذهب المنشور فلا أسمع إلا الصياح والشتائم ، حتى انتهوا إلى أول النثار ثم عادوا يتأثرون الخطوط الأمامية يزحم بعضهم بعضاً إلى أن أدركوا المصدر وهو كيس ضخيم من القنب بقي نصفه مملوءاً وفورغ النصف الآخر في ذلك المجهل من الأرض ، وتقوم قيامة الركب حيال الكنز أنهم يظفرون به حتى بلغوا حد التنازع والتخاصم بالضرب واللدن ، وخشيت العاقبة ، فوقفت وأنا في المركبة ثم صحت بأعلى صوتي : الله أكبر الله أكبر ، وإذا بهم جميعاً يشخصون إلى قلعتي : أين أنتم ؟؟ ومن أين جئتم ؟؟ وكنتم تفعلون ماذا عند أمير المؤمنين أي الحسن وأبنائه ؟؟ ثم قلت : ضموا الذهب جميعه واختاروا منكم ثلاثة أمناء عليه . حتى تصلوا إلى « دبرزور » وتبحسوا ثلاثة أيام من

أصحابه ، فإذا اتصلتم بهم فأعيدوه إلى أهله وإلا فاققسموه بالعدل »  
يقول لى الشيخ : وقد كان الأمر كما قلت واثمنوا على المال أخصاصاً منهم  
الحاج حسين يس من مدينة النبطية ، ثم مكثنا ثلاثة أيام في دير الزور نتحسس  
من أصحاب المال فلم نسمع بذكره فاققسموه وجاؤنى خمسة وأربعين ديناراً  
ضممتها إلى ثم وهبتها لفقير النبطية الشيخ عبد الحسن صادق لينفقها في وجوه البر »  
ذلك ما أحببت أن أعقب به على الآية الكرمة من آثار الشهداء بعد موتهم  
مما يثبت أنهم أحياء عند ربهم وأنهم يرزقون كما نرزق ، وما هو بديهي أن  
الحياة ليست وفقاً على ما نشعر من أنها طعام وشراب ونوم وبقظة ، وإنما تكون  
أسمى من ذلك ولكننا لانشعر بسموها شعورنا بانحدارها ، فما هي هذه الأحلام  
التي تتحقق دونما سابق فكر عنها فيمن يراها ؟؟ هل هي إلا كعالمنا عالم ؟؟  
ولعله ، وهو عالم خيالى يشير إلى أن عالمنا خيال مثله كما حدث به بعض علماء  
العصر من أن الحقائق التي تحسبها قد تكون خيالات تحجرت في أذهاننا فرأينا  
ظلمها في الجارج ، وكما يشير إليه رسولنا الأعظم صلى الله عليه وعلى آله وسلم  
بقوله : الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ، هل الحياة في الكون خيالات متوالية  
تنتهى إلى حقيقة واحدة هي الخلود في عالم الروح ؟؟...

يقول رسول الله أو أحد أهله : من رأى ، أى في الحلم ، فقد رأى حقاً  
فان الشياطين لا تزينا بزينا » وهكذا نرى أن الشياطين لا يخولها الله أن تزينا بزى  
عباده الصالحين لتؤذى الصالحين من عباده أو لتتفعهم ، وليس من العبث  
أو من أضغاث الأحلام أن يتراءى العباس لعلم من أعلام التقوى ليأمره بأهداء  
سيفه إلى القائد المؤمن نور الدين ثم يكون عقبي هذا الإهداء نصراً مؤزرراً ،  
ولا من صنع الشياطين أن يتراءى الحسين بن على لرجل صالح ويقول له :  
قم وخذ نصيبك ، فينتبه الرجل ثم يكون من أمره ما قد كان ويقسم أولئك  
المؤمنون الذين هاجروا لزيارة آل بيت الرسول وضحو بأموالهم من أجل هذه  
القرى ، فتكون تلك الرؤيا سبباً لتعويض ما أنفقوه في رحلتهم هذه .  
وليس كثيراً على الحق أن يعصم أهله من الفناء وقد ضحوا بأنفسهم في  
سبيله ، انى لأذكر وأنا صبي حديث ، : كنت أغشى مجالس المؤمنين أيام

عاشوراء وقد كانوا يعقدون تلك المجالس لذكرى شهداء الطف من أهل البيت ، وكنت أستمع إلى الخطيب الذاكر فلم تتأثر نفسي بشئ من ذلك تأثرها بمشهدين للعباس بن علي الذي كان يلقيه الحسين بقمر بني هاشم لجماله وجلاله .  
المشهد الأول : أن يزيد بن معاوية عندما ورد عليه السبي أمر أن ينشر متاعه بين يديه ، فكان من جملة لواء عظيم ، فسأل يزيد عمن كان يحمله فقيل له : العباس ، فقام يزيد وقعد مرتين أو ثلاثاً إكباراً للعلم ثم قال : أبيت اللعن يا عباس هكذا يكون وفاء الأخ لأخيه » ثم التفت إلى شهود مجلسه فقال لهم : انظروا إلى هذا العلم فإنه لم يسلم من الطعن والضرب إلا مقبض اليد التي تحمله » .

والمشهد الثاني : أنه عندما اشتد العطش بالحسين وأهله لم يجرؤ غير العباس على اختراق خمسة آلاف فارس يحمون الشريعة من القرأت عن أهل بيت الرسول ، إذ تناول القربة وخاض المعركة فأخذوا به فلم يستطيعوا أن يحولوا بينه وبين الماء فلأ القربة وقفل راجعاً فصاح بهم قائلة الجيش بأن يحملوا حملة واحدة عليه لئلا يصل بالماء إلى الحسين وأهله فتعزز قوتهم به ، وقد كان ذلك فتكاتفوا عليه حتى قطعوا يمينه فأخذ السيف بيساره والقربة على عاتقه فقطعوا يساره ثم أصاب القربة سهم أراق ماءها فيئس حينئذ من الحياة وهوى عن ظهر جواده .  
كلما ذكرت هذين المشهدين أكبرت العباس وأكبرت البطولة التي ورثها عن أبيه ، والتي كانت فيه وفي أخيه الحسين وأهل بيته التضحية في سبيل الناموس الأعظم الذي نزل على محمد والذي لولا هذه التضحية لم يجمع الله بنى أمية قبل أن يقضوا على ذلك الناموس ، أقول إن الله أكبر من أن يجعل هؤلاء الأبطال في عداد الموتى ثم لا يكتب لهم الخلود بعد الموت فيبيعهم في عالم الروح يشرفون على هذا العالم فيراءون له حيناً بعد حين .

ان في الكون عوالم متداخلة لا تفصلها حدود إلا بمقدار ما يفصل الإنسان عن الإنسان من حد ، وهكذا تجد بين كل جرم وجرم خلوداً تتميز بها وصلات تجمع بينها ، فعلى مقدار ما يحاول المرء أن يتميز عن أخيه يجد بينه وبينه الحد الذي يميزه عنه ، ثم على مقدار ما يحاول الاتصال به ، يجد الصلات التي تحقق وحدته

معه في كل عام يجمع بينهما ، فهناك تحت المادة عالم الإنسان وعالم الحيوان وعالم النبات وعالم الجهاد، ويقابله في الروح عالم اليقظة وعالم الحلم وعالم الحمى وعالم الجنون وعالم الفكر وغير ذلك من العوالم التي لا ندركها إلا بالعقل .

فعلى مقدار ما نحاول الإنسان صلواته في عالم اليقظة بمن يشاركه الحياة معه يستطيع توثيق هذه الصلات ، ثم على مقدار ما نحاول هذه الصلات مع بقية عوالم الروح يستطيع أن يؤثر أو أن يتأثر بها ، من هؤلاء أولو الحكمة والشعراء والأنبياء ، وحتى السحرة والمشعوذون الذين بمعنون في تطالعهم إلى عالم الروح القائم على الشرور ، فلقد جمعتني الصدف وبعض علماء الروح فسألته : هل يستطيع الراسخ في هذا العلم وهو يستحضر الأرواح أن يستخدمها كما يشاء ؟؟ فقال : نعم إلا فيما يضر الغير بغير حق ، وأما المشعوذون فأكثرهم موهون لا صلة بينهم وبين الروح فان العالم الروحي أسمى العوالم فلا يصح استخدامه لما ينحدر به من مرتبته تلك إلى مراتب العوالم الدنيا « فتأمل ..

وبعد فن زار النجف وكربلاء والكاظمية في العراق حيث قبور الشهداء من أهل بيت رسول الله ، على وأبنائه وأحفاده ، ورأى المساجد والمعاهد العلمية التي شيدت حول قبورهم تبركاً بهم وتقرباً إليهم ، ثم رأى الألواف من عباد الله الصالحين يعمرون تلك المساجد بالصلاة ليل نهار ، ويعمرون تلك المعاهد بالبحث والدرس يتفقهون في الدين دين محمد الذي حاول بنو أمية محوه بالقضاء على أهل بيته ، أقول : من رأى ذلك في العراق ثم زار مصر ورأى الضريح الذي ووري به رأس الحسين الشهيد . ورأى المسجد العظيم الذي بني على قبره ، ورأى معهد الأزهر الذي شيد باسمه وليدرس به فقه آل البيت . منذ ألف عام ، أقول من رأى ذلك كله ، عرف العظمة التي تتجلى له وهو وهو يتلو قوله عز من قائل : ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون « وهل الحياة غير ذلك ؟؟ بل : هل الحياة بأسمى معانيها تتجلى في غير هذا الخلود ؟؟

إِنَّ هَذِهِ الْأَرْوَاحَ تَعْمَلُ كَمَا تَعْمَلُ الْأَبْدَانُ فَابْتَغُوا  
لَهَا طَرَائِفَ الْحِكْمِ

محمّد

كنت وأنا صبي أصحب أبي إلى المآتم والأعراس وصلاة الجمع ، وكان كل هـمى أن أستمع إلى خطيب يتخير لسامعيه كل جديد ، فكنت أبتـهـج لكل حديث ، قصة كان أو عظة ، لم يدخل روعى من قبل ، وكانت محافل عاشوراء للذكرى الحسين بن على وأهل بيته ، أوسع المحافل انتشاراً ، وكان إقبال الناس ، ممن أعيش معهم ، على تلك المآتم إقبالا يكاد يحيلهم فى الآلام ، حتى أصبحت تلك الذكرى جزءاً من حياتهم ، فكنا نطوف على أكثر من عشرين محفلاً فى اليوم والليـلة ، يتبارى فيها الخطباء علماء وأدباء ، طوال شهرى المحرم وصفر ، وكان أبرع الخطباء فينا وأحبهم إلينا من يأتينا فى كل محفل بجديد مما يستظهر أو يبدع .

وأذكر أنى ، وأنا أدرس الفقه فى النجف ، كنت مأخوذاً بخطيبين أحدهما الشيخ حسن جـلو ، والثانى السيد صالح الحلى ، لأن الأول كان محدثاً لا يكاد يسمع أو يقرأ تاريخاً إلا ويستظهر طرائفه ثم يملئها على سامعيه فى مجالسه ، فلم أشهده قط إلا وسمعت منه جديداً رائعاً ، ولأن الثانى كان خطيباً مفوهاً لا يستعرض ناحية من نواحي الحياة إلا استهوى سامعيه بتعلييلها وتحليلها ، وكانت النكتة والفكاهة والنقد اللاذع للأفراد والجماعات ، رائده الأول فيما يبدع ، ولقد كان هذا الرجل عظيماً فى موقفه وارتجاله ، وفى تأثيره على سامعيه ، وقد كانت الأموال تنهال عليه كالتراب من عملية القوم فى سبيل استصفائه أو استعفائه . أما الذين كانوا كالبيغاء من هؤلاء الخطباء ، يرددون الأقوال المبتذلة ، ويرجعون أنغامها الرثة على أسماعنا ، فلم يكن ليشهد مجالسهم الا عامة الناس الذين لا يفقهون من هذه المحافل إلا أنها تعقد فى سبيل الله وأن من يشهدها فأنما يرمى بذلك إلى استغفار ربه ورجاء المثوبة عنده ، ولذلك كنت أشهد هذه المجالس بدافع المجاملة للخطيب أو المثلث فى بلدى أيام صباى وفى العراق



أيام دراستي ، فلا أملك نفسي أن تستسلم لعالم الكرى ، فلا أنتبه إلا والقوم يغادرون ذلك المحفل ، وأمثالي كثيرون في هذا .

فالطرافة التي يشير إليها رسول الله في الحكمة القائمة على الوعظ والإرشاد بقوله في صدر هذا البحث ، إنما يعنى بها الجدة والروعة فيما يعظ ، ليجد قلوب السامعين شائخة إليه قبل أبصارهم ، ولا شئ مما يقال أقوى على اقتحام القلوب وتأثرها به ، من الجديد الرائع ، فالقديم الرائع كالجديد التافه لا حظ له من إقبال القلوب عليه وتأثرها به ، وليس بحكمة أى قول لم يجمع بين هاتين الصفتين : الجدة والروعة . لذلك نجد الألباء من فقهاء الأمة ممنون في تجديد القديم الرائع من الوحي والكلم المأثور ، بما يسبعون عليه من جدّة في التفسير أو الخطابة أو البيان ، إذ يقرأه سامعه أو يسمعه قارئه ، وأما هو عند من لم يقرأه ولم يسمعه فالجديد الرائع المعجز .

والحكمة التي هي ضالة المؤمن في قوله عليه وعلى آله السلام : الحكمة يلتقطها أنى وجدها لا يبالي من أى وعاء خرجت « هي عين الحكمة المسطورة في صدر هذا البحث ، وهي أيضاً عين الحكمة في قول الله عز وجل : ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً » فالحكمة في كل من هذه الجمل هي مصدر الحكم في السلطان ، والإحكام في الأعمال والأقوال ، فكل قول سديد وكل عمل مفيد صادق عليه أنه حكمة ، وكما أن الطرافة التي هي الجدة والروعة ، تنال القول ، كذلك تنال العمل ، وكما أن الروح تمل من تكرار القول على نسق واحد دونما تصرف أو إبداع ، كذلك نراها تمل من العمل المحدود المتكرر دونما تصرف أو إبداع .

من أجل هذا نرى أولى العلم والإبداع فيه ، يتناولون كل عمل بالتنمية والتربية والترقية حتى يضبج في جدّة ما أحدق به كأنه لم يكن ، فأنت إذا جئت أمريكا الشمالية وزرت معارضها ومتاحفها ، راعك من كل عمل مخلوق لهم ، بسلسلة تمثل كل حلقة منها طرازاً من ذلك العمل . فلقطار مثلاً نماذج لكل عام نموذج منذ خلق القطار حتى العام الذي أنت فيه ، وهكذا تجد نماذج للسيارة والطيارة والباخرة وآلات الزراعة والتجارة والحداثة والطباعة وآلات الحرب

واللهو وغير ذلك من وظائف الإنسان ، نجد لها نماذج تقفك على رقى الإنسان وتطوره عاماً بعد عام ، وعلى مقدار السرعة في هذا التطور يقاس رقى الإنسان وتطوره بتفكيره وإنشائه .

فليست طرافة القول في خلقه بمجموعه لأن عناصره لا يمكن أن تتغير ، ولكن الجلدة في التركيب والعرض المعبر عنه بالبيان ، فالجملة التي تتضمن الحكمة ، تتركب من كلمات هي قديمة ، والكلمات تتركب من حروف هي أقدم ، ثم إن هذه الحروف تصدر عن صوت هو أعرق منها في القدم ، وهكذا نجد أن أى عمل يأتيه الإنسان هو كقول مركب من عناصر قديمة ، والطفرة فيه اسباغ الفن على عناصره بالتركيب والتلوين .

فالروح تبهج لكل جديد ، وتتكبر لكل قديم ، على أن يكون هذا الجديد مما تهز له ، وهذا القديم مما زاولته حتى ملته ، فأما الجديد التافه فهو أشق عليها من القديم المردول ، بينما ترى في القديم الغريب عنها روعة تعزف به عن كل جديد . فكيف تجد الروح الأدبية أو الفنية في بطون السر من روعة الأدب القديم وفنه مالا يغنيها عن المتعة به جديد منها طرف ، وتكم في الأدب الجديد وفنه ما ترهد الروح معه بكل فن وأدب ؟؟

فليس الجديد الطريف هو كل ما لم يكن بشكله ولونه ، وليس القديم المموج هو كل ما كان قبل أن نكون ، وإنما الطريف الجديد هو كل أثر عبقرى لم يمرر بسمعك أو بصرك سواء كان وليد عصرك أو وليد عصور سابقة لك ، والسخيف المملول هو كل أثر تمجه روحك سواء كان وليد حياة سبقتك أو حياة تحلق بك ، فالطفرة إذن هي كل ما يهيج روحك من قديم أو جديد ، وتقابلها السخافة وهي كل ما يكبت هذه الروح من جديد أو قديم .

والروح ليست قاصرة في ضجرها وسأمها على ما تسمع الأذن ، وإنما تتعدى ذلك إلى ما ترى العين وتلمس اليد ، فإذا قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : إن هذه الأرواح تمل كما تمل الأبدان ، فهمنا أن الروح والبدن يشتركان في الملل مما ليس بطريف ، كما يشتركان بالرغبة والإقبال على كل طريف ، والحكمة

التي هي المحكم من كل ما تراه العين من عمل وما تعيه الأذن من قول ، ليست في حقيقتها مخلوقة لهذا الإنسان الضعيف عن أن يخلق ، ولكنها راسخة في حقائق الوجود المهيمن على الإنسان ، يكشف عنها ويشير إليها بلسانه أو قلمه أو يده ، فتتجلى إذ ذاك طرافتها أو سخافتها بالعرض أمام السمع والبصر .

لهذا قرر علماء البيان : أن العبرة في بلاغة القول لا تنال المعنى ، لأن المعاني مطروحة ، على حد قولهم ، في الأزقة يعرفها الحضر والبداءة ، وإنما العبرة في البيان الذي يكشف المعاني ويؤديها للروح عن طريق السمع فتتأثر بها ، ويضرّبون لذلك أمثالا منها : أن الاسماع كانت تمجّ قول بشار :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج  
حتى جاء سلم الخاسر فأخذ المعنى وأبرزه في ثوب آتق حيث قال :

من راقب الناس مات غمّاً وفاز بالسدة الجسور  
فأقبلت إذ ذاك عليه الاسماع تستسيغه وتهيم فيه .

وهكذا نجد كل عمل أحكمه العامل وأمعن في إتقانه تقبل عليه النفوس لإحكامه لا لإيجاده ، فكم كنت أمقت الطباعة إذ زاولتها ، وأنا أصدر صحيفتي « العروبة » في لبنان لسوء العامل والعمل ، وقصور الآلات عن أداء رسالتها بأحكام حتى زهدت في الطباعة ولفظتها ، ثم زرت أمريكا وتحسست من دور الطباعة فوجدت أن الشجر يسجر في فوهة من الأرض الحديد فيخرج من فوهة أخرى صحائف تقرأ وتنشر وليس بين كونها شجراً وكونها صحفاً أكثر مما بينك وبين بائع الصحف تدعوه وأنت في فراشك لتقرأ أخبار الصباح ..

وهكذا نجد آلات النجارة والحدادة وآلات النسيج أصبحت من الإحكام والإتقان وسرعة الإنجاز بحيث ينهر لها العقل وترتاع بها الروح ، فاذا عدنا بهذه الصناعات إلى عهدها الأول أيام كان الحداد يقطع نهاره في صنع المنجل ، والنجار يقطع أياماً في صنع المنضدة ، والحائك يقطع أسابيع في نسج الثوب ، مللنا التفكير في الصنع والصانع بله النظر فيما يصنع ، بينما كان آباؤنا يرون

متعة الروح في أن ترى المنضدة أو المنجل أو الثوب مصنوعاً دونما تفكير في كيفية صنعه ، وهكذا نرى الحكمة فيما نسمع أو نبصر ، وقفاً على ملاحظات الزمان والمكان من وراء التأثير بها أو السآمة منها ، فالطرافة في الحكمة التي لا تملها الروح إنما هي في عرض الأفكار مادة ومعنى ، على الأسماع والأبصار بالشكل واللون الذي لاعهد للروح به من قبل ، هذه هي الطرافة في الحكمة التي يعينها الرسول بقوله : ان هذه الأرواح تمل كما تمل الأبدان فابتغوا لها طرائف الحكم .

... وَأَرْسَى «سُبْحَانَهُ» أَرْضًا يَحْمِلُهَا، الْأَخْضَرُ  
الْمُتَعَنِّجَر... وَجَبَلَ... أَطْوَادَهَا... فَأَرْسَاهَا  
فِي.. قَرَارَتِهَا... وَأَرْزَاهَا فِيهَا أَوْتَادًا، فَسَكَنْتْ، عَلَى حَرَكَتِهَا مِنْ أَنْ  
تَعْمِدَ بِأَهْلِهَا.

قال ذلك في خطبة يستعرض بها عجائب صنع الكون ، والفواصل من النقطة  
تشير إلى أن هذه الجمل أو هذه الكلمات مختزلة من تلك الخطبة لتكون وحدها  
مبدأراً للبحث ، يقول سلام الله عليه ذلك محققاً ما أثبتته العلم الحديث من أن  
الأرض محمولة على الماء المعبر عنه هنا بالأخضر المتعنجر ، وهو من صفات  
المحيط الأعظم ، ثم يتأثر القرآن في اعتبار الجبال المرساة على الأرض أوتاداً لها ،  
خشية أن تضطرب وتميد بأهلها ، ثم أثبت النظرية العلمية القائمة على أن الأرض  
متحركة بقوله : «على حركتها» وهذه من الهامات الوحي التي كان يتلقاها من  
معلمه محمد صوات الله وسلامه عليهما ، وهما في كل ما يقولان ، عيال على  
الفرقان في كونه مصدر كل علم إذ قال : وما فرطنا في الكتاب من شيء ، وكل  
شيء أحصيناه في إمام مبین .

أحب أن استطرد بالقارئ هنا إلى فكاهاة كان يتندر بها في كثير من المجالس  
رواة فكاهيون ، تلك هي : أن حكماً أمريكياً مبشراً بمذهب البروتستانت  
كان مقره «صيداء» إحدى مدن لبنان الساحلية وتكاد تكون هذه المدينة عاصمة  
«جبل عامل» وكان من وسائل تبشيره بالسيد المسيح أن فتح مدرسة للتعليم  
وعيادة للتمريض مجاناً — وكان معروفاً بالنكته ومتسماً بالخلق الفاضل حتى أحبه  
كل من جالس له ، وكان له صديقان ممتازان عن أصدقائه الكثيرين في الدعاية له ،  
هما السيد محمد إبراهيم وابنه من سادة قرية النمرية المسيطرين على القرية بنفوذهم

الديني والجماعي ، وكانا يعتزان بصداقة الحكيم هذا ويدعوانه إلى بلدهما فيجمعان له سكان تلك المنطقة مرحبين به .

ويشاء الله أن يصدر للطبيب هذا ، وكان عالمياً طبيعياً مضافاً إلى كونه طبيباً ، مؤلف في فلسفة الطبيعة يثبت فيه كروية الأرض وحركتها المزدوجة على نفسها وحول الشمس ، وقد كان التنذر بمثل هذه النظريات في أواخر القرن الثامن عشر حيث كان الحكيم هذا يزاوئ عمله في ساحل صيداء أقول : لقد كان الجهر بتلك النظريات يحتاج إلى جرأة من العلماء الغر على رسالة العلم ، ويشيع في جبل عامل نبأ هذه « الخرافة » منسوبة إلى حكيم أولوه ثقتهم وأصبح ذكره عندهم بالمكينة السامية من ذوى الفكر ، ويتصل هذا النبأ بصديقيه السيدين محمد ابراهيم ونجمله فينكران كل الإنكار على الراوى أن يكون صديقهم الطبيب الحكيم قد أصبح من ضعف التفكير بحيث يتهافت في تفكيره إلى هذا الحد ، ثم يزعمان السفر إلى صيداء ، وهى منهم على بعد عشرة أميال ، ليتحققا من صحة هذا النبأ الذى وقع فيهم وقوع الصاعقة ، بينما يدعوان له في سمو العقل ونضج الفكر ، وأين هذه النظرية من عقل الحكيم الذى عرفوه حصيفاً متزناً فيما يقول ويفعل؟؟ ولما أطلا عليه ، وهو في مجلسه الخافل بأعيان صيداء ، رحب وهلل وأدناهما منه ، ورأى في وجوهها الحرص على القول والجديه فاستنطقهما فقالا : أتيناك نتحقق من صحة ما شاع في كتاب أصدرته ، وحشوته بنظريات أشاعت الدهشة عندنا وحالت دون الإمعان في الدعوة لك ، قال ماذا؟؟ فقال السيد : لا نخامرنا شك في أنه نبأ مكذوب يريد المرجفون من ورائه أن يشوهوا الحق ويطفئوا النور ، إذ يدعون أنك تقول بحركة الأرض وأنها تدور على نفسها كالخلدروف أو أسرع حركة منه ، وهذا مالا تراه عين ولم يتحسس منه وجدان ، إذن لأصاب الدوار كل مخلوق على وجه الأرض ، فقال : لم أقل شيئاً من هذا ولكنى قلت : إن الأرض كانت متحركة ولما ولدتما على ظهرها سكنت وقرت ، فتعالى ضحككما ثم قالوا : نحن لانرتاب قط في أنك إن كنت قد قلت شيئاً من هذا فانما ضلدر عنك من قبيل الدعاب كما هو شأنك ، ثم ودعاه مطمئنين إلى عقل الحكيم كما عرفاه .. »

هذه صورة من عقلية الأمة التي تدين بالإسلام وتذهب فيه مذهب الإمام علي بن أبي طالب فتضع « نهجه » المشتغل على خطبه وأقواله ورسائله إلى جنب القرآن وسيرة الرسول ثم تعتنق فكرة العقيدة بأن الحكمة قاصرة على هذه الكتب الثلاثة ، وتجد بعد ذلك هذين السيدين وكثيراً غيرهما من الموالين لعلي ، يجهلون أن علياً أنبأنا قبل ثلاثة عشر قرناً بما يثبت العلم الحديث ، ويتنبأ به أعلام العصر الحاضر من كروية الأرض وحركتها ، ثم يزعم هؤلاء البله أنهم شيعة علي وأنهم أحق الناس به ، وأنهم واردون على حوضه يوم العطش الأكبر .

فن أولى من الحكيم الأمريكي هذا بالإمام علي ، وهو يفقه قوله ، ويصدق نظريته ، ثم يسخر من شيعته ، ويأسف لأن يكونوا قاصرين ، وهم في عصر النور ، عن فهم آرائه وهو في عصر الظلمات ،؟؟ وشد ما كان هذا الحكم يتألم مما يسود هذه المنطقة « جبل عامل » التي قطع حياته فيها ، كان يتألم لما يسود أهلها من تأخر ، فقد نقل الرواة في عهده : أنه كان يطيب مرضاهم مجاناً ، فيقابلون عمله بأسوأ جزاء ، إذ كانوا لا يتورعون من أن يبولوا على باب العيادة ليلاً زاعمين أنه كافر وهذا جزاء الكفار ، وكان يقابل عملهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، فلا ينتهون ، أو لا يزجرون من لا ينتهي من جهالهم . وإذ علم أن من يبول من المسلمين لا بد وأن يستجمر أى أن يحفف مصدر البول بحصى أو جدار ، طلى باب العيادة والجدارين اللذين يكتنفان بابها بمادة سامة تحدث التورم في آلات البول ، فكان لا بد لهم بعد ذلك أن يعودوه للعلاج هذا التورم إذ لا طبيب غيره في البلدة ، فكان يأخذ من هؤلاء فقط ثمن العلاج ليستأجر به من يغسل باب العيادة صباح كل يوم من أثرهم السيئ ، وبذلك قضى على أخطائهم وحال بينهم وبين صنيعهم هذا إذ علموا أن مصدر التسمم كان جزاءهم على ذلك .

ويؤلمني أن لا أرى حتى اليوم ، من لا يفقه قول الإمام من شيعته ولا من أمته ، فقد سمعت ممن أثق به أن أحد الفقهاء قد أصدر كتاباً أسماه : « البازي المنقوص على من يقول بكروية الأرض » وكان لا بد له أن ينكر حركة الأرض في هذا الكتاب لأنه من البديهي للمتحرك أن يكون كروياً ، فان حركة

الجرم بالدوران على نفسه ثم حول غيره يستلزم الاحتكاك بالتيارات الأثرية التي  
تخلق به من هواء وماء وكهرباء ، وهذا كله يحقق كروية الجرم المتحرك فيه  
لاستلزام زوايا وأضلاع غير الجرم الكروي إذا تحرك أزلياً وبالسّعة القائمة  
في حركة الأرض ، أقول : إن تلك الزوايا والأضلاع تستلزم احتكاكاً مما يضغطها  
مما تتحرك فيه ، أكثر مما يستلزمه سائر الجرم المتحرك ، وذلك ما يجعلها في النهاية  
كروية ، وأما فجوات الأودية والوهاد ، ونبوء الجبال مما يوهم عدم الكروية  
فهي فهو من قبيل التعاريج في التفاحة إذا ضمرت من الذبول ثم لا يخرجها ذلك  
عن كرويتها .



« قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ  
وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ »

الله

بين الأحاد والصمد هنا تداخل وهو إحدى الكليات الأربع ، في اصطلاح علماء المنطق ، أى أن كل صمد أحد وليس كل أحد صمداً ، وبيان ذلك بوضوح فيما يأتى :

الأحد يقابل المتعدد ، وأما الصمد فهو فضلاً عن الوحدة يقابل الأجوف ، وليس هذا مأخوذاً في مفهوم الأحد ، فرب فرد أجوف لا صمود فيه ، اللغة تفسر الصمد بأنه مالا جوف له ، فالأبريق مثلاً يقال له أحد ولا يقال له صمد ، وهكذا الإنسان ولعل كل كائن لا يصدق عليه لفظ الصمد حقيقة ، لتداخل الماء أو الهواء أو الروح فيه ، وإذا أطلقنا لفظ الصمد على قطعة الفولاذ مثلاً فهو من قبيل التجوز على معنى أن جوفه أقل خلاء من الحديد أو الحجارة بله الخشب ، وبرهان ذلك أن الانحلال يعرف وكلاً من هذه ، فلو لم يكن الفولاذ وغيره ذا خلايا يتقوم بها كيانه لما تسرب إليها الفساد المفضى به إلى الانحلال .

ومن وراء نظرة بسيطة نلقها على أبحاث الذرة في العلوم الحديثة ، ندرك البرهان على أن كل ما يقع تحت إدراكنا من كائنات ، هو مركب من خلايا ، وخلاياه هذه مؤلفة من ذرات يدور في فلكها كهارب حول نويات تصغر ملايين أضعاف ما تراه العين بالمجهر ، إذن ليس هنالك فيما يحقد بنا من كائنات ، جرم مهيا كبر أو صغر يصدق عليه لفظ الصمود إلا تجوزاً ، ضرورة أن في كل كائن نظاماً كالنظام الشمسى الذى يهيمن على وجودنا ، وهذا النظام لا بد له من فراغ يدور فيه ليؤدى رسالته في تقويم ما كان له .

من هنا ندرك أن إطلاق لفظ الصمد على خالق الوجود إنما هو إطلاق لغوى لا تجوز فيه ، فالصمد والصامد في صميم اللغة يطلقان على الأحد الأزل الذى لا خلاء فيه ، ومن البديهي أن الشئ الذى لا يتخلله هواء لا يتسرب إليه فساد ، وقد عنى العلم بتعقيم الأشياء القابلة للانحلال لتثبت على الزمن معصومة من التلاشي

فالعصر الفرعوني لا تزال علومه قائمة منذ آلاف السنين في معقبات الحيوان والنبات ،  
والعلم الحديث بدأ منذ نصف قرن يزاول التعقيم ، وهذه آثاره بين سمعنا  
وبصرنا أصبحت من ضروريات حياتنا كالفواكه والخضر المجففة أو المعقمة ،  
وكاللحوم والأسماك المعقمة في آنية تعصمها من تسرب الهواء الغني بالجراثيم  
المفضية بما تغلغل فيه إلى الفساد والانحلال .

على أنى قرأت نظرية للعلامة « أنشتاين » يثبت فيها أن الأثير الذى نتقوم به  
ونعبر عنه بالفضاء أو الخلاء أو الهواء ، كما نرى ونشعر ، هو مادة كونية  
صلبة لا نقوى على التحسس من صلابتها لأننا جزء منها « وفي ذلك ما حملنا على  
التفكير فى أن حركاتنا ضمن هذا الأثير يجب أن تكون موضع بحث : هل هى  
قائمة فيه أم منفصلة به ، أم نحن بمادتنا شئ منه والروح القائم فينا إشعاع خارج  
عنه ومؤثر بواسطتنا فيه ؟؟ وبعبارة أوضح : هل الأثير كما يراه « أنشتاين »  
هو المادة والقوة التى نعبر عنها بالروح ، يتماكان متفاعلين فينشأ عنهما هذا  
التيار الذى نطلق عليه لفظ الكون ؟؟ أم هو مادة فقط يتفاعل بإشعاع الروح  
المهيمن عليه من كون آخر بصلات لا يزال العقل البشرى يجهل الكنه الذى  
تتقوم به ؟؟

وهل القوة شئ والمادة شئ آخر يتضافران على إنتاج ما نسميه بالأثير أو  
الحياة كما يتضافر الجسد والروح فى تكوين ما ندعوه إنساناً ، أم هى مادة فقط  
بعضها لطيف والبعض الآخر كطيف لها تركيبها الخاص بها حيث تنتج الحياة ،  
أم هى قوة فقط تتكاتف أحياناً بانفعال مجهول لدينا فيظهر فيها ما نحسه من  
أجرام ؟؟ وهل هذا الأثير الذى نتساءل به فى هذا البحث ، هل هو الكون كله  
أم جزء منه ؟؟ وعلى فرض كونه كلاهما هو مصدر نظامه القائم فيه ؟ هل هو  
خارج عنه ومهيمن عليه أم داخل فيه ومتقوم به ؟؟ وعلى فرض كونه جزءاً من  
الكون ، هل هو متصل به اتصال جزئياته به أم مستقل عنه استقلال الجزء  
عن كله ؟؟

هكذا تتوالى على الفكر أسئلة مما تحسه الروح ، ثم يجيب نفسه عنها بما  
لا يقتنع هو بها ، ولا تشبع الروح من تعليلها ، ذلك هو السر الذى من أجله

— ٣٠٥ —

يمتاز الكل عن الجزء ، ويتعالى به الكلى على جزئيه ، ولو أدرك الجزء كنه كليه ،  
أو أحاط الجزئى بأسرار كليه ، لما كان بين الجزء وكليه أو بين الجزئى وكليه  
فرق بينهما ، ولما كان للجزء والجزئى حدود تتسع لهما فى حدود الكلى والكل  
اللذين هما ظرف يحقق بتلك الحدود .

## لَيْسَ مِنْ أُمَّتِي أَهْلُ الْبِدْعِ كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ

محدث

البدع جمع بدعة ، والبدعة في أصل اللغة ما يأتيه الإنسان من قول أو فعل لم يكن ، فالإبداع هو الإنشاء ، والمقصود بها في الحديث الشريف هو أن يحدث المبدع في الدين ما ليس منه فعلاً ولا قوة ، أى لم يرد فيه نص صريح من كتاب أو سنة أو إجماع ، وليس في طوق العقل الواعى تطبيقه على الدين قياساً أو استنباطاً .

وإذا أطلق الرسول كلمة البدع هنا ثم لم يقيدوها بكونها خارجة عن الدين ، فانما وكل ذلك إلى عقل الفقيه ، وإلا لما أجمع أعيان المحققين من علماء الفقه على أن البدعة السيئة هي المقصودة من قوله صلى الله عليه وسلم في صدر هذا البحث ، كما أجمعوا على أن البدعة الحسنة لم يخرج بها مبدعها على الدين وإنما دخل بها في صميمه ، ولعل الإبداع في الدين هو المقصود من قوله عليه السلام : يبعث الله على رأس كل مئة عام من يجدد أمر أمتي في دينها » والتجديد أعم من أن يكون كشفاً أو إبداعاً .

أما التجديد الذى هو كشف ، فأن يعتمد الفقيه المجدد إلى إحياء ما أماته من الدين جمود الفقهاء وجحود الملحددين ، وأما التجديد الذى هو إبداع فانه ينشئ المجدد ، فقهاً أو حكماً ، ما لم يكن في العصور التى هيمن عليها الدين ، من ضروريات الحياة أو كمالياتها ، فانه يدخل في حيز الدين بما يحمل في جوهرة من نفع الإنسان وتعزيز الحياة ، وفي صميم الدين كل ما يعود على الإنسان بالنفع من خير أو جمال ، ففي القرآن الكريم : قل من حرم زينة الله التى أخرج للناس والطيبات من الرزق ؟؟ وأية زينة أسمى مما أخرج تبارك وتعالى ، على أيدي وألسنة العلماء والحكماء مما هو ملء سمعنا وبصرنا من بدائع العصر الحديث ؟؟ فهل نعد المخترع المعروف كامل الصباح خارجاً عن الإسلام بما أبدع من عشرات الاختراعات في علمى الأثير والكهرباء لأنه من أهل البدع ؟؟ وهل

نعد التلغزيون الذى هو إحدى بدعه مع غيره ممن كان يزامله فى هندسة الكهرباء ، أقول : هل نعد بدعته هذه خارجة عن الدين ، ومحرمًا علينا استعمالها ؟ ولقد قرأت له فصولاً ، وأنا فى جنوب أمريكا ، نشرتها له الصحيفة « السورية اللبنانية » التى تصدر فى « بونس إيرس » عاصمة الأرجنتين تشتمل تلك الفصول على أبحاث لاهوتية يثبت فيها وجود خالق وكون ذلك الخالق واحداً عن طريق العلم الحديث ، وهكذا كان العلامة أحمد رضا العاملى وهو خاله ، كان يقرأ على رسائله المتبادلة مع ابن شقيقته كامل الصباح ، وكانت تلك الرسائل حافلة بدينه الصحيح ومدنيته السامية . فهل نعد هذا خارجاً عن الدين بما يبدع ؟؟

فليست البدع فى قوله الشريف على إطلاقها وإنما هى البدع فى الدين ، بأن يزيد المبدع فيه ما ليس منه أو ينقص منه ما هو داخل فيه ، والزيادة أو النقصان يقررهما عقل الفقيه المخلص لربه الناضج فى تفكيره ، على هذا يجب أن نحمل قول الرسول ، وبهذا يجب أن نعلل قوله ، وكل ذلك قائم فى صلب اللغة ، فقد يطلق اللفظ على المعنى العام ويراد به الخاص ، كما قد يقيده به معنى خاص ويراد منه العام ، ومن شاء تفصيل ذلك فليرجع إلى كتب البيان .

أما الكلام على البدعة ، وهل هى مخلوقة لله قبل خلق الإنسان لها ، وإنما يكشف عنها المبدع الثانى الذى هو الإنسان بطريق الإلهام بعد أن طواها الزمن فأنسى العقل البشرى حلقها القائمة فى سلسلة الحياة محتضنها الوجود الأزل ، أما هذا البحث الذى يتناول البدعة فى فكر الإنسان ، فقد أتينا عليه مفصلاً فى كتاب « بلاسم » وليس له موضوع فى هذا السفر فن شاء الوقوف عليه فليتمسه فى ذلك الكتاب .

## عَلَى إِنَّ فِي السَّمَاءِ مَدُنًا كَمَدُنِكُمْ هَذِهِ يَرْبُطُ بَيْنَهُمَا عَمُودَانِ مِنْ نُورٍ

سمعت هذه الكلمة على أفواه الثقات ثم تحريرتها في الكتب الماثورة فلم أقف عليها بنصها ولكني قرأت في كتاب مجمع البحرين للعلامة فخرالدين النجفي من علماء القرن الثاني عشر ، قرأتها في مادة « كوكب » بلفظ لا يختلف معناه عما سمعت من شيوخنا الثقات حيث يقول عليه السلام : هذه النجوم التي في السماء مدائن كالدائن التي في الأرض ، ترتبط كل مدينة منها بعمودين من نور طول كل عمود مسيرة مائتين وخمسين عاماً في السماء » فكلا القولين يفيدان معنى واحداً ، كما أن كليهما خلاق بأن ينسب إلى الإمام لأنه ينطوي على علوم شتى وليس في أصحاب رسول الله من يقتبس عنه مثل ذلك سوى ربيبه على ، سيما وهو يقول إذ يذكر معلمه : لقد مر على سمعي بكل شيء ..

من أخرى عالياً ، لولا إلهامه ووحى رسول الله ، أن الأجرام السماوية قائمة في سربها ونظامها على السر والنظام اللذين يقوم عليهما كوكبنا الأرضي ؟؟ ألا تقوم أرضنا هذه في نظامها الطبيعي الذي يضمن بقاءها ، على تيارين أولهما الجاذبية التي تصلها بالشمس ، وهو تيار خاص بالشمس وفلكها الذي تدور فيه السيارات التي يثبها علماء الفلك ؟؟ وثانيهما التيار الروحي الذي يتقوم به الكون وهو خاص بالنور الكلي المهيمن على الشمس التي تدور في فلكه بما يدور حولها من أجرام ؟؟

ان أنظمة الكون متداخلة لا حساب لها في دائرة الفكر الإنساني ، ولذلك يروى بعضهم قول الإمام هذا بلفظ أعمدة لاعمودين ، والأعمدة هذه التي نعب عنها بالأنظمة أو التيارات أو الأنوار القائمة في حركة الوجود وخلوده ، أقول : ان هذه الأنظمة تبدأ في أعظم جرم كوني لا تقوى على الإحاطة بكنهه ، وتنتهي في أصغر جرم كوني أيضاً لا طوق لنا في اكتناه سره ، وهو الذي نعب عنه اليوم بالذرة .

ولقد بدأ العقل الإنساني في عصرنا الحاضر يفكر بتأويل قول الإمام على هذا ، ولعله بدأ يفكر في تحقيق قوله لا تأويله فحسب ، ان معظم علماء الفلك اليوم يحسبون بوجود عالم كعالمنا في الزهرة والمريخ ، وبدأوا يعدون العدة لارتداد القمر الدائر في فلك الأرض ثم ارتداد غيره من الكواكب السيارة التي يربط بينها وبين كوكبنا تيار الجاذبية الشمسية الذي ينتظم هذه السيارات الدائرة حول الشمس ، وإذا كان حلسهم قائماً على العلم أو الظن القريب منه في أن بين هذه السيارات شركة في الحياة ، ثبت أن عوالمها تشترك في طبيعة الحياة ونظمها ، وفي ذلك ما يؤيد قول الإمام من أن في السماء ، ويعني بها الأجرام السيارة ، مدناً كمدننا تربط بينها لتستقيم في سيرها ونظمها ، أعمدة من نور وهى التيارات المهيمنة على الكون .

فما الذي أدرى علياً بهذا ؟؟ وهو ربيب محمد ومحمد أى أنبتته أرض قفر جرداء من كل ما يشير إلى حياة ؟؟ ان علياً نفسه يجيب عن هذا التساؤل حيث يقول : والذي بعث محمداً بالحق ما أبقي شيئاً . . . إلا أفرغه في أذني وأفضى به إلى . « كما مر في غير مكان من هذا الكتاب ، ولذا كان يجرؤ على القول المأثور عنه : سلوني قبل أن تفقدوني ، فاني بطرق السماء أخبر مني بطرق الأرض » إذن فالذي أدرى علياً بذلك هو محمد والذي أدرى محمداً هو الروح الأمين جبريل ، وجبريل هو الذي كان ينزل بالوحي على قلبه من لدن لطيف خبير . صدق الله ورسوله

ويريد الإمام بقوله : ان في السماء مدناً كمدنكم هذه « يريد : أن في تلك المدن أناساً مثلكم » وهو ما يستلزمه كون المدن كمدنكم ، لأن هذه المدن هي وليدة تفكير الإنسان في كوكبنا الأرضي فيجب أن تكون هناك أيضاً وليدة تفكيره وإلا لما قال : مدناً كمدنكم ، ويريد بالأعمدة الروابط بين تلك المدن وبين ما تعتمد من بقاء كالأعمدة التي تربط بين السقف والأرض في بيوتنا ضرورة كونها بيوتاً واستقامتها كذلك ، ويريد بالنور العنصر الذي تتقوم به تلك الأعمدة وهو من الشمس مثلاً بمنزلة الجوهر منا الذي نعب عنه بالروح تارة وبالحياة أخرى ، وهذا الجوهر هو الذي يربط بعضنا ببعض الآخر فإذا

فقدناه افترقنا إلى الأبد ، ثم على مقدار الكمية التي تتوفر في الجرم من هذا الجواهر يكون ارتباط غيره به وانجذابه إليه ، واعتصامه به ، ولهذا نرى الخاصة من الناس ، علماء وحكماء وزعماء ، هم مدار الجاذبية في الناس . وهكذا نصعد إلى الروابط الكونية ، فالشمس إنما تربط بين الكواكب الدائرة في فللكها ، لما توفر فيها من الجواهر الذي نعب عنه بالنور الذي تتقوم به تلك الكواكب ، وقد تكون هذه الشمس مع شمس أخرى تدور في فلك جرم أعظم يتوفر فيه من الجواهر أضعاف ما تتقوم هي به ، فالنور إذن كلمة تعني أكثر مما نشعر من أنها ضوء يكشف لأعيننا غشاء الظلمة عن المراتب ، وإنما هي قوام كلي يتقوم به الوجود ، وتنبثق عنه جزئيات تتقوم بها أجزاء هذا الوجود ، ولهذا عبر الله تعالى عن ذاته بأنه نور السموات والأرض »

بقي شيء يجب أن يقال تعقيباً على قول الإمام في الكلمة الثانية المروية عن « مجمع البحرين » وهو قوله : طول كل عمود مسرة مائتين وخمسين عاماً في السماء » ولعل القارئ ، إذا رجع إلى أقوال علماء الفلك في تقدير المسافات بين الشمس وبين الكواكب التي تدور في فللكها ، لعله يعثر على تقرير المسافة التي ذكرها الإمام بين النجوم وبين أقطابها التي تدور حولها من الشمس .



الله

نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ . وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ،  
عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ ، وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ

ان هذه الكلمات « لا تعلمون » ولا يعلمون ، ولو يعلمون « التي يختم بها الوحي الكريم كثيراً من الآيات ، حافلة بالأعجاز فيما تشير إليه من علوم كقوله عز من قائل : ... والحيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون » وقوله : مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون « وسيأتى الكشف عن أسرار كل منها » أقول : إن هذه الكلمة حافلة بالإعجاز وتشير هنا إلى التطوير والتحويل وكلا هذين كان ولا يزال هدفاً لعلوم الكيمياء في تحويل المعادن من نوع إلى نوع ، ولقد أصبح من السهل اليوم هذا التحويل بعد أن كان حليماً قبل ألف عام عندما كان بمر العقل المبدع بهذه الآيات ونبوءاتها فيمعن في العمل على تحقيقها فيفلح حيناً ويحقق أحياناً ، حتى جاء العصر الحديث فأظهر العجائب في تحقيق ما تشير إليه تلك الآية الكريمة .

ولنعد إلى الخوض في إعجاز هذه الآية بدفعها الفكر وراء الكشف والإبداع . وفيها الكثير من تصديق الإمام على إذ يقول في وصف القرآن : ان فيه علم ما مضى وما يأتى » وقد مر القول على ذلك في غير مكان من هذا الكتاب . فقد يستطيع الفكر أن يجمل تفسر هذه الآيات الثلاث بقوله مخاطباً نوع الإنسان بلسان ربه : لقد قضينا عليكم الموت ولا يسبقنا أحد في تبديل هذا الشكل الذى فطرناكم عليه وفي إنشائنا إياكم مرة أخرى بشكل آخر ليس في طوقكم أن تعلموه . أقول : قد يستطيع الفكر لإجمال القول في ذلك ويستطيع أن يضرب لذلك مثلاً في أن جبلة الإنسان كالمعدن الخام ، حديداً أو فضة أو ذهباً ينشئ الحديد والجوهرى من هذه المعادن ما يشاء مما يحتاج إليه في حياته من زينة ومتاع ، وكلما تطور الفكر في ترقية الحياة أعاد هذه المنشآت من المتاع والزينة سريتها الأولى بالصهر معادن أولية ثم أخذ في إنشائها بأشكال أخرى ، وهكذا دواليك يحيى الإنسان ويميت هذه البدع من المعدن والنبات الذى خوله الله التصرف به

في خلقه الثاني وحال دون خلقه الأول القائم على إنشاء المعدن ذاته ، فالمادة الأولى من كل شيء ، قاصرة في وجودها وعدمها ، على قدرة الخالق الأزلي الأول . قد يستطيع المفكر أن يتصرف هذا التصرف وهو يجيل فكره فيما تشير إليه تلك الآيات ، ولكنه يتقهقر وينكص ثم نحسأ إذ يحاول الكشف عن الصورة التي ينشئنا عليها المبدع الأول بعد أن يصهرنا في بوتقة الخلق والإنشاء ، ونحسأ الفكر أكثر من ذلك إذ يحاول اكتناه المعدن الخام الذي تفرعنا عنه إلى أمثالنا هذه ، واكتناه الأمثال التي سنتفرع إليها عنه مرة أو مرات أخرى في مستقبلنا ونحن نمر ونكر بين يدي حياة أزلية لا تقوى على التفكير فيما كانت منه بأكثر مما تقوى على التفكير فيما تؤل إليه .

فإذا صح لديك تفكير الحديد بكنهه ما تفعل ، وأنت تحيله من معدن خام إلى أرائك وسرر ، وصح لديك تفكير الذهب والفضة بكنهه ما تفعل ، وأنت تحيلهما من معدن خام إلى حلى وآنية ، ثم إذا صح لديك تفكير هذه الأرائك والسرر والآنية والحلى بكنهه ما تفعل وأنت تصهرها فتعيد لها سيرتها الأولى معادن خامتها ، لتنشأ مرة أخرى فيما لا تعلم هي ، إذا صح ذلك لديك صح إذن تفكيرنا فيما نشأ منه ونوئل إليه من أمثال وأشكال بين يدي سلطان الخالق الأول الذي يبدئ ويعيد ويحي ويميت وينشئ ويحيل قائماً في كل ما يفعل على الوحدة بالذات ، والاستقلال في الخلق والإبداع .

فكلمة « قدرنا بينكم الموت » في الآية تعلمنا أن لكل شيء نهاية حتى يستمر التطور والتجديد ، لأن الفن الأزلي في الكون على ترق دائم لئلا يشترك مع خالقه الأول في الخلود . فالفن خالد بكليته أى بنوعه من حيث هو فن ، ولكنه زائل بجزئيه أى بشخصية أفراده ، فالإنسان مثلاً الذى هو عنوان الفن الإلهي في دقة صنعه ، هو خالد بنوعه لأن الإنسانية لا تنفئ ، وإنما الفاني جزئيه : أنا وأنت مثلاً ، وهذا الزوال الذى هو فناء الجزئى في كليته ، أحد مظاهر العظمة في الفن إذ لو جمد جزئياً لما كان للفكر الذى يبدعه روعة الخلود في عالم الروح . ولقد أشرنا في كتاب « بلاسم » إلى أن اختلاف الألوان وتطورها عريق في صقل البصر ، وإلى أن اختلاف الأصوات وتطورها عريق في تقويم السمع ،

ثم أن اختلاف الآراء والأفكار وتطورها عريق في صقل الروح « ولعل بقاء هذه الأنواع التي هي العين والأذن والفكر ، لعل بقاءها بكليتها وقف على اختلاف تطور ما نعمل فيه من حياة ، فالمرت إذن ضروري لتجديد الحياة في نوع الإنسان لئلا يجمد ويركد فيفضي هذا الجمود به إلى فناء النوع الإنساني ، لأن حياة هذا النوع قائمة على تطور أجزائه ، وأما الخلود الذي يعدنا الله به في الجنة فيجب أن تهيمن عليه حياة تتقوم بخلود الروح في جزئياته لا كلياته .

وكلمة « لسنا بمسبوقين على أن نبذل أمثالكم » تشير إلى اعتداد الخلاق الأول بربوبيته واعتزازه بوحدةانيته وأن لا يسبقه أو لا يقوى على سبقه خلاق غيره ، لأنه مصدر الخلق وعلة الإبداع الأولى ، من أجل ذلك وهب الفن لخلقوه الإنسان ناقصاً بتفاوت أجزائه ، إذ لا نرى فناً كاملاً حتى ينشأ بعده فن أكمل ، وكل الفنون ترمى إلى غاية في الكمال لا يزال العقل البشري قاصراً عن إدراكها .

ويشير ، عز وتعالى ، بقوله : وننشئكم فيما لا تعلمون « إلى ذلك النقص في إدراك الإنسان كنه الفن في خلود نوعه ، لأنه قائم فيه ، أي أن تطور الفن قائم في ذات الإنسان ، وإذا قام الشيء في ذاتك أي كان من عناصرك التي تتقوم أنت بها ، استحال عليك إدراك تعليله حتى تتجرد عنه ، فيمكنك أن تعلل أو تدرك علة التطور في نوع الحديد والخشب لأنك لم تتقوم به ، ولأنه دونك في شرف الذات وتقويمها ، وكل ما انحدر عنك في قوامه وكنهه كان مستجيباً لك في اكتناؤه والهيمنة عليه ، وأما ما يعلو عنك أو يساويك فيعجزك أن تفكر فيه أو أن تصل إلى كنهه ، فعالمك والعوالم التي تتصورها بعقلك كالملائك والآلهة ، هو أبعد العوالم عنك تحليلاً وتعليلاً .

أما العوالم التي هي دونك كالنبات والجماد فتستطيع أن تجيل فيها عقلك ، ثم تعلل وتحلل عناصرها بنوعك لا بشخصك ، لأن النوع الإنساني أثبت في مجال العصور هيمنته على ما دونه من العوالم كلياً وإن قصر عنها جزئياً ، فما من معجز علمي أو فني قام بكليته على فكر إنسان جزئي ، وإنما قام ذلك المعجز على نوع الفكر الإنساني موزعاً على كثير من أفراد الإنسان ، فكل علم

أو فن قام في بروزه وظهوره على أدمغة أناسى قد تبلغ الملايين في مجاهل ومعالم التاريخ .

فألله ، تعالت عظمته ، يعلمنا بقوله « وننشكم فيما لا تعلمون » ان علمنا لا يزال ناقصاً إذ نعلم تطور ما هو دوننا ونجهل تطور أنفسنا فيما نستقبل كما نجهل أصلنا الذى تطورنا عنه فيما مر ، ثم يعلمنا أن كل شئ قابل للتطور والإنشاء من جديد ، إما من حسن إلى أحسن أو من سئ إلى أسوأ ، فهو يعدنا ومهددنا بهذه الكلمة ، كما تعد ومهدد تلميذك وأنت تعطيه الأمثلة وتفرض عليه إدراكها ، فاما أن يجيدها فتصعبه به إلى صف أعلى ، وإما أن يسيئها فتهبط به إلى صف أدنى .

وبذلك يشير إلى التربية المفروضة علينا في تصفية نفوسنا بين يدى الرقى ، فان الدين إنما جاء لفرض هذه التربية ، نبدأها بتطويع النفس على محاسن الحياة ، وطبعها بطابع الإخلاص للحق تدريجاً حتى ينتهى هذا التطويع للأفراد ، بترقية النوع وإمكان العصمة بعد ذلك للفرد عن ترديه في أخلاق العوالم الدنيا ، وهى العوالم التى نتعالى عنها بفضل العقل القائم على ذلك التطويع وهذا الطبع المعبر عنهما بالتربية .

## مَحْذَرُ جَنَّبُوا مَسَاجِدَ كُمُ الصَّبِيَّةِ وَالْمَجَانِينِ

كتبت فصولاً مطولة في كتبي «وحى الرافدين» «ومع الناس» عن مبلغ ما يسيء به المسلم الشيعة إلى إسلامه في مساجده الكبرى القائمة في جوار قبور أهل البيت على وأبنائه على ضفاف دجلة والفرات تحت سماء العراق في النجف حيث يرقد الإمام علي ، وفي كربلاء حيث يرقد ولده الشهيد الحسين وأهل بيته ، وفي الكاظمية حيث يرقد الإمامان علي الرضا ومحمد الجواد من عترت الإمام الكاظم عليهم جميعاً صلوات الله وتسليمه .

أقول : لقد كتبت فصولاً مطولة في النقمة على الشيعة المحدثين بهذه المساجد والقائمين لله فيها بين ركوع وسجود أيامهم ولياليهم ، ثم يغفلون عن الصبية والمجانين الذين يعيشون فساداً في جوار أئمتهم وبين جدر هذه المساجد الخالفة بملائكة العرش ، ولقد كنت أغشى هذه المساجد مع الفجر فأجد الصبية والمجانين والجهلة يتغوطون فيها دون أن يغضب لله زائر لها ومهين عليها .

ولقد كادت تقوم قيامة نكراء بيني وبين السدنة في هذه الأضرحة ، تعرضت فيها لخطر عظيم ، ولكنني إذ كنت واثقاً من أن هذا النداء على تلك المساوئ واجب على كل متحسس أوقى حظاً من الشعور الحي في أمة محمد ، وظللت أقيم النكير بلساني وقلمي على أولئك السدنة الذين أثروا وفسقوا ثم أورثوا أعقابهم الثروة والفسق وسيورث هؤلاء الأعقاب أخلافهم تلك السبة إلى يوم القيمة بفضل ما يثقل بطونهم وخزائهم من نذور هذه الأضرحة التي تبلغ ملايين الدنانير على رأس كل عام .

وعبثاً كنت أحاول فيما أكتب وأخطب من حمل السدنة والفقهاء وأولى الأمر من الحاكمين على العناية بنظافة هذه المساجد وتنزيهاها عن عبث الجهال وقذارة الصبية والمجانين ، كما حاولت عبثاً أكثر إذ دعوت لتنزيه شوارع مدينة النجف من قاذورة أهلها الذين لا تعرف بيوتهم المراحيض إلا في الأزقة ،

والنجف هذه تكاد تكون عاصمة ستين مليوناً من المسلمين الشيعة ، وإليها تهوى أفئدة المسلمين ، ويقصدها للسياحة كثير من الغربيين لمشاهدة ما يعلو ضريح الإمام علي من غرائب الفن في هندسة البناء ، وما يشتمل عليه من عجائب التحف ونفائس الجواهر .

ولقد تحدث إلى خبير من أهل النجف أن في خزانة الإمام من نفيس هذه التحف ما يبلغ ثمنه عشرات الملايين من الدنانير الذهب محجور عليها أن ترى الشمس وأن تراها الأعين ، بينما تضم مدينة النجف التي تضم جسد الإمام علي ، ستين من كل مائة نفس مرضى بالسل فقط وليس فيها مستشفى ولا مستوصف ، فهل يرضى الإمام عن هذه البدع وهذه الدنيا الحافلة بزخرف الحياة وطرائفها بعد موته وقد كان أبعد ما يكون عنها في حياته ؟؟

وهكذا زرت قبيل وضع هذا الكتاب مدينة الرسول محمد صلوات الله عليه ، ودخلت حرمة القدسي للصلاة فاذا الوضع في مسجده هو عين الوضع في مسجد أخيه وابن عمه علي بن أبي طالب ، صبية يعيثون ويفسدون على مرأى من المصلين وفي رعايات آبائهم وأمهاتهم ، ولقد تغوط أحدهم في المسجد وأنا أراه وكأن لم يفعل أمام أبيه ومن جوله إلا معتادا ، ولكنني حنقت وغضبت لله فخرجت وجبرت كلمة بعثت بها لإمام الحرم أذكره فيها بالحديث الشريف : جنبوا مساجدكم صبيبتكم ومجانينكم » ورجوت منه أن يستطرد إليه في خطبة الجمعة فان أفاد وإلا فليستعن على آباء الصبية بالشرطة المنبثة في زوايا المسجد وعلى أبوابه لحماية الأمن ورعاية النظام .

ولبثت أنتظر يوم الجمعة ، وأنا موقن بأنه سيفعل لأن فعله هذا من صميم عمله وفي صميم الإيمان ، ولشد ما كان عجبى بالغاً إذ سمعته يوم الجمعة يخطب في تشديد النكير على زائري الحرم النبوي أيام رجب لأن ذلك غير مشروع في عهد الرسول ، وعلمت من ذلك أنه يعرض بمن كتب له يستعديه على الصبية والمجانين الذين يعيثون في المسجد ، وقلت لمن حولي ، وقد أعلمتهم بكتائبي له ورجائي منه ، قلت إذ ذاك : إن زيارة رجب وهو الشهر الذي عرج فيه رسول الله إلى السماء ليأتينا بالوحي ، ان هذه الزيارة بدعة وأما خراء الصبية

والمجانين في الحرم فهو مباح إلى حد يدعى له الإمام فلا يستجيب دعاء الداعي ، والله إني لشاكيه إلى أمير المدينة فإن لم يستجب شكوته إلى رسول الله الذي هو مشرف على كل ما يحدث بنا من حياة .

وذهبت من غدى إلى أمير المدينة ، وأعرفه الصالح المصلح ، وكان معي صديقاي على وعثمان حافظ أو أحدهما على ما أذكر ، ثم قصصت عليه ما رأيت من أحداث الصبية في المسجد على مرأى منا وذكرت له الحديث الشريف ، فقال : سأرفع هذا إلى مجلس العلماء ويكون مرد ذلك إليهم وتبعته عليهم .

ولكن العلماء لم يجيبوا ، والأمير لم ينكر عليهم صمتهم وهم يعلمون علم اليقين أن محمداً لم يشرع لهم الدين إلا وفي صميمه الدعوة إلى الحق وإجابة الداعي له .

أفلم يدخل محمداً مسجده يوماً ما ، والمسجد لم يكن أكثر من تراب وحصي ، فرأى بصقة إنسان فثارت حفيظته فعمد إلى حفر الأرض ووارى النخامة وهو مغضب محقق يقول : إن كفارتها دفنها؟؟ فإذا غضب محمد للنخامة في أرض مسجده الذي لا تفارقه ملائكة السماء ، أفلا يغضب لتغوط الصبية والمجانين في المسجد نفسه على مرأى من إمام المسجد والمصلين فيه؟؟ أن هؤلاء الصبية يتغوطون ويبولون في مسجد رسول الله كل يوم دون أن يلقوا زجراً من الحرس المنبئين في المسجد وهم يرون هذا المنكر ويأتمرون بأمر إمام المسجد فإذا يقول هذا الإمام يوم يلقي محمداً وهو شهيد عليه يسأله عن مبلغ حرصه على حرمة محمد في مسجد محمد؟؟؟

ذلك ما أحبت أن أذكره في سياق الحديث الذي هو مصدر هذا البحث وأنا واثق من أن تقدم المسلمين رهن بأمور أهونها عند الله والعالم هذا الذي نراه من عبث البنين وغفلة الآباء عن رسالة محمد .

## عَلَمُ الْعَالَمِ مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ وَوَافَقَ عِلْمُهُ عَمَلَهُ

يشير الإمام بكلمته هذه إلى المثل الأعلى في الإنسان والمعبر عنه في الشرق بالإنسان الكامل وفي الغرب بالسوبرمان ، ففي هذه الكلمة تحديد للإنسان الكامل ، وقبل أن نكشف عن هذا التحديد ينبغي لنا أن نقول شيئاً نهمده به لهذا الكشف فنقول :

ان لكل أمة لسانا ، وكل لسان له لغتان أولاهما لغة العلم ، وقد يعبر عنها بلغة العقل أو المنطق أو الحقيقة ، والثانية لغة الأدب ، ويعبر عنها أحيانا بلغة العواطف ولغة البيان ولغة المجاز ، فاللسان ، بلغة العلم والحقيقة ، هو خاص بأهله ، وهو بلغة الأدب والعاطفة ، عام يتجاوز أهله إلى غيرهم من أعم العالم . فكل لغة من لغات العالم قسمان قسم حقيقي يختص بأهله ويتناول التعبير عما وضعت له تلك اللغة عينا ، وقسم مجازي عام يتناول التعبير عما تشير إليه تلك اللغة بلوازمها ومقتضياتها ، وسيتوضح ذلك فيما نسوقه من أمثال .

ان الأدب الذي هو ترجان العواطف ، هو اللغة الجامعة لبني الإنسان ، بخلاف العلم الذي يحدد الكلام في إعرابه وتصريفه واشتقاقه ، فانه لغة أمة أو شعب تواطأ على التخاطب والتفاهم بتلك اللغة ، لذلك كان الأدب أسمى من العلم إذ كان لغة الإنسان الأزلية في الوجود بينما نرى العلوم التي هي لغة العقل دونها في السمو إذ كانت لغة الإنسان المتحضر فقط دونما حس تخفق به الروح في عالم الإنسان باديه وحاضره وأبيضه وأسوده .

لذلك كان لا فرق بين بني الإنسان في مثار العواطف وبناء ثورتها على انفعالات النفوس ، بينما تجدد هذه الأفراد تختلف بعقولها تحت أحداث الزمن ، لأن العقل الذي هو مصدر العلوم ، هو وليد المجتمع ، والعواطف التي هي مصدر الفنون ، هي وليدة الطبيعة ، من أجل ذلك كان الفن أخلد من العلم ، ومن شاء الوقوف على بحث هذه النظرية بشكل أوسع فليرجع إلى كتابنا «بلاسم»



أوردت هذه المقدمة لأصل بالقارئ إلى أن اللغة ليست قاصرة على الحقيقة وإنما تنعدها إلى المجاز القائم على الخيال الذى يتقوم به الأدب ، فاللغة إذن حقيقة ومجاز ، والمجاز وحده هو الأفق الذى يتسع للفكر فوق اتساع الحقيقة له .  
فالحقيقة فى قول الإمام لا تعطى لفظ العالم أكثر من أنه لا بس صفة العلم عمل أم لم يعمل ، وكان عمله موافقاً علمه أم لم يكن ، كما أن الحقيقة فى من يعمل أن يطلق عليه لفظ العامل لا العالم سواء علم بما يعمل أم لم يعلم ، هذه حقيقة المعنى اللغوى لتلك الجملة . وأما مجاز هذا المعنى فأبعد من ذلك وأوسع ، فان الإمام أراد أن يشير إلى شرف العلم وما يجب أن يترتب عليه من نتائج وذلك فى صميم اللازم له والملاصق به ، ولهذا نجد الكلمة الماثورة : العلم بلا عمل كالشجر بلا ثمر ، قائمة بروعتها فى نفس كل متأدب .

فالبیان فى قول الإمام عظم ، إذ شاء ، رضوان الله عليه ، أن يجعل فى حدود العلم نتائج ولوازمه وأهدافه ، فالبيان فيه أبعد من أن يشير إلى حقيقة معناه الذى لا يقوم على حدة الفكر وقوة المعارضة فى بناء الأدب الرفيع ، البيان فى هذه الجملة إذ يحقق : ان المرء حيث يعلم غير خليق باطلاق صفة العلم عليه حتى يعمل به ثم يكون عمله وفق علمه حرصاً على شرف العلم الذى هو سلاح العالم يقيه من التردى والانهيال أقول : ان البيان فى هذه الجملة البالغة يعلمنا فنوناً من السمو فى الأدب يذهب معها الفكر مذاهب شتى فى مجال العبقرية والخلود .

ومن هذا القبيل فى مجال البيان القول الماثور : لا صلاة لمن جاره المسجد إلا فى المسجد ، فان صلاة المرء فى بيته وهو جار للمسجد ، لا يخرجها فى حقيقة اللغة عن كونها صلاة ، ولكن الشارع أراد بها المجاز الذى هو أبلغ قسمى لغة العرب القائمة فى بيانها الرائع وأسلوبها الحى على المجاز أكثر مما تقوم على الحقيقة ، إذ جعل هذا الشارع البصير كمال الصلاة وشرفها مأخوذاً فى مفهوم حقيقتها ، إشعاراً بسمو الغاية منها .

ومن هذا القبيل أيضاً ما ينسب إلى الإمام الحسن بن على بن أبى طالب من قوله : الرجال ثلاثة : رجل رجل ، ورجل نصف رجل ، ورجل لارجل ،

فأما الرجل الرجل فهو من كان ذا عقل واستشار ذوى العقول ، وأما نصف الرجل فهو من كان ذا عقل واستبد بعقله ، وأما اللارجل فهو من ضعف عقله ولم يستشر ذوى العقول « ففى مجمل هذه الكلمة وتفصيلها كثير من الأدب القائم على روعة البيان ، وتكاد تتضاءل الحقيقة اللغوية فيه إلى جنب المجاز .

فليس الإمام بخارج على اللغة إذ يحدد معنى العالم بأنه الرجل الكامل فى فكره وقوله وعمله ، أى أنه يعلم ويعمل ثم يحسن تطبيق العلم على العمل ، لأنه أخذ العمل فى مفهوم العلم ثم جعل الإحكام والإتقان فى مفهوم العمل ، فجرد العلم فى تحديده عن التصور المطلق وجعله مركباً من ثلاثة : التصور والصورة ثم التصوير ، ولا يخفى على القارئ ما فى هذه الثلاثة من صلات تربط بعضها ببعض الآخر ، وهذا داخل فى صميم اللغة من قسمها المجاز الذى هو تصرف بالوضع لا من الحقيقة التى هى فى اللغة وضع بغير تصرف .

فدلالة شجاع مثلاً على الرجل الجرى القوى كدلالة لفظ الباسل عليه ، ولكن الباسل بمعناه الحقيقى هو الكريه المنظر وإنما أطلق على الشجاع لأن منظره كريه لمن يبارزه ، فهو فى اللغة مجاز من قبيل إطلاق اللازم الذى هو الكريه هنا ، وإرادة الملزوم الذى هو الشجاع لأن من لوازم الشجاعة الكره القائم عليها بين المتنافسين فى فنون الحرب .

ومن هذا القبيل روعة البيان فى قوله تعالى : وإن من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحه « لأن التسبيح فى الحقيقة إنما يطلق على العاقل المتكلم ، كما نفهم ، وأما إطلاقه على الجهاد والنبات فهو من قبيل المجاز فى اللغة ، وتوضيح ذلك : أن الزهرة الجميلة ، إذ تروعك بلونها وعطرها ، تضطرك لأن تقول : تبارك الله ، والبدعة الخارقة فى الطبيعة إذ تروعك بشذوذها ، تضطرك لأن تقول : سبحان الله ، والآية الخفيفة فى أحداث الأرض والسماء إذ تروعك بقوتها ، تضطرك لأن تقول : أعوذ بالله ، فلست إذ ذاك أنت المسيح والمبارك والمستعين ، ولكن هذه الأشياء هى فاعلة ذلك فى نفسك ومعربة عنه بلسانك . فتخريج الآية الكريمة على هذا الوجه ليس بخارج عن قواعد اللغة ، وإنما

— ٣٢١ —

هو في صميمها لا من حيث وضعها العيني المعبر عنه بالحقيقة ، ولكن من حيث وضعها البياني المعبر عنه بالمجاز إذ أسنأه التسييح الذي هو معلول فيك ، إلى علته التي هي الجمال في الزهرة ، وإطلاق المعلول على علته فصل قائم بذاته في علم البيان الذي هو أصيل شائع في لغة العرب .

وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ ، وَجَنَّاتٌ مِنْ  
أَعْنَابٍ ، وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ ،  
تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ ، وَتُفَضَّلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ  
لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ

الله

لنفسك في صدر هذا البحث ، أرضنا الخاصة بنا نحن نبات الإنسان ،  
ألا وهو الرحم ، ولنفكر كيف نثبت فيه ؟؟ كيف نتكون ثم نتلون ؟؟ فالرحم  
قطعة واحدة من الأرض لا قطع متجاورة فيما نحس ، نبذر فيه زرعنا المعهود  
ثم يستقى بماء واحد فينشأ مختلف اللون والشكل والعقل .

فالتوائم التي تولد من رحم واحدة من اثنين إلى خمسة في الإنسان ، ومن  
خمسة إلى عشرة في الحيوان الأليف ، ثم من اثنين إلى مآت أو آلاف في بعض  
الحشرات والحشاش والهوام مما نترك كالجراد والنحل والنمل وما لا ندرک  
كالجسوس بالعقل من وراء العلم .

هذه التوائم التي يبنرها في الرحم شخص واحد من نوع واحد نشأ في  
صلب واحد ، ثم تغذيها ذات الرحم من ماء واحد وتنشأ بعد ذلك مختلفة اللون  
والشكل ، ثم نراها بعد ذلك مختلفة الذوق والفكر ، فكل من هذه التوائم يحمل  
في كيانه ألوان الأصول التي تحدر منها منذ الجلد الأول حتى الأب الأخير ،  
يحمل هذه الألوان في خلقه وخلقه ، حتى إذا غادر الأرض التي نبت فيها رأيناه  
يختلف عن أخيه بكلا لونه المادى والمعنوى فكيف يكون ذلك ؟؟

ان البذرة التي يلقيها الذكر في رحم الأنثى قد تحمل الملايين من جراثيم الحياة  
الخاصة به ، ولكن أقوى هذه الجراثيم على البقاء في هذه الرحم هو الذي يملك  
الحياة فيه ثم يتلاشى ما ضعف من هذه الملايين عن تنازع البقاء ويتحول إلى عالم

آخر ، أما سر هذه القوة التي أمكنت بعض الجراثيم من البقاء دون البعض الآخر فيدق على أفهامنا تحليله وتعليقه .

وهكذا نجد بعد احتضان الرحم هذه الجرثومة الفضة أو الجراثيم التوائم ، أنها تحمل خصائص الآباء والأجداد منذ الأزل القائمة فيه حتى نشأتها الأولى في الرحم ، ثم نرى أقوى هذه الخصائص التي نعب عنها بالألوان تارة وبالصفات أخرى ، نرى أقواها على البقاء هو الذي يستأثر بالحياة في الوليد الناشئ وهو يترعرع في الرحم قبل خروجه ، وتدق أفهامنا كذلك عن سر تلك القوة التي أمكنت بعض الصفات دون البعض الآخر على البقاء في الناشئ .

لهذا نرى بعض التوائم يختلف عن أخيه بعد نشأته في خلقه وخلقه أو في أكثر هذين العاملين على تكوينه ، بينما نجد هذين التوائمين أو هذه التوائم متحدة النوع في البذرة الأولى ومتحدة الأرض في المنبت ثم هي متحدة الغذاء بالماء الذي يسقيها في ظلام الرحم ، فما هو السر في ذلك ؟

وهكذا نصل من بحث الحياة الخاصة بنا إلى بحث الحياة في عالم النبات الذي يشير إليه المكون الأول في قوله تبارك وتعالى : ونفضل بعضه على بعض في الأكل ، وفي الآية عظة جديدة بتسفيه الإنسان إذا مر بها ، وهو يعقل ، ثم لم يتأثر بروعتها وهي تشير إلى عظمة الخالق في تكوين هذا العالم وتكوينه ، وأعنى به عالم النبات المعجز بين يدي ما يسود الحياة من عظمات وعبر لا حصر لها ولا حد ، وأعظم ما تشتمل عليه الآية من معجز هو ضخامة المعنى وسمو البلاغة في الإفصاح عنه بآيين ما يؤديه القول ، وأوضح ما يشير إليه .

انك لتحمل بيدك الواحدة قبضة من خليط هذه البذور ، نجماً وشجراً ، ثم تنثرها في بقعة من الأرض ويتعهدا الله أو تتعهدا أنت بالماء الذي هو مصدر الحياة ، فإذا بك تشرف منها بعد حين ، على خليط من الأشكال والألوان ، ثم تراها بعد حين آخر تثمر خليطاً من الأشكال والألوان ، وتجن منها خليطاً من الأطعمة والأذواق .

قطعة من الأرض لا قطع تغرس فيها التين واللوز والمشمش مثلاً ، وتررع فيها الشقيق والبنفسج والرنجس ، فيخرج ذلك الشجر وهذا النجم مختلف الشكل

واللون والطعم ، فمن أين جاء هذا الخلاف بين ذلك الطلع في شكله ولونه وطعمه والتراب الذى ينبت فيه واحد ، والماء الذى يسقيه واحد ثم نرى أن الشمس التى تشرق عليه واحدة ، والأفق الذى يحرق به واحد ؟؟ كيف احمر هذا الشقيق ، واسمر ذلك البنفسج ، وابيض هذا النرجس ، ثم كيف استدار ذلك الثين واستطال ذلك الموز وتدلّى هذا المشمش ، وكيف كان بعضه حلواً والبعض مراً وبعضه الآخر دسماً ، وهكذا نستطيع أن نفرق بين الزهر الأحمر أو الأصفر أو الأبيض أو الأزرق بالشدة والضعف فنه الأحمر الناصع والأصفر الفاقع والأبيض الساطع ، ومنه الفاتح ومنه المزيج على أنواع في المزج بين لون ولون وشكل وشكل .

فهل السر في هذا التلوين وذلك التكوين من التراب أم من الشمس أم من الماء ؟؟ وإذا كانت الشمس تسبغ ألوانها السبعة أو توزعها على النبات فماذا يفعل التراب وماذا يصنع الماء ؟؟ وأى هذه العناصر يبدع الشكل وينوعه ويعلو بالشجر ويهبط بالنجم ، ثم ينوع الطعم ويؤلف بين الأذواق والأبصار في تدقيق الطعم وتمييزه ، وفي تبيين اللون وتحديد به ؟؟ تبارك المبدع الأول الذى أخرج من التراب والماء في النبات والحيوان والجماد ، شكلاً ولوئاً يتقوم به البصر وطعماً يتقوم به الذوق ، وربحاً يتقوم به الشم ، ثم أبدع في كل ذلك تداخلا وتفاوتاً وتناسقاً يتقوم به العقل .

ان اللون إذا توحد زاغ البصر ، والطعم اذا توحد فسد الذوق ، والريح إذا توحد بطل الشم ، وكان من وراء ذلك الاتحاد ركود الفكر وجمود العقل ، وهكذا نجد أن في اختلاف الأصوات صقلاً للسمع وتقويماً له ولو توحد الصوت لساد الصمم ، فكما يصقل اختلاف اللون والشكل عنصر البصر كذلك نجد أن اختلاف الطعم والريح يصقل الذوق والشم ، ثم نجد بعد ذلك كله تقويماً للعقل وصقلاً للفكر في تمازج هذه العناصر وتمييزها واكتناه ما صدرت عنه وآلت إليه فسيحان الله الذى يقف عند الخوض في أسرار خلقه كل فكر ، ويعجز عن تبيين واكتناه تلك الأسرار كل عقل مخلوق .

إِذَا أَحْرَزْتَ التَّقْوَى قُوَّتَهَا اطمأنت = قيل : وَمَا  
قُوَّتَهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : أَنْ تَعْرِفَ اللَّهَ

محضر

كنت أيام دراستي للفقہ فی النجف الأشرف ، أغشى مسجد الإمام علی  
عليه السلام مساء كل يوم للصلاة وكنت أرى أحياناً أحد المصلين إلى جنبي  
معروفاً بصلاحه وتقواه ، كان يقف للدخول في الصلاة فيرفع يديه لتكبير الاحرام  
فأسمعه يقول : الله .. ال .. ال .. الله .. الله أك .. الله أك .. الله أك .. ثم يلتفت  
يميناً وشمالاً قبل أن يتم ، وهو يقول زيد عمرو .. زيد عمرو .. ويجلس لحظات  
ثم يقف لينشئ صلاته من جديد ويمضي في قوله مكبراً : الله .. الله .. الله  
أك .. أك .. الله أكبر .. الله أكبر .. الله أكبر .. برررر ... ثم يعود فيفسد هذه التكبيرة  
متلفتاً وهو يقول : زيد عمرو .. زيد عمرو ..

ثم يعود بعد هذا كله إلى الجلوس وقد كظله العرق وهو مجهود ، ولعله أحياناً  
يبكي ثم يخاطب نفسه قائلاً : يا ويلي من شقائي وسوء أعمالي ، واحياًني من  
رني ، كيف أقابله بأثامي ؟؟ وكيف أتوسم الخير بين يديه من وراء هذه الآثام ؟؟  
ثم يقف فيعود سيرته في استئناف الصلاة ، وينتهي به الأمر إلى ما كان من قبل  
حتى نخرج من صلاتنا ونتركه في وساوسه .

سألت عن شأن هذا الرجل فقيل لي أنه موسوس في الصلاة ، كثير الشك  
فيها ، قد يقطع الساعة أو الساعتين لانتهائه من تكبير الاحرام والدخول في  
الصلاة ، وقد يفعل ذلك مردداً ومكرراً في كل آية أو كلمة كما ترى ، وقد  
لا يقبل نصيحة أحد في أن يصلي كيفما اتفق له أن يصلي والله أكبر من أن يعاقبه  
على سهوه ونسيانه فلم يستجب للناصح ولعل هذا الناصح من المراجع في الفقہ  
والأصول .

وأعرف شخصاً آخر كان يجلس للوضوء عند الظهر ويستمر فيه ساعة ولعله  
يزيد على الساعة وهو يكفي الماء على فيه ورجليه ، وكلما أفرغ أبريقاً صاحبت به  
زوجه فرجاها أبريقاً آخر وهكذا حتى يأتي وقت العصر فيصلّي الفرضين معاً ،

وقد سألته مرة عن سبب هذا الاسترسال في غسل الفم والوجه والرجل ، فقال :  
النظافة من الإيمان ...

وأعرف رجلاً فقيهاً تقياً إمام جماعة يجلس للوضوء عند الظهر والمصلون بين يديه ينتظرون فراغه للشروع في الصلاة فيشرع في التحدث إليهم وهو في مجلس وضوئه والماء بين يديه فيقطع نصف ساعة أو ساعة ثم يتوجه إلى المحراب فيؤم الناس أكثر من ساعة للفرص الواحد ، إذ يقرأ في كل ركعة سورة كبيرة من أمهات السور في القرآن كسورة يس أو العنكبوت مرتلاً آياتها ، وقد يعيد بعض الآيات لعدة قرات ، وأراه بعد الصلاة مزهواً بما فعل ، وكل من هؤلاء المصلين الثلاثة يعتم بعمامة خضراء وهي شعار من ينتمى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكل منهم فقيه .

وأعرف رجلاً فقيهاً تقياً كان يسأل ابنه عند التسبيح في قوله : سبحان الله كلما سبح الله شيء ... يسأل ابنه ، وابن شاعر متحرر ، عن معنى « شيء » في الجملة السابقة فيجيبه : بأنها أحد الأشياء التي تسبح بحمد ربها ، فيقول له أبوه : اسمع وافهم أن « شيء » هذه اسم للملك في السماء له ثلاثون ألف رأس في كل رأس ثلاثون ألف فم ، وفي كل فم ثلاثون ألف لسان ولا عمل له إلا التسبيح ، أفهمت ؟؟

وهكذا لو أردنا أن نعدد أعمال كثير من المتقين بغير قوت يغذون به تقواهم لضاق مجال البحث بما نرمي إليه في عقب هذه الأمثال ، ففيمن يتقى الله حقاً ثم لا يفقه الله الذي يتقيه كثير من العبدة والعظة لمن يفقه الله حقاً ولا يتقيه ، أعرف أناساً غير قليل إذا خطبوا أو كتبوا في ذات الحق تعالى يصورونه للسامع والقارئ حتى يكاد يرى رايانه رأى العين ، ولكن هذا الخطيب أو الكاتب لا يتورع إذا خلا ونفسه من أن يستجيب لشيطانه ، إما لضعف إرادته عن أن يعصم نفسه أو لشدة طمعه في عفو ربه .

فالتقوى الصالحة هي ما كانت مقرونة بالعلم في ذات الله ، فالمتقى ، ليكون مطمئناً إلى تقواه وأنه على حق في التوجه بها إلى الله ، يجب أن يعرف



الله الذى من أجله يقوم ليله ويصوم نهاره فى عبادته ، والذى من أجله يكفى الناس شر يده ولسانه فى معاملاته ، فان لم يعرف ربه كانت تقواه قلقمة غير مطمئنة إلى ثبات ، وكان هو قلقاً بها غير مطمئن إلى حياة ، فليست حياة الإنسان قائمة على الطعام والشراب وغيرهما من وسائل العيش ، وإنما الحياة قبل هذا كله ، هى تفكير الإنسان فى وجوده ومصدره ومصيره ثم الإخلاص فى هذا التفكير لينتهى به إلى اكتناه ذاته المفضى إلى اكتناه ربه وذلك هو العنصر الأول فى تقويم تقواه المطمئنة ، مضافاً إلى العنصر الثانى الذى هو الإيمان ، فصحة الإيمان وصحة التفكير هما أساس الدين الذى هو قوت التقوى .

فالدين ليس مجرد إيمان ، وإنما هو علم وإيمان ، على أن يكون العلم مأخوذاً فى مفهومه العمل ، وأن يكون العمل مأخوذاً فى مفهومه موافقة العلم كما قال الإمام على : العالم هو من عمل بما علم ووافق عمله علمه ، فكيف جر على الدين من نكبات هؤلاء الذين حسبوا أن الدين تقوى بغير قوت ، فأنصرفوا إلى تعزيزه فى نفوسهم حتى تقوست ظهورهم من الركوع وخشنت جباههم من السجود ثم إذا بلوتهم فى أمر وجدتهم لا يعرفون من يتوجهون إليه فى ركوعهم وسجودهم ، وتملكهم الغرور بعد ذلك فلم يروا بأساً من أن يفرضوا نفوسهم على الأمة أئمة يعلمون ويوجهون حتى حال تزمهم وتعتهم دون المصلحين ممن عرفوا الله أن يدعوا إليه من وراء العلم .

ولقد حذر النبي فى كثير من موافقه بين أصحابه من أن يحسبوا الدين عبادة محضة دون أن يشفعها العابد بالعمل الصالح والعالم القائم على فقه الحياة إذ قال : المؤمن من كان بصيراً فى حياته ، وقوله : مجلس العالم أفضل من صلاة ألف ركعة ، وقوله من عرف نفسه فقد عرف ربه ، فان الباحث فى هذه الكلمات يصل إلى أن الدين قائم على العلم فوق ما يقوم على التقوى ، وفى هذه الكلمات إشارة إلى أن العلم المعنى بقوله صلى الله عليه وسلم ليس قاصراً على الفقه وإنما يتجاوزه إلى علم الاجتماع بالكلمة الأولى وإلى علم النفس بالكلمة الأخيرة ثم إلى مطلق العلم بالكلمة الوسطى .

ولقد جاء فى السير أن النبي قال لمن بالغ فى مجلسه بعبادة عابه يقوته الناس :

— ٣٢٨ —

ان الذى يقوته أشد عبادة منه ، ولم يعبر النبى عليه السلام عن الدين بأنه تقوى خالصة أو عبادة محضة ، وإنما عبر عنه بكلمات كثيرة تشعرنا بأن الدين هو الحياة العملية التى نحيها إذ قال : الدين المعاملة وقال ، المسلم من سلم الناس من لسانه ويده ، المسلم من أحب لأخيه المسلم ما يحبه لنفسه ، وقال : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » فالدين فى قول محمد وما أنزل عليه ، عمل مشفوع بتقوى الله ، وهذا العمل هو الحياة والحياة تأتى أن تعصمنا من الموت إلا بالعلم ، والعلم يأبى أن يضمن لنا الحياة إلا من وراء البحث عن الله .

## هَلْج

لَا تَكُنْ عِنْدَ النَّعْمَاءِ بَطْرًا ، وَلَا عِنْدَ الْبُؤْسَاءِ فَشِيلًا

يذكر لى السيد على محى الدين ، من مهاجريننا العرب إلى أمريكا أيام وجودى هناك ، يقول : لقد كنا أيام هجرتنا الأولى إلى هذه الديار ، مستضعفين لجهلنا واستطالة النصرارى العرب علينا وهم مواطنونا قبل الهجرة ، سبوا أيام الحرب العالمية الأولى ، إذ كنا نفتصر لتركيا بدافع الإسلام ، وكان هؤلاء ينتصرون لفرنسا بدافع المسيحية ، وكانوا يحملون علينا فى صحفهم حملات هوجاء مستخفين بنا وبيدنا ، وليس لنا إذ ذاك حول ولا طول نرد بهما كيدهم لفرط الجهل قينا وقلة المال بين أيدينا .

ويشاء الله أن يرسل إلينا شاباً سورياً من عمان يدعى محمد المحيسن رأيناه مثقفاً يتوقد غيرة على دينه وقوميته فأمددناه بالمال الذى يضمن حياته ، وأما سكنه ، ثم أنشأنا صندوقاً لتغذية الصحف التى تفتح أنهارها فى وجه دعايتنا ، ومشى المحيسن بقلمه الجبار ، ولما انتهت الحرب لم يبق حاجة إلى المداعية ، واستمر هذا الشاب فى عمله الأدبى يخدم الجالية بلسانه وقلمه ، والجالية تتعده باحسانها إليه وعطفها عليه .

وكان كلما وفد على نويزك تاجر من الداخل يبادره السيد المحيسن بعرض خدماته عليه ، وينشر اسمه فى الصحف ابتغاء العيش ، وكنا جميعاً فى عوننا لأنه المثقف الوحيد الذى نفاخر به غربنا ، وقد كان أدبه يدر عليه المال الوفير ، فيصل إنتاجه أحياناً إلى خمسمائة دولار فى الشهر بينما لا يفتقر المرء يومذاك إلى أكثر من خمسين دولاراً لتأمين حياته فى الشهر ، ثم يقول السيد على محى الدين : ولكنى كنت ألحظ عليه أحياناً مظاهر البؤس والشقاء من ثياب رثة ، وحذاء بال ، ووجه كالح متغضن ، بينما أراه فى بعض الأحيان على خير مظهر من جدوة الثوب والحذاء ونظارة الوجه ، ثم أسمع عنه حيناً آخر أنه يجلس فى فندق نويزك الذى يقتضى من المسافرين ما يعجز أحدهنا عنه أجراً ليلة واحدة

لطعامه ومنامه ، فكنت أعجب لسيرة هذا الرجل الغريب الأطوار .  
وينزل على وقتاً ما ، ضيوف أثرياء وإذا به يأتيني من أجلهم ، وهو رث  
الثياب كاسف الوجه ، فعرفتهم به وأغلقوا عليه ما طمأنني باستغناؤه وتحسين  
حاله شهراً ، وما كان أشد عجبى إذ دخل على بعد أيام قليلة على حالته الرثة ،  
فصدمته وقرعته ثم قلت له : مالك ؟؟ ألم أساعدك بالأمس من ضيوفى بمائتى  
دولار ، وهذه تضمن لك حسن الحال أشهراً ، فما بالك تعود إلى اليوم على هذا  
الشكل المزرى ؟؟ »

فضحك وقال : اسمع يا على ، أنا لست ممن يدخرون المال ، ولا ممن  
يحسبون له حساباً ، ولكنى أحب أن أعيش كل شهر أو كل عام ، يوماً واحداً  
فى شخص ملك أو أمير ، فأنا كما ترانى شقياً بائساً ما كانت يدي صفرأ من المال ،  
حتى إذا أحرزته غيرت حالى بكل ما أنا عليه من حياة وغادرت مبيتى الحقير  
إلى فندق نويرك وأكثريت أجمل غرفة ، وملأت مخدعها بالخمور وجمعت  
حولى الفتيات والغلمان ، ولبت معهم ما استطعت أن ألث ، تاركاً كل ما يفصله  
الناصح الحكيم مثلك ، وراء ظهري ، فأنا إذ ذاك أمير أو وزير فقل فى ماشئت ،  
حتى يشاء الله فراغ يدي غادرت الفندق إلى كوخى أتلفع بوئسى ثم أخرج على  
شكلى هذا أفتش عن مطية أركبها إلى الفندق مرة أخرى ، فالعمر قصير وجمع  
المال ثم الحرص عليه ليس من مقومات الحياة عندى ، أفهمت ؟؟ تلك هى  
فلسفتى فى الحياة ... »

هكذا أعادت كلمة الإمام فى صدر هذا البحث إلى ذاكرتى هذا الحديث  
الذى أفضى به إلى أبو أنور الصديق على محى الدين وأنا فى منزله بروكلن من  
الولايات المتحدة ، وأعرف رجلاً آخر حدثنى : أنه كان أيام دراسته الفقه  
فى النجف بجاور شيخاً إيرانياً يقطع الأسبوع أحسن ما يكون عيشاً فى طعامه  
وشرايه ولباسه ، يقات فتاة الخبز الجاف طوال أيام الأسبوع حتى إذا كان  
يوم الجمعة إذا به فى مظهر من يقتبل العيد فيما يلبس ، ثم إذا به ينزل السوق  
ويعود بحال قد أوقر ظهره باللحوم والخضر والفواكه والرز والسمن ولباب

الجوز واللوز وكل ما يقتضيه الطعام الطيب لغداء نفر من الأثرياء أو أسرة حافلة بالسعادة والعز .

فكنت أعجب له أشد العجب إذ بمأ القدر الراسية ، وهو بنفسه ، وكأنه يعدها لولمة ، حتى إذا نضج الطعام أكفأه في الجفان وجلس إليه بمفرده فمسحه عن آخره ، وفي يومه التالي عاد إلى تقشفه وبؤسه في طعامه ولباسه ، وقد تحدثت إلى زملائي عنه فلم يزيلوا في اكتناه نفسه على أنه مجنون « قلت : لله في خلقه شؤون ، فلو اعتدل هذا الرجل ووزع طعام نعمائه في يومه على شظف عيشه طوال أسبوعه لكان إنساناً وسطاً ، وهو الإنسان الكامل .

لقد سمعت أن أحد الأئمة قال : نحن قوم إن وسع الله علينا وسعنا ، وإن قتر قترنا « وذلك لا يعنى أنه إن وسع أكلنا حتى ننفلق ، وإن قتر سففنا التراب ، وإنما يعنى استعمال الحكمة في الحياة بين الرخاء والشقاء ، لا أنا إذا استغنينا كنزنا المال وإذا افتقرنا لفظنا الحياة ، وهكذا نجد العاقل الحكيم يوسع في العيش على أهله ويتفقد غيره من البؤساء بما أفاض الله عليه من الرزق ، ثم هو يقتصد فيما يعول إذا أملق لأن الإنسان لا بد له في حياته من غيظ وغيض ، والشاعر الحكيم يقول :

حياتك يومان بؤسى ونعمى ودهرك ما انفك حرباً وسليماً

هذا من ناحية المادة ، وأما أدب هذه الحكمة التي تجلت فيها بلاغة الامام فتعنى أن روح الإنسان كجسمه في احتمال نعم الحياة وبؤسها ، وفي اعتدال هذه الروح السامية وهي تمارس الحياة تحت بؤسها أو نعيمها .

أعرف بعض الناس كان إذ تخلطه الحوار العلمى بزملائه ويحدثهم الجدل ثم ينجلي عن صوابه وخطأهم ، كأن يدل معجباً برأيه فيقول : هذا هو رأى الذى لاخطئ ، ويشاء الله أن يقع حيناً آخر فيما وقع زملاؤه به من الخطل فى الرأى فيستكين ويلوى عنقه ثم يقول : العصمة لله ... « ولقد كان فى غنى عن تبجيحه أولاً واستكانته أخيراً فلا يبطر وهو يصيب ثم لا يفشل وهو مخطئ . وأعرف صديقاً لى كان يصلى صحيفة يومية ، وكان قد بلغ بها الشأو

قيمة وقدرًا في المجتمع، حتى كان رئيس وزراء البلد الذي تطالعه الصحيفة فيه صباح كل يوم، كان هذا الرئيس معنيًا بالصادق وصحيفته، وكنت أجلس إليه أحيانًا وهو يدل إمكانته وبلوغ صحيفته الأوج الذي تستحقه، فقلت له ناصحًا: أرجو أن تعتدل في تفكيرك وأنت تحرر صحيفتك التي هي مرآة نفسك وسجل قومك، فلقد بليت بالصحافة قبلك، وكنت في ريعان شباني مثلك وكان رأسي حافلا بالغرور، وقلبي خاليًا من الهموم لأن النعمة أبطرتني، فالتخذت من صحيفتي مقرعة لمن لم يستعجب لندائي، ويتعجب بسأئي، وكنت أنا نفسي صاحب النداء والساء لم أعظ بنصيحتي ولم أستعجب لندائي.

وهكذا قطعت سنين أبلر مالي، وأقتل وقتي، وأضيع شباني، وكانت النهاية المؤلمة أن فقدت شباني، وأضعت مالي ثم لم يسمع أحد لندائي، ولم يقبل أحد نصائحي، فوقفت صحيفتي، وكثر أعدائي، وقل أصحابي، ولم يتعظ أحد آخر الأمر بنصيحتي غيري، فالتخذ من هذا درسًا، وأشفق على نفسك وعلى مالك بالاعتدال، وادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة»

فنظر إلى نظرة شاكر يشوبها شيء ضئيل لا يكاد يلحظه في عينيه غيري، ذلك الشيء هو الاستخفاف برأى أن خلطت بينه وبينني في العمل، ثم قال: أتخسب أن صحيفتي تقف معها تقلبت الأحداث؟؟ لا يا صاحبي إنها لن تقف، وان عروقتها متصلة «بقرن الثور» فما الذي ينتزعها من هذا «القرن» ولكنني مع ذلك أشكر لك هذه النصيحة الغالية»

وبمر بنا على هذا الحديث عام أو بعض عام، وإذا بقرن الثور يتزعزع، وإذا بالصحيفة تطير، ثم إذا بصاحبي يمني بالتشريد على أيدي أناس هم أشد من العصبة التي شردتني أيام جنوني في الدعوة إلى الحق واعتصام أعدائي بالباطل، واستمر صاحبي في تشريده أعوامًا ثم عاد إلى صحافته بشكل آخر كما عدت أنا بعد تشردى إلى صحافتي بشكل آخر، ولكن الشككين كانوا متشابهين في الاعتدال والهدف الذي فات أوانه بقوات القوة في المال والشباب وسبخان من يعطى ويمنع ويعز ويذل، وبقينا أنا وهو مشردين نسأل الله العفو على أن نجونا من الزلازل القائمة على اهتزاز «قرن الثور»

ولم تثبت صحيفتي أخيراً كما لم تثبت صحيفته ، لأن النكسة أشد من المرض ، والثورة الأخيرة أقل حرارة ووثوباً من الأولى ، والجرح الأول قلما يندمل حتى تتغير معه الحياة ، والصحافة يجب أن تبنى أول الأمر على موهبة في النفس تتوفر لها إمكانيات تقوم على المال والصبر والعقل ، مضافاً ذلك كله إلى الثقافة والاقتصاد تلك هي أسس الصحافة الأولى .

فالذي أحرزته أنا وصاحبي هو المال والثقافة . والذي فقدناه هو الموهبة الفنية في الصحافة والصبر على احتمال الضيم ، والاقتصاد المهيمن على إدارة الصحيفة ، ثم العقل الذي تعوزه الحكمة في توجيه الإنسان ، لذلك نفذ المال ، وطغى الجزع فلم يند بعد ذلك العقل ولا الاقتصاد ، وكانت النكبة ، فوهبتني كانت الشعر وموهبة صاحبي الأدب ، لذلك عدنا بطبعنا إليهما وأراني مع ما اختصني الله به في أيامي هذه مطمئناً إلى عملي ، متوفراً على حياتي ، وأما صاحبي فلا أدري أين هو الآن ولا ماذا يصنع ..

هكذا يصدق قول الإمام عليه السلام فينا ، فلم نتفاد البطر والنعمى سابعة علينا ، ولم نستطع تفادى الفشل والبأساء قائمة فينا ، وإذا كنا نحن الموغلين في الحياة إيغال خير ماهر وقفنا خاشعين أمام هذه الحكمة ، فما هي حال من هم دوننا في الفكر والتجارب ؟ فليتعض من شاء أن يتعض فان في هذا البحث عظة صادقة ، ونصحاً قائماً على الحكمة والاخلاص .

لقد أردت بطيشي أن أصلح لبنان بمحاولتي إصلاح القائمين على الحكم في لبنان فأخفقت وعدت مكسور الأصابع ، وأراد صاحبي إصلاح العراق بمحاولته إصلاح القائمين على الحكم في العراق فأخفق وعاد مكسور الظهر ، ذلك لأن الشعب إذا فسد بفساد حكامه وأعرق الفساد فيه فلا يستطيع المصلح تقويمه بنفسه حتى يكون مؤيداً بالملائكة يقول له الله : اصدع بما تؤمر .. ، والله يعصمك من الناس »

الا أن يتضامن مع أفراد من نوعه على الدعوة إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويقطعوا على ذلك زمناً عصياً مرّاً ، يسنون فيه خططاً لمن بعدهم في سبيل إتمام رسالتهم فيكون مجموعهم في أزمنتهم المتعاقبة رسالة كاملة توجه الإنسانية إلى الحق .

على أنى لا أنكر أن ثورتى وثورة صاحبي كان لهما أثر قيم فى بعث النفوس من سباتها العميق إلى يقظة كشفت عن أعينهم غشاء كثيفاً كان لولا هذه الثورة مديد الأجل ، وأصبح من تأثر بهذا البعث قوى البصر حى الضمير بين يدي ما يقترفه لصموص الأمة من زبانية الحكم ، وأصبح كثير من الناس على حذر إن لم يعصمه من جور الحكام فقد يجنبه طغيان هذا الجور ...

ولقد هزت ثورة « العروبة » التى أنشأتها فى لبنان ، مشاعر أهل الجبل الذى أفتخر بانتمائى إليه وهو موطنى الحبيب « جبل عامل » فوجهت العلماء والزعماء بنقدها اللاذع المر إلى أن يتفادوا قسوتها وسلطان من يتأثر بها عليهم ، بأن خرج الأولون من جمودهم ، فأسس العلامة السيد محسن الأمين كليته فى الشام ، وأنشأ العلامة السيد عبد الحسين شرف الدين كليته فى صور .

وخرج الآخرون ، وهم الزعماء ، من جحودهم وغطرستهم ، فعمل الساسة منهم على إصلاح مجتمعهم بالماء والكهرباء ، وتحسين الصحة وتعميم المدارس الحكومية ، بينما لم يكن قبل إنشاء العروبة ، شئ من ذلك ، وقد يكون الزمن باعثاً على هذا كله بتطوره ووعى أهليه ، إلا أن العروبة وصرخاتها عجبت بانبعاثه ودعمت بناءه ، وثبتت أركانه ، فكانت هى الباعث الأول على إرسال البعثات إلى المهاجرين العاملين فى أفريقيا وأمريكا ليجي الأموال فى سبيل الثقافة ونشرها على ربوع الوطن الأول لهم ، ثم كانت العروبة وصاحبها آخر الأمر هما كبش الفداء على أيدي المركة من زعماء الجبل ، فكادوا لها وتربصوا بهما الدوائر .

هذه نفثة بعثها الذكرى الأئمة فى نفسى لذلك العهد المظلم الذى قطعته أيام شبانى وأنا أحمل لواء النهضة مع إخوانى من شباب « الإصلاح » فى بيروت ، ثم لم يكن كل ذلك إلا موجة من البعث سادها كثير من الإخلاص والتضحية مشوباً بشئ من الطيش والرعونة ، أسأل الله أن يكون فيما أفضت فيه وأنا مخلص ، حسنات يذهبن بسوء ما كان منى وأنا طائش ، على أنى أحمد الله ، إذ بطرت فى نعمائه ، أنى لم أقفل فى بأسائى ... وأعوذ بالله من أن أكون هلوفاً ، إذا مسنى الخير منوعاً ، وإذا مسنى الشر جزوعاً .



الله

... مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ  
فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ، وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا  
أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا

أحب أن أنقل للقارئ حول هذه الآية الكريمة ، نادرين سمعت إحداهما  
على لسان العلامة السيد على فحصى العاملى رحمه الله ، وكان فقيه بلدنا زمنًا ما ،  
فقد روى لنا فى بعض مجالسه نقلا عن بعض أئمة أهل البيت سلام الله عليهم ،  
لا أذكر اسمه ، قال :

كان يدخل على الإمام ... وهو فى أصحابه ، شاب مطاع فى زملائه  
ومرموق منهم ، فكان الإمام يقربه ويحترمه وقد يجلسه إلى جنبه على ما فيه من  
تحرر الشباب كحلق اللحية وإطلاق الشارب وغير ذلك من الهنات المعبر عنها  
باللحم ، فكانت تأخذ الغيرة بعض أصحاب الإمام على أن واساهم أو آثر عليهم  
جاهلا متحررا ، وقد أحس الإمام بذلك منهم ولكنه لم يعاتبهم عليه حتى يحين  
الوقت الذى يشعرون معه بخطأهم فى الغيرة منه .

وفى وقت ما ، دخل على الإمام وهو فى مجلسه مع هؤلاء ، فقرب بادی  
العوز ، فحرض الإمام أصحابه على إغوائه ، عملا بالكلمة المأثورة : إذا أعطيتم  
فأغنوا » وتبارى الجلساء فى العطف على المسكين ولكن هذا العطف لم يكشف  
عن أكثر من حفنة دراهم معدودات ، فوضعها الإمام بين يديه ثم كتب رقعا  
لذلك الشاب الذى آثره عليهم فى مجلسه يوما ما ، وقال للفقير : ائتني بما  
يعطيك دون أن تتصرف بشئ منه ، فذهب الفقير وسلم الرق للشاب فقراه ثم  
قبله وعهد إلى صندوق فأخرج منه بكرة مملوءة بالدنانير عاد بها الرسول ووضعها  
بين يدي الإمام ، ففضها على مرأى من جلسائه ثم قال مشيرا إلى المال ومعرضا : هذا  
هو الدين ، وتلا عليهم قوله تعالى : ... ومن أحيا نفسا فكأنما أحيا الناس جميعا .  
وسمعت الثانية من أخى المرحوم الشيخ حسن الحوماني وقد كان من خطباء

الذكرى الحسينية في بلدتنا حاروف ، وفي مفهوم خطيب هذه الذكرى أن يستطرد إلى عبر التاريخ مما فيه عظة للسامع لتكون الذكرى حافلة بالعلوم والآداب ، وهذه النادرة التي سمعتها من أخى ، وكان بالغ التأثير في نفوس سامعيه وهو نخطب ، أقول : ان هذه النادرة هي مقتل سعيد بن جبير على يد الحجاج ابن يوسف .

وسعيد بن جبير هذا هو من أجلة الفقهاء الورعين في العهد الأموي ، وقد كان صاحب الرسالة الأولى في الجراء بين يدي ألحق أيام عبد الملك بن مروان وهو يتحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كان سعاة بني أمية يلزمون رواة الحديث عن النبي ليتقربوا إلى الولاية بمن يروى عنه في فضل أهل بيته على وأبنائه ، وكان سعيد بن جبير لا يدخر وسعاً في نشر فضائلهم فسعى به إلى الحجاج بن يوسف وكان والياً لعبد الملك على العراق ، والحجاج هذا كان ولا يزال التاريخ يضربه مثلاً للعالم في ظلمه وقسوته ، يقول أخى : إستدعى الحجاج سعيد بن جبير التابعي المحدث وقد كان في تقواه لله كالحجاج في جرأته عليه ، فلما حضر بين يديه قال : ما اسمك ؟؟ فأجابه : سعيد بن جبير ، فقال الحجاج : بل أنت شقبي بن كسر ، فأجابه : أن اى أخبر منك إذ سميتى ، قال الحجاج : ما تقول في على وأهل بيته أفى اللجنة هم أم في النار ؟؟ فقال سعيد : لو دخلتهما لعرفت من فيهما »

يقول سعيد ذلك تفادياً من القتل لأنه علم أن الحجاج قد أصر في نفسه قتل كل من وإلى أهل بيت الرسول في سبيل ولائه لآل مروان ، وإنما بعثه عبد الملك الأموي إلى العراق ليوطد له الملك وهو يعلم أن ملكه لا يستقيم في العراق إلا على يد الحجاج وأمثاله ممن يبيعون دينهم بالدنيا .

واستمر الحجاج يستدرج سعيداً ليوقعه في الفخ الذي نصبه له ، وهو حملة على الاعتراف بموالاتة أهل البيت وأن الخلافة في المسلمين لا تصلح إلا بهم ، فلم يظفر منه باعتراف لبيدنه أمام من شهد قتله ، فان الناس فطروا على الجبن والتلق بين أيدي الحكام ، إذ لو جهر سعيد بموالاته لأهل البيت وصدع الحجاج بالحق لأخذ جلساؤه سعيداً باللائمة وقالوا : ماله وللصريح المفضى به

إلى القتل؟؟ أفلا يأخذ بالتقية القائمة على كتاب الله؟؟ وهم يعلمون أن أعظم الجهاد : كلمة حق بين يدي حاكم جائر »  
وهكذا كان أولئك في مجلس معاوية يطعنون علياً وفي مجلس يزيد يطعنون حسيناً ليقرهم ذلك الطعن على النبي وآله زلفى إلى الرجس والإفك والسحت في سبيل هذه الدنيا التي لا يفرق العقل فيها بين من تواليه وتعاديه إلا بفضل من طعام أو لباس يؤلان إلى الزوال . وحتى يومنا هذا نرى خلفاء أولئك المتدينين لدوى الدنيا والمتهافتين على حطامها بنيلهم من الرسول وأهل بيته يجرأون بذلك على تحطئة على في حرب معاوية وتحطئة الحسين في الخروج على يزيد .

يقول الحجاج الفاسق لسعيد التقي البار : بلغنى أنك تكثر البكاء وتمتهن الكآبة والحزن في وعظك فلماذا؟؟ هل حرم الله الضحك على يديك؟؟ فوجم سعيد ولم يجب ، فقال له : اضحك ، ولتضحكن أو أعاقبك على أن لم تفعل ما أحله الله ، فقال سعيد : أضحك ابرؤ لغير ما سبب مضحك؟؟ فأمر الحجاج بعزف الموسيقى وضرب المزاهر بين يدي سعيد ليخلق له سبباً يضحك من أجله فبكى سعيد وقال : إنما الحياة الدنيا لهُو ولعب » فأمر الحجاج بقتله فلما أخذ للقتل ضحك فأبلغ الحجاج بذلك فأمر برده وسأله عن سبب ضحكك ، فقال : لقد عجبت لحلم الله عليك وجرأتك عليه فضحكك .

فثار الحجاج مغضباً من قوله ثم أمر بقتله بين يديه ، فلما أضجعه الجلال للقتل توجه إلى القبلة وقال : وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض ، فقال الحجاج أديره لغير القبلة فأدير فقال سعيد : أينما تولوا وجوهكم فثم وجه الله ، فقال الحجاج كبوه على وجهه ، فقال سعيد ووجهه إلى الأرض : منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ، ثم فصل الجلال رأسه فانتفضت الرأس قائمة وهي تقول : اللهم لا تسلطه على أحد يقاتله من بعدى ...

ويجمع أهل التاريخ على أن الحجاج لم يقتل أحداً بعد سعيد إذ مات بعد أربعين يوماً من قتله وهو يعاني مرضاً صريح فيه باضطراب نفسي على أثر قتله لسعيد ، وقد حكى بعض الأتقياء أنه رأى الحجاج في الحلم فسأله عن مصيره

بعد موته فقال : لقد قتلتني الله بكل من قتلته إلا سعيد بن جبير فاني لا أزال أقتل به كل يوم » والأحلام مهما يكن أمرها في الحكم على الحقائق فإنها إنما تتولد مما تشعر به النفوس في يقظتها ، فلو لا اقتناعها بإيمان سعيد وكفر الحجاج لما أدانت الحجاج في الأحلام ..

أذكر أن مات من المستمعين في حفلة الذكرى إلى الخطيب وهو يقص عليهم حادثة الحجاج هذه مع سعيد ، أقول : ان مات المستمعين ، وأنا فيهم ، خرجنا من مجلس الذكرى والدموع تحرق أجفاننا ، ثم لا أزال ، وأنا أقرب منهم جميعاً إلى الثقة بأن سعيداً ينعم بعد موته والحجاج يشقى ، لا أزال إلى يومى هذا أشعر بالكبت الذى يضغط نفسى ويضيق به صدرى من ذلك الحادث ، أفلا تصدق الآية بعد ذلك على أن من أمات نفساً فقد أمات الناس جميعاً ؟؟ صدق الله العظيم .

والعجيب أن كثيراً من حملة الأقلام وخطباء المنابر أسمعهم وأقرأهم يشيدون بأعمال الحجاج هذا في سلطان عبد الملك بن مروان ، وبأعمال زياد ابن أبيه وابنه عبيد الله في سلطان معاوية وابنه يزيد ، ثم يتمحل هؤلاء الكتاب والمتكلمون في تبرير أعمالهم ، بأن توطيد الملك دائماً يفتقر إلى الحزم والقوة دون التردد والضعف ، فكانت هذه الأعمال بطولية من أولئك الرجال ، وينسى هؤلاء الذين هم أعظم وصمة على الإنسانية ، ينسون أن الملك الموطد بغير حق يؤل إلى هدم العقل البشرى وتدمير الحياة الإنسانية فيما نسمع ونبصر .

## الدُّعَاءُ مِنَ الْعِبَادَةِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ

مَحْذَرٌ

« أصبحتُ اللهم معتصماً بذيئامك المنيع الذي لا يحاوَل ولا يطاوَل ، من شر كل غاشم وطارق ، من سائر ما خلقت ومن تخلقت ، من خلقت الصامت والناطق ... »

ما أسرع ما كنت أنهض صباح كل يوم أو فجره من فراشي وأنا أسمع صوت أُنَى يردد هذا الدعاء في عقب صلاته الوسطى بين ليله ونهاره ، وما أسرع ما استظهرت هذا الدعاء غيباً وأنا في حديثي وقبل أن أحسن الكتابة والقراءة ، وهو دعاء طويل ينتهي بقول أحد أئمة أهل البيت : حيزت الأعادي عني ببديع السموات والأرض ، « انا جعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيانهم فهم لا يبصرون » .

ولما قرأته على أُنَى تهلل وجهه فرحاً وقال : احتفظ بهذا الدعاء يا بني فإنه عصمة لك طوال نهارك ، فإذا أمسيت اقرأه وضع مكان « أصبحت » أمسيت ، فإنه سيكون عصمة لك طوال ليلتك .

وكنيت لأشك في قول أُنَى ، لذلك نزلت على حكمه في ترجيع هذا الدعاء صباح مساء ، وكنيت بعد قراءته أطمئن إلى لطف الله بي في نهاري وأنا أعمل ، وفي ليلي وأنا أستجم ، وكنيت أستمع إلى أُنَى وهو يقنت في صلاته ويقول : إلهي : ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك ، ولكني وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك » .

كنت أسمعهم يقول ذلك فأعجب وأتساءل مع نفسي : كيف لا تخاف من ناره ولا يطمع في جنته ؟؟ ثم أسأله سر ذلك فيقول : هذا من كلام إمامك على وهو يعلمنا يا بني بقوله هذا : أن أسمى أنواع العبادة لله ما كان قائماً على معرفة الله ، لا على الطمع في ثوابه أو الخوف من عقابه ... »

وكان هذا الأب الصالح ، الذي إن كنت أشعر بلطف الله بي وعطفه

على فبفضله ، أقول : كان هذا الأب الذى علمنى الحياة وهو يستلهمها من  
تهجدته فى ليله ، وتورعه فى نهاره ، دون أن يدرس فى جامعة أو على معلم ،  
ولما هى أيام درس فيها القراءة الأولى على شيخ كتاب فى قرية الضاوية البعيدة  
عن كل علم ، لقد علمنى هذا الشيخ أن أحيا مطمئناً إلى دينى ودنياى ، ثم  
علمنى كيف أفرض على الناس محبى واحترامى حيثما كنت ، بنقواه وزهده  
وتعقاه فى كل ما يعيه من قول ، ويقوم به من عمل .

يقول لى : أكثر من الدعاء يا بنى ، فان فيه القربى إلى ربك ، والبعد عن  
الشيطان ، واحفظ ما استطعت حفظه مما كان يدعو الله به نبيك والقائمون على  
رسالته من بعده ، فان أقوالهم خرجت من أفواه لم يدنسها الإلفك فيما تعلن وقلوب  
لم يتسرب إليها الشك فيما تسر ، ألا وإن فى دعاء « كميل » لإمامك على ، وفى  
صحيفة حفيده السجاد ، ما يغنيك عن أن تقول من عندك ، فانك غير بالغ  
ما بلغوه فى ذات الله »

وكنتم أعمد ، وأنا لا أزال فى الكتاب ، إلى دعاء الإمام على وهو الذى  
أملاه على صاحبه كميل بن زياد ليقراً عليه ليلة كل جمعة من كل أسبوع  
وهو ساجد ، فلا ينتهى من سجوده حتى ينتهى كميل من قراءة الدعاء ، وحتى  
يبتل مسجده من دموعه ، أقول : كنت أعمد إلى قراءة هذا الدعاء الطويل فأقرأ  
فيه قوله : اللهم اغفر لى الذنوب التى تهتك العصم ، اللهم اغفر لى الذنوب التى  
تنزل النقم « فأسأل أبى : أليس الإمام على معصوماً يا أبى ؟ فيقول لى : أجل  
انه من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، فأسأله :  
وكيف يدعو الله أن يغفر له الذنوب ... وأى ذنوب للإمام مع افتراض عصمته ؟  
فيجيبني بقوله :

« ان الأنبياء والأولياء يعلموننا بألسنتهم كيف نقول : ؟؟ فليس قول الإمام :  
اللهم اغفر لى ذنبي ، برهاناً على أنه مذنب وإنما قوله هذا تشريع لنا نحن  
المذنبين ، وصورة من القول نتقرب إلى الله بها ، وسبيل نسلكها إليه ، أو لعل  
الإمام يشعر بتضاؤل حسناته بين يدي ما يدركه من عظمة خالقه فى نفسه ،  
حتى يرى تلك الحسنات حقيرة جداً أمام تلك العظمة فيعتبرها سيئات لقصورها

عن إيفاء تلك العظمة حقها من التقدير والتقدير «  
لا أزال إلى ساعتي هذه أفكر في قول أبي وتخرج الدعاء على هذا الوجه  
الأكمل ، اللائق بالنبي ووصيه ، فلا أجد في نفسي التي رضى عنها عشرات السنين  
في درس الحياة نظرياً وعملياً ، بينما أجد أبى في مستوى من العلم لا يتجاوز الدراسة  
الأولى ، أقول : لا أجد في نفسي تأويلاً أو تعليلاً لدعاء الإمام أسمى من ذلك  
التعليل التام عن فكر حاذق وعقل حصيف ..

كان أبى هذا مجلس بعد الصلاة صباح كل يوم ومساءه على فراش متواضع  
وتحت شجرة من الأزدرخت كثيفة الظل في الصيف ، في منظره تشرف من  
بيتنا على طريق القرية العام إلى الحقول ومصادر المياه ، وكنت أجلس إلى جنبه  
إذ كنت أصغر اخوتي الذين تفرقوا في البلدة بعد استقلالهم في الحياة ، وبقيت  
وحيداً مع أبوى في منزل قروى هزيل .

كنا نجلس ، والطريق أمام بيتنا مكتظ بالمارة يغادرون القرية بأبقارهم  
وآلات حصادهم ، والنساء تحمل الجرار لتستقي بها . والرعاة الأحداث  
يتغنون خلف المواشى منذ طلوع الفجر ، وكان أبى كأنما يجلس لاستقبال هؤلاء  
جميعاً فلم يمرر بنا شيخ أو كهل أو شاب إلا وأسبغ التحية على أبى وتبرك بتقبيل  
يديه ماتمساً دعاءه ، فلا تسمع إلا باسم الشيخ أبى الحسن يردد في أفواههم .  
وهكذا كان أبى مجلس مساءه على هذه المصطبة ويفد عليه جل أهل القرية  
وفي طليعتهم الأدباء والشعراء ليقضوا معه سمر الصيف حافلاً بأذكار الليل  
وأوراده ليالى الجمع والأشهر الحرم ، وليالى الصيام وعشر المحرم ، فاذا انفض  
العامه منهم عمر المجلس بالخاصة من إخوتي وزملائهم الأدباء يستمرون في  
مساجلة الشعر ومطارحة الأدب حتى ساعة متأخرة من الليل .

هكذا كان أبى من وراء تقواه محترماً في أهله وعشيرته وقومه ، لا يقطعون  
أمراً دون مشورته ، ولا يزمعون سفرأ أو يؤوبون منه إلا بادئين بوعاده وخاتمين  
بالسلام عليه ، حتى لم يخرج من دنياه إلا وقد ترك في نفس كل منهم حسرة على  
أن لا يتلفروا بأمن على تراثهم الديني بعده ، وحتى ترك بينهم من آثاره الدينية  
والعلمية مسجداً ونادياً ومدرسة يذكرونه فيها كلما اجتمعوا للعلم أو عبادة ،

فيسبق كل قول منهم النداء بالرحمة على روحه واستغفار الله له ، فهل هنالك ثروة للإنسان يتمتع بها في حياته ويدخرها لنفسه ولأهله من بعده ، اسمى أثراً وأجل قدراً من هذه الثروة؟؟

لقد مات إخوتي وهم مغمورون بعطف قومي عليهم من وراء ذلك الشيخ ، ولا أزال أنا مرموقاً فيهم وقريباً من قلوبهم ، وميثوقاً على ألسنتهم من وراء ذلك الشيخ ، بينما لا أجد في ذاتي ما تمت بي إليه في تقوى نزيهة ، وصلاح خالص من شوائب الحياة ، فهل يطمح الإنسان في رواحه وغدوه ، في مسائه وصباحه ، في حله وترحاله ، في حياته كلها ، هل يطمح إلى نعيم أبقي من هذا النعيم ، وخلود أبقي من هذا الخلود؟؟ تلك هي الإنسانية الكاملة من وراء الدين .

لقد قطع أبي شبابه يعمل في بناء الدور ليستغني عن الناس ، فلما أجاز شبابه إلى الكهولة ضعف عن البناء ، فانصرف إلى زخرفة البيوت بالمخادع والمحال ، ثم ضعف عن هذه فانصرف مع زميل له ، يدعى أمين أحمد ، إلى فتح كتاب لتعليم النشاء قراءة القرآن وتعليم الخط ومبادئ الحساب ، مضافاً ذلك كله إلى صنع الأحذية ليتوفرا على الكسب المغني عن الفقر ، ولما علتة الشيخوخة جلس للوعظ والإرشاد والإصلاح بين الناس ، فما اختلف اثنان إلا كان ثالثهما في الفصل بينهما ، فلم يفتقر في حياته قط ، ولم يكن من الغنى إلا حيث كان أصحاب رسول الله الذي كان من دنياهم مكان الماء الجاري من التراب والحصى يكسوهما نظرة الحياة وهو في سبيله إلى البحر أو إلى السماء ... فهل يطمع الجاد منا في دنياه ، ليله ونهاره ، بأكثر مما نال هؤلاء من وراء الدين؟؟

إني لأذكر أن بيتنا ذلك الهزيل كان لا يخلو يوماً من الألبان والأجبان والأسنان ، هدايا تتراكم على أبي ، أما اليوم ، وأنا في قصر شاهق ، والأموال تتدفق على ، ثم تطوف نخادمي القرية في سبيل كوب من اللبن بالغاً ثمنه ما بلغ ، فلا تظفر به ، ذلك لأن ثمنه على عهد أبي كان من الدين ، وأما ثمنه على عهدي فكان من الدنيا ، فهل بعد هذا كله نتساءل : عما ذا يفعل الدين ، وبماذا يفيد أهله؟؟ ان الدين هو الحياة ، يحب أهله للناس ، ويعصمهم من شرور الناس ويغنيهم عن الناس . أفليست هذه هي الحياة؟؟ ثم أليس الدعاء من العبادة



بمنزلة الرأس من البدن؟؟ لقد صدق رسول الله إذ قال : الدعاء مخ العبادة .  
 وإنما كان الدعاء من العبادة هذه المكانة لأن الدعاء هو الصلة الأولى بين  
 العبد وربه في العبادة ، فكل دعاء عبادة ولا عكس . إذ يكون غير الدعاء  
 أحياناً عبادة كحسب المعاملة بين الإنسان والإنسان فإنها صلة بين العبد وربه  
 ولكنها غير مباشرة لأنها صلة بين الإنسان والإنسان أولاً ثم هي صلة بينه وبين  
 ربه ثانياً . وفي الكتاب الكريم : قل ما يعبدكم ربى لولا دعاؤكم .

## عَلَى أَلَا وَإِنَّ الشَّجَرَةَ الْبَرِّيَّةَ أَصْلَبُ عُوداً ، وَأَذْكَى وَقُوداً ، وَأَبْطَأُ حُمُوداً

قَالَهَا الْإِمَامُ إِذْ شَعَرَ بِأَنْ قَوْمًا يَقُولُ قَائِلُهُمْ : إِذَا كَانَ طَعَامُ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ قَاصِرًا عَلَى الْقَدِّ وَلِبَاسُهُ قَاصِرًا عَلَى الطَّمْرِ ، فَقَدْ ضَعَفَ عَنْ قِتَالِ الْأَقْرَانِ وَمَنَازِلَةِ الشَّجْعَانِ «

وَهِيَ مِنْ كِتَابٍ بَعَثَ بِهِ إِلَى عَامِلِهِ عَلَى الْبَصْرَةِ وَقَدْ بَلَغَهُ تَلْبِيَةُ هَذَا الْعَامِلِ لَوْلَمَةِ أَقَامِهَا الْخَاصَةِ مِنْ قَوْمِهِ ، فَأَنْكَرَ عَلَيْهِ الْإِمَامُ هَذَا التَّهَافُتَ فَقَالَ : « مَا ظَنَنْتَ أَنْكَ تَجِيبُ إِلَى طَعَامِ قَوْمٍ عَائِلُهُمْ بِمَجْفُورٍ ، وَغَنِيهِمْ مَدْعُو »  
وَالْبَحْثُ هُنَا يَلُورُ حَوْلَ هَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ اللَّتَيْنِ تَكْتَسِفَانِ هَذِهِ الْمَقْدِمَةَ بِدَعَاءٍ وَخَتَامًا ، أَمَّا أَوَّلَا : فَقَدْ كُنِيَ بِالشَّجَرَةِ الْبَرِّيَّةِ عَنْ الْحَيَاةِ الْبَسِيطَةِ الَّتِي هِيَ قَاصِرَةٌ عَلَى هَوَاءٍ نَقْيٍ ، وَمَاءٍ طَاهِرٍ ، وَغَدَاءٍ نَزِيهِ ، فَالْهَوَاءُ النَّقْيُ هُوَ الْخَالِصُ مِنَ جَرَائِمِ الْأَفْقِ الَّذِي تَتَخَلَّلُهُ ، كَالْجَوِّ الْمَوْبُوعِ بِالْجَرَائِمِ الْمُتَصَاعِدَةِ مِنْ حِظَائِرِ الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ ، وَالْمَاءُ الطَّاهِرُ هُوَ مَاءُ السَّمَاءِ الَّذِي يَغْدِي الْحَيَاةَ بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ الْإِنْسَانِ الْمُلَوَّنَةِ بِأَقْدَارِهِ وَأَوْضَارِهِ ، وَالْغَدَاءُ النَّزِيهِ هُوَ الْبَرِّىُّ مِنَ الْبَرِّفِ الْبَالِغِ ، لَشِدَّةِ وَطْئِهِ عَلَى الْمَعْدَةِ ، وَثِقَلِ تَرْكِيبِهِ عَلَى الدَّمِ الْمَاضِمِ ، فَكُلُّمَا كَانَ بَسِيطًا سَهْلَ هَضْمِهِ ، وَكُلُّمَا ثَقُلَ عَسَرَ نَضِيجِهِ ، فَقَوَامُ الْحَيَاةِ هُوَ عَمَلِيَّةُ الْهَضْمِ لَا كَثَافَةُ الْمَوَادِّ الْقَائِمَةِ عَلَيْهِ ، فَبَسَاطَةُ الْعَيْشِ مَعَ رَاحَةِ الْجِهَازِ الْهَضْمِيِّ يَفْضِي إِلَى نَقَاءِ الدَّمِ وَقُدْرَتِهِ عَلَى مَكَافَحَةِ الْجَرَائِمِ النَّافِذَةِ إِلَيْهِ مِنَ الْجَوِّ الْمَوْبُوعِ .

كُلُّ ذَلِكَ يَعْطِي الْحَيَاةَ فِي النَّبَاتِ وَالْحَيَوَانِ قُوَّةً لَا تَتَوَفَّرُ فِيهِمَا مَعَ الْهَوَاءِ الْفَاسِدِ ، وَالْمَاءِ الْمُلَوَّنِ ، وَالْغَدَاءِ الثَّقِيلِ ، فَيَنْشَأُ النَّابِتُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ صَلبَ الْعُودِ لَا يَكْسِرُ ، وَذَكَّى الْوُقُودِ بَطْئُ الْحُمُودِ ، وَلَا فَرْقَ فِي الْحَيِّ الْقَائِمِ عَلَى هَذِهِ الصِّفَاتِ بَيْنَ الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ لِأَنَّ الْعُنَاصِرَ الْمُقَوِّمَةَ لَهَا وَاحِدَةً ، مُؤَلَّفَةً مِنَ الْهَوَاءِ وَالْمَاءِ وَالْغَدَاءِ ، وَعَلَى صِلَاحِ هَذِهِ الْعُنَاصِرِ تَتَضَاعَفُ قُوَّةُ الْحَيِّ ، وَعَلَى فَسَادِهَا يَنْشَأُ الضَّعْفُ الْمَقْضِيُّ بِهِ إِلَى الْهَزَالِ فَالتَّلَاشِي آخِرُ الْأَمْرِ .

يرمى الإمام سلام الله عليه من وراء ذلك إلى نفسه الجبارة القائمة في قوتها على بساطة العيش ، كما تقرم قوى الشجر البرى على بساطة الغذاء من التراب النزيه الذى لم يلوته سهاد الحيوان ، ولا عبث الإنسان ، فبساطة الغذاء تفضى بالجهاز الهضمى إلى الراحة فيستغنى عن كثافة الدم لتوليد الحرارة الهاضمة فيه ، وبذلك يتسنى للدم أن يصرف قواه إلى تنمية العصب الذى تقوم عليه صلابة العود وقوة الإرادة في الحى ، بينما يفقد هذا العصب كثيراً من قواه بما يصرف الدم عنه إلى الجهاز الهضمى لإنضاج الغذاء الكثيف من أطائب الحياة .

فالأعصاب هى مركز الإرادة ، والإرادة هى مصدر القوة في الحى ، ولقد أبدع وأسهب علماء النفس في أن كل قوة خارقة في الإنسان مردها إلى قوة الإرادة ، كالعين والسحر والشجاعة والعبقريّة في أى تبريز ، وعلى هذه القوة في الإرادة البشرية نحمل شجاعة الإمام الجبارة وقوته المسيطرة على أعصاب من يناجزه حتى قال إذ قيل له : ان درعك قاصرة على الصلر فما تصنع بمصارعك إذا اغتالك من الخلف ولا درع لك ، فقال : ان تمكن عدوى من ظهري فلا أبقي الله عليه إن أبقي على .. »

وكان يقول ، إذا قيل له : بم تصرع كل مبارز لك ؟؟ يقول : أصرعه بأنه ينق كما أثق من أنى سأصرعه . فهو معين لى على نفسه ، وأنا ونفسي عليه » وهذا ناشئ في الإمام عن قوة إرادته وتصميمه وثقته بنفسه ، وقوة هذه الإرادة ناشئة عن قوة أعصابه التى هى مبعث الإرادة ، وقوة هذه الأعصاب صادرة عن قوة الدم القائم على تغذيتها وتنميتها دون أن يحول بينهما حائل من جهاز الهضم الذى يستعين بحرارته كلما أجهده التحم ليحرق سمومها بكثافة الدم المتدفق إليه من بقية الأعضاء .

وأما ثانياً : فلقد منّ الله علىّ بأن فتحت عيني على أدب الإمام وأنا صبي حدث ، إذ درست ابن أبي الحديد المعتزلى في شرحه لنهج البلاغة وتعليقه عليه ، وإعجابه به ، فكان ذلك باعثاً لشعورى العميق بعظمة هذا الأدب ، وسحر بيانه ، وكان من بلاء الله لى قوة هذا الإحساس الذى منيت به منذ حدثتى في النعمة على ما يستفز الإمام في خلقه الرفيع ودينه التويم . من جشع الإنسان

وبغية على الحق . وطغيانه بين يدي نفسه الأماراة بالسوء .  
فقد تملخص ثورة الإمام في كلامه وخطبه ورسائله ، بنقمة على هذا النوع من بني الإنسان : جاهل متنسك ، أو عالم مهتلك ، أو حاكم جشع في سلطان جائر . ولقد تأثرت بأدب الإمام هذا قبل أن أفقه الحياة ، ويشاء الله أن أنشأ في فقهها متأثراً خطاه ، فاذا بكل ما يصدر عني من أدب أو فن بلساني أو قلمي ، متسا بهذا الطابع المشيع بروح النقد اللاذع والسخط البالغ على كل وضع جائر في الحكم ، وكل فقه قائم على التذجيل والتضليل .  
ومن قرأ شعري كله ونثرى جلّه ، يدرك مبلغ هذا التأثير ، ثم من وقف على المجلدات الأربعة من مجلتي « العروبة » يعلم إلى أي مدى خضت في هذا التأثير بين يدي نقمتي على المجتمع العربي العام ، والخاص بي في وطني الأول « جبل عامل » فهو خلاصة ما شحنت به الطبيعة والوراثة والدراسة صدرى من آلام وآمال في الحياة .

وعوداً على بدء أقول : كم يلمس القارئ لقول الإمام وهو يؤنب عامله بقوله : ما ظننت أنك تجيب إلى طعام قوم عائلهم مجفو وغنهم مدعو » أقول : كم يلمس القارئ في هذه الجملة من حقد على العادات الخسيسة التي طبع الإنسان الفاشل في حياته عليها ؟؟ فاسمع ما يتحدث إلى به صديقي حسني تلو أيام وجودي في دمشق وأنا ضيف عليه ليلة ما ، يقول :

« كنت أزور مصر بدعوة من الأمير « يوسف كمال » أحد نبلاء الأسرة المالكة على ضفاف النيل ، وهو من الإقطاعيين الذين يفوت الحصر ما يملكونه من مال وأطيان ، وكان ينفق هذا النبيل على مائدته من ماء « الفيجة » المستورد من فرنسا ، ثمانين جنهماً في الشهر ، إذ لا يعجبه أن يشرب أو يسقى ضيوفه من ماء النيل المبارك ، وكان سباه كل يوم بمد لبضعة عشر نفرأ على شاكلته ، ولكنك إذ تراه تحسبه قد امتد لمآت من الآكلين ، وتكاد عينك تحار في التنقل على المائدة بين الخراف والطيور وغيرها من أطائب الطعام والشراب »

« وليس الغريب فما أنقله لك هو هذا ، ولكن الغريب هو أن المائدة بعد فراغ الآكلين تباح للكلاب التي يقتنيها « البرنس » من أجل الصيد ، ثم بعد

ذلك يُرفع الطعام ويُكفأ على عروق الشجر في الحديقة ليستحيل سعاداً لها ،  
بينما كنت أرى عشرات الخدم والحشم ينقلون إلى الطعام بأعينهم ولا تناله  
أيديهم ، وكنت أعلم أنهم لا يحملون بتدوق مثله لأن أجر العامل المصرى في  
الشهر لا يتجاوز بضع جنيهات قد تقصر على تبليغه الخبز والماء »

« ولقد كان ذلك يؤذيني ويدعوني إلى الفصول بسؤال الأمر عن السبب الذى  
من أجله يطعم الكلاب ويحرم هذه النفوس الخاضعة له والمؤمنة بالله ؟؟ فكان  
جوابه لى : أنهم قد اعتادوا على أكل القول فاذا أبحنا لهم هذه الأطائب أفسدنا  
عليهم حياتهم ، أفلا يكفي أنهم يعيشون ، وماذا يريدون وراء ذلك ، فان  
أمامهم الجنة فما تشتهى أنفسهم وتلذه عيونهم ، وإذا اعتادوا فى دنياهم على  
ما يؤملونه فى آخرهم فما الذى يقف بهم عند الطاعة والقناعة ، وقد نشقى  
معهم آخر الأمر .. »

ويقول لى أحد أصدقائى فى العراق ونحن محققون بخوان بعض الإقطاعيين  
وهو يحمل الخرفان على مدى ما ترى العين من قريب ، وقد تداعى أهل البلدة  
خارج المضيف ينتظرون فراغنا من المائدة ليتكأكوا حولها ، فيدفعنى ذلك إلى  
شكر الله على أن كنت السبب فى إغاثة هؤلاء البؤساء ، فيقول لى ذلك الصديق :  
انهم لا يطعمون بغير فنجال من قهوة البن ، قلت والطعام ؟؟ قال : انه يكفأ  
فى ضاحية البلدة حتى يربو كالتلال ويكون إعلاناً على مكارم الشيخ ، ولا  
يجروء على النيل منه أحد ثم لا تجد أهل بيت المضيف يتبلغون به بعد فراغ الضيوف ،  
لأن فى ذلك سبة عليهم ويكتفون بأكل الخبز فقط ، على أن هذه العادة السيئة  
بدأت تتقلص بفضل الوعي الجديد، وإن كانت لا تزال مرعية فى بعض القبائل  
من عشائر الجنوب »

أنا اليوم ، وأنا أبحل هذه السطور بين يدى هذا الفجر من يوم الجمعة  
الواقع فيه ٣ من شهر رجب لسنة ١٣٧٦ الموافق ٤ يناير كانون الثانى لسنة  
١٩٥٧ ، أقول : أنا اليوم أقطن مصر الجديدة وهى إحدى ضواحي القاهرة  
وأفكر فى صدق الإمام بقوله ، وهو يعنى الطبقة الثرية من الناس أينما كانوا .  
يقول : ان عائلهم محضو ، وأن غنيهم مدعو » .

أفكر وأمعن في التفكير بهذا الصنف من الناس كيف لم تدل دولتهم هذه منذ ثلاثة عشر قرناً ولعلها تكانت كذلك منذ خلق الإنسان وكان فيه مثل أولئك ، نوع بشرى يتعالى على نوع آخر ، فلا يشعر بشعوره ولا يحيا حياته ، ماذا فعل الإسلام ، وقد قام على الطبقة الدنيا من أهله ، ليكافح الطبقة العليا منهم عن مجده وخلوده ؟؟

هذا الصنف من الناس لا يزال إلى اليوم ، يستغل الصنف المنحدر عنه بالعيش السابغ ثم يتعالى عليه ولا يخالطه مخالطة الإنسان للإنسان ، وإنما يعامله معاملة السيد للعبد بل معاملة الإنسان للحيوان ، وقد أحس محمد بهذا فقال قولته قبل ألف عام : ان الناس كأسنان المشط لا فرق بين أحد وأحد إلا بالعمل الصالح « فإذا يقول محمد إذ يراهم اليوم ، وقد أصبح الفرق بينهم أوضح ما يكون بالعمل السيئ لا العمل الصالح ؟؟

طبقتان من الناس الذين ينتمون إلى محمد في دينه الذى لا طبقات فيه ، إحداهما ، وهى الفاجرة الفاسقة عن أمره ، تقول ويقول معها الناس : إنها الطبقة العليا ، والثانية ، وهى المؤمنة الوادعة ، تقول ويقول الناس معها : إنها الطبقة الدنيا ، تتعالى الأولى على الثانية فى كل ما تقول وتفعل ، حتى كأنهما فى عالمين يفصل أحدهما عن الآخر حاجز من حديد ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب .

لقد أصبحت من هذه الطبقة المساة بالعليا ، لا من حيث الغنى ولا التعالى ، ولكن من حيث التفكير والتقدير الذى يجاملونى فى خاواتهم وجاواتهم من أجله ، نخشون من وراء تفكيرى سلطان قلمى وصوله لسانى ، يدعونى كل شهر بل كل أسبوع ، وقد ادعى كل يوم إلى مادهم فى أفراحهم وأتراحهم ، فلا أجد حول تلك المآدب إلا زهو النفس بخيالاته ، يتبجح ويتحلق ويتفهب ثم يتمطى وقد يعفط ، ولا وسيلة له إلى ذلك إلا أن الله أعطاه فلم يشكر وحرّم غيره فلم يكفر .

كلنا فى هذه المآدب نعالج البطون من التخم ، فلا نفكر فى الحاجب على الباب ، والساكن فى الكوخ ، والمتلفع بالمراقيع ، وهم يكسحون فى سبيل أولئك .

ليظفروا بالخيز ولو من غير إدام ، طبقة الناس هذه منقطعة عن تلك حتى لتكاد تتميز عنها بالدقيق والجليل من الحياة ، فالغنى الذى يعيش بين الرياش فى حجرة تومه واستراحته ولطوه ولعبه ، ثم إذا خرج ركب سيارته وإذا دخل بيت غيره ، كأنما خرج من بيته إلى بيته ، وأوى من ماخوره إلى ماخوره .

أقول : هذا الذى يسرح ويمرح فى مقصورته ومقاصره من هم على مساحته من الطبقة « العليا » بين قصفهم ولهوهم ومجونهم وعجبهم بالحياة ، هؤلاء لا يشعرون بالطبقة الدنيا كيف تعيش وكيف تحيا ؟؟ إذ خلت منها مسارحهم ومسارحهم ، وخلت منهم أكواخها المظلمة وخصاصها الواهية ، فلا يرونهم وهم أكلداس مكيلة مهملة فى المزارع وحول المصانع ، أكلداس تجوع ليشبعوا ، وتعزى ليلبسوا ، وتظمأ ليرتوا ، وتشقى ليسعدوا ثم تحيا لموتوا .

طبقتان : هذه تلبس الحرير والدمقس ، وتلك تتوارى خلف أطهارها البالية ، هذه تركب الخيول المطهمة والسيارات الفخمة ، وتلك تحملها أرجل حفاة متأكلة ، هذه تأكل أطائب العيش ، وتلك تأكل التراب ، فكيف تشعر تلك بهذه ، وكيف لا تفكر هذه بمصيرها مع تلك ، فتعنتق أسوأ مبادئ الشيوعية التى تنتقم لها منها وترد حقها فى الحياة عليها ؟؟

ان الشيوعية اليوم أصبحت هدف الطبقات الدنيا والوسطى للانتقام من الطبقات العليا بما امتازت به هذه عن تلك من حياة بالغة فى الترف والقصف واللهو ، لم تفكر معها بجامع الإنسانية بينها وبين هؤلاء المساكين الذين يشاركونها بؤس الحياة ولا تشاركهم فى نعيمها ، ان الطبقة العليا منا تقيم على اكتشافنا قسورها ، وتنسج من أعصابنا أنثاها ورياشها ، ثم هى تنحت من قلوبنا أكواخها وأباريقها لتسرب وتأكل من دماننا ودعومتنا ، فكيف لا نفكر فى الشيوعية التى تهج فى شريعها نهج محمد الذى يخاطبه الشيوعى الشاعر بقوله :

حاشاك أن ترضى وأنت محمدٌ أن تستغل جهود ألف يدٍ ، يدُ

.. وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا  
السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ ،  
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ .

الدين

صراط الله مستقيم لا ريب فيه ، وأمره إيانا باتباعه واضح لا ريب فيه ،  
ولكن الريب واقع في تحديد هذه السبيل والنهج في اتباعها ، فالفرق في الإسلام  
كثيرة وإن تقلصت وضاق نطاقها في الزمن الأخير حتى أصبحت معدودة بعد  
أن كانت واسعة النطاق حتى جاوزت السبعين ، ثم بدأت تنكش بانكماش  
الحكم الإسلامي والسلطان في أهله ، لأن الدين يزداد تشعبه كلما اتسع سلطانه ،  
ويتقلص كلما ضاقت رقعته ، والسبب في ذلك سلخ السياسة عن الدين ، فان  
الدين إنما نزل على الإنسان ليسرسه ويوجهه وجهة الحق في كل ما يقول ويفعل ،  
فاذا قصر عن ذلك كان من عمل الإنسان لا من عمل ربه .

والأمة إذا رأت الدين هو كل شيء ، تضافرت على تحديده ، وأما إذا  
جبرته في المعابد وجالت بينه وبين الحياة ، لعبت به النفوس ، وعشت فيه  
الآهواء ، لأنه أصبح فضولاً في دنيا الإنسان ، إذ كانت السياسة التي هي  
قوام دنياه معزولة عن دينه ، وبطل أن يكون هذا الدين هو المدرسة التي تؤهل  
الإنسان لسياسة الإنسان ، ولهذا نرى تعاليم الدين أبعد ما تكون عن رجال  
السياسة ؛ ولعل الجهر والتظاهر أو التفاخر بالتحلل من الدين أصبح خلقاً في  
السياسة القائمين على توجيه العالم .

وانصراف السياسة عن الدين إلى الدنيا ، هم انصراف الفقهاء عن الدنيا  
إلى الدين ، هو العلة الأولى في العبث بالدين والدنيا معاً ، لأن العصمة لم تكتب  
لأحد من الناس ، والنفوس أماراة بالسوء ، ذلك ما يبعث السياسة المتحللين من  
دينهم ، على اغواء الفقهاء العابثين بالدين من وراء جمودهم أو جحودهم في  
سبيل حياتهم الدنيا ، من أجل ذلك نرى في تاريخ الإسلام أن معاوية بن أبي



سفيان قد استقدم مات من أصحاب رسول الله إليه وأغلق عليهم فاستجابوا له في جل ما يريد من التحكم بالناس ، حتى استوزر بعضهم ، وولى البعض الآخر على الحكم بينما أجمع حماة الدين يومذاك على انحراف معاوية وخروجه على الخليفة صاحب الحق في السلطان وهو على بن أبي طالب ، وهذا حصل أول صدع في الدين ، باختلاف أهله إلى فرقتين عثمانيين وعلويين .

وهكذا بدأت الشقة بين السياسة والدين تتسع وبدأ الخلاف بين حملة الكتاب والسنة يتسع أيضاً تبعاً للسياسة ، وأخذت الفرقة تتشعب في الإسلام باضطراب الساسة المارقين للفقهاء المناهقين أن يجمعوا في تضليل العامة وحملها على تأييد سلطان وخذلان سلطان آخر ، فكان من وراء ذلك تعزيز الفرقة في الدين وتعديل المذاهب والسبل المؤدية إلى الدينونة به .

أما الذين لم يتأثروا بالسلطان ، ولم يستجيبوا للساسة المارقين فأقل من قليل ، لأن الدنيا أقرب إلى الناس من الآخرة ، ولأن النفس المادية أقوى تأثيراً على الإنسان من العقل الروحاني ، لذلك كان تأثير هؤلاء المتحرجين ضعيفاً على الناس ، ومع شدة إيمانهم وتحرجهم في الدين لم يسلموا من الانحراف بتأثير الماضي المظلم عليهم ، فان عهد عثمان ومعاوية ، ثم العهود الأموية والعباسية التي سبقت هؤلاء الأئمة ، قد ضللت تاريخ الإسلام بما دسه الدعاة لهم في صميم الدين من فرية على الله واقتراء على رسوله .

فكان لابد للبعيد عنهم أن يزل بما حملة التاريخ له من أقوال ضلله بها رواة مأجورون بحطام الدنيا ، حتى رأينا بعض هؤلاء الأئمة يتسامح في الدين إلى حد الترحم على يزيد بن معاوية والرضى عن أبيه ، ويتشدد البعض الآخر في الدين إلى حد النقمة على علي لأنه قبل التحكيم في حرب معاوية ، وعلى ابنه الحسن لأنه خرج على سلطان يزيد ، وحتى رأينا الإمام البخاري في صحيحه المعتمد عند المسلمين يقبل الرواية عن الساسة المارقين من بني أمية ، ويرفضها عن أهل بيت رسول الله ، فأية فرقة في الإسلام أشد نكايه للحق من ذلك ؟؟ وهل كان هذا إلا بفصل السياسة عن الدين ؟؟

فلو أن سياسة الدين سادت المسلمين لسادوا العالم إلى نهاية العالم ، ولما

وجدنا فرقة باسم الإسلام تخرج على الإسلام ، والدين مصدر الوحدة لمعتنقيه في العقيدة واللغة والآداب والسياسة . أما وحدة العقيدة فرب واحد ، وأما وحدة اللغة فلسان واحد ، وأما وحدة الآداب فطراز حياة واحد ، وأما وحدة السياسة فقانون واحد ، وقوام الإنسانية هو هذه الأربعة لا تفتقر معها إلى عنصر آخر .

فاختلاف العقيدة كان سبباً في تعدد الأديان وهو اختلاف السبل في تصور الخالق الذي هو مصدر تفكير المخلوق ، واختلاف اللغة كان سبباً في تعدد القوميات ، وهو اختلاف السبل إلى تعايش سلمى واحد ، واختلاف الآداب كان سبباً في تعدد الأفكار ، وهو اختلاف السبل إلى تصور حياة واحدة ، ثم نرى أن اختلاف السياسات يقتضى إلى تعدد القوانين وهو اختلاف السبل إلى انتهاج حكم واحد ، وعلى ذلك كله بنى التنافس والتناحر ، وقامت العصبية ، واستفحلت الأنانيات فردية وجماعية ، وكانت الحياة فوضى ، وحال ذلك دون السير بالإنسانية إلى الأفق الكوني الرحب الذى خلطها بغيرها من عوالم الوجود . فتأخر الإنسانية وتقهقرها ، ثم استمرارها على هذا التقهقر حتى انحدرت إلى مستوى الحيوانات ، هذا التأخر وذلك التقهقر إنما نشأ عن تعدد السبل في التماس الحياة ، وتعدد هذه السبل ناشئ عن تعدد الأديان ، فالفكر الإنسانى يطمح دائماً إلى ترقية الحياة وتنميتها ، فاذا وقف دون طموحه تعدد السبل إلى التماس الحياة ، قطع شطراً من قواه في اكتناه تلك السبل وتخبر الصالح منها ، ولعل هذا الاكتناه هو كل أجل ذلك الفكر ، فما ينتهى من تعليل السبل واختيار الصالح منها حتى يكون قد فقد الصالح من قواه .

فالله يريد لنا الحياة ، ونحن نريد الموت ، لأن الحياة ليست زمناً محدوداً وإنما هى خلود ، فاذا أنزل علينا الشرائع من لدنه ، فانما يريد لنا الوحدة النوعية التى كانت سبب أزليته في وحدته الفردية ، وهذه الوحدة في النوع إنما تقوم على الرقى المستمر الناشئ عن وحدة الدين القائمة على وحدانية العقيدة واللغة والآداب والسياسة ، فاذا اختلفت عناصر هذه الوحدة ، حال ذلك دون استمرار النوع في الرقى ، فكان ذلك سبباً للتقهقر الإنسانى المفضى بنوع الإنسان إلى

افتقاره لحياة يشارك فيها العوالم الدنيا كالنبات والحيوان والجماد .  
ولمّا نرى الإنسان يصعد في بعض العصور إلى حيث يشرف على  
الخلود أو يتنسم ريحه ، ثم نراه في بعض عصوره ينحدر إلى حيث يشارك الحيوان  
في حياته ، ذلك لأنه أفنى قواه العقلية في الحيرة بين اختلاف السبل المنفضية به  
إلى الحياة ، فلو سادت الوحدة هذه السبل لما كانت الحيرة ، ولتوفرت قواه  
على استمراره في الرقي المنفضى به إلى الخلود النوعي فالخلود الفردي آخر الأمر ،  
لأن خلود النوع هو الطريق إلى خلود الفرد المنشود .

فما لم يرق النوع لا يرقى الفرد وإذا لم يرق الفرد لا يصل إلى الخلود المعبر عنه  
بالجنة حيناً وبالفرديوس الأعلى حيناً آخر ، ورقى النوع الذي هو أساس لرقى  
الفرد ، إنما يقوم على وحدة الدين في العالم ، فإن اختلاف الأفراد التي تشكل  
النوع في مصيرهم إلى الحق هو الحائل الأول دون بلوغهم ذلك الحق ، وكما أن  
تشعب الطرق إلى الهدف يستهلك حياة السالك إليه قبل بلوغه ، إذ المفروض  
في تخرير الطريق المستقيم إلى الغاية ، البحث والتفكير وقد يقطع السالك حياته  
في هذا التفكير وذلك البحث قبل أن يشخص إلى الغاية من بحثه وتفكيره .

فليتأمل المفكر إلى أى مدى تذهب جهود الإنسان في طلب الحياة من وراء  
اختلاف العقائد واللغات والآداب والسياسات ؟؟ المعبر عنها باختلاف الدين ،  
وكم يضحى الإنسان من وقته في عالم متعدد اللغات والقوميات والآداب والعقائد ،  
ولنسلك هذا الفرد العربي الذي يلتمس الحياة ، وكيف يصلها ؟؟ فقد يصرف  
الشطر الأكبر من حياته في دراسة لغة غير لغته ليتعلم أدباً غير أدبه أو فناً غير  
فنه أو قانوناً غير قانونه في سبيل تخرجه أدبياً أو فناً أو محامياً أو طبيباً ،  
وكم تحتاج كل أمة إلى إمكانيات تستطيع معها تثقيف أبنائها تنقيفاً كاملاً  
يضمن لها الحياة ؟؟ وكم يحتاج كل فرد من كل أمة إلى تضمحية ماله ووقته في  
سبيل هجرته إلى أمريكا أو أوروبا ابتغاء ذلك ؟؟ فلو كان الدين واحداً لكانت  
اللغة واحدة ولزالت العصبية فزالت القوميات بزوالها ، ولسادت الوحدة  
العالم آخر الأمر ، فكان من وراء ذلك كله رقى يضمن للإنسانية خلود النوع  
المفضى بأفرادها إلى حظيرة الخلود .

كم تبدل كل أمة من جهود في ترقية لغتها من وراء تعدد اللغات في العالم؟؟  
 وكم تبدل كل أمة من جهود في سبيل قوميتها من وراء العصبية القومية؟؟  
 ثم كم تبدل من جهود في المحافظة على هذه القومية؟؟ أفلا نسمع ونرى هذا  
 التناحر الذي يهدد العالم في كل لحظة بالدمار والفناء؟؟ أفلا نسمع ونرى وقف  
 الجهود العقلية في نوع الإنسان على تدمير الإنسان من وراء تعدد القوميات الناشئة  
 عن عصبية الإنسان لقومه أو لغته أو بلده؟؟ فلو كان العالم كله وحدة دين لكان  
 وحدة لغة وعقيدة وسياسة وآداب ، ولو فر على العقل البشري جهوداً كثيرة  
 يكرسها مع الوحدة للعمل على رقي الإنسان إلى عالم الخلود .  
 ويتمثل صدق هذا البحث في الأمم التي عملت بهذه الوحدة كالولايات  
 المتحدة وکالاتحاد السوفياتي ، فانهما حققتا في رقيتهما وحدة العقيدة ووحدة  
 السياسة ووحدة اللغة ووحدة القومية ، فكانتا بذلك سيدتي عالم الأرض اليوم ،  
 وقد أخفقت بريطانيا وفرنسا وأسبانيا قبلهما في تلمس أسباب هذه السيادة عن  
 طريق وحدة اللغة والسياسة إذ فاتها وحدة العقيدة والقومية ، فلم تواس بين  
 البريطانى أو الافرنسى الأصيل وبين غيره من رعاياها الطارئین ، وإنما جعلت  
 ممالكها اتحاداً لا وحدة ، وجعلت للأصيل من رعاياها ميزة على الطارئ تكاد  
 تمثل السادة والعبيد ، بينما نجد أمريكا حتى الآن تكافح هذه الفروق بين رعاياها ،  
 ونجد فرنسا وبريطانيا حتى اليوم تمنع في توثيق هذه الفروق ، فكانت عاقبة  
 هؤلاء الانحلال وعاقبة أولئك التماسك والصمود .  
 إن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله «  
 صدق الله العظيم .

محمّد

اتَّقُوا دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَلَيْسَ بِيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ

كنت أيام وجودي في العراق أواخر الحرب العالمية الثانية ، كنت أختلف إلى معاهد التدريس بين بغداد والمدن الثلاثة التي تضم رفات أهل بيت الرسول : النجف وكربلاء ، ثم الكاظمية ، أقول : كنت أختلف إلى معاهد العلم في هذه المدن لأضع نواة كتابي : « وحي الرافدين » عن حركة العلم في العراق قديمه وحديثه .

ولقد راعني في أحد هذه المعاهد من إحدى تلك المدن شيخ جليل وقفتي الخوض فيه على سمو في الشخصية لم أجدها في غيره من زملائه في تلك المدينة ، كنت مأخوذاً منه قبل كل شيء ، بسمو البيان وهو يقرر بحثه ، ثم بطلاقة الوجه وسحر الابتسامة ووداعة الروح وهو يتحدث إلى جلسيه ، وكنت طوال أيامي في هذه البلدة الحبيبة إلى نفسي برفات من تضم من أهل البيت ، لا يفوتني صباح أطلع منه جمال تلك الشخصية وجلالها في مسجد الإمام ، أو في منتدى هذا الرجل الذي يملك النفوس بشخصيته هذه .

ويا لتبينك العيين كم كانتا توثران في نفسي وهما تشعان على من نور الإيمان ، ودماثة الخلق ، ورقة الطبع مما جعلني أطمئن إلى أن مادة الكتاب الذي أنا في سبيل وضعه ، غنية بالحق من سيرة هذا الرجل ، ولقد كنت مطمئناً حقاً إلى ما نقلت عنه وقلت فيه ، وكان شخصه أحد الأعلام التي قام عليها الجزء الأول من كتاب وحي الرافدين .

وكان يأسرني في مجلسه أحد أنجاله وهو يسترسل في الحديث عما رأى في العالم الغربي من غرائب حيث كان يدرس للدكتوراه ، وكان هذا الشاب مميّناً في حديثه ، صريحاً في حكمه على الأحداث ، متحلياً من كل ما يقيده به العرف من مجاملة أو رياء ، وكان حسن النكتة خفيفاً على روح جلسيه ، حاذقاً فيما

يقص ويستطرف من فكاهة أو نادرة ، حافل القلب والوجه واللسان بكل ما يمت به إلى ذلك الشيخ الجليل من نسب .

وكننت طوال أعوامي الخمسة التي أزور فيها العراق لإخراج كتبي الثلاثة : وحى الرافدين ، وبين النهرين ، ومن يسمع ، كنت كثير الذكرى لهذا الأب وذلك الابن ، وأود لو أن بينهما روح القدس لتتم عناصر اللاهوت المهيمن على العالم ، وكنت أول ما أظأ شاطئ دجلة أجعل همى النزول في تلك البلدة التي أصبح فيها وأمسى جليس هذا الشيخ وإلى جنبه ذلك الشاب ، دونما سبب إلا أنى أحبيتهما لما فطرا عليه معاً من مزايا تتصل بنفسى ، جلال القدام في الشيخ وجمال الجدة في الشاب ، وقد كنت ولا أزال مفتوناً بهاتين الخلتين أطويهما في صدرى ما حييت .

ومر بي عام بعد إنجاز هذه الكتب فاذا بي أسمع ، ويا هول ما سمعت ، ان هذا الشيخ الذى أسر نفسى بحاله وجلاله ، يعانى سكرات الموت في لبنان ، وقريباً من بلدى فاهرع إلى حيث يتولى تمريضه صديق له من كبار الفقهاء الذين زاملهم أيام دراسته الأولى ، وأدخل عليه حجرته وهو مسجى في فراش احتضاره ، وقد سبقنى إليه من أعلمه بي ففتح عينيه ولكنه لم يكدر يرانى ، فاضطربت لمنظره الخفيف بسواد وجهه ، وتقلص شفثيه ، وانطفأ عينيه ، كأن لم يرعنى فله أمس بتلك الابتسامة ، ولم تأسرنى عيناه بذلك الإشراق ، وعبثاً حاولت أن أملك عبرتى ونشيجي بيننا كنت واثقاً أنه لم يشعر بي ، وأنه مشغول عنى بهول ما يقدم عليه ، ثم لم تمرر بي تلك الليلة حتى علمت بفراقه الحياة . وبعد عام أو أقل أو أكثر قليلاً سمعت بأن ذلك الشاب الطريف الغصن ، والعذب الحديث ، والذى كان يطارحنى إلى جنب أبيه الشيخ روعة الأدب ، وحصافة الرأى ، وسحر النكتة ، سمعت بأن داء أعين الأطباء قد نزل به ، فأفقدته وعيه ولبث أياماً لم يهجع فى لياليها طرفة عين وهو يصيح ويستغيث ولم يقو طبيب على تشخيص دائه ، كما لم يدرك طبيب قبله علة أبيه ، حتى لحق به ، فلم أكن للنبا الأخير بأقل ذعراً ورهبة منى للنبا الأول ، وبقيت سنن ثلاثاً على ذكرى أئمة لهذين الحادثن اللذين لم يسبقهما حدث ترك فى نفسى ما تركاه من أثر .

وتسور الأيام فاذا بي على ضفاف النيل في مصر مع ثلة من الأصدقاء العراقيين وفيهم الدكتور عبد الرزاق محي الدين ، ويكون حديثنا هذه المأساة إذ قلت له : ألا تنبئني عن سبب هذه الفاجعة التي أذعرتني زمناً ليس بالقصير ، كيف كانت ؟؟ وفيم حدثت ؟؟ فطوت شيخاً لم يحز كهولته ، وقصفت شاباً لم يحز عنفوانه ، ولما يزل في أيام عرسه ؟؟

أفهم أن لكل موت سبباً ، ولكني لم أفهم لموت هذين بهذا الشكل من سبب ، لا الطبيب أدرك العلة ، ولا المريض أفصح عنها ، ولا العائد خرج من عيادتهما وهو مطمئن إلى أن موتهما كان بقضاء وقدر ، فهز صديقي رأسه ثم قال : أتجب أن تسمع السبب في موت هذين ومعهما عقيلة الشيخ لماذا فاجأهما الموت في غير أجل ، وعلى غير انتظار ؟؟ فقلت : أي والله اني لأرجو أن أسمع ذلك منك . فقال :

لقد علق هذا الشاب أول صباه فتاة كانت تخدم أهله ، وكانت ، كما سمعت ، على قسط وافر من الجمال والفتنة ، وحاول الشاب أن يغويها فأبت عليه ، وأصر فاستعصت واعتصمت بعفافها فكان ذلك ادعى لأن يتهالك الشاب عليها ويتلذذ في حبها ، وصارحها أخيراً بأنه يجد في حبها ولا يضمم لها السوء ، فصارحته هي أيضاً بأنها ليست متعة ولكنها فتاة حرة تريد أن تكون زوجة فان شاء كانت له كذلك .

فتهيب الشاب وعدها بالزواج لأنه يعلم أن ذلك يغضب أهله فستوى أسرة الفتاة ينحدر عن مستوى أسرته ، وعبتاً حاول أن يتزوجها سراً ويترك إعلان الزواج لظروف المستقبل ، فلم تستجب له إلا أن تخطبها أبوه وأمه ، ويكون عرسهما عرس زوجين كريمين متكافئين ، ثم عبتاً حاول بعد ذلك أن يصبر عنها حتى أشرف على التلذذ في حبها فعمد إلى مصارحة أبيه وأمه ، وأعمل قواه الفكرية ، وأسلوبه المقتنع في استرضائهما فلم يفلح ، وأخيراً أعمل الوساطة من خارج الدار متدرباً بأصدقاء أبيه وأمه حتى نجح في أن يكون القران قاصراً على أسرته الادين دون إعلانه في المدينة ، وقنعت الفتاة بذلك وكان العرس ثم كان الزفاف ومر بالعروسين سنون أغدقت عليهما بنين وبنات نشأ معهم للأبوين أسرة حملت

الأب على الاستقلال عن أبويه فاستقل بزوجه وبنيه .  
 ويفيق أبو الأسرة الجديدة ، بعد أن جاز القمة من شبابه أو كاد ، على أن  
 زوجه لا تشبع نهمه الجنسي ، وأنه في حاجة ماسة إلى تجربة ثانية يتذوق بها فتاة  
 الخلد والقصر بعد أن ذاق فتاة الكوخ والفقر ، والمرأة إذا انكشفت عن عدة  
 بنين أقل عنها الجمال الذي تأسر به قلوب الرجال ، فأحست ذلك منه وعرفت  
 أن زهرتها قد أشرفت على الذبول ، وأنه لم يبق عندها ما تغويه به من لون ولا  
 عطر ، وأنها لم تغلج في استهوائه بما أثمرت منه ، صبية كحب الجمان يتأثلاً  
 بين يديه . فطوت كسحها وأغضت على مضض تسبغ حنانها على فلذ كبدها  
 وتعاشره بالحسنى دون أن تخرج صدره أو تثير حفيظته .

ورجع هو إلى أبويه يصوبهما فيما رأياه من قبل إذ حاولا جهدهما أن يقنعا  
 بالعدول عما فكر فيه من الزواج بمن لا يدينها منه شرف النسب ولا نبل المختار ،  
 فأقر بخطأه وعمل إلى استعانتهم على الزواج من فتاة نبيلة تنجب له أولاداً نبلاء ،  
 فنزلاً على حكمه واستعرضا بيوت الأسر الرفيعة حتى وقفوا على أسرة في لبنان  
 عريقة النبل ، كأسرتهم أو قريبة منها ، ويذهب الشيخ بنفسه ، على جلالته  
 قدره ، لإنجاز الخطبة مستجيباً للأم وللنصرة القائمة على العصبية الجاهلية .

يذهب هذا الشيخ بنفسه تاركاً جماعته الذين يأتمون به في الصلاة كل يوم ،  
 وتاركاً تلامذته الذين يدرسون عليه فقه آل محمد ، للسعى في أمر أقل ما يقال  
 فيه ، أنه تشريد أسرة مؤلفة من أولاد صبية لا يزالون كزهر الروض المطاول ،  
 ومن أم يصفها نساء البلدة بأنها خير أم عرفها جمالا وكمالا ، وتم الخطبة على أن  
 يكون القران مشروطاً بطلاق الزوجة الأولى وبجري الطلاق في ندوة الشيخ ،  
 وتؤمر الأم بأن تخرج من البيت دون أن ترى زوجها أو أن تصحب ولدها ،  
 أو أن تزود بشئ من المال مقابل مهرها الذي تنازلت عنه يوم زواجها حباً  
 بالزوج واسترضاء لأمه وأبيه ، فخرجت هائمة على وجهها لا تدرى أين تذهب ؟  
 ولكنها وهي تسمح دموعها ، وتفكر في مصيرها إلى حيث لا أب ولا أم ،  
 ولا قريب ولا عشير ، أنها شريفة وربيبة فقر وبؤس ، أوتمت على صغر ،  
 والتقطها أبوا زوجها لتخدم فتأكل ، فاطمأنت ونجبت آنذاك ثم أنجبت وكان



لها هذا المصير المحتوم ، ذهبت تفكر فهداها تفكرها إلى المسجد الذي يضم رفات الأئمة من أهل البيت ، لتشكو إلى ربها ظلامتها ، وما أسرع ما لبثت هذه العقيدة الراسخة في النفوس المطهنة المؤمنة الحية ، حتى إذا دخلت المشهد ، وقفت حيال رأس الإمام تستقبل الكعبة ودموعها تغشى عينها من أن ترى ، وقلبا يسبق لسانها بالدعاء ، والله قريب من داعيه ، وسامع شكوى المظلوم المؤمن به والمقبل عليه .

وتغادر المسجد فتلقى إحدى صواحبها خارجة فتبثها حزنها وترثي صديقتهما لها فتصحبها إلى منزلها ثم تبحث شأنها مع أسرتها على أن يسعوا بها إلى أهل الزوج في سبيل إغايتها ، وأنها تتنازل عن زوجها على أن تضم أولادها إليها وتكون خادماً لهم تحلب عليهم وتعيش معهم أبسط العيش ، فيرفض الأبوان ويعلمان تعاليهما على تربية الزوجة هذه لأولادهم إذ ليس لها ما يؤهلها لأن ينشأ في حجرها ولد منهم .

وتستعين بعد ذلك بصديقتها على اكتراء حجرة في بيت متواضع تعمل فيه بيدها ما أتقنته في صباها من حياكة القلانس والجوارب ، ثم انقطعت إلى البكاء ، وهي تعمل ، دائبة على بث حزنها وشكواها إلى الله في مشهد الإمام صباح مساء ، ويتحدث عنها نساء البلدة أنها قطعت ذلك العام وهي تنسج وتنسج لم ترقأ لها عبرة ، ولا جف لها جفن ، حتى انتهى العام بموت أم الزوج ، وقد كانت أقسى أهل البيت عليها ، ثم تبعه موت الأب كما رأيت ، وتبعها موت الابن الشاب بعد أن عقد وأعرس وأولد السنة الأولى ، فكانت هذه الفاجعة بعلم كل من عرف الزوج وأهله ، أنها نشأت عن ظلمهم لتلك الفتاة الشقية البائسة ، وأن الله قد شاء رد ظلامتها ، وعرف حتى من بقي من الأسرة سر هذه المأساة فأعاد هذه الأم إلى أولادها وأجرى عليهم من مال الزوج ما يضمن لهم الحياة »

وما إن أنهى صديقتي حديثه حتى شخصت ببصري إلى السماء قائلاً : اللهم لاتأخذنا بظلم ، وتول بنفسك دفع الظلامات عنا ، اللهم إنا نشهد مع رسولاك : أن ليس بينك وبين المظلومين حجاب ..

... إِنَّكُمْ لَنْ تَعْرِفُوا الرُّشْدَ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي  
تَرَكَهُ ، وَلَنْ تَأْخُذُوا بِمِثَاقِ الْكِتَابِ حَتَّى  
تَعْرِفُوا الَّذِي تَقْضِيهِ ، وَلَنْ تَمْسَكُوا بِهِ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي نَبَذَهُ .

عَلَى

كنا ، ونحن أغرار نستقبل الحياة بقلوب فجأة وعقول هوج ، كنا نتساءل  
إذ نمشي بظلم أو هضم على يد قاس جبار ، وإذ نصاب من بلاء في فقر أو سم  
في طعام ، وإذ نساء بضيق أو حرج من جليس ثقيل أو عدو لا بد من صداقته ،  
أقول : كنا إذ ذاك نتساءل؟؟ لماذا ألزم الله نفسه وأرهب عباده بخلق الجبابرة  
والثقلاء ، ثم لماذا فطر بعض الناس أو الأشياء على الضرر وأنشأهم من جبلة  
السوء؟؟ كنا نتساءل بذلك ونعجز عن إدراك السر من خلقه ذاك ، ثم نغضى  
على مضض ونسر في أنفسنا الجهل بذلك والسخط منه .

حتى إذا وردت أمريكا للمرة الثانية ، وأنا في مطلع كهولتي أودع الشباب  
العارم وعهده الحافل بالغرور، والغنى بالآلام والآثام ، وتفتحت أبواب المعرفة  
بين يدي ، وشخصت مفاتن الحياة أمامي ، وبدأت أتخس من أسرار الوجود ،  
وأشعر بواجب الإنسان تجاه نفسه وغيره ، واستجابت لي الدنيا ، وواتني من  
العيش ما لم أكن أحلم به ، أدركت فجأة إذ ذاك أنني كنت أغلف القلب ،  
مظلم النفس ، مغلق الفكر ، فعمدت ، على ضوء حياتي الجديدة ، إلى تطهير  
نفسي من أوصار الحياة ، وبدأت أشعر بالرسالة الملقة على عاتقي فيما أقول  
وأفعل ، .

وكان الدين دمي الأول فيما أفكر ، فعدت إلى الإمعان في اكتناهِ الحياة  
وما تحمل من أسرار ، فجاشت في صدى عوامل التربية الأولى في بيت أبي  
وبين إخوتي وعشيرتي وقومي ، كيف كان القرآن دستورهم في معاشهم . وفقه  
أهل البيت مذهبهم في الحياة ، مطمئنين إلى أعمالهم مهما شقت عليهم ، وإلى

معادهم مهيا بعد عنهم ، يرون أنفسهم غرباء في دار لم يخلقوا إلا ليغادروها ولو مكرهين ، أقول :

.. لقد جاشت في صدري إذ ذاك ، وأنا في نعيم سابغ ، عوامل تلك الحياة البسيطة ، وكيف كان أبي يعيش ونعيش معه في هذا الأسلوب الدامي من عناء العمل بين يدي طعام تنبلغه أو لباس نتلفع به ، أو شهوات نطفئ معها حرارة النفس الآمارة بالسوء ، ثم لا نجد فسحة من العمر نلتفت بها إلى الوراء فنفكر فيما كنا منه ، وإلى الأمام فنمعن في التفكير بما كنا له .

لقد عدت أفتح صفحات حياتي الأولى ، بعد أن طواها الزمن أعواماً كنت خلالها أهبط سلم الحياة دركة دركة حتى بلغت المدرك الأسفل منها فوقفت أشخص إلى أعلى السلم بقلب واع وأذن سمعية إلى همس الحقيقة ينساب إلى أذني من خلال الضجيج المادي الذي طغى على سمعي فأصمه وعلى بصري فأعماه ، أقول : لقد عدت إلى طلائع صحيفتي الإنسانية ، أقرأ وصايا أبي فيها بارزة واضحة ، فأراه وهو يروح ويغدو بذكر ربه ، ثم هو يقوم ويقعد بذكر ربه ، ويأكل ويشرب بذكر ربه ، لا يغفل ساعة أو لحظة إلا وهو ذاكر ربه بالحمد والسبحان ، على أن هداه إلى الحق بغير علم : وجنبه الباطل بغير حرمان .

وأراه ، وهو في حشد من أهل قريته ، معن في العظة ويتخير لهم النصيحة ، ويحذرهم الهلاك بالمروق من الدين أو الشك فيه ، أو التهاون به ، ويقرر في نفوسهم قوله صلى الله عليه وسلم : من زهد في الدنيا علمه الله تعالى بلا تعلم ، وهداه بلا هداية ، وجعله بصيراً ، وكشف عنه العمى « ثم أراه وهو مسجى على فراش موته معن في النظر إلى وجهي ووجه أمي فتقول له : أوصي محمدناً بي يا أبا حسن ، فيقول لها : انه لا يحتاج إلى مثل هذه الوصية ولكني أوصيه بالصلاة ... »

كل هذا بعث في نفسي ، وأنا أجوز الشباب إلى الكهولة ، أن الحياة صلاح وتقوى ، وأن العلم تفكير وإخلاص ، فعزفت إذ ذاك عن كل ما يهر عني من زخرف الحياة ، وأمعتت في اكتناه جوهرها فرأيت نوراً لا يتبينه إلا من فكر فيها وأخلص في تفكيره . فكنت كلما تعرضت لقول أو عمل لا علم لي

بما يفضي إليه ، أسررت في نفسي الإخلاص فيما أقول وأفعل ، ثم سألت الله أن يعصمني من التهافت ، فما ختمت مقالى ولا أنهيت عملى إلا وأنا مطمئن إلى أنى كنت فيهما على حق .

ولقد سألتني بعض المهاجرين العرب في ولايات أمريكا الشمالية المتحدة . ولعل ذلك كان في مدينة ديترويت مشغن . وفي منزل الشيخ عبد الله برى ، وهو أديب عاملى ، سألتني عن الشر لم يخلقه الله ثم ينهى عنه ؟؟ وكانت مفاجأة لي عمدت في الجواب عنها إلى طريقتي الخاصة بي ، وهي التوجه إلى الله ثم الإخلاص فيما أقول : فأجبت فوراً : إنما خلق الله الشر من أجل الخير . قال : وكيف : قلت لولا الشر لما عرفت الخير ولولا التبعيض لما عرفت الجلال ، ولولا الغباء لما أدركت الذكاء .

وكننت أحسب أنى بذلك فتحت باباً لم يفتحه أحد قبلى حتى إذا وقفت على كلام الإمام في صدر هذا البحث فاذا به يسبقني إلى معناه أكثر من ألف عام ، وهكذا كنت .

في مدينة « بونس ايرس » عاصمة الأرجنتين في جنوب أمريكا : أضعده المنبر للخطابة في نادى جمعية التعاضد الإسلامى لأبنائنا المهاجرين العرب ، كنت أضعده على رأس كل أسبوع لأعظهم دون أن أعد في نفسي شيئاً من القول أو الفكر ، معتمداً على هذه الطريقة وهي نية الإخلاص للحق فيما أقول ، فأبدأ القول بما يحضرني ساعتئذ من آية في القرآن أو حديث في السنة أو بيت من الشعر ، أستحضر واحداً من هذه لدى صعودى المنبر واستوائى عليه ، فاذا بالمعاني التي تتدفق على قلبي والبيان الذي يزخر به لساني ، تملأ نفوس المستمعين عظة وعبرة ، وتملأ قلوبهم محبة وإعجاباً .

وكننت أحسب أنى مبتكر لهذه الطريقة حتى قرأت مقدمة للرئيس ابن سينا في أحد مؤلفاته يقول ما مضمونه : كلما استعصى على بحث علمى شائك معقد عمدت إلى الصلاة فاذا بي أخلص من ذلك التعقيد إلى الحل الذي يقره العلم « فأوقن إذ ذاك أن ليس لي بكر هذا الفكر وإنما سبقني إليه غيرى أكثر من

ألف عام . فأعود مردداً قول القائل : لا جديد تحت الشمس . وقول الآخر :  
ليس في عالم الفكر جديد إلا ما غاب عنك قديمه .. »  
لعل منكراً علينا يتساءل ؟ كيف خلق الله الشر فيما أجبنا عنه آنفاً ؟  
والقول على ذلك يستدعي تبسيطاً في البحث أفضنا فيه بين الفصول التي يتألف  
منها كتابنا « الأصفياء » وما سبقه من كتب كبلاسم ووحى الرافدين ، على  
أن اقتضاء البحث هنا لشيء من هذا التبسيط لازم ، ولعله أدعى إلى الخوض في  
الشر والخير مما سبق عليه القول .

إن الشر المنسوب إلى الخالق تعالى إنما هو العنصر الأول الذي يتقوم به الخير  
والشر معاً ، فاليد الذي تقتل بها وأنت مسيء هي عين اليد التي تتصدق بها وأنت  
محسن . واللسان الذي تكذب أو تشتم أو تغتاب به هو عين اللسان الذي ترشد  
وتعظ وتدعو الله به ، وهكذا قل في السيف الذي تعدل به وتظلم ، وفي القلب  
الذي تقسو به وترحم ، كل هذه الوسائل من خلق الله مباشرة ، فيكون الشر  
أو الخير الناشئ عنها من خلقه تعالى ولكنها بواسطتك .

هكذا نستطيع أن نعلل نسبة الشر والخير إلى الله ، وأما نسبتها إلى الإنسان  
فعلى اعتبار أنه مختار ، والاختيار صفة تحول صاحبها السلطة على ما يختار إن  
كان في مقدوره وإلا كان الجبر الخارج عن موضوع البحث ، فلم يكن الله  
ليجبر ولكنه خير ، والله إنما وهب الإنسان صفة الاختيار ولم يجبره على ما يحب  
لأمرين : أولهما إشعاره بالحرية التي هي أسمى صفات الإنسان ، والتي يمتاز بها  
عن غيره من خلق الله الذي يشاركنا في الحياة على هذه الأرض .

وثانيهما : إشعاره بأن وراء هذه الحياة حياة أخرى يحاسب فيها على ما يقول  
ويفعل وهو مختار ، إن خيراً فخير وإن شراً وشر ، لأن الجبر الذي هو نقيض  
الاختيار لا يوجب هذا الحاسب ، ولأن الله تعالى إنما يعاقب أو يثيب على  
ما يفعله الإنسان باختياره لا على ما يجبر عليه ، من أجل ذلك أعطاه الله صفة  
المختار المسلط على الخير والشر مختاراً منهما ما يشاء دونما جبر أو إكراه ، فهي  
من الصفات التي يشارك الإنسان فيها ربه ، كالأحسان والكرم والعزة والخبرة  
واللطف وغيرها من أسماء الله الحسنى .

من هنا يتبين لنا بوضوح ما يعنيه الإمام بقوله : لن تعرفوا الرشداً حتى تعرفوا الذى تركه ، وهو الضلال ، فتدركوا المنزلة بين الضلال والرشد ، فكان إذن من الضرورة خلق الضلال لمعرفة الرشد ، ثم يقول الإمام : انكم لن تأخذوا بميثاق الكتاب الذى هو القرآن حتى تعرفوا الذى نقض هذا الميثاق ، بماذا نقضه ؟ وماذا جنى من نقضه ؟؟ وكيف انحدر من وراء هذا النقض عن أبناء جلدته الذين إنما خلق ليحيا معهم فى هذه الدار ؟؟ ثم يقول : لن تمسكوا بهذا الميثاق حتى تعرفوا الذى نبذه « وهو إيمان فى تقرير القول السابق ، وهو غنى عن البيان :

يعجبني من ضروب التمثيل بين يدي هذا البحث : ما يرويه التاريخ لنا من قصص الماضين تحت عنوان : سوداء العروس ، انهم كانوا إذا زفوا عروساً بيضاء ، أجلسوا إلى جنبها امرأة سوداء ليمتاز بها وهبا الله من جمال اللون ، وقدماً قال الشاعر : وبضدها تتميز الأشياء « وهكذا يقول المؤمن إذ يرى فعل الكافر الخارج به عن إنسانيته : « أحمد الله على أن هداني للإيمان » ويقول الضحيح إذ يبصر المريض وهو يشمل تحت آلامه : الحمد لله الذى عافاني مما ابتلى به غزى »

فخلق الشر ضرورى لمعرفة الخير كما أن خلق البغض والقبح ضرورى لمعرفة الحب والجمال ، وأشد ضرورة من هذا وذلك تقويم الإنسان بالاختيار الذى يخوله السيطرة على الخير والشر معاً لئلا يكون له الحجة على الله فيما يقول أو يفعل -

# الله

## إِذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا...

في مطلع هذا البحث أحب أن أسوق للقارئ حادثاً مر بي وأنا أمتحن التدريس إبان شباني في قرية شقراء من « جبل عامل » ، لا يزال ذلك الحادث موضع غرابة و غظة وتفكير مني . ولا أزال أتمثله في كل سر من أسرار الطبيعة التي تمر بي في رحلاتي ، ذلك الحادث هو :

أن صديقاً لي كان مملك الأمر والنهي في هذه القرية ، وكان سيداً مطاعاً في أهلها ، وكان رفيقاً بهم ومحسناً إليهم . وكان بيته محجة الضيفان ومستدى الأدباء والعلماء ، ولم يكن لي مفزع غيره في غربي ووحشي ووحدي ، ذلك الصديق هو المرحوم عبد الحسين الأمين ، ولقد ألفت بيني وبينه خلال تدور حول الأدب والشعر العريقين فيه ، وكانت أيامي عنده حافلة بروعة شباني وأبهج أيام حياتي ، ولا تزال ذكرياتها زاداً لتغذية روحي وتنمية أفكاري .

يدخل علينا هذا الصديق يوماً ما ونحن في نديبه ، ننشر ونستعرض غرائب التاريخ فيقول : اسمعوا ما تعجبوا له مما لم أصدقته أنا نفسي لو تحدث لي به غري ، فشخصنا إليه منصتين فقال : ان من عادتي ، وأنا في فراش نومي أن أطلع في كتاب أضعه إلى جانب رأسي بضع دقائق قبيل النوم ، وتعلمون أني لا أستطيع القراءة نهائياً بغير منظار فكيف بالليل ، ويشاء الله أن أنسى نظرتي ليلة أمس في جيب المعطف والمعطف على المشجب وقد تدرت في الفراش والبرد قارس فتعاجزت عن النهوض لجلب المنظار وحاولت المطالعة عبثاً دونه ، كما أني عبثاً حاولت النوم بدون مطالعة «

« فتحاملت على نفسي ونهضت إلى المعطف وعدت بالنظارة وطالعت ما شئت حتى أعفيت ، وما أروع ما دهشت له في صباحي إذ رأيت إطار النظارة بغير زجاج ، ثم عدت إلى جيب المعطف فوجدت الزجاجتين قد سقطتا فيه من النظارة دون أن أشعر ، وكانت مطالعتي قبيل النوم قائمة على اليقين بأنني

إنما أتصفح الكتاب من وراء الزجاج ، فما قولكم دام فضلكم في معجزات الحياة التي لا يقوى العقل على تبين أسرارها مهما فكر وقدر ؟؟ وقضية أخرى : تحدث أبي إلى عن نفسه أو عن يثق به ممن لا يعتقدون بالشعرذة ، انه أقبل يوماً ما على ساحة القرية فرأى لمة من الناس قد سادهم المهرج وبينهم جمل ، فسأل بما حدث ؟ فقليل له : ان ساحراً يدخل من فم الجمل ويخرج من دبره ثم يدخل من دبره فيخرج من فمه ، قال الراوى : فدخلت في الجماعة وقد شأهت وجوههم وبجحت أعينهم وراى العجب على نفوسهم فكأنهم في غيبوبة ، ثم أثبت بصري في عمل المشعوذ فاذا به يدخل بين يدي البعير ويخرج من بين رجليه ثم يرتد معكوساً فيدخل بين رجليه ويخرج من بين يديه وقضية الثالثة : كنت ، وأنا صبي ، أسمع بغرائب القصص تتحدث بها العجائز عن عين الحاج حسن ، وما أدراك ما عين الحاج حسن ؟؟ انها بئر تابعة عميقة في واد سميق من بلاد الشقيف في جبل عامل ، عمرها المسافرين من الساحل إلى الجبل ، يتحدثون عنها : ان فيها جنأ يتمثل بأشكال ، وكل من نزلها رأى هذا الجان على شكل خاص ، ولما بلغت رشدى مررت بذلك الوادى وشربت من ماء تلك العين ، وكان معى رفاق تطارحت وإياهم حديث هذه العين في ماض من الزمن ، فقال بعضهم :

لقد كان ما رووه حقاً من أنها كانت مشهودة بساكن غير انسى ، ولقد نقل لى من لا يصرفه عن الحقيقة وهم ولا خيال : قال ، مررت ليلة ما في ذلك الوادى وأنا أجتاز في عودى من الساحل إلى الجبل ، ولما حاذيت العين وكان حر الصيف لاهباً والظمأ نال منى ، قلت لنفسي : أنزل وأشرب ، وأنا أعلم ما يتناقله الرواة عن أحاجى هذه البئر ، ولكنى إذ نزلت بضع دركات من سلمها الصخرى ، والظلام دامس ، تناهى إلى سمعى صليل في غياية البئر ملك على وعى فعدت أدراجى حتى فم البئر ورأيت حمارى يتطلع إلى بغرابة كأنه أحس بما أحسست » ثم قال :

ولكنى بعد أن ملكت روعى ، رجعت إلى صواى وتساءلت ونفسي : أهناك حقيقة ما تفنن به الرواة أم هى خرافة كما أعتقد ؟؟ لا بد لى من كشف



هذا السر ، ورجعت الكرة إلى البئر فنزلت دركاته وأنا أشعر كأني أطفأ اللهب مما أتحسس وألثت ، ولا أكنم سامعي أني كنت مرتاعاً ولكني أغالب هذه الروعة بالتماس عقلي وثقتي من أن جنناً له سبيل على الإنسان لم يكن في قاموس العقل » ولما وصلت الماء وحاولت أن أغترف منه عاد الصليل كما تتحرك سلسلة من الحديد بين يدي فرس شمس ، فعاد إلى الذعر ولكني ملكيت لإرادتي واغترفت الماء لأشرب فأعجلني عنه صوت كائز مزمة لم أتبين مصدره لشدة الظلام ، ثم تبع الصوت جلعلة ، ثم إذا بي أشعر أن شيئاً كالكتابوس انقض على كتفي وأدلى رجله حول عنقي . فسكنت غير واع وقد أصابني رعدة أفقت منها ويداي على رجلي هذا الشيخ الذي أصبح بعاد لمسي رجله المكسوتين بالشعر حقيقة لا ريب فيها ، ولم أتخاذل برغم ذلك كله ، ثم نهضت لأصعد وهو على منكبي أحس بثقله وبشيء تلدئ منه على عجزى لا يزال صليله يقرع سمعي »

وصعدت الدرج حتى أرض الوادي ولما أزل أقبض رجله بكل قوتي لئلا يشرد ، ثم أنزلته وتبينته على ضوء الكواكب فاذا به قرد قد أفلت من قائده منذ زمن واتخذ الوادي مرعى والعين مورداً ومأوى ، وفهمت إذ ذاك جميع ما رواه لنا القصاصون وما افتنوا فيه من غرائب القصص عن هذا الوادي وساكنيه من الجن ، ولما عاد إلى روعى ربطت القرد بسلسلته إلى رجل الحمار ثم عدت إلى البئر فرويت وأرويت حمارى واستأنفت السفر إلى حيث أقص على الناس حديث الجن في عين الحاج حسن .. »

وقضية رابعة نسوقها في هذا المجرى : أن رجلاً في قرية مجاورة لقريتي أصيب بمس في عقله فكان يخرج كل ليلة إلى منخفض من الأرض في ضواحي القرية ويمكث ليله بين هرج ومرج كأنما هو في نفر من الناس حتى يصبح فيعود إلى منزله ولم يتناول طعاماً منذ أصيب حتى عاد إلى رشده ومدة الإصابة كانت بضعة أشهر .

ولما قيل لي إنه ثابت من غيبوبته ذهبت مع بعض أصحابي إلى تلك القرية لمشاهدته والوقوف على هذا الحدث الغريب ونزلت ضيفاً على وجيه البلدة ثم استدعيت ذلك الرجل فجاء وسألته عما تراهي إلى من أمره فقال : كنت إذا أقبل

المساء أسمع أناساً خارج منزلي بهزجون ويغنون ثم يدعونني باسمي فأخرج إليهم ثم نمضي معاً إلى ذلك المكان ، وأشار إليه بيده وهو قريب من بيت مضيقي ، ثم تابع حديثه قائلاً :

وهناك أرى كثيرين يتقاطرون من طرق شتى ويكون لنا جميعاً مشهد حافل باللهو واللعب والرقص والغناء حتى منتصف الليل ، وإذا بسباط بمد وطعام شهى يعلوه فنتداعى للأكل كما لو كنا في عالم الوعى ، الناس هم الناس واللعب هو لعبنا والطعام كطعامنا ، ولكنى لا أعرف أحداً منهم ، ولم أكن أذكر أنى غريب فيهم وأهم بعيدون عن قوى ، فاذا أصبحنا نفرقنا وذهب كل منا إلى حيث كان في أمسه »

وآخر حدث أعرضه بين يدي هذا البحث هو : أنى كنت أنام في صغرى قريباً من أنى ، وكان ينهض للصلاة مبكراً فاذا أشرفت الشمس على الزوغ وكزنى بأصبعه في رأسى ينيهني للصلاة . وأذكر أن مسه كان وخزاً رفيقاً ، وكنت أرى هذا المس أثقل شئ علىّ في حياتي أيام الصيف لقصر الليل وطول النهار الحافل بلهو الصغار أمثالى ، وذلك ما يقتضىنى طول المهجوع والاستجمام بالنوم الطويل .

وأيّاً كان فقد كنت في تلك السن التى لم تبلغ المراهقة ، كنت أتناقل من من مس تلك الأصبع ومن التلبية للصلاة ولكنى مضطر لهذه التلبية وإلا حلت العصا محل الأصبع وكان الغضب مكان الرضى ، لذلك كنت أحياناً أحاول أن أنام إلى جنب أى بحيث تكون الفاصل بينى وبينه فأقطع ليلى خائفاً من الجانب الخلاء لأنهما إنما كانا يكتنفاننى في النوم ، وأنا وحيدهما إذ ذاك بعد أن خلا المنزل من اخوتي ، أقول كانا يكتنفاننى ، بغية راحتي واطمئنانى وحرصاً علىّ من برد السحر إذا انحسر الغطاء عني .

ولقد كنت أحياناً أوطن نفسى على الخوف إلى جانب أى تفادياً من أصبع أبى العاصفة بى عند الصباح وفى أحب أوقات نومى ، ولكنه كان إذ ذاك يستعيض عن أصبعه بصوته الذى يصعب بى موقظاً ومهدداً فأقوم إلى رياضتى وأنا أجرر أذيال الخلية فيما كنت أرجوه من سهوه أو تغاضيه عني فأعود من

غدى إلى سرتى الأولى تحامياً من الخوف وتحملاً لأهون الضررين .  
 هذه بعض سرتى مع أبى فى حدائى ، ويشاء الله أن أفارق هذا الأب  
 البار فى فراغاً أبدياً وأنا أنهى إلى السابعة عشرة من سننى حياتى فاذا فى مطبوعاً  
 على كل ما كان يطبعنى به حتى اليقظة مع الفجر ، وما كان أحب إلى وأعذب  
 لى وأخف على روحى من تلك اليقظة التى تذكرنى بأبى ، ثم يطوح فى الزمن  
 إلى الهجرة فى سبيل العلم بين العراق والشام ، ثم إلى الهجرة فى سبيل العيش بين  
 أمريكا وأوروبا حتى تبدلت حياتى واستحال الأفق الضيق الذى كنت أفحص  
 فيه إلى أفق رحب ممتد بصرى فلا يبلغ مداه .

فهل طراً على بعد ذلك ما أجال ذلك الطابع إلى طابع آخر فى حياتى ؟  
 انى لأشهد بين يدى الله ، وأنا أكتب هذا البحث فى مصر الجديدة قبيل الفجر .  
 أشهد أن هذا الطابع قد أصبح جزءاً من حياتى المشرفة فى فى صباحى هذا على  
 الستين من عمرى ، ومكان الشاهد من هذا الاستطراد إلى حياتى مع أبى هو  
 ما أعرضه بين يدى القارئ مما يتصل بالبحث فيما يلى :

لقد مرت فى فترة غير قليلة وأنا أطوف العالم الجديد « أمريكا » شماله وجنوبه  
 وقلبه ، وكان لهذه الهجرة التى بدلت كثيراً من حياتى ، كان لها وليلتها فى  
 أوروبا أيام دراستى فى لندن ، تأثير بالغ على عقلى وتفكيرى وطرز حياتى .  
 فكان لا بد لى من أن أتأثر الغربيين فى كثير من عاداتهم وتقاليدهم حتى ظهر  
 ذلك فى جل ما أنتجت خلال تلك الفترة من نظم أو نثر .

ولقد أنكر على أخيراً من عرفنى أولاً كل شئ من شكلى وعقلى ، إذ كنت  
 معتماً ملحئاً أيام دراستى الفقه فى العراق ، وكان جل همى ، وأنا أمتهن الشعر ،  
 أن أتأثر المثنى وأبا تمام والشرىف الموصى فى كل ما أنظم ، فأصبحت بعد  
 الثلاثين من عمرى ، حاسر الرأس حليق الدقن متأنقاً فيما ألبس وأأكل وأنام ،  
 حريصاً على التحسس من مواطن الإلهام فيما أنظم وأكتب ، نائر النفس وراء  
 كل ما يسبغ على قوى جديد حياة ، ناقماً عليهم بلسانى وقلمى كل ما يتأثرونه  
 من قديم راكد أو جديد تافه ،

أقول : لقد مرت فى فترة كادت تأكل الشطر الأخير من حياتى وأنا معن

في تأثرى هذا . وكدت أنسلخ من كل ما يحدق في من تراث إلا شيئاً واحداً لم أكن أقوى على دفعه والشكر له والانسلاخ منه ، ذلك هو الصلاة عامة وصلاة الفجر خاصة ، ولقد تعاور وتضايفر على في الحيلولة دونها كل ما ألفتته من حياة جديدة في عهد يستخفى معه كل بهرج وزخرف مغريين تحت سماء تستهوى بشياطينها ملائكة الروح القدس .

من يصدق أنى كنت أستجيب أحياناً للسهر المضني بين أخوة وأخوات ، فيغلبني كرى الصباح وأشعر بكل حواسي أن أصبح أبى تلك تخزني من رأسي فأهب مذعوراً لا يثنيني شيء عن الوضوء للصلاة ؟؟ ، من يصدق هذا ؟؟

أقول : لقد كنت ، إذ تأسرنى خفقات الفجر أشعر بكل ما في من عصب حي ، لا حالماً ولا مهووماً ، كنت أحس إحساساً حقاً لا وهماء ولا تهووماً ، أن تلك الأصبع التي فارقها منذ عشرين عاماً ، تخز رأسي وأسمع من ورائها صوت أبى ينهرني قائلاً : قم للصلاة يا بني « فأنتفض ولا هم لي إلا إدراك هذا الوقوف بين يدي ربى قبل بزوغ الشمس ، من أجل ذلك وثقت أن الصلاة الوسطى هي صلاة الفجر ، وأنها الوسط بين الليل والنهار ، مهما ضعفت روايتها وقل الراوون لها .

أوردت هذا الحديث المستطرد في سياق البحث عن إمكان أن يعود الأعمى بصيراً كما يمكن أن يعود الأصم سميعاً والأبكم فصيحاً لا عن طريق الإعجاز بأن يتولى الله ذلك بنفسه ، ولا عن خرق في النواميس الطبيعية ، ولكن بما حققه العلم الحديث من إمكان أن تتحكم إرادة الإنسان بناموس خلقه المفطور عليه ، والموكل تحكمه به إليه .

فلقد أحكم حب يعقوب ليوسف إرادته بمناط البصر من روحه فردت عليه هذا البصر ، كما أحكم اعتقاد صديقي الأمن إرادته بمناط بصره القاصر على المنظار فرده عليه من غير منظار ، وكما أحكمت عقيدة أبى إرادته بأن لا يصدق أن مشعوذاً تخرق نواميس الحياة ، فكشفت له عن حقيقة ما يفعل المشعوذ ، وكما أحكم إيمان ذلك الرجل بأن لا سبيل للجن على الإنس إرادته في أن تلك الصلصلة التي وعأها وهو يهبط إلى العين ليست خارجة على الطبع الإنساني .

وهكذا نستطيع تعليل ما انخرفت به إرادة ذلك المجنون الذي كان يأكل ويشرب في عالم غير عالمه ثم يغنيه ذلك الطعام والشراب عن أن يأكل ويشرب في عالمه ، كما نستطيع تعليل إحساس من تأثر بأبيه أول ما تفتحت عيناه على الحياة ، وأمعن في تربيته بإرادة قوية وإخلاص بالغ ، حتى إذا نشأ الابن وهو يحمل هذه الرسالة ويقررها في نفسه ، كانت إرادة أبيه جزءاً من حياته وهو يستقبل الحياة ، وللتربية الأولى أثر بالغ في الحى إذا كشفت له الحياة عن صدق هذه التربية وتمكنها من صميم تلك الحياة .

وكذلك نستطيع أن نعلل قوة تأثير الحب في نفس الحب إلى حد يعجز العقل معه عن تعليل تلك القوة ، وللإرادة ، في علم النفس ، قوة لا تقوى على دفعها المادة إذا عصفت تلك الإرادة بها ، ففي كيان العائن ، من قوة الإرادة ما ينهار بين يديها المعيون من أقوى صنوف المادة ، وكم رأينا صاحب هذه الإرادة الجبارة يلحظ بعينه الكاشفة عن تلك الإرادة ، جمالاً أو جلالاً راعه من مرثى له في حيوان أو نبات أو جماد ، فيتصدع ويتفطر أمام لحظه كأنما تعرض هذا المرثى لأقوى عاصف به من حديد أو نار .

عرفت شخصاً من قريتي ، وهو عائن ، كان إذا تأثر بمنظر لإنسان صرعه ، وإذا تأثر بمنظر حيوان قتله ، ثم إذا تأثر بمنظر جماد صدعه ، إذن فلإرادة تأثير قوى على المادة ، وهكذا نصل إلى أن الإرادة نفسها هي التي ردت على يعقوب بصره لدى فرجه ، وهي التي أفقدته ذلك البصر لدى حزنه ، لأن الإنبات والسلب في إنشاء الحركة أو إعدامها سيان في استهلاك قوى المحرك ، فقوة تأثر يعقوب بمحبته ولده يوسف هو الذي أفقده البصر لدى فراقه ، وهو الذي أعاد عليه البصر عند لقائه ، ومن شاء ازدياداً في تحرير هذا البحث وتحقيقه ، فليرجع إلى فصل تربية الإرادة في نهاية هذا الجزء من الكتاب .

الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ ، مَنْ أَحَبَّ قَوْمًا حُسْرَى فِي  
زَمَرَتِهِمْ

محمّد

من أحب قوماً أشركه الله في عملهم « تتوالى على الألسن هذه الجمل مرفوعة إلى الرسول عليه السلام ، بعضها صحيح السند والبعض حسن والبعض الآخر ضعيف ، وأياً كان فهي متقاربة المفاهيم ، وجديرة بالصلور عن صاحب الرسالة الأعظم ، لأنها قائمة على الحب والحب في صدر محمد وفرقانه ، عنصر أول في تقويم الحياة ، ومادة أولى في ناموس الخلق ، ولعله البند المهيمن على قانون الطبع الإنساني ، والعلم الحديث يثبت أن الكائن حياً كان أو جهاذاً ، إنما يقوم في بقائه وصموده وأداء وظيفته على التجاذب وهذا هو الحب . فالذرة في أى كائن ، قائمة على تماسك ما تتقوم به من نويات وكهارب . وعلى تماسك الذرات يقوم الكائن ، وذلك ما يفسر قوله عز من قائل : وجعل بينكم مودة ورحمة .

وإذا كان الحب هو المخلوق الأول في تقويم الإنسان كما قال الحق وأثبتته العلم ، كان من الطبيعي أن تتقوم به عناصر الكائنات المسخرة للإنسان في تقويم حياته ، ولقد مر بالقارئ في هذا الكتاب كثير من أقوال العلماء المعنيين بطبيعة الكائنات الأرضية ، يثبت أن طراز التكوين واحد جهاذاً كان أو حيواناً ، لذلك أقروا بأن خالق الوجود واحد لأن طراز الخلق في كونه واحد ، فاذا كانت الصلة بين الخالق ومخلوقاته هي وحدة الطراز ، كان بلا ريب توحيد هذا الطراز معلولاً بوحدة خالقه .

وهكذا نصل إلى أن الإنسان معلول بما كان له ، إذ هو وليد ما يحق به من طبيعة كانت له ، وكان له التحكم بها والهيمنة عليها ، فالتجاذب الذى تماسك به عناصره ، يجب أن يكون مناط التجاذب الذى تماسك به عناصر مقوماته مما يأكل ويشرب ويلبس ويسكن ، ومما تتقوم هذه المقومات به من جهاد ونبات وحيوان ، هكذا يثبت لنا العقل الباحث أن الحب الذى هو تجاذب

وتجاوب وتماسك وتضامن وتكافل وتعاون بين الكائنات هو العنصر القائم على تكوينها وتلوينها .

إذن ، ليس في تأويل هذه الكلمات الشاخصة للقارئ في صدر هذا البحث ، ليس في تأويلها كبير عناء على الفكر ، ولا هو بالسهل بين يدي من يحاول تأويلها ولم يوت حصافة الرأي وعمق التفكير . قال أين يصل بنا القول على فكرة محمد في قوله : المرء مع من أحب ؟؟ ..

كيف ؟؟

وأين ؟؟

كيف أكون مع من أحب ؟ أكون معه بروحي ؟ أم بجسدي ؟؟ أو أكون معه في دنياي ؟ أم في آخرتي ؟؟ ثم ، أأكون معه ولو لم يحبني هو ؟ أم كوني معه مشروط بأن يكون هو محباً لي فتتحقق المعية بين المتحابين ؟؟ أم يكفي الحب من جانب واحد ليجتمع بين الطرفين ؟؟

وأين تكون هذه المعية ؟؟ أف في هذه الدار بالروح والجسد ؟؟ أم في الدار الآخرة ؟؟ وهل أكون معه إذا أحبته حقيقة أم مجازاً ؟؟ وهل ذكرأى إياه وذكرأه إياه تحقق تلك المعية سواء كان حياً أو ميتاً ؟؟ وهل يتأثر كلانا بعمل الآخر في هذه المعية ؟؟ أم أن العمل شيء والمحبة شيء آخر ؟؟

ان الحديث المرفوع إلى نبينا صلوات الله عليه والقائل : ان الله يحب العبد ويكره عمله ، ويحب عمله ويكره بدنه « أى شخصه » ، ان هذا الحديث يدل على أن الحب شيء والعمل شيء آخر ، فقلد أحب من لا يشركني في عملي ، ويحبنى من لا أشركه في عمله ، وعلى هذا يتخرج معنا صدق مصححي هذا الحديث بلفظه الأولين في صدر البحث ، ومضعفيه بلفظه الثالث بعد العنوان . وإن لا يكن ذلك : فما هي الفائدة من المعية في الحب ؟ بل ما هي الفائدة في الحب من هذه المعية إذا لم أفد من عملي وأنا معك ومحب لك ، وإذا لم تفد أنت من عملي وأنت معي ومحب لي ؟؟ وما هذه المحبة التي جمعت بيننا ولم توحده عملينا ؟؟ وعما ذا صدرت ؟؟ أفليس وراءها تجانس بيننا في كنه تركيبنا الجسدي ، أو تأليفنا الروحي ؟؟

ومحال أن أحب من يغايرني في روحه وبدنه وأناقصه بروحي وبدني ،  
ان الفطرة الأولى تدعو الإنسان لأن يحكم على أن الألفة والمحبة بين كل اثنين  
من كل كائن ، ناشئة عن تجانس طبيعي فيهما ، حتى أن التاريخ يروى لنا :  
أن رجلاً رأى غراباً وحاماً واقفين معاً فعجب لذلك مع عدم تجانسهما وأحب  
أن يتأكد من السر في هذا التجاوز فأثارهما وإذا هما أعرجان ، فقال : من  
ها هنا اجتماعا »

إنما أحب من فكرت فيه ملياً ، ومن سلخت جزءاً من روحي في الحنين له  
والهيام به ، وهل يحب المرء اعتباطاً دونما سبب يجذبه إلى من يحب ؟؟ كلا ،  
فالحب أسمى من أن يكون سهلاً إلى درجة المهانة ، الحب نفحة قدسية وهبها الله  
المصلحين من عباده ، فلم نسيغ لقباً كريماً على شخص إلا من وراء الحب .  
ويكاد يكون الحب عنصراً أول في كل مهنة إنسانية خالدة ، فالفنون بأسرها أسرة  
حب ، والآداب من ولانده ، وأما العلوم فتدله في حب الحقائق .

فاذا اشتقت إلى من أحب فأنا معه ، وإذا فكرت فيه فأنا معه ، وإذا  
خلوت إلى ذكره فأنا معه ، ثم إذا حاولت الوصول إليه أو البعد عنه فأنا معه  
في صميمه وهو معي في صميمي ، أفليست روحي إذ ذاك تجول في روحه أو  
تجول معها في أفق واحد ؟؟ أفليس ما يولده يوئلي وما يسره يسرنى ؟؟ أكان  
الشاعر يهذي إذ قال : أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا ؟؟  
أفلم يشعر أنه مع حبيبته وهو يشعر ؟؟ وإذا لم تتحقق المعية في ذلك فأين تتحقق ؟؟  
ثم ألا أحب أن أعمل عمل من أحب لأجله ؟؟ فقد كان أبو اسحق الصابئي  
صديق الشريف الرضي يصوم رمضان من أجله ، فكيف لا يكون المحب شريكاً  
لحبيبته فيما يعمل ؟ ولعل ما يسوء به الحبيب محبه من عمل ينزل من محبه منزلة  
الرضي به والصفح عنه ، أفما يصدق الشاعر بقوله : وحبيبي مر التجنى ولكن  
كل ما يفعل الحبيب حبيب » وفي شرع الصوفيين : لا يصدق حب العبد لسيده  
حتى يكون عذابه له عذبا » إذن فالمرء مع من أحب حقاً ، وشريكه في عمله  
حقاً ، ويحشر في زمرته حقاً .

وحق الحجر في البناء ، لا يجاوره حجر آخر ليستقيم عليهما البناء ، إلا أن



يكونا شريكين في الطاقة على تقويم ذلك البناء ، وهذه الطاقة في الحاجر هي عين عمله وإن كانت مخلوقة فيه من تحت البناء وتوجهه ، أفلسنا كهذه الأحجار يقوم علينا بناء الإنسانية بعد أن نضربها من في تقويم ذلك البناء بفضل الطاقة التي بها فينا الباني الأول ؟

وصفوة القول على هذا كله : أن الشركة في الحب بين المتحابين لا بد وأن تنتج عملاً مشتركاً لأنها صادرة حتماً عن عمل مشترك ، لضرورة الصلة بين الغاية والعلّة في الكائن . على أن الشركة في العمل بين المتحابين لا يمكن أن تكون كلية إذ لم يكن التجانس بينهما كلياً . وإنما يشتركان في بعض الأعمال كما يشتركان في بعض التكوين ، فالحب والبعض بين المتحابين والمتباغضين ناظر إلى اشتراكهما أو اختلافهما في أهم مواد البناء الذي يتقومان به أو يقوم عليهما . فلا يمكن أن يتحدوا في العمل كلياً إذ يستلزم ذلك فيهما أن يتحدوا في التكوين وذلك محال لأن التباين الشخصي بين الكائنين ضروري لتحقيق الإعجاز في الخلق باختلاف الألوان والألسن ..

فالحلقة كلياً بين كل اثنين من كل نوع بل من كل جنس كائنة بيته ، والخلاف جزئياً بينهما كائن بين . والتفاوت في هذه الوحدة وذلك الخلاف يقوم على مراحل يلقى تفصيلها عن الفكر الحائر في كنه تلك المراحل ، وإنما يشير إليها من بعيد أو قريب إشارة من يرى البصيص فيشعره بالنور ، ويشم العطر فيشعره بالزهر .

اللهم إني أحبك لأنك خلقتني ووهبتني التفكير الحر في خلقك ثم حلت بيني وبين التفكير في ذاتك لتشعرتني بنقصي من وراء كمالك . فاجعلني معك ولا تتدخل عني يارب .

اللهم وإني أحب عبدك ورسولك محمداً لأنه أخلص في أداء رسالتك إلى عبادك فعلمتني بذلك أن أخلص في أداء رسالتي ، فاجعلني معه يوم أرى عليك يارب . اللهم وإني أحب علياً وزير نبيلك ووصيه . لأنه حفظ عهدك وأدى أمانتك وضحى في سبيل رسالتك ، وعلم بنييه من بعده التضحية في سبيل هذه الرسالة ، فاجعلني معه يوم أقف بين يديك يارب .

## هَلْج لَيْسَ بَلَدٌ أَحَقَّ بِكَ مِنْ بَلَدٍ ، خَيْرُ الْبِلَادِ مَا حَمَلَكَ .

زرت هذه السنة بلدى لبنان بعد سنين خمس أقمتها فى مصر متوالية دون مباحثتها إلى بلدى الأصيل ، فاجتمع إلى "أخوة الشباب وعشراء الصبا وأمعنوا فى اللوم والتفريع لى على أن هجرت وطنى ونسيت اخوانى ، وأن ذلك ليس من الوفاء ، ثم طلبوا إلى أن أعود ويعود معى ذلك المرح الذى كان يلفنا ببرده فى الأندية والمحافل ، وفى مجالس كنا نعقدتها صيف كل عام فى الحدائق وعلى قمم الجبال ، وأن العسر قصير والحياة أوشكت أن تودع ، وليس لنا فى دورها الأخير خير من العود إلى أن تأتلف مرة أخرى . فان أروع الحياة سمر الأحياء وهى تدبر عنهم .

يقولون لى ذلك ، وقد علموا أنى قطعت ثلاثين عاماً وأنا أغرس الحق بين قومي ثم لا أحصد إلا الألم والهم ، أول ما فتحت عيني على الحياة فى بلدى وأنا أبصر المنكر فى رؤس قومي فأسررت فى نفسى جهاد هؤلاء الطغمة ما استطعت ، إلى ذلك سبيلا ، فامتهنت الشعر ولما أزل فى السادسة عشرة من سنى حياتى فكان شعري قائماً على النقد السياسى اللاذع ثم لم أنس باللدع فقهاء الشعب الذين يدرسون فقه محمد ولا يعملون به فى شعب يحترهم ويرزح تحت وطء البؤس من زعماء سيطروا عليه باسم السياسة حيناً وباسم السيادة الموروثة حيناً آخر . ويشاء الله أن أهجر وطنى إلى العالم الغربى «أمريكا» ثم أعود حافلاً بما يوهلنى للجهاد من مال وجاه فأصدر مجلتى «العروبة» فى بيروت وأنتفضت بها على هذه الهياكل المعبودة وشفعت المجلة بتأسيس حزب الإصلاح ونادى الحسين بن على فلم يمر بضعة أعوام على جهادى حتى لم يبق بيت فى «جبل عامل» ألا وصوت العروبة يدوى فيه ، ولم يبق سمع من شعب هذا الجبل إلا وصكته صرخات الأحرار من «طلائع» حزب الإصلاح ، ثم لم يبق صدر عاملى فى عاصمة لبنان إلا وقد ضم جوانحه على قلب يأكل الحديد فى طريقه إلى الحياة .

وفي غضون عشرة أعوام مرت على تأسيس هذه المنشآت كان المسيطر في الجبل ، سياسياً ودينياً ، يفتش عن طريق يسلكه إلى النجاة من لدع العروبة ومقتها ، وإلى السلامة من لوم الشعب وتقريره ، ثم لم تمض برهة حتى رأينا الفقهاء يتبارون في تشييد المعاهد والمعابد بين دمشق وصور والنبطية على أيدي المخلصين من دعاة الحق ، ورأينا الزعماء يتبارون كذلك في تشييد مثل هذه المعاهد وتلك المعابد وأسالة المياه وتعميد الطرق بين جنوب لبنان وعاصمته على أيدي الساسة المنبيين بعد شنوذ وإباق .

ولقد مر بقراء هذا الكتاب شيء من هذا النداء وعلم كل من له قلب أن العروبة هي التي عصفت بهذه الفئة أن تخرج من جمودها وجحودها إلى حركتها وإيمانها ، والعروبة هي التي أهابت بالشعب العالمي أن يتنبه من سباته ويفيق من غفلته ويشخص إلى رجاله . وصاحب العروبة هو الذي كافح وناضل في سبيل ذلك كله ثم لم يطمع بأجر ممن بكى عليهم ليله وجاهد فيهم نهاره .

وقد تحمل ذلك وصبر سنين طويلة معتصماً بالحق الذي خدمه والإيمان الذي سادده ، ثم ما إذا كانت عقبة في قومه وتحت سماء بلاده ؟؟

انه ذاق على أيدي العتاة من زعماء قومه الذين لم تحوهم نفوسهم الشريفة أن يستجيبوا لداعي الحق ، فقاوموه بألستهم وأيديهم حتى هشموا رأسه ليخمدوا جذوة فكره ، وكسروا أصابعه ليعطلوا جهاد قلمه ، إنه ذاق على أيدي هذه الطغمة ، من زعماء قومه بلاء لم يذقه مكافح في سبيل أمته وبلاده . ثم لم يجد من شعبه الثورة التي تتأثر له من أولئك ، وعلى العكس لا يزال هؤلاء الظلمة الغاشمون يحكمون رقاب الأمة ويتصدرون المحافل والأندية ثم يرأسون المعاهد ومجالس التشريع . فهل في هذا الوطن مطعم لي أفرع إليه من آلامى وأعلق عليه آمالي ؟ لقد صدق الإمام : إن خير البلاد ما حملك « فلقد نبذني وطني أيام بوئسى وأنا أمتن الشعر في سبيل تحريره ، ثم جنى علىّ ولفظني أيام سعادتي وأنا أمتن الصحافة وأغدق عليه من مالى ودمي ، لقد لفظني يومذاك ولم يحفظ لي حقاً ولا رعى لي حرمة ، فكيف أعود إليه وهو لا يزال يرزح ويثقل تحت وطء الأحداث من بغى هذه الفئة ورعونة المتبجحين من أذعياء العلم والدين ؟؟

ليس في العالم بلد أحق بي من بلد آخر ، فلقد لفظني بلدي لبنان بعد أن أنشأت ما أنشأت وأخرجت من نتاج قلبي ثمانية عشر مؤلفاً خدمت بها العلم والأدب والفن ، لقد لفظني هذا البلد مسلموه وهم يتكالبون ويتناجشون ونصاراه وهم يستغلون ويستأثرون ، فكيف أهم به وأحن إليه ولم يسلفني هذا البلد حناناً أفيه به حتى من عشيرتي وأهلي الاديّن ، ويكاد أهل هذا البلد لا يشعرون بي منذ كنت وحيث حللت؟؟ فهل هم خليقون بشعوري وحنيني؟؟ كلا فما أنا إلا شاعر متأثر الشاعر القائل :

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا أن لا تفارقهم فالراجلون هم  
إذن فأنا غريب في بلدي إذا عدت إليه ، وقد ثبت ذلك إذ زرته بعد خمسة أعوام فاذا الأجني فيه لا يزال على الرأس وإذا الوطني لا يزال مطأطأً بين يديه  
يمسح ثوبه ويلق حذاءه ، فهل هذا هو بلدي؟؟

لفظني بلدي أيام كانت أول ثورة فيه على الافرنسي المستعمر سنة ١٩٢٠ وهي ثورة جبل عامل فخرجت مغضوباً على من سلطانه إلى شرق الأردن فكانت منزلي عند أميره عبد الله بن الحسين أسمى منازل الأدياء الأحرار ، وكان يتلقاني بصلوه الرحب ووجهه الباسم كلما هزه الأدب لشعر أو نثر وكنت الأديب المرموق عنده والشاعر الأثير لديه حتى غادرت إمارته إلى أمريكا بعد أن أخرجت فيه ديواني شعري « الحوامي » ونقد السائس والموس .

ولفظني بلدي لبنان مرة ثانية بعد عودتي من أمريكا أيام الحرب العالمية الثانية إذ شاء سلطانه غلّ يدي وكمّ في فهجرته إلى العراق فكانت الزائر المكرم والوافد العزيز فأخرجت كتيبي الثلاثة وحى الرافدين وبين النهرين ، ودوى ذكر هذه الكتب في أنحاء العراق حتى لم يبق إقليم بين دجلة والفرات إلا وللحوامى فيه كتاب يقرأ أو ديوان يرتل .

ولفظني لبنان أيام بلغت القسوة في نقده العروبة أشدها على رياض الصلح وسياسته بعد الاستقلال إذ ضاعف سلطة المستعمر بغياً وقسوة على الأحرار من أهله ، فأصدرت ديوان « فلان » العاصف بأحداث لبنان الجائرة بعد تنفس أهله من جور المستعمر ، وكان حظ هذا الديوان من القمع والتدمير دون حظي

من هول ما قاسيت في عهد « بطلي » الاستقلال بشارة الخورى ورياض الصلح ، لفظنى وطنى إذ ذاك ففكرت إلى أمريكا ثم عدت إلى سوريا وكنت فيها لولب الأندية الأدبية وحركتها الدائمة سنوات كانت نهايتها خاتمة حياة الزعيمين رياض الصلح وبشارة الخورى ، وأخرجت فيها للعالم العربى « بلاسم » و « من يسمع » حافلين بالأدب والتاريخ .

وهكذا كانت السنة الثانية والخمسون آخر مرحلة من مراحل علاقتى الوطنية بلبنان إذ لفظنى إلى مصر فيها فكانت ضفاف النيل الخالد مسرحاً لأفكارى ومهياً لعواطفى أنظم وأكتب وأخطب مرموقاً لكل عين وقرياً من كل قلب حتى لم يبق في مصر أديب أو عالم أو شاعر إلا وأنزلنى من نفسه منزلة الأخ من أخيه فألست فيه ندوة الأصفياء من خيرة علماء وأدباء العالم العربى، وأخرجت كتاب « الأصفياء » لسنة النشوة الأولى ، وديوان النخيل وديوان « انت انت » الذى نال الجائزة الأولى للشعر في مجمع مصر العلمى ، وكان السبب الأول في بلوغى القمة من سعادتى في الحياة .

فصير الجديدة هذه أحبر فيها وأحرر كتابى الأخير « دين وتمدين » تحت سماءها والتي أحبي شمسى الغاربة فيها أصيل كل يوم وأنا على مكتبي أحبر وأحرر ، أقول : ان مصر هذه هى خير بلادى لدى الآن إذ حملتني خير ما تحمل وأنجبتني من جديد خير ما تنجب ، إذن صديق الإمام أبو حسن إذ يقول : خير البلاد ما حملك وليس في العالم بلد أحق بك من بلد ...  
فكل مكان ينبت العز طيب وكل أناس أكرموني هم الأهل

## الله

### إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ

يجول في رأسى منذ سنين بحث مستفيض عن الإرادة وتربيتها في كيان الإنسان ، ولقد مررت بها في بعض مؤلفاتي من « وحى الرافدين » إلى « بلاسم » ولكنه مرور لا يشفى الغليل ، وفي غير مكان من هذا السفر أشرت إليها إشارة عابرة ، ثم طلب إلى الشيخ محمد تقى التقى مؤسس المعهد العالى للدراسات الإسلامية في القاهرة ، وهو مؤسس دار التقريب بين المذاهب الإسلامية في هذا البلد ، يتأثر بمشاريعة الحية سلفه السيد جمال الدين الأفغانى ، أقول :

لقد طلب إلى هذا الرجل تحجير سلسلة من الدراسات الإسلامية لإلقائها في معهده على الشباب الجامعى ، فذهب إلى الفكر هذا المذهب الذى يجول في خاطرى منذ أعوام وهو مذهب « تربية الإرادة » فى الإسلام وكنت أعمل لإنجاز كتابى هذا « دين وتمدين » وكانت الآية العليا فى هذا البحث مجال فكرى ، فعزمت على أن يكون بحثها قائماً على الموضوع الذى أشرت إليه فى الإرادة والذى سأمليه على شبابنا الجامعى الحر فى كلية الآداب لجامعة القاهرة .

وتمهيداً للخوض فى هذا البحث النفسى الشائك المعقد أقدم بين يدى القارى رؤسا لأبحاث فرعية تتصل من قريب وبعيد بهذا البحث العام ، ليسهل ضبطه على السمع وضبطه على الفهم ثم ضبطه على التفكير فيه ، فان أى بحث علمى يجب أن يشتمل على هذه الأصول لضبط قواعده وتسهيل فهمه والتصرف به عن طريق الفكر ، وإجمال هذا التفصيل يكاد ينحصر فى :

- ١ - ماهية الإرادة
- ٢ - تقسيم الإرادة
- ٣ - قوة الإرادة
- ٤ - تأثير الإرادة
- ٥ - نتيجة الإرادة

١- ماهية الإرادة  
أعتقد أن لفظ الماهية نسبة إلى « ماهى » كما أن هيوولى  
عند الأقدمين من فلاسفة المنطق مركبة من « هى أولى »  
ولا يزال العامة إلى اليوم يعبرون عن سبل النفوس الكاشف عن شخصية كل  
إنسان وجنسيته بلفظ « الهوية » نسبة إلى ضمير الغائب « هو » ويفسر المنطقيون  
لفظ الماهية والهيوولى بالحقيقة الأولى لما يطلقان عليه ، فماهية الماء وهيوولاه تعنى  
حقيقته الأولى وعنصره الذى يتقوم به ، وماهية الإرادة هنا نعنى بها حقيقة  
الإرادة وكنها ، ولعل الكنه أيضاً مأخوذ من « كانه ويكونه » على اعتبار أن  
أعيان الأسماء لأشياء الحياة منصوص على أنها ثنائية حكابة عن أصوات هذه  
الأشياء لدى الإنسان فى نشأته الأولى .

فما هى حقيقة الإرادة ، وعلماء اللغة لايزيدون على كونها مصدر أراد بمعنى  
شاء وطلب ورغب ، وما أشبه ذلك ، على أن البحث هنا يستدعى الخوض  
فى معنى الإرادة ، فما هى حقيقتها وما الذى تعنيه ؟؟  
إذا عضنى الجوع فأردت أن آكل ، أو كظنى العطش فأردت أن أشرب ،  
أتكون هذه الإرادة إذ ذاك فعلاً منى أم تكون انفعالا فى ذاتى ؟؟ وهل أنا فى  
إرادتى مختار أم مضطر لأن أريد ؟؟ وإذا كانت الإرادة فعلاً منى فما هو فاعلها ؟؟  
ثم إذا كانت انفعالا فى نفسى فكيف أكون معها مختاراً وعليها يقوم حسابى فى  
ثوابى وعقابى ؟؟ كل هذا يفترى إلى مزيد من البحث .  
إذا جعت أو عطشت ذكرت الماء والطعام فأردتهما لمجرد هذه الذكرى ،  
وهى لا تتجاوز اللحظة بين الإحساس والإرادة ، أما بين الإرادة والحصول  
على المراد فقد يتجاوز اللحظات وقد تمتد إلى دقائق فترات ، فلماذا يقول  
الجوع والعطش لإرادتك : كوني فتكون ولا تقول الإرادة للمراد : كن فيكون ؟  
الجوع أو العطش غريزة ، والإحساس بهما غريزة ، ثم الإرادة غريزة ،  
لذلك تتداخلت فى ذات الإنسان وأتحدت حتى كأنها شئ واحد لا فاصل بين  
إحداها والأخرى إلا كالفصل بين يدك وإضاءة المصباح الكهربائى إذ تلمس  
مصدر التيار المعبر عنه « بزر الكهرباء » فلماذا لا يكون الفاصل بين الإرادة والمراد  
كالفصل بين الإحساس بالجوع وبين إرادة الأكل ؟؟

هل لأن الغرائز الثلاث من مقومات كياني الداخلى ولأن المراد هو من مقوماتى الخارجية؟؟ أم لأنها مقومات روحية والطعام مقوم مادي؟؟ والروحيات أسرع فى التجاوب من الماديات؟؟ أم لأن الأولى خاصة فردية والأخير عام جماعى والصلة بين الفرد وذاته أقوى وأقرب من الصلة بينه وبين شريكه فى الحياة؟؟ أم لأن تربية الروح للغرائز التى يتقوم بها كيان جزئها فى الفرد أسبق من تربيتها لمقومات كيانها الكلى فى الجماعة؟؟ أقول : هل لهذا كله أو بعضه نرى الفاصل بين الإحساس بالجوع وبين الإرادة أدق وأخص من الفاصل بين الإرادة وبين المراد أو بالأحرى بينها وبين تحقيق المراد؟؟

وماذا أعنى بكلمة أردت؟؟ أهى تعبير عن كل ما فى كياني من روح فتكون الإرادة هى الإنسان كلياً؟؟ أم هى تعبير عن حالة خاصة من حالات الروح القائم فى ذاتى فتكون الإرادة هى بعض الإنسان أم هى إياه جزئياً؟؟ ولتحقيق هذا نتساءل : أيتكون عندما أريد ، شئ من الفراغ فى هذا الكيان عملاً شئ آخر من الروح غير الإرادة فأفكر بغير ما أريد؟؟ أم تملأ الإرادة فراغ الكيان كله فلا أشعر بغير الإرادة؟؟ فيكون لسلطانها الجبار المسلط على المراد فعل الروح المخزون فى كياني كله؟؟

وإذا كانت الإرادة هى مجموع الروح الجزئى فى ذاتى المتصل بالروح الكلى الذى هو من أمر ربي ، ألا تكون إرادتى الجزئية هذه إذ ذاك جزءاً من إرادة الله التى يتقوم بها سلطانه فى إدارة الكون؟؟ فتكون لإرادتى تلك قابلية الرقى والتقدم إلى حد تستطيع معه أن تفعل ، وهى جزئى ، فعل كليها العام فى خرق الطبيعة أو خرق النظام الاجتماعى على الأقل؟؟

وإذا كانت الإرادة مسببة عن الإحساس ، أتكون انفعالا نفسياً ويصح إطلاق الجبر على ما تأتية إذ ذاك ، فإذا حركنى الجوع كنت مضطراً لأن أريد الأكل وليس فى طوقى كبست هذه الإرادة؟؟ أم أن إرادتى هذه فى حيز اختياري إذ أستطيع الهيمنة عليها مهما بلغنى الجوع؟؟ أم أن الإرادة غير المراد فهى إنما تتصل بإحساس الجوع كرهاً لا اختياراً وإنما الاختيار يتصل بتنفيذ المراد لا بالإرادة نفسها؟؟



ومهما يكن من أمر فإن هنالك إحساساً باطنياً ينشأ عن تفاعل خارجي ، ثم إرادة تنشأ عن ذلك الإحساس ، ثم قوة تنشأ من الأعصاب لتنفيذ تلك الإرادة في خلق المراد أو إخضاعه لها . ومثلاً على ذلك : أن اضطراب السياسة المعبر عنه بالفوضى والذي هو تفاعل خارجي أي خارج الذات ، يوجب إحساساً بالحر والتدمير والخوف والألم والنقمة على الحكم ، وهذا الإحساس يهيب بالإرادة أن تنشأ الطمأنينة ، وإرادة ذلك تستدعي الثورة في النفس لقمع الفوضى . فعلى مقدار شدة الفوضى هذه تكون قوة الإحساس بدفع الإرادة ، وعلى مقدار اندفاع هذه الإرادة تكون قوة الثورة في الأعصاب لقمع الفوضى ، ثم على مقدار التحكم بهذا القمع يكون الظفر بالطمأنينة ، فالتربية التي نحن بصددتها تنال الإحساس والإرادة معاً ليقوم العصب الذي هو مصدر التنفيذ للإرادة في إخضاع المراد .

فتربية الإرادة قائمة على تربية الإحساس الذي يبعثها ، وتربية العصب قائمة على تربية الإرادة في قوته التي ينقل بها الأرادة ، واستجابة المراد لقوة العصب قائمة على توجيه تلك القوة وتسليدها نحو الهدف المنشود للإرادة بأمر الإحساس الثائر من وراء الحافز الذي يثيره من تفاعل الحياة في صميم الكيان الفردي أو الكيان الجماعي . ووراء هذا كله عقل يركز أعمال هذه الجماعة ويوجه أفرادها إلى حيث تحيا مجتمعة متضافرة .

فما هي إذن هذه المجموعة التي يتألف منها كيان الإنسان الباطن ؟؟ هل هي متعددة أم متحدة متلونة ، أي أن ما يتقوم به الروح الجزئي القائم في كيان الإنسان الفرد ، هل هو واحد يتلون فنضع له أسماء باعتبار ألوانه ، أم هو متعدد يتألف منه ذلك الروح كما تتعدد أعضاء الجسم التي يتألف منها كيان الإنسان الظاهر ، فنضع لها أسماء باعتبار تعددها ؟؟

٢- **تقسيم الإرادة** . كيف نقسم الإرادة ؟؟ هل نقسمها باعتبار ذاتها ؟؟ أم باعتبار موردتها ؟؟ أم باعتبار مصدرها ؟؟

أما لذاتها فهي إما قوية وإما ضعيفة ، وقوتها تقوم على ثقل الروح الذي تصدر عنه ، فكلمة عظمت كمية ذلك الروح كان نفوذ الإرادة في المراد وسيطرتها عليه أشد وأقوى ، وكانت استجابة هذا المراد أسرع ، لأن الروح الذي عبرنا عنه آنفاً بلفظ العقل ، إذا تضخم واستند ، كان الإيمان ، الذي هو الصلة بينه وبين المهيمن على الوجود ، أقوى على دفع الإرادة لتحقيق المراد واضطراره للخضوع بين يدي هذه الإرادة .

فالعقل يزن الدفع الإرادي وقابلية المراد للخضوع أمام هذا الدفع ، فاذا اطمأن إلى العدالة في الدفع والقابلية في الاستجابة ، عزز سلطة الروح في الاندفاع لبعث الأرادة ، وتعزز من وراء ذلك إيمان المرید القائم على الحق ، بالفوز في إخضاع المراد واستجابته لحكم العقل آخراً الأمر .

على أنا إذا تساءلنا عن كمية هذا الثقل في الروح الدافع للإرادة ، من أين مصدره ؟؟ عدنا بالأوهام والظنون على النفس المتسائلة بذلك ، هل الروح الجزئي في هذا الجسد الحى ، إنساناً وغير إنسان ، هل هو متفاوت بطبعه ، أم هذا التفاوت عارض عليه ؟؟ ولماذا يكون التفاوت طبيعياً بحيث تلدنى أى أكبر روحاً منك أم تلدك أملك أكبر روحاً منى ؟؟ ثم لماذا ، على الفرض الثانى ، يكون التفاوت كسبياً وكيف يكون هذا الكسب الذى تنشأ أنت معه أقوى منى روحاً أو أنشأ أنا معه أكبر منك روحاً وأقوى عزمة ؟؟

أعتقد أن التفاوت على كلا الفرضين ضرورى ليتسنى للإنسان أن يخلد بنوعه ، فان التفاضل فى كل عنصر من عناصر الأحياء باعث على الكفاح والتنافس والجهاد فى الحياة ، ولو لم يكن التفاضل طبعاً لما كان كسباً فان الطبع هو الذى يتحول إلى تطبع وليس التطبع سوى ظل للطبع لأنه ناشئ عنه وبه ، فما لم يكن موجود فى الأصل لا يتوفر وجوده فى الفرع لأن الكسب فى الحياة إنما يقوم على الموهبة التى يهبها الخالق الأول فى الحى وهذا هو الطبع .

ذلك هو تقسيم الإرادة لذاتها ولمصدرها معاً فان الله إذ خلق ذات الحى

قسم لها الحياة ، فهي ، على ضوء هذه القسمة تسعى وبنورها تتبين ما يضمن لها الوجود في حظيرة الحياة ، فما تكسبه إذن هو بصيص مما تستوهب ، وهذا الكسب فيها هو فرع لأصل ثابت في كيانها الأول .

وأما تقسيم الإرادة باعتبار ما ترد عليه فهي سيئة وحسنة ، لأن مرادها إما أن يكون مباحاً لها فهي إرادة حسنة ، وإما أن يكون محظوراً عليها فهي إرادة سيئة ، وإباحة المراد أو حظره قائم على تنازع البقاء الجائر في الحياة ، فقد يكون مباحاً لإرادتي أن تعصف بالظالم فهي حسنة ، وأما إذا تعمدت العصف بالعادل فهي سيئة . ومن هنا نشأ الثواب والعقاب في تشريع القوانين الإنسانية والنواميس الطبيعية والأديان السماوية .

أقول : نشأ الثواب والعقاب مركزين على تصرف الإرادة بما تريد ، فاما أن تتوجه بالعقل الذي يحظر عليها ما يضر بها أو بغیرها ويبيح لها ما ينفعها فهي إذ ذاك نفحة من الروح القدس ، وإما أن تتمرد على العقل فتأتمر بالنفس الخبيثة الأنانية ، فهي إذ ذاك إحدى هزات الشيطان .

فالثواب والعقاب إنما كانا ليحدا من طغيان الإرادة ويدفعا بها إلى تعصيد الخير في العالم ، ولعلها سبب أول بعد العقل في تربية الإرادة الحسنة ، كما أن طغيان النفس الأمارة بالسوء من وراء الأنانية والكفر بالحق في الوجود ، هو سبب أول في تربية الإرادة الشريرة في العالم ، وعلى تعزيز هذا التشريع تقوم حياة الإنسان بنوعه في هذا الوجود ، وبشخصه في الوجود المنشود من عالم الخلود . والإرادة من حيث المصالح أيضاً : عاقلة ومؤمنة ، فالأولى ما كانت قائمة على تربية العقل وتوجيهه ، فقد كان الإنسان قبل بضعة عقود من الأعوام ، إذا أراد إنارة المصباح عمد إلى كثير من الوسائل لتنفيذ إرادته ، أما اليوم ففي لحظة يضغط بها زر الكهرباء ينير مصابيح تضيء حجرة أو بيتاً أو بلداً ، وهكذا سمعت وأنا في شمال أمريكا : أن شجراً يقصف ويلقى في هوة مصنع فيخرج بعد لحظات وجيزة من هوة أخرى ، صحائف تنشر وتقرأ ، تلك هي الجريدة العالمية الكبرى « نويرك تايمس »

ذلك فضل العلم القائم على العقل في تربية الإرادة وتنميتها ، وتلك هي

الإرادة العاقلة ، وأما الإرادة المؤمنة فهي التي تقوم في تربيتها وتنميتها على الإيمان ، كإرادة الأنبياء والأولياء ممن راضوا أنفسهم بالرياضة الروحية فجاجوا بالمعجزات في تحكيم إرادتهم بنواميس الطبيعة ، وإلهم ناظر قول الله في الحديث القدسي القائل : يا عبدى أظننى تكن مثلى ، أنا أقول للشئ كن فيكون وأنت تقول للشئ كن فيكون »

فالإيمان أقوى من العلم في تربية الإرادة وتحكيمها بالنواميس الطبيعية ، لأن العلم يتندرع بالمادة للسيطرة على المادة ، وأما الإيمان فيتندرع بالروح للهيمنة عليها والتحكم بها ، والروح أقوى من المادة لأنها تيار الحياة الأول المهيمن على الوجود .

والإرادة من حيث المصدر مرة ثالثة ، فردية ونوعية وتفصيل ذلك نرجئه إلى بحث تأثيرها في نهاية الفصل لأسباب تستلزم ذلك سيلىم بها القارئ فيما بعد لإنشاء الله .

**٣- قوة الإرادة** ليس لقوة الإرادة حد تقف عنده ، فعلى مقدار انفعال الروح بما تحس من خارج كيائها ، يكون دفعها للإرادة ، وعلى مقدار هذا الدفع يكون تأثير الإرادة في المراد قوة وضعفا .  
وقوة الإرادة قائمة على ضعف ما تريد ، فعلى مقدار ضعف المراد واستجابته لإرادة المريد تكون قوة هذه الإرادة ، إذن فنشأ القوة في الإرادة قائم على عنصرين هامين تتقوم بهما ، أولهما انفعال روح المريد بروعة المراد وشهوة السيطرة عليه ، وثانيهما ضعف المراد واستخداؤه لتلك الإرادة ، أما إذا ارتفعت الروح المريدة بما تريد ، ثم لم تجد في ذاتها القوة التي تعصف بالمراد ويتأثر هو بها فيستكين بين يدي قوتها ، فقد تتأثر هى به معكوسة ، أى أن المراد إذ ذاك يعصف بها فتصطدم به وتتصدع من وراء ذلك الاصطدام ، كالألة التي لا تقوى على تنفيذ سلطة العامل بها في المعمول ، فترتد حاسرة كليلة .

وبين يدينا على ذلك أمثلة من حواسنا كالعين التي تستخدمها الإرادة في تبين المرئى ، فعلى مقدار استجابة المرئى للعين تكون قوة الإرادة في الابصار ، بحيث ينسجم النور الذى هو آلة البصر في تبين المرئى مع العصب الحساس في

جهاز العين الباصرة ، فاذا اختل هذا الانسجام قوة أو ضعفاً خسئت العين في تنفيذ الإرادة بالسيطرة على المرئى .

فقدوة النور فوق طاقة العين كضعفه في عجز هذه العين عن تنفيذ الإرادة في تبين المرئى ، وهكذا القول في بقية الحواس كالأذن والأنف والفم التي هي آلات يستخدمها المرید في التحسس من المراد سمعاً وشمّاً وذوقاً ، فلتؤدى هذه الآلات وظائفها في تنفيذ الإرادة يجب أن يكون بينها وبين المراد انسجام في الذوق يمكن الفهم من اكتناه المدق ثم يمكن الأذن والأنف من تبين المسموع والمشموم ، فان اختل ذلك الانسجام فقدت الحواس سلطتها في تنفيذ الإرادة بالسيطرة على المراد كما مر في القول على العين آلة البصر .

هذا في الإرادة العادية ، أما في الإرادة الخارقة والتي هي وليدة التربية بالعقل من وراء الإيمان فالقول يكاد يخالف ذلك تماماً إذ نعكس هذا الغرض في الحواس فنقول :

على مقدار تربية الروح إرادتها في إبصار المرئى تكون قوه العين في التأثير على تبينه والإحداق به مهما ضعف النور الكاشف للعين أو اشتد ، ولذا نرى التفاوت في الإبصار ناشئاً ، بعد الثقة بصحة العين ، من قوة الإرادة في استخدامها لتبين المرئى ، وتربية الإرادة هنا أكثر ما تقوم على الإيمان بأنك سترى ، وإلى هذا ناظر قوله صلى الله عليه وسلم : ان المؤمن يرى بنور الله وعلى هذا التحليل قام إيماننا بصدق الكلمة المأثورة عن الخليفة الثانى : يا سارية الجبل الجبل .

ولقد ذكرت في غير مكان من هذا الكتاب مثلاً على ذلك ، حادثة السيد عبده المحمود في أنه كان لا يقرأ بغير منظار ، وأنه قرأ ليلة ما حديثاً به فلما أصبح رأى المنظار إطاراً بغير زجاج ، فكانت رؤيته قائمة على إيمانه بصحة الآلة ، حتى إذا تبين ذلك عاد ليقراً فلم يستطع إلا بالمنظار إذ فقد الإيمان به ، فالإرادة القائمة على تربية العقل والروح من وراء الإيمان ، هي التي تصنع المعجزات وتحرق العادات ، ويكون تأثيرها في المراد معجزاً إلى حد الحيرة في الفكر العادى وهو بمعن في اكتناه ذلك المعجز ، كيف كان ؟ وما هو مصدره ؟ والعلة التي يتقوم بها ؟ ثم ما هو الناموس الطبيعى الذى يقوم عليه ؟؟؟

٤- **تأثير الإرادة** القائلة : هم الرجال تزيل الجبال « ثم يردفها بقوله : كان أبي يجيني كلما ، تعاجزت عن عمل ما ، بالكلمة إعقل واعزم ثم توكل على الله تفلح » وكان يعلمني كيف أريد وكيف أنفذ إرادتي ، فكنت ولا أزال كلما أردت شيئاً أستعرض وصاياهم في ذاكرتي فأفصح . ومثلاً على ذلك : كنت في صباى ، أصوم شهر رمضان ولما أبلغ رشدى ، وكان موسم الصيف يضطرنى أحياناً للنوم في كروم العنب والتين مع أمى دون أبى الذى كان لا يفارق المنزل صيفاً ولا شتاء ، وكان شهر الصوم يغشانا في ذلك الموسم فأخشى أن لا أنتبه للسحور ، والسحور أكبر حافز للصبيحة الاحداث على الصوم ، فأشكو ذلك لأبى فيعلمني كيف أنتبه للسحور قائلاً لي على ما أذكر : توضاً قبل النوم وصل ركعتين ثم اقرأ سورة القدر ثلاثاً وأنت في الفراش ، ثم اضغط فكرك وأنت مغمض العينين وردد هذه الجملة : يجب أن أنتبه في وقت « كذا » ولست حريصاً على تثبيت ذلك في نفس القارئ وإنما أدعوه ليفعل فعلى عند نومه ويصم ، بأقوى ما يفكر ويريد ، ، على أن سينتبه في وقت يشاؤه ، فسيجد صدق هذه العزيمة لإنشاء الله ، وقوة الفكر أو ضغطه الذى أشرت إليه في وصية أبى ، يعنى : تصور الانتباه في الوقت المعين والعينان مغمضتان والحدقتان مصعدتان إلى أعلى محجرتين بشدة ريثما ينتهى الضغط على الفكر ، مكرراً ذلك ثلاث مرات ثم يلتمس الهجوع ابتغاء النوم .

وأكثر من ذلك ، فقد علمني أبى أنى إذا شئت أن أرى النبي صلوات الله وسلامه عليه ، في الحلم ، أن أتوضاً قبل النوم ثم أصلى ركعتين واضطجع فأضغط فكري وأنا مغمض العينين على مثال ما مر ، ذاكرراً رؤية النبي خلال هذا التصور ، فسيكون ذلك سبباً لرؤيته في الحلم ، ولقد فعلت ذلك فرأيت يركب جواداً ويلبس من طرازنا الحديث ، أعنى ثوباً غربياً وعلى رأسه طربوش ، وإنما رأيته كذلك لأنى كنت أرى هذا الزى ، وأنا صبي ، هو المثل الأعلى في لباس الرجل لشدة تأثيرنا ، ونحن أحداث ، بالغرب وفنونه .

ولقد مر بالقارئ في هذا السفر أن أبى هذا قرأ الحديث المرفوع إلى رسول الله في قوله : من مات له ثلاثة أولاد ولم يجزع دخل الجنة ، وكان قد فقد أبى

ولدين فتوضاً وصلى ركعتين ثم سأل الله إن كان هذا الحديث صادقاً فهو يتنازل عن أحب أولاده إليه وهو أصغرهم ، وكان ذلك في ليلة القدر من رمضان ، فأصبح والصبي مريضاً واستمر مرضه حتى فارق الحياة .

ولقد رأيت بعيني شخصاً من أهل قريتي يدعى السيد سلامة وهو رجل عائن ، فكان يقول لجلسائه إذ تمر بهم قافلة من الجمال : أنأكلون لحم الأباعر ؟ ثم يتخير خير القافلة ويصوب إليه بصره العائن فإذا به صريعاً وإذا بالراعى يبادر تحره ، ويكون اللحم ثم الشواء ، وإذا بالأكلة بعد ذلك متكأ كئيب فوقه . وأعرف زعيماً كان عظيم السيطرة على أهله وولده ومن يخضع له ، كان إذا غضب قتل ، من أجل ذلك عظمت هيئته في صدور ذويه فكان إذا خرج عن أمره أحدهم ومثل أمامه ، يصوب إليه نظره ويمعن في الإحداق به ، ثم لم يزد ، فإذا بالمغضوب عليه يتهالك بين يديه مغشى عليه أو صريعاً محموراً لشدة تأثره بالهيبه له والخشية منه ، فعل الفريسة بين يدي الأسد قبل اقتراسها .

وقد رأيت في بعض الكتب الحكيمه تعليقاً على قوله تعالى إذ يصف الجنة : فيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين « يقول في التعليق : ان المؤمن في الجنة إذا اشتهى فأكهه تدلت له غصون الشجر ، فإذا مد يده ليقطف كان له على الغصن ما يشتهى ، وقد يشتهى حورية من الثمر فإذا بالبراعم تنفتق عن حور عين « قد يبدو في هذا للقارئ الخالي الذهن من أوصاف الجنة على ألسنة الغالين في الدين أو المتصوفين بين يدي ربهم ، أقول : قد يبدو له في ذلك أنه إبداع خيال ، ولكنه إذا أمعن في تحليل الخيال وصل إلى إمكان تحجره وتحوله إلى حقائق محسوسة ، كما نبصر في كثير من العلوم والفنون الحديثة ما كان منها قبل بضعة قرون خيالاً ، كالراديو والتلفزيون والرادار والإشعاعات الخفية ونحو ذلك وبين أيدينا اليوم ، ما يسبق عرض الأفلام من القصص الرمزية تمثلها صور كاريكاتورية من مخترعات « والت ديزنى » المعروف ، هذه الصور تظهر بأشكال وألوان مختلفة ، وبحركات ساخرة ماجنة ، يخرج الشخص منها أحياناً على شكل حيوان غريب نسبع عليه أسماء الجن والعفاريت ، فبرى ، مثلاً ، شجرة غريبة الشكل في مكان غريب الشكل تنفتح فروعها عن بضعة

أشخاص من تلك الجماعات ، وأحياناً نرى قطع الحلوى أو الفواكه ، أو الآلات تتفتق عن تلك الأشكال البديعة في ألوانها وأحجامها وحركاتها ، أفلا نرى ذلك عالماً نحسه ؟؟ فلم لا يكون هذا خيالاً سوف يلبسه العلم والفن ثوب الحقائق فيما نستقبل من حياة ، كما مر بنا من قبل أخيلة حالت بفضل العلم إلى حقائق ؟؟

أفما كنا نعد من الخيال قول الشاعر قبل ألف عام :  
أسرب القطا هل من يعير جناسه لعلى إلى من قد هويت أطير ؟؟  
وقول الآخر قبل مائة عام :  
يا برق «وجرة» هل فطنت لما بي فأتيت تخبرني عن الأحباب ؟؟  
أفما كنا نعد ذلك من الخيال ثم أصبح اليوم حقيقة قائمة على علمى البخار والكهرباء ؟؟

وفي لبنان على ألسنة العامة يطلقون لفظ الخيال ويعنون به الظل ، ويكاد يكون هذا المعنى سائداً في « جبل عامل » الذى يكاد يكون أقرب الاقطار العربية في لغة العامة إلى الفصحى ، فكلمة « ظل » لا يكاد يفهمها العامة إذا أضيفت إلى الإنسان ، وإنما يطلقونها مضافة إلى الشجر أو الجبال ، وأما كلمة « خيال » فيطلقونها مضافة إلى الإنسان وقد يطلقونها مضافة إلى غيره ، فيقولون : ظل الشجر وخیال الرجل — يعنون به ظله .

إذن فاطلاق لفظ الخيال على الظل يشعر بأن الخيال يرمز إلى الحقيقة في مفهوم العقل ، أو لعله يحكيها في هذا المفهوم ، يحكيها في الشكل بحيث يعسر على الفكر الحاذق أحياناً تمييز الحقيقة عن الخيال فيما إذا وقف الشخص حيال مرآة ، فان الظل إذ ذاك لا يحكى الحقيقة شكلاً فحسب وإنما يتجاوز ذلك إلى اللون والتشخيص في إبراز أدق الأسرار الحية في الأصل .

فالخيال من وراء هذا كله ، يشعرونا على ألسنة العامة أنه ظل الحقيقة ، وأنه يشير إلى وجودها بوجوده ، وأنه قابل لأن يتحجر فيصبح حقيقة بنفسه ، ولهذا أطلق بعض الفلاسفة على الكون أنه ظل الله ، أما كيف يتحجر هذا الخيال فرد ذلك إلى العلم الذى أصبحنا معه لانملك الحكم في استحالة شئ أو



إمكانه ، لما هو بين سمعنا وبصرنا من حقائق كانت أخيلة ، وأخيلة تشير إلى أنها ستتحقق ، ثم يدور الزمن فيطمس هذه الحقائق حتى تنسى فيتخيلها الفكر الخازن لها من وراء الأزل مرة أخرى فيعيد العلم سيرتها الأولى ، وهكذا نحن نحن دواليك ، بين السالب والموجب من عوامل الحياة ، نتقلب من خيال إلى حقيقة ثم من حقيقة إلى خيال .

وتأثير الإرادة في المراد تارة يكون مادياً صرفاً ، كتأثيرها بواسطة العين على الميعون جاداً أو نباتاً وحيواناً ناطقاً وغير ناطق ، كما مر بالقارئ من تأثير العائن على البعر ، وقد رأينا في التواليد الموروثة ، وضع توائم على أبواب القصور وفي رقاب الحيوانات والأطفال ، يتقى واضعها بها الإرادات العائنة وهي التي تعصف بمرادها عن طريق العين الجبارة ، وكثيراً ما نرى أن هذه العين تغلق الصخور وتفلح المعادن وتصرع الحيوانات .

على أنا قد نتساءل بالإرادة عن طريق العين : هل هي اختيارية أم اضطرارية ؟ المعروف أن للعائن إرادة في التأثير على الميعون ، ولهذا نراه لا يعصف إلا بمن يتأثر هو به من جمال أو جلال يثير في نفسه لدى رؤيته إياه ، غريزة الفتك والاستيلاء ، فالعائن الذي أعرفه والذي مر بالقارئ ذكره ، كنا نسأله فيجب بأنه يتأثر بما يرى فيشعر إذ ذاك بالقوة الهائلة التي تزخر في نفسه فيسلطها على ما تأثر به فيملكه إن كان جاداً ويصرعه إن كان حيواناً كائناتاً ما كان .

فهو إذن يريد مختار لا مضطر ، على أن الإرادة في العائن غيرها في غيره من حيث التربية وعدمها ، فانا نراها فيه وراثية لا تربوية ، من أجل ذلك نعرف العائن بشخصه ثم نعرف أن تربوية الإرادة لا تعرف شخصه ، وإنما اتسم بها في طبعه ، ذلك ما يدلنا على أن قوة الإرادة منها ما هو كسبي بالتربية ، ومنها ما هو طبيعي بالوراثة .

وبرهان كون الإرادة تربوية لا طبعاً ، ان الشرع الخفيف بحث على تنميتها في سبل الصلاح ، ففي قوله صلى الله عليه وسلم : فقال حق والطيرة ليست بحق ، يشير بذلك إلى تربية نفوسنا على إرادة الخير وأن نحول دون تربيتها على

إرادة الشر ، فلو لم يكن للإرادة قابلية كليهما بالتربية لما حث النبي على التفاؤل ونهى عن التشاؤم .

فتأثير الإرادة على المراد المادى ثابت فيما أوردناه آنفاً من إرادة العائن ، وإرادة أى فى دعائه ليلة القدر وتأثيره على أخى الطفل بالمرض حتى الموت ، ومن الحديث الشريف : اتقوا دعوة المظلوم « يشير إلى أن دعاء المظلوم الذى هو إرادة من الله ، مجاب فى التأثير على الظالم ، وفى الاخبار : أن أحد شهود مجلس الإمام على وهو يخطب أنكر عليه حديثه فزجره الإمام فأصر على إنكاره فجهر الإمام بالدعاء عليه إن كان كاذباً فلم يرح المجلس إلا وهو أعمى »

وأما تأثير الارادة على المراد المعنوى فثابت أيضاً فى محاولة رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم وقد مر القول على ذلك فى تحقيق الإرادة إذ تتحكم بالسيطرة على العقل الواعى فى النوم فيوقظ النائم فى الوقت الذى أراده قبيل النوم بالصلاة وضغط الفكر والتصميم على الانتباه ، وقد حصل ذلك معى بالتجربة مراراً لا مرة واحدة ، فالعقل الواعى هنا ظاهر فى تأثيره بالإرادة ، أما ما هو هذا العقل الذى يتأثر بها بينما نجد الإرادة موجهة بالعقل كما مر ، فان العقل الموجه غير العقل الواعى ، ولعلنا نبهت على مكان آخر من هذا الكتاب لأن بحثه هنا خارج عن موضوع الإرادة .

البحث عن أثر الإرادة يستلزم استعراض الأثر المطلق  
٥ - أثر الإرادة وذلك بأن نتساءل : هل يمكن للمخلوق أن يصدر أثراً بالذات وبدون واسطة ؟؟ وهل يستطيع إيجاد هذا الأثر من لا شئ ؟؟ أم تلك صفة قاصرة على المالمق ممتاز بها عن مخلوقاته ؟؟

فاذا أردت الكتابة مثلاً ، هل تحدث هذه الكتابة لمجرد الإرادة خلقاً وإنشاء ، أم لابد من وسيلة أو وسائل تتقدم حلولها وتملأ فراغ ما بين الإرادة والمراد ، كاحضار الطرس والقلم واستخدام اليد والعين والفكر والكرسى والمكتب أحياناً ؟؟ وإذا أردت الأكل هل يحدث لمجرد إرادتى إياه أم يستلزم الطاهى والمائدة والآنية ثم اليد والفم وغير ذلك من وسائل الأكل وتبليغه الإرادة ؟؟ أعتقد أن هذه الإرادة قابلة للترقى إلى الحد الذى يستجيب المراد للإرادة

معه مباشرة وبدون واسطة ، وبرهان ذلك ترقى الإرادة منذ كان الإنسان حتى يومه الراهن ، فانا نرى أن الفراغ بين الإرادة والمراد كان شاسعاً في عصور الإنسان الأولى إذ كان يجوع فيريد الأكل فيضطر للقنص بالحجر في سبيل طعامه ، وأصبح اليوم ، إذ يجوع فيريد الطعام لا يحتاج إلى أكثر من دقائق يدخل فيها المطعم فيجد الطعام رهن إشارته .

وهكذا نعود إلى الصحف كيف كانت تنشأ قبل قرن من الزمن وكيف أصبحت اليوم ، فقد كان الفراغ بين إرادة الصحفي وبين إخراج الصحيفة المراد يمتد شهراً ، ثم ترقى إلى أن أصبح يمتد أسبوعاً ، وهكذا أصبح قبل خمسين عاماً يمتد يوماً ثم نجد هذا الفراغ الآن بين إرادة الصحفي وبين إخراج صحيفته الجبارة لا يفتقر إلى أكثر من دقائق ، وفي مفهوم العلم أن ما تفاوت في تقدمه كان قابلاً لرقبه حتى ينتهي إلى حد لا يدركه العلم قبل انتهائه إليه .

فاذا تهذبت وسائل الكتابة أو الطعام فقربت الزمن بين الإرادة والمراد من أيام إلى دقائق ، فلماذا لا تستمر في تهذيبها إلى أن تصبح هذه الدقائق ثواني ثم لحظات حتى تنعدم الوسيلة ويصبح في مقدور الإنسان الذي هو مخلوق أن يريد شيئاً فيكون دونما فراغ بين إرادة ذلك الشيء وكونه كما أن في مقدور خالقه ، إذا أراد شيئاً ، أن يقول له كن فيكون ، تصديقاً لقوله عز من قائل في الحديث القدسي : يا عبدى أطعني تكن مثلي أنا أقول للشيء كن فيكون وأنت تقول للشيء كن فيكون » والحديث القدسي الآخر الذي يقول : ما زال يتقرب عبدى إلى بالنوافل حتى كنت عينه التي بها يبصر وأذنه التي بها يسمع ويده التي بها يبطش ... وهل في ترقية الإرادة وتهذيبها بعد ذلك مذهب ؟؟

فقد لا تنعدم الوسيلة ولكنها تضعف وتتضاءل باختزال العلم وتهذيبه لها حتى تصبح من دقائقها كأن لم تكن وكأن لم يكن بين الإرادة والمراد معها فراغ ، فيتحقق بوجودها الدقيق الذي يعي إدراكه الخواص كما تعي الذرة إدراك العين بالمجهر ، أقول : يتحقق إذ ذاك الفرق بين الخالق ومخلوقه في الإرادة ، وهل المخلوق إلا نفحة قدسية تنجلي بها روح الله على الأرض لتدل على وجوده وعظمته كونه ؟؟؟

أما متى تصبح إرادة المخلوق نافذة نفوذ لإرادة الخالق ، دونما واسطة قريبة أو بعيدة ، فذلك موكول إلى العلم ومبلغ ما يصل إليه من سمو وتهذيب ، وحسبنا أن نقول : إن الإنسان أصبح في آخر مراحلها التي يشرف بها العقل من أفق العلم على صلة الإرادة بالمراد مادة ومعنى ، وعلى تهذيبها وتربيتها بحيث أصبح الإنسان مهيمناً على ملكوت هذا الكوكب الأرضي بما فيه من حيوان ونبات وسجاد ، ولعل المستقبل القريب يكشف لنا ، بفضل العقل الجبار عن معجزات علومه وفنونه بما يثبت لنا صحة هذه النظرية التي نشير إليها من وراء الخيال .

ولنعد إلى أثر الإرادة الإنشائي الذي نختص به الخالق وهو إيجاد الشيء من لا شيء ، فهل يمكن لنا أن نتنبأ بأن الإنسان قد يجتاز أدواره في الحياة إلى دور يريد شيئاً فيه فينشأ من لا شيء ؟؟

من العسير على الإنسان ، وهو جزئي من كون كلي ، أن يفكر في إيجاد شيء من لا شيء ، إذ ليس في محيطه الفكري « لا شيء » وإنما كل ما يحاذي به وهمين عليه ثم يتقوم هو به ، أشياء متداخلة ، ولقد قرأنا لمن هو أسمى إدراكاً منا آراء تثبت أن لا فراغ في الوجود ، وأن الأثير الذي يتقوم بنا ونتقوم به عوالم متداخلة لا فراغ فيها بين جزئي وجزئي ولا بين كلي وكلي ، فأين للفكر أن يتصور شيئاً من لا شيء فيزيده ليكون ؟؟ وهل للفكر المحدود بمحيط مطلق أن يدرك ما ليس بكائن لريده فيكون ؟؟ وإذا صح لنا أن نقول بإمكان تهذيب الإرادة من وراء العلم أو الإيمان وتسليطها على المراد الكائن لا المعلوم ، أقول : إذا كان بإمكاننا هذا التهذيب حتى تتصل الإرادة بالمراد مباشرة فنشارك بذلك خالقنا ، فمن الصعب ، ولعله يستحيل ، تصورها إمكان مشاركة الخالق في إرادة الشيء من العدم .

بقي علينا قبل الختام أن نبحث ما أشرنا إليه آنفاً من أن الإرادة فردية وجماعية ، وأن تهذيبها وتنميتها قائمان على النوع لا الفرد ، فارادة اثنين أقوى تأثيراً من إرادة واحد وإرادة ثلاثة أقوى من إرادة اثنين وهكذا دواليك حتى نصل إلى إرادة الأمة أو العالم وهي الإرادة التي يستجيب لها القضاء المبرم من

## - ٤٩٩ -

لدى بارئ الكون ، وإلى هذه الإرادة يشير العبقري الملهم من شعرائنا بقوله :

إذا الشعب يوماً أراد الحياة  
فلا بد أن يستجيب القدر

والإرادة الجماعية تنشأ إما عن تكاتف أو توارث ، فالأول هو ما نراه من تضامن الأفراد وتعاونهم في إرادة شيء ، كتضامن الشعب في طلب استقلاله ، وحرريته ، فعلى مقدار هذا التضامن تكون قوة الإرادة فيه ، وعلى مقدار هذه القوة يكون التنفيذ سرعة وإنجازاً ، وهكذا قل في تضامن العلماء والحكماء والأدباء وكل جماعة تختص بمهنة ما ، إذا تضافروا على تنفيذ إرادة يكون هذا التنفيذ أبلغ أثراً في المراد وأسرع زمناً في إنجازه .

وأما الإرادة الوراثية فهي ما كانت وليدة أجيال تعاقبت على تهذيبها وتربيتها حتى أصبحت من القوة بحيث يستجيب لها القدر في تنفيذها ، ويبدأ هذه الإرادة فكر في دماغ فرد يعمل على إنجازها في جيله ويحرز بعض النجاح ثم يتولى تعزيز هذا العمل فرد آخر أو أفراد في أجيال تلي ذلك الجيل حتى يتم تنفيذها كما نرى في مكتشفات العلوم والفنون التي تبدأ في عصر ثم تعززها عصور تتوالى على تحقيق تلك المكتشفات بإرادة حية خالدة فاذا بالقرن العشرين مثلاً ينفذ في الكهرباء إرادة كاشف لها في القرن السادس هو على بن أبي طالب حيث يقول : لو شئت لأخرجت لكم من الماء ناراً تنير الظلمات » فتجد أشار إلى الكهرباء واستمرت بعده العقول تعمل على توجيه تلك الإشارة وتحقيقها حتى عصرنا الحاضر إذا بها تنير علينا الظلم وتوفر بها على كثير من شوارد الحياة وغوامضها .

ولنبداً الآن نخاتمة البحث فلتفت مرة ثانية إلى الإرادة المادية التي هي وليدة العقل والإرادة الروحية التي هي وليدة الإيمان ، فالأولى هي التي يختلف المخلوق بها عن خالقه إذ لا يستجيب لها المراد إلا بواسطة ما ، سواء كانت هذه الوسطة بعيدة أو قريبة ، وأما الثانية أي الإرادة الروحية فهي التي يشارك المخلوق بها الخالق دونما واسطة لأنها عين إرادته وهو المريد لها في نفس مخلوقه لما مر من قوله : يا عبدى أطعني تكن مثلي ، وقوله : ما زال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى كنت عيونه وأذنه ويده ... »

ولسنا بصدد التبسط في بحث الإرادة المادية ، وإنما سقمناها في عرض البحث

عن الإرادة لنستعين بها على عرض الإرادة الروحية بين يدى العلم وهو يبحثها ويعملها ويوجه الفكر الحديث إلى اعتناق المذهب الروحي في إثبات هذه الإرادة وأنها أقوى في التأثير على المراد من الإرادة المادية القائمة في تأثيرها بالمراد على العقل لا الإيمان .

أقول : ليست الإرادة المادية هدفاً لبحثنا هذا وإنما هي إحدى وسائل البحث في الإرادة الروحية وأثرها في الوجود ، من أجل ذلك نحرر الهدف من بحثنا هذا في محيط الروح القائم على الإيمان ، والإيمان كان ولا يزال عنصراً أول في تقويم الرياضة الروحية التي يقوم عليها بناء الدين ، وبفضلها يعتصم الأنبياء والأولياء والمتصوفون في الوصول إلى الحق والفناء فيه والإتيان بما يعجز من خرق نواميس المادة في الحياة .

فإرادة الحى المادية أوجدت هذا الكون المحدث بنا ، فإن ما تراه العين وتعيه الأذن من ولائد العلوم والفنون ، هو أثر الإرادة المادية في عالمنا البشرى ، وليس هذا موضوع بحثنا ولكنه عرض في الطريق إلى الهدف الذى هو عالم الروح القائم على إرادة الحى من وراء الإيمان ، فنحن الآن في خلاصة البحث حول الإرادة التي يدفعها الإيمان لتكوين حياة خليفة بالإنسان في عالم الخلود .

تقدم في البحث : أن الإرادة المادية المسيرة بالعلم والعقل والجوارح قاصرة عن الإنشاء وهو إيجاد الشئ من لا شئ ، لأن العلم وليد العقل والعقل وليد تواطؤ المجتمع ، وهذا كله محدود بكون لا حد له ، من أجل ذلك يستحيل على الإرادة المدفوعة بالعقل والعلم أن تدرك اللاشئ لأنها في حيز الشئ الذى هو وجود بينما اللاشئ عدم مطلق وهو محيط بالوجود المقيّد ثم لا يحيط بالعدم المطلق إلا الوجود المطلق القائم في ذات الله الذى هو قبل كل شئ وبعد كل شئ ، والعدم الذى هو لا شئ في محيطنا الفكرى ، هو أحد الأشياء في محيط الله الأعظم .

أقول : تقدم البحث في الإرادة المادية وأنها عاجزة عن إنشاء كون تتمثل فيه ولكنها تؤثر فيما هو كائن ، فريد الإنسان بعقله أن يسكن مثلاً فيعمل إلى الوسائل التي بفضلها ينفذ إرادته ، فإذا هو بعد حين ، قصر أو طال ، في بيت ، ويريد أن يأكل فإذا هو بعد حين ، قصر أو طال ، أمام خوان يطعم منه ،

ثم هو يريد أن يشرب فاذا هو بعد حين ، طال أو قصر ، يحمل كأساً أو يرد على حوض ، فلا أثر الإرادة هنا موضوع هو المادة التي يبنى منها البيت ويبسط المائدة ويتناول الماء .

أما أثر الإرادة التي يدفعها الإيمان فهي ، إلى ذلك كله ، تنشئ المراد إنشاء ، كما يقول ابن عباس في حديث يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم في وصف الجنة : فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ، وكقوله تعالى في وصف الحور العين : انا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكارا ، فارادة الله هنا خلقت حور الجنة خلقاً وأبدعتهن إبداعاً لا أنها تدرعت إلى إيجادهن بوسائل كل نفع في تنفيذ ما نريد .

فكيف نخلق إذن بارادتنا الروحية المؤمنة كوناً ووجوداً تمسنا الحاجة إلى الحياة فيه ؟؟ وبماذا يكون هذا الإنشاء ؟؟ ثم لماذا نضطر إليه ونؤمن به ونعكف عليه ؟؟؟

أما كيف نخلق كوناً ووجوداً بالإيمان فهو سبيل الدين الذي يخلق هذا الكون بالرياضة الروحية ، فعل الأنبياء والأولياء ، لذلك نراهم في كون غير كوننا يدفعوننا إليه دفعاً ، وهو عالم الآخرة الذي يعملون له ويحملوننا على هذا العمل ، ونرى عبثاً ما يحاوله علماء المادة اليوم لاكتشاف التيار الروحي المهيمن على الأثر الذي أمدهم بتيار الكهرباء ، وقد مر بتارئ هذا السفر قول الدكتور أحمد زكي المصري وهو يترجم لأستاذه في جامعة برلين إذ يقول : يا أبنائي إذا سمعتم أن الأنبياء والرسل كانوا يمشون على الماء ويصعدون في الهواء فصصدقوا ، لأننا بفضل الرياضة الكهربائية وصلنا إلى هذه المعجزات فكيف بنا لو أوتينا حظهم من الرياضة الروحية ؟؟ وإلى أين يصل بنا تيار الروح ؟؟؟

أقول : من العبث أن نحاول هؤلاء اكتشاف عالم الروح بالعلم المادي ، لأن الضعيف لا يهيمن على القوى ، واللطيف لا يتأثر بالكثيف ، فالعوالم الكونية المخوفة تخضع جميعها لعالم الروح بينما لا تخضع هذا العالم إلا للعالم الحق المهيمن على الكون وهو عالم اللاهوت الأعلى ، فالعلماء إنما يكتشفون أسرار الطبيعة بعلمهم المادي ، وأما الأنبياء والرسل وكهنة الروح فيكتشفون أسرار الطبيعة بأرادتهم

الروحية ثم يبدعون فوق ذلك كوناً جديداً تمسهم الحاجة إليه في عالم الروح الخالد فوق هذا العالم الذى نحن فيه نيام نلتمس اليقظة منه في ذلك العالم وهو المرجو من وراء الإيمان .

فالعالم متطورة كالأجيال ، فكما أن كل جيل هو مخلوق للجيل الذى قبله ، كذلك نجد أن كل عالم مخلوق للعالم الذى سبقه ، وعلى مقدار إيمان الجيل البشرى في تهذيب نفسه ، يكون رقى الجيل الذى خلقه في الحياة ، كما أنه على مقدار إيمان العالم الكونى في تهذيب نفسه ، يكون رقى العالم الذى خلفه في الكون ، وكما أن كل جيل يتمثل بتهذيبه في الجيل الذى يليه حتى كأنه هو ، كذلك نجد أن كل عالم يتمثل بتهذيبه في العالم الذى يليه حتى كأنه هو ، فهل يكون عالمنا في أخراه ، أى بعد الموت ، مثالا لعالمنا اليوم ، أم يكون صورة عنه طبق الأصل ؟؟ هذا ما سنحققه في خاتمة هذا البحث إنشاء الله .

لا شك في أن عالم الأحلام نسخة مصغرة أو مكبرة عن عالم اليقظة ، أما مصغرة فلأنها خيال لعالم اليقظة ، والخيال معلول للحقيقة فهو إذن نسخة مصغرة عنه لأنه منبثق عنها وكل منبثق عن الشئ يعتبر جزءاً منه ، وأما أن عالم الأحلام نسخة مكبرة عن عالم اليقظة فلأنه أوسع أفقاً منه إذ ليس في عالم الحلم مادة تنقيدها الروح ، لذلك نجد المرء نفسه في حلمه طائراً دونما وسيلة لطيرانه ، وقد نجد نفسه شايأ وهو في يقظته شيخ ، كما نجد نفسه قوياً وهو ضعيف وغنياً وهو فقير ، وهكذا نجد الروح تتصرف كما تشاء في عالم الأحلام ولا مشيئة لها إلا من وراء القدر في عالم اليقظة .

وعالم الحلم لا يخرج عن كونه خيالا لليقظة كانت أو ستكون ، فهو كعالم الخيال الذى نمارسه بالفكر فراه ظلاً للحقيقة كانت في عالم سبقنا أو ستكون في عالم سبقناه ، وكما يصدق على كثير من عوالم الحقيقة أنه خيال متحجر ، كذلك يصدق على كثير من عوالم اليقظة أنه حلم متحجر ، أفلا نرى بالحس كثيراً من الأحلام تتحقق فيما بعد ، كما نرى بالفعل أن كثيراً من الخيالات يتحقق ؟؟ إذن في مقثور هذا الإنسان العبقري على هذه الأرض أن يخلق بإرادته ، وهو مادى ، عالماً من الخيال ، كما أن في مقدوره أن يخلق بهذه الإرادة ،



وهو روحى ، عالماً من المادة ، إذ نرى كما تحقق لدينا فى سياق هذا البحث ، أنه بارادته وهو فى اليقظة خلق كوناً ندعوه حلماً ، وأنه بارادته ، وهو فى الحلم خلق كوناً دعونه باليقظة ، وهكذا أراد ، وهو حقيقة تنخيل ، فتحجر خياله حتى أصبح حقيقة ، ثم تبخرت هذه الحقيقة بفعل التطور حتى عادت خيالا ، وهكذا الحياة دواليك فى الحى بين خيال وحقيقة ثم بين حقيقة وخيال .

من هنا نصل إلى إمكان خلق الإنسان بارادته ما لم يكن إذا عني وأمعن فى تربية هذه الإرادة عن طريق الدين والدين فقط ، لأن الدين الذى هو أقوى عامل فى نفس الإنسان للهيمنة على الروح ، هو وحده القادر على تربية إرادة المؤمن فى نفسه إلى حد إمكان الخلق بها ما يكون مما لم يكن ، فبارادتي وأنا إنسان مطلق ، آمنت بالدين أم لم أومن ، أستطيع أن أحقق ما أريد عن طريق غير مباشر كما مر من أنك إذا أردت أن تكتب استجابة لك الكتابة عن طريق اللوح والقلم ، وإذا أردت أن تقرأ استجابة لك القراءة عن طريق العين والكتاب .

أما إذا أردت شيئاً ، وأنا إنسان متلين ، فان المراد يستجيب لي مباشرة بدون واسطة ، إلا ما كان من تربية الإرادة بقوة الإيمان ، فان إرادتي الجنة بما فيها من متع الحياة الأخرى ، وتربية هذه الإرادة فى نفسى بقوة الإيمان ، وصدق اليقين ، والعمل للحق ، ثم استحالتي فى ذلك روحياً ، ان هذه الإرادة خالقة ، بلا ريب ، وفى الوقت الذى أحدهه لخلقها ، أقول : ان هذه الإرادة هى التى تخلق لي ما أومن به أنه كائن فى آخرتي من نعم خالد كما أشتهى وأحب ، فالجنة إذن هى من خلق المؤمن بتربية إرادتها فى نفسه عن طريق الدين ، فكل فكرة دينية فى قلب المؤمن هى لبنة يتقوم بها مأواه فى الجنة ، وكل رغبة صادقة تراوده فى الخضوع للحق هى عضو تتقوم به الحوراء التى يحلم بها فى الجنة ، وكل دمة يريقها بن يدي ربه فى حياته الأولى ، هى خلية يتقوم بها كل غذاء يشتهي فى الجنة ، إذن فالجنة التى أريدها فى آخراي تتقوم بارادتي وأنا مؤمن فى دنياي ، وهكذا نصل فى ختام هذا البحث إلى أن المؤمن يستطيع بآمانه أن يكون مصداق الحديث القدسي : يا عبدى أطعني تكن مثلي : أنا أقول للشئ كن فيكون وأنت تقول للشئ : كن فيكون ... صدق الله ورسوله ...



# الله

صفحة	
١١	الله .. لا إله إلا هو الحى القيوم ، إن الله لا يغفر أن يشرك به ... شهد الله أنه لا إله إلا هو ..
٢٥	خلق الإنسان علمه البيان ، علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ، فالله يعلم وأنتم لا تعلمون ، إنما نخشى الله من عباده العلماء ...
٣٩	يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما
٥٢	ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات ...
٦٣	قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به ...
٧٤	الله نور السموات والأرض ...
٨٦	ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ...
٩٩	ألم تركيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات العباد ، وفرعون ذى الأوتاد ... إن ربك لبالمرصاد .
١٠٩	ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً ..
١٢١	فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون
١٣٧	سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ...
١٥٠	ومن الناس من يشتري لهو الحديث ...
١٧١	ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟؟ ..
١٨٤	وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس ، قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ..؟؟
١٩٩	إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله ...
٢١٦	أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ...

صفحة	
٢٢٩	أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ... ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء ..
٢٤١	قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى
٢٥٥	ربنا إننا أطعنا سادتنا وكرأءنا فأضلونا السبيل ...
٢٧١	إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس ...
٢٨٨	ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا ...
٣٠٣	قل هو الله أحد ، الله الصمد ....
٣١١	نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون
٣٢٢	وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب ...
٣٣٥	من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ..
٣٥٠	.. وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ...
٣٦٥	اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً ...
٣٨٠	إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون

# محمّد

صفحة	
١٧	لا يشكر الله من لم يشكر الناس
٣١	إذا سمعتم الحديث عنى تعرفه قلوبكم وتلين له اشعاركم وابشاركم ...
٤٢	لا تعاموا العلم لتباهوا به العلماء ولا لثماروا به السفهاء ...
٥٤	بدئ الدين غريباً وسعود غريباً كما بدئ
٦٦	إذا وضع العبد فى قبره وانصرف أصحابه حتى ليسمع خفق نعالهم ...
٧٩	أخرج متاعك إلى الطريق ...
٩١	شر الطعام الوليمة ، يدعى إليها الأغنياء ويترك المساكين
١٠٢	ليس منا من غش ، المسلم من سلم الناس من يده وتسانه
١١٢	اثنان لا يجتمعان : الغنى والزنا ، بشر الزانى بالفقر ولو بعد حين ...
١٢٦	لو تعلققت همّة أحدكم بالثريا لناها
١٤١	إذا كذب العبد تباعد الملك عنه ميلاً من ثن ما يخرج من فيه
١٦١	لا ينظر أحدكم إلى من هو فوقه فى الخلق أو الخلق أو المسال ...
١٧٥	تربت ممينك فم يشبهها ولدها ؟؟
١٨٨	ويح عمار تقتله الفئة الباغية ، الحق مع عمار ما لم تغلب عليه دلّة الكبر
٢٠٢	إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد
٢٢١	اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ...
٢٣٣	لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ...
٢٤٥	على المسلم أن يكون بصيراً بزمانه .
	لا ينبغي لمسلم أن يذل نفسه
٢٦٠	إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره سلب ذوى العقول ...
٢٧١	إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتى أهل بيتى ...
٢٧٦	مثل المسلمين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد ...

صفحة	
٢٩٤	ان هذه الأرواح تمل كما تمل الأبدان ..
٣٠٦	ليس من أمتى أهل البدع .
	كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار
٣١٥	جنبوا مساجدكم الصبية والمجانين
٣٢٥	إذا أحرزت التقوى قوتها اطمأنت
٣٣٩	الدعاء من العبادة بمنزلة الرأس من الجسد
٣٥٥	اتقوا دعوة المظلوم فليس بينه وبين الله حجاب
٣٧٢	المرء من أحب ،
	من أحب قوماً حشر في زمرةهم

# عَلَى

صفحة	
٢١	سلوني قبل أن تفقدوني
٣٣	أول الدين معرفة الله ، وكمال معرفته التصديق به وكمال التصديق به توحيده ...
٤٦	لقلما أدبر شئ فأقبل
٦٠	إن وراءكم الساعة تحلوكم فتخففوا تلحقوا
٧١	اندمجت على مكنون علم لو تحت به لاضطربتم ...
٨٣	يا أيها الأغنياء أكثروا من الحسنات ...
٩٣	إنما أهلك من كان قبلكم أنهم منعوا الناس الحق ...
١٩٦	لا تحدث الناس بكل ما سمعت به فكفى بذلك كذباً ...
١١٦	ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ ...
١٣٢	من وثق بالماء لم يظماً
١٤٥	والله إن امرءاً يمكن علوه من نفسه ...
١٦٥	أشجع مني من شرب بآناء مغطى
١٧٩	إن أعظم الخيانة خيانة الأمة ...
١٩٢	أيها الناس لا تستوحشوا في طريق الهدى ...
٢٠٩	والله ما أحثكم على طاعة إلا وأسبقكم إليها ...
٢٢٥	لو ضربت في مذاهب فكرك ليبلغ غاياته ...
٢٣٧	لبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمناً ...
٢٥٠	كفى بالأجل حارساً .
٢٦٦	ستعرفوني بعد خلو مكاني ...
٢٨٢	إن في القرآن علم ما يأتي ، والحديث عن ...

صفحة	
٢٩٩	... وأرسي أرضاً يحملها الأخضر المتعرج ...
٣٠٨	إن في السماء مدناً تملكنكم هذه ...
٣١٨	العالم من عمل بما علم ووافق علمه عمله ...
٣٢٩	لا تكن عند النعماء بطراً ، ولا عند البأساء فشلاً
٣٤٤	ألا وإن الشجرة البرية أصلب عوداً ...
٣٦٠	إنكم لن تعرفوا الرشده حتى تعرفوا الذي تركه ...
٣٧١	ليس بلد أحق بك من بلد ، خير البلاد ما حملك







## صدر للمؤلف

- |                       |                                  |
|-----------------------|----------------------------------|
| ١ — ديوان الحوماني    | ٢ — ديوان « نقد السائس والمسوس » |
| ٣ — ديوان « القنابل » | ٤ — المآسى « قصص »               |
| ٥ — ديوان « حواء »    | ٦ — سلوى « قصص »                 |
| ٧ — في باريس « قصص »  | ٨ — وحى الرافدين ج ١ و ٢         |
| ٩ — بين النهرين       | ١٠ — بلاسم                       |
| ١١ — مع الناس         | ١٢ — من يسمع؟؟                   |
| ١٣ — ديوان « النخيل » | ١٤ — ديوان « انت انت »           |
| ١٥ — الأصفياء         | ١٦ — ديوان « فلان »              |
| ١٧ — دين وتمدين       |                                  |

مطبعة كوستانتينواس وشركاه  
• شارع رفاعا الزبيل - انطاكية - سورية ٤٤١١٨